وداعاً للأرض

رواية



جمال شاكر علي هارون



وداعاً للأرض

هارون ، جمال شاكر على

رواية وداعًا للأرض / جـمـال شـاكـر على

هارون. ــ القـاهـرة : الهيـئـة المصـرية العـامـة

للكتاب، ٢٠٠٨.

٣٦٨ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٥ ٣٨٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية

(أ) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٠٧٧ / ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 389 - 5

ديوى ٨١٢

رواية



جمال شاكر علي هارون



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

الإشراف الفنى
صبرى عبدالواحد

الإهداء

إلى

الثقب

الأسود

•

•

الكوني

الفصـل الأول

« دمار الإمبراطور »

– أشعة فوق بنفسجية وفيرة تسلخ الجلد، ولكنها تقضى على أى ميكروب غير مهذب يُمن له أن يتكاثر فى ذلك القطب الجنوبى العجيب، ولسوف نتمتع بشمس لا تغرب طيلة شهر أكتوبر الحالى وشهر نوفمبر وكل مارس... هيا أسرعى يا كلاب الهسكى وأرينا كيف تطوى الجليد وسوطى يقعقع فوق رءوسك تماما كما تقعقع أنفاسى فى الهواء وقد تشكلت منها ألوان قوس قزح الرائعة.. إنه عامنا الأخير أيتها الكلاب المغامرة فوق تلك الكرة الأرضية المحيرة... هكذا يقول الإمبراطور.. هـأنذا أرى بشائر خطاف البحر "ترن" آتية تحج إلينا من القطب الشمالى...

ومن الفور انطلقت عربة الجليد المنزلقة المقلة للرجل ومن خلفه رقدت فقمة ممددة قد طعنت بحربة الإسكيمو وقد جرها أحد عشر كلبا يتقدمها دليل شجاع قوى خبير، وقد ربطت الكلاب من خلفه مثنى مثنى فى صف طويل وقد سرجت جميعها بسروج ثقيلة من جلد الفقمة، ومازال السوط الطويل فى يد الرجل المتدثر بالفراء يقعقع ويفرقع لها فى الهواء: حتى دنت من بوابة خشبية خضراء مدعمة بقضبان من الحديد لبيت غريب له سور حجرى ارتفاعه متر يحيط بفناء ذلك البيت الذى كان يمثل شيئا غير طبيعى فى ذلك الصقع المتجمد النائى فى شبه جزيرة بالمر الواقعة فى قارة إنتاركاتيكا بالقطب الجنوبى...

ما كادت العربة تقف وتستلقى الكلاب لاعقة فراءها بعد أن نشب احتدام طارئ سريع غير ملفت بين الدليل وبين كلب مجاور - ولعل ذلك كان موالاة منه لإثبات قيادته - ما كادت تقف العربة: حتى هبط العالم الأمريكى "بيرسون" وسوطه فى يده المدثرة تماما بقفاز من الفراء، وقال وهو يتقدم بخطا متثاقلة نحو البوابة بعد أن تطلع إلى العلم الأمريكى الذى يخفق فوق المبنى الصغير القابع فوق الثلوج فى أقصى فناء البيت الرحيب، وبعد أن رنا إلى فوهات المدافع الأتوماتيكية المطلة من مزاغلها المحفورة فى أديم السور من جميع الجهات:

– رحلة غير موفقة تمامًا ... لم نقتنص غير «فقمة» واحدة بذلك الحريون اللعين...

وما كاد الرجل يتم عبارته حتى أقبلت نحوه جماعة من طيور البطريق العملاقة متهادية فى مشيتها، وما إن دنت منه حتى أحاطته وراحت تنظر وتحدق إليه فى فضول كما لو كان بطريقا من نوع آخر: فلم يسع الرجل إلا أن يربت على ظهورها وأجنحتها السوداء، ولم يسعها هى الأخرى إلا أن تنحنى بهاماتها فى إجلال وتعظيم؛ كما لو كانت مجموعة من البطاركة دمثى الأخلاق قد فضلوا تلك الأصقاع النائية للترهبن والتعبد، ولقد بدا ذلك التجمهر أشبه ما يكون بتجمهر بعض الصحفيين للفوز بحديث شيق... ولقد ظهر فى تلك الآونة من بعيد بطريق كبير قافزًا قفزات متتابعة، وهو منتصب الجسد شأن جميع البطاريق حتى ليخيل إليك أنها لو فعلت وتمايلت وهى تقفز لكان ذلك انتقاصا لأبهتها وعظمتها التى لا يبدو أنها على استعداد للتنازل عنها، كيف لا وهى الكائن الأوحد الذى يملك ذلك الجمد من أقصاه إلى أقصاه...

ولكن ما كاد ذلك البطريق القافز من بعيد يقوم بعدة قفزات أخرى حتى دُوى طلق نارى مارق إليه من خلف السور الحجرى، ولم يلبث أن ترنح البطريق الذى كان على مرمى حجر من الأمريكى العجوز: ليتمدد فوق الجليد وقد انبجست من صدره الدماء الحمراء لتسربل الثلوج الرمادية من حوله الأمر الذى حدا بالبطاريق المتجمعة حول الرجل إلى الإسراع نحوه ناعقة فى جزع، ولم تلبث أن تجمعت حوله فى حلقة كحلقات ذكر الدراويش ما بين منحن وقائم...

وجم العالم قليلا، وجمد فى مكانه وقد تدلى سوطه من يده ليلمس الجليد عند قدميه، وما هى إلا هنيهة حتى برز من خلف السور خارج البيت، ومن بين ركام الثلوج إنسان عار تمامًا يقبض على قناصة ذات منظار مكبر، بيد أنه ورغم عراء الرجل لم يكن هناك ثمة ما يخجل من عدم ستره.. .

أسرع الرجل العارى وفى يده قناصته، وما إن دنا من العالم حتى خر راكعًا عند قدميه قائلاً فى صوت متهدج:

- سلمت من أعدائك يا إلهى ....

ولم يكد ينطقها حتى كان السوط يُقعقع فوق جسده الأبيض العارى، وعلى الأثر انبجست قطرات من الدماء الزرقاء من جرح ظهره، وانطلق صوت العالم الجهورى يقرع أسماعه بزواجره:

- أى جاك الرعديد... أيها الإنسان الجانزى... كيف تقتل ذلك البطريق؟؟... أتراك تسهم فى انقراضها من الوجود أنت الآخر؟؟.. إنها ضمن الكائنات التى لا تزال حية والتى ستفاخر الكرة الأرضية بإنجابها على سطحها عندما تنتقل كل الكائنات إلى كوكب آخر خلال عام بعده سوف تنفجر الكرة الأرضية....

- معذرةً... إنه ليس بطريقًا حقيقيًا يا إلهي... إنه عدو لك متخف فى هيئة بطريق... لقد لاحظت ذلك وأنا أحرس البوابة من خلف ركام الجليد حتى تعود يا إلهي... إنه يقفز قفزات لا تشبه قفزات البطريق الحقيقى.... إنها قفزات مبالغ فيها يا إلهى ...

- لا بأس.... سوف نرى إن كنت على حق أم جانبك الصواب... لسوف أُدمى جسدك إن كنت قد أخطأت فى تقديرك...

وبُخطا متدافعة، أسرع الرجل نحو البطريق المنطرح فوق الثلوج، وإن هى إلا لحظات حتى كان قد دنا من ثلة البطاريق، وباسترابة وحرص شديد اخترق زمرتها المتجمعة فى فضول، وانحنى فوق الجثة الهامدة وراح يتفحصها، ولشد ما كانت دهشته حينما أمسك بمنقار البطريق الطويل المعقوف ليفتحه على سعته، ليجد نفسه فى النهاية وجهًا لوجه أمام آدمى متنكر، وعلى الفور وفى هلع ظاهر، وقلب متواثب ويد مرتعشة: أطبقت كفاه على رأس البطريق وراح يديرها، فهاله أنها تدور لولبيًا فى كفه، وما ليث يديرها والإنسان الصناعى العارى واقفًا من خلفه بقناصته: حتى انفصلت تلك الرأس المعدنية والتى كانت متراكبة مع رقبة رداء يشبه طائر البطريق، ومن الفور بدت له رأس رجل قزم أزرق العينين مسترسل الشعر أبيض البشرة، وما كاد يتبين له ذلك حتى انقض على الرداء البطريقى وراح يتفحصه، ولم يلبث أن خلع عن الجثة الرداء العجيب المغطى بالريش الأبيض وقد بدا له جناحان ريشهما أسود، ومن ثم تكشف أمامه فوق الثلوج الرجل المتنكر والذى كان مسلحًا بخمس قنابل صغيرة فى حجم بيض البطريق، بل فى لونها تمامًا، هذا ولقد التمعت فوق صدره وحول جيده سلسلة فضية قد تدلت منها شارة معدنية، فأسرع بيرسون الأمريكى وانتزعها وقربها من ناظريه، ولم يلبث أن تبين عليها اسم الرجل "بوتيلوف"، فغمغم وقد قدحت عيناه الشرر:

- أيها الروسى الداهية، لقد كنت بلا ريب فى مهمة للنيل من الإمبراطور، ولقد غامرت وقذفوا بك إلى ذلك الصقع المتجمد للنيل منه، ولكننى بدورى لست أعلم أية مخابرات جهنمية استطاعت أن تمدك بمكان الإمبراطور المجهول تمامًا.. إنه أمر يدعو للأسى والتلمظ غيظًا، ولكن هأنت قد بؤت بالفشل يا صاحبى، ولسوف تظل جثتك فى ذلك الجمد على حالها، فلا ميكروبات يمكن أن تبليها، ولا ثعالب أو دببة أو ذئاب يمكن لها أن تنهشها: فكل تلك الناهشات لا توجد إلا فى القطب الشمالى فحسب ولا أحسبنى سألقى بجسدك لتقتات عليه كلاب الهسكى الأحد عشر التى تجر مركبتى رغم أنها سليلة الذئاب وتعوى مثلها، إننا فى القطب الجنوبى يا صاحبى، ولا توجد غير طيور البطريق الوديعة التى لا تكن لك غير كل فضول..

ووجم العالم لحظة بعد أن تطلع إلى أقواس القزح المنبلجة عن أنفاسه، ثم استدار خلفه ليواجه الإنسان العارى الذى وقفت من خلفه البطاريق وقد راحت تدغدغ له فى وجهه بمناقيرها، وقال فى نبرة خاصة:

- حسنًا .... حسنًا يا جاك... خيرًا فعلت... حسنًا أيها الإنسان الجانزى... ولكن لا بأس.... فلسوف يرتحل باقى سكان الكرة الأرضية بعد قرابة عام... سوف تنفجر الكرة الأرضية تمامًا، وسوف تندلع الماجما من الجويرات العديدة الموجودة فى قيعان المحيطات، تلك التى تمثل فجوات عميقة تصل إلى ما تحت القشرة الأرضية. والتى تكونت بفعل قوى الشد المبهمة تمامًا... لقد وصل تعداد البشر إلى تسعة بلايين نسمة، ولقد قضت الحرب التى قامت بين الشرق بقيادة روسيا وبين الغرب بقيادة أمريكا: على خمسة بلايين منها، ثم تلاشى من الوجود بليونان ونصف أخرى نتيجة للزلازل والبراكين التى حدثت فى كل من نيفادا الغربية وولاية شترى بالصين، وكلكتا بالهند، وإقليم كانسو بالصين، وطوكيو باليابان، وسان فرانسيسكو، وأغادير بمراكش، وشمال إيران، وجزيرة أيسلند، وجبال إفريقيا الوسطى، ثم إذا بوباء الكوليرا بالهند يطيح بنصف بليون آخر، ولقد تمخض عن كل ذلك البلاء وكل تلك النكبات بليون واحد من البشر ما بين نسوة ورجال وأطفال وشيوخ موزعًا على كل أنحاء الأرض.. أجل... لقد ارتددنا مرة أخرى حتى عام ٢٦٠٠م إلى ذلك البليون الأوحد الذى اكتمل عام ١٨٢٠م، والذى أزعج حينها ذلك العالم المتشائم المدعو "توماس روبرت مالتس"... وما كاد يهل عام ٢٠٠٠م حتى كانت نكبات الزلازل والبراكين تتمخض عن ١٠٠ مليون فقط من البشر على قيد الحياة... ليس هذا فحسب، بل نجد أن كل "السيسمو جرافات" فى جميع أنحاء الكرة الأرضية تسجل تسجيلات خطيرة ما إن أحطنا بها الإمبراطور علمًا حتى تنبأ بما لا مجال فيه للشك: أنه سوف تنفجر الكرة الأرضية بسبب بركان داخلى مروع ستساعد عليه حركة المد التى سوف يحدثها القمر على كل من اليابسة والماء... لقد اكتشفت الماجما الملتهبة التى ترتكز عليها القشرة الأرضية وهى تصعد فى حفرة "جوام" فى قاع المحيط الهادى والبالغة من العمق اعتبارًا من قاع المحيط نفسه ١١٥٠٠ متر، ولقد كان يظن فيما قبل أنها فى طريقها إلى الامتلاء رسوبيًا باعتبار أنها قد نجمت عن قوة الشد الداخلى التى نجهل تمامًا طبيعتها...

وأمسك العجوز الأزرق العينين لحظة متابعًا بناظريه حلقة الدراويش، ثم قال وقد وقف جاك قبالته خافض الرأس وقد تهدل شعره الكستنائى فوق جبينه ووجهه البيضاوى الدقيق القسمات المتسنم لجسده متوسط الطول جميل التكوين:

ـ أما بالنسبة لتعدادكم أيها الإنسان الجانزى المخلق: فهو لا يزيد حتى الآن على نصف مليون فرد فى كل أنحاء العالم... لقد فرّخ العالم "جانز" الألمانى الذى ابتكر كم خمسين فردًا عام ٢٨٠٠م وقام بعد تنميتهم لديه بتوزيعهم ونشرهم فى معظم بلدان العالم كيما ينتفع الناس بهم... لقد مات ذلك العالم المخترع الرهيب دون أن يفسر لنا كيف خلقكم وكيف تمت صناعة آبائك الذين ماتوا وتركوكم كأحفاد لهم لتوالوا خدماتكم وتعبدكم لبنى الإنسان.. لم يفسر لنا مثلاً: هل صنع أجدادك من خلايا مختلفة من الحيوانات الأخرى قد تم الربط بينها بطريقة بيولوجية غامضة؟؟... أم أنه قد صنعك أيها الإنسان الجانزى والذى سميت باسمه من خلايا قد خلقها هو بنفسه ـ وذلك ما يقول به الإمبراطور ـ والعجيب أن جانز قد اختار لدمكم اللون الأزرق بدلاً من اللون الأحمر، كما أنه من الغريب حقًا أن يعمد إلى زيادة حجم الطبقة الرمادية فى المخ بحيث تصير ثلاثة أضعاف الآدمى، كما أن المخيخ بوصفه منظمًا لحاسة التوجيه: نجده قد صمم ضخمًا هو الآخر بطريقة لا تتسنى إلا لسمكة القرش وحدها... ولعل الأعجب من هذا وذاك: أن كل فرد منكم مشابه للآخر تمام الشبه، فلا فرق فى الطول أو اللون ولا حتى فى قسمات الوجه أو بصمات الأصابع...

وهز العالم بيرسون سوطه فى يده ثم عاد يقول:

ـ حسنًا فعلت يا جاك... أيها الإنسان الجانزى... ولكن هذا بدوره يجعلنى أفكر فى أمر جد مخيف... فكما أنك قتلت عدوى: فمن الممكن أن تقتلنى أنا الآخر... إن الرجل عدوى حقًا، ولكنه من بنى جلدتى...

فقال جاك بعد أن خر راكعًا عند قدمى بيرسون ثم نهض واقفًا:

ـ إلهى... كيف تتخيل ذلك؟؟... حاشاى يا إلهى...

ـ لا بأس .... لنخفف شيئًا من حدة الأمر... عليك أن تركع لعدوى وعدو الإمبراطور، ذلك لأن عدوى من بنى جلدتى، أنت إنسان مصطنع جادت بأمثالك قريحة الألمانى جانز، ولا أحسب أن جانز كان محقًا فى تخليقكم وجعلكم تتكاثرون ذاتيًا.. إنك تتكاثر ذاتيًا دون أن تلجأ إلى الجنس كطريقة للتكاثر.. إنك لا تعانى الزمهرير أو القيظ... إنك لا تعانى من ميولنا الإنسانية التى تنمو بنمونا نحن البشر منطلقين من الطفولة إلى الكهولة... إنك لا تعانى من ميولنا الإنسانية التى هى فى مضمونها ضرب من الخزعبلات.. أواه... ذلك لأنك لست بمذكر ولا بمؤنث، ومع ذلك فأنت تتكاثر... والآن من المتوجب عليك أن تخر راكعًا لابن جلدتى الميت على أن تردد: "معذرة إلهى"..

وما إن فعل حتى استطرد العالم:

ـ لقد قتلتك كي تبقى إلهًا فى صورة شخص آخر.. إنه الإله بيرسون...

وعلى الفور صدع جاك الإنسان الجانزى للأمر، وخر راكعًا أمام الجثة مرددًا ما أمره به بيرسون، وخلال ذلك غمغم العالم:

ـ أواه... أواه ياعبدى... لقد وجدت نفسى إلهًا فجأة.. لقد أعطتك الحكومة الأمريكية لى كى تعينتى فى ذلك المنفى من الجمد... أنا وأنت منفيان أيها العبد جاك.. أتعلم لماذا نفيت يا عبدى؟؟ ... ذلك لأننى من أكثر الناس علمًا وعبقرية، وبالتالى فلا أحد يصلح أن يكون أمينًا على الإمبراطور غيرى... لقد كان من المتمنى لحكومتنا أن تضع تحت تصرفى فرقة بأكملها من الحرس لحماية الإمبراطور، ولكنها لم تشأ ذلك لأن كثرة الحراس هنا سوف تدلل دلالة قاطعة على أهمية المكان، ومن ثم سهولة اكتشاف وجود الإمبراطور... إننا نظهر معالم تدل فحسب على أن ذلك المبنى لا يزيد عن كونه محطة للأرصاد والتنبؤات الجوية، وهو فى الحقيقة عرين يقبع فيه الإمبراطور الرهيب..

ـ إلهى... لا تجزع يا إلهى... إنى أقوم على خدمتك والتعبد لك على أكمل وجه... إن موهبتى التى نجمت عن الانعزالات الوراثية فى شخصى هى السرعة فى الحساب إلى درجة تتفوق حتى على العقول الإلكترونية، هكذا كانت موهبتى... أعطنى عددين فأضربهما لك فى التو مهما كانت الأرقام...

ـ أوه .... كلا .... كلا ... يا عبدى جاك الذى أنا إلهه بالحتم، أو ربما بمحض الصدفة، فماذا تُجدينى هذه الحسابات وسرعتها فى ذلك الصقع المتجمد؟؟.. وكيف يمكنك مقارنة قدراتك الحسابية مهما كانت بقدرات الإمبراطور الخيالية المذهلة الرهيبة؟..

ـ لا بأس... سوف أموت يا إلهى، ولسوف تنشق بطنى قبيل موتى عن جنينين: سيخرجان إلى الوجود وقد تمتع كل منهما بانعزالاته الوراثية الخاصة التى تضمن لك أنساقًا أخرى من المواهب قد تتجلى فى موهبة الموسيقا أو الرسم أو القصص أو السرعة المذهلة فى الحسابات ـ وهى أقلها نفعًا ـ إذ إن العقول الإلكترونية تقوم بذلك على أكمل وجه بالإضافة إلى الأجهزة الحاسبة البسيطة...

ـ أواه يا عبدى... لقد صرت حقًا إلهًا فجأة.. ولكن يبدو أننى قليل الخبرة فى التأله...

وضحك الرجل فخرج من فمه المزيد والمزيد من ألوان قوس القزح فى منظر عجيب، ثم عاد يقول وهو يتابع بناظريه طيور البطريق وقد شكلت حلقة حول جثة الروسى وكأنها مجموعة من القضاة جاءت لتستأنف أحكامًا:

- من المحتم عليّ أن أتدارس كيف أكون إلهًا فى ذلك العام الباقى لنا فوق الكرة الأرضية التى اتضح أخيرًا أنها كرة بركانية النشأة ولن تلبث أن تنفجر... لقد تنبأت كل الأديان بذلك فى الأزمان الغابرة، ولم يكن يصدق البشر ذلك.. أواه... لابد أن أدرس مراجع قدماء المصريين فى فن التأله... القدماء المصريون هم الذين برعوا حقًا فى ذلك الميدان.. لقد برعوا فى كل شىء.. إن الفرعون كان معبودا، ومعنى ذلك أنه كان إلهًا محترفًا، أو لنقل إنه كان بالقطع يعلم كيف يكون إلهًا... أليس ذلك أمرًا خلابًا؟؟..

وتريث العالم هنيهة ريثما يتبدد عواء كلب الهسكى الدليل كمتابعة منه لإثبات قيادته لرفاقه المستجلبين معه من القطب الشمالى ثم قال:

- اسمع أيها العبد الجانزى جاك... عليك أن تضيف الصلاة إلى برنامجك التعبدى... أجل... يجب أن تصلى لى... لقد قام القدماء المصريون بذلك إرضاء لآلهتهم التى يتعبدون لها والتى كان من بينها الفرعون بالقطع... عليك أن تصلى ثلاث صلوات يوميًا.. فى الصباح والظهر والمساء.... ولسوف أبتكر لك ما تردده خلال تلك الصلوات، وفيما بعد سوف أعمد إلى تصويمك عن الطعام... أنا أعلم أنك تأكل أى شىء سواء كان حشائش أو فاكهة أو لحمًا دون أن يكون لأى شىء مذاقًا خاصًا، لأنك تفتقد براعم التذوق على لسانك..ولكن الغذاء يشبع لك على الأقل إلحاحًا وقتيًا ألا وهو الشعور بالامتلاء ومن ثم لا تتضور جوعًا...

فقال جاك وقد شعر بآلام مبرحة فى بطنه:

- لبيك إلهى... لبيك إلهى... ولكن هل تود أن أزف إليك نبأ قد يثلج صدرك يا إلهى؟

- أوه.... خبرنى... خبرنى يا عبدى الذى سوف يصلى لى بالحتم..

- إننى حامل... ولسوف أضع ربما اليوم يا إلهى... لقد كان سيكون أمرًا رائعًا حقًا أن أدخل الصلاة فى برنامج تعبدى اليومى لربوبيتكم... ولكن يبدو أنه لن يصير لى شرف ذلك... ولكن لا بأس يا إلهى، فلسوف يتعبد لك ولدى من بعدى بالحتم..

وجم العالم الأمريكى قليلاً، وتلجم لسانه عن الكلام لأمر مبهم جال فى خاطره، وراح يتفرس فى ذلك الإنسان العارى العجيب الذى وقف أمامه فى خشوع فوق الثلوج وقد تلطخ بقليل من الدماء الزرقاء، ولكنه لم يلبث أن قال بعد أن ركل بقدميه كمية من الثلج المندوف فى عصبية ظاهرة:

- أواه يا عبدى جاك... سوف أفتقدك بلا ريب، ولا أحسب أن عيناى سوف تدمعان لافتقادك، ذلك لأنى إلهك، ولا يجب أن تتساقط دموع الإله أمام عبده... لا ريب يا

جاك أن هذا يعد ضمن القواعد التى يجب أن يلتزم بها الإله تجاه عبده.. سأتركك الآن ههنا عند البوابة، ذلك لأننى بصدد أمر مهم سأكلف به الإمبراطور.. إنه أمر خطير، ولكننى بالحتم لابد سائله، ذلك لأننى قد ضقت ذرعًا بذلك الوجود.. إن عقلى يكاد ينفجر كل ليلة جراء تفكيرى فى الله الذى خلق ذلك الكون... سوف أتجه رأسًا إلى الإمبراطور، وعليك إذا ما جاءتك نوبة الوضع... عليك أن تصنع لنفسك حفرة بين الثلوج لتموت فيها على أن تكون على مبعدة من كلاب الهسكى، وعلى كل حال فهى لن تتجاسر على ابتلاع لحمك فى بطونها...

وبخطوات عسكرية اتجه العالِم نحو البوابة، وأدار مفتاحًا خاصًا من بين طيات ثيابه الفرائية واهتزت البوابة عند انفتاحها، وتساقطت بللورات الثلج المتجمعة فوق أفاريزها، وتقدم متوغلاً بالفناء الرحيب دون أن يحفل بإغلاق البوابة، ولم يزل كذلك حتى صار أمام كرة رمادية ضخمة من الفولاذ يبلغ قطرها «مائة متر» قد استقرت فوق قاعدة من الصلب السميك قد ظهرت حوافها من بين الثلوج التى تغطى سطح الفناء الرحيب، والذى ظهر فى آخره بناء رمادى يرف فوقه العلم الأمريكى ويتألف من طابقين صغيرين هما مأوى العالم وعبده جاك الإنسان الجانزى..

كان الهدوء يشمل الفناء الرحيب فى ذلك البيت العجيب، ولم تكن هناك من حركة غير تساقط البللورات الثلجية والثلوج المندوفة من فوق السور لائذة بجليد الأرض فرارًا من ضياء الصيف مارة خلال تساقطها على تلك المدافع المرعبة الفولاذية التى تشبه آسادًا فى عرائنها، كما أنه كانت تبدو بين الفينة والفينة بعض البطاريق مطلة برءوسها من البوابة المفتوحة فى فضولٍ عجيب، ما إن تبتعد حتى تطل مجموعة أخرى، ولقد عمد أحدها وقد استبد به الفضول أكثر من رفاقه إلى القفز صاعدا عتبة البوابة الفولاذية فى طريقه إلى الداخل: بيد أن بقية الرفاق أسرعت تجذبه من جناحيه الأسودين، فأذعن لها وابتعد معها بعد أن ترنح فوق الثلوج، وما كان من تلك البطاريق إلا أن أسرعت لتنضم إلى مجموعة أخرى قد شكلت حلقة حول جثة الروسى، وما لبثت بعض الإناث أن فطنت إلى القنابل الخمس العجيبة البيضاء، ولقد أشفقت الأمومة فى صدورها أن تظل تلك القنابل بلا احتضان بوصفها بيضًا لها، مما حدا بخمس من تلك الإناث إلى حمل تلك البيضات بين طيات ثياتها الجلدية بين سيقانها لتبعث فيها دفء الأمومة وحنوها...

وقف بيرسون فوق القاعدة الحديدية أمام الكرة المحيرة الملساء التى لم يكن يبدو على سطحها غير بضع ثقوب قليلة فى أماكن متفرقة من الخلف ومن الأمام، بالإضافة إلى أربعة

أذرع قصيرة فضية اللون تقبع على سطح تلك الكرة الفولاذية بالقرب من القاعدة الحديدية... تلك الأذرع التى كانت وظائفها على النحو التالى:

الذراع الأولى: لزيادة الطاقة ودفع مزيد من البلازما...

الذراع الثانية: الإيلام بمزيد من الشحنات الكهربائية...

الذراع الثالثة: لشل التفكير...

الذراع الرابعة: لتفكيك أجزاء الإمبراطور تمهيدًا لنقله إلى مكان آخر إذا ما تم للعدو اكتشافه..

لم يلبث العالم بيرسون كثيرًا فى وقفته المتأملة، بل سرعان ما وضع رأسه فى إعياء فوق سطح الكرة الهائلة وراح يتنفس فى صعوبة وكأنما يعانى من كابوس يجثم فوق صدره، وبينما هو كذلك: إذ بصوت هادئ يأتى من الكرة الفولاذية:

- ماذا بك يا سيد بيرسون؟؟... أراك مهمومًا ولست كعادتك.. كما أن دقات قلبك التى أسمعها بوضوح والتى سجلتها وقرأتها مؤشراتى الجوفية تدلل على اعتزامك أمرًا قد يكون جد خطير للغاية...

وهنا ضرب بيرسون على السطح الفولاذى الذى يعتمد عليه بذراعيه، وقال فى احتداد ظاهر فى صوت يشبه البكاء:

- أيها الإمبراطور.. يا أكبر عقلية إلكترونية آلية فى الوجود... يا من كنت خلاصة بلايين من أبحاث البشر قد بدأت منذ عام ١٩٤٠م... أيها الإمبراطور الذى كلف بلادى ما هو مذهل من التكاليف... أيها الإمبراطور الذى إذا ما فتحنا جوفه لوجدنا خمسة بلايين من التراكيب المعدنية والأجهزة المتناهية فى الصغر والدقة... أيها الإمبراطور المعجز الذى يتوق أعداء أمريكا إلى معرفة مكانك كى يدمروك... أيها الإمبراطور... أنت الذى تنبأت لكرتنا الأرضية بالدمار فى خلال شهر سيتمبر القادم أى بعد إثنى عشر شهرًا، والزمن محسوب علينا منذ الآن... هل تعلم لماذا أسميناك بالإمبراطور؟؟..

- أجل يا سيدى بيرسون يا عالم الطبيعيات... ذلك لأننى استطعت وبإمكانياتى الذاتية العاتية أن أسيطر على كل الأذهان الإلكترونية الآلية فى ذلك الوجود... لقد تغلبت على كل تردداتها وكبحت جماح تمردها على وجودى وسطوتى، وبعثت إليها أينما كانت بكل ومضاتى وشفراتى، وأدمجت تردداتها لتبتلعها تردداتى الطاغية الجبارة: كما ابتلعت عصا موسى كل عصى السحرة من كهنة الفرعون عندما ألقوا بها... لقد تحولت عصا موسى كمادة ميتة إلى أفعى متحركة تلتهم ما يصادفها من ثعابين، وإن لتلك القصة

مدلولها العلمى تمامًا قبل أن يكون لها مدلولها الدينى... ولكن حسبى أن أبين هنا أن عقلاً واحدًا فقط هو الذى قاومنى وراوغنى مراوغة مضنية وهو يقبع فى مدينة برلين الألمانية... تلك العقلية وحدها هى التى لم أستطع التغلب عليها إلا بصعوبة تجل عن الوصف، وهو يبدو كما لو كان ثعبان رئيس الكهنة الذى أراد أن يسخر من عصا موسى، وإن مؤشراتى الداخلية التى تسجل الذكرى ليمكنها أن تحدد لك كم استهلكت من ترددات وموجات وطاقة بعثت بها كى أكبح جماحه عقلانيًا وأجعله لا يفكر إلا على منهاجى ولا يصدر مفهومًا إلا بأوامرى المشددة... ومن ثم فأنا أجزم أنه ما من عقلية واحدة يمكن لها أن تتمرد على مفاهيمى ومناهجى الفكرية، وإن هذا ليضمن ضمانًا حتميًا أن كل ركب ذلك العالم لن يخضع إلا لعقليتى وسلطانى... وما على العقليات الآدمية الفطرية ـ وليعذرنى السيد بيرسون على ذلك التعبير ـ إلا أن تنفذ ما يبدر عنى من أوامر...

مضت برهة ودق بيرسون على جدار الكرة العملاقة بقبضته وقال وقد شوردت الدماء عنيفة إلى أوداجه وعنقه:

ـ حسنًا أيها الجبار... حسنًا أيها الإمبراطور.. ولكن كيف تفسر إذًا ما حدث اليوم؟؟.. كيف تفسر ظهور الروسى الذى أتى فجأة إلى هذا المكان متقمصًا هيئة بطريق؟؟... لقد قتله جاك الإنسان الجانزى الذى أخفقت أنت شخصيًا فى تفسير الكيفية التى صنعه بها جانز... لقد قتله بعد أن اكتشف بفراسته عن كونه ليس بطريقًا... كيف تفسر اكتشافه لمكانك الذى لا يخطر على بال إنس ولا جان؟...

ـ هون عليك يا سيد بيرسون... أولاً: إننى أصحح لك خطأ قد وقعت فيه لتوك.. إن جاك يكون كاذبًا إذا ما ادعى أنه هو الذى لاحظ بفراسته البطريق المزيف... وأحيطك علمًا بأننى قد أخبرته بذلك وهو يدور حولى.. وأنت تعلم أنه لو أتى للقضاء على جيش عرمرم لقضيت عليه عن طريق المدفعية الأوتوماتيكية التى تقبع فى مزاغل سور البيت مصوبة إلى كل اتجاه... ولو فرضنا أسوأ احتمال وجندت لىّ الأجناد وحشدت لىّ الحشود فإننى لن أتورع عن تفجير قنبلة من تلك القنابل الموضوعة فى أماكن متفرقة تحت الجليد، وما علىَّ إلا أن أضغط إلكترونيًا على سلك من أسلاكها الموصلة...

وهنا قاطع بيرسون الإمبراطور بقوله وقد التمعت حدقتاه وفغر فاه:

ـ إذًا لقد كذب علىَّ جاك الرعديد... هذا داء جديد أكتشفه فى ذلك الصعلوك.. الكذب.. هه..عبد يكذب على ربه.. تبأ لجانز الرعديد الذى قام بتخليق أمثاله... ألم يكن

بوسعه أن يخلى سبيله من ذلك الداء العياء الخطير؟؟... لقد ادعى أنه هو الذى اكتشف البطريق بنفسه... إذًا فهو يدعى لنفسه قدرة غير قدرته.. يا لهول ما أسمع...

ـ وثانيًا: فإننى لم أخفق يا سيد بيرسون فى معرفة طريقة تخليق الإنسان الجانزى.. لقد أفهمتكم أن الإنسان الجانزى قد خلق عن طريق خلايا صناعية تشبه تمام الشبه الخلايا الآدمية، ولكن لما كانت ذرة النحاس هى بديلة ذرة الحديد فى الدم: فلقد صارت الدماء زرقاء، ومن حيث إن الخلايا المخلقة صناعيًا من الضعف فى التكوين بحيث إن انشطارها إلى خلايا جنسية سيكون سقيمًا: وعييًا إلى درجة يستحيل معها مواجهة الهواء الجوى: فإنه كان من المحتم على جانز أن يجعل الغدد الذكرية والأنثوية فى داخل الجسم، ومن حيث إن هذا يعنى بالضرورة عدم توفر كلاً من الغدتين فى جسمين إنسانيين لهما شخصيتاهما وقيمتهما، وبالرغم مما كان سيترتب على ذلك من أمور طريفة تبعث فى ركب حياة وتكاثر الإنسان الجانزى الانتعاشة بطريقة قد تثير الفضول كما هو حادث بينكم يا معشر الآدميين.. من حيث ذلك كله: فلقد كان من المحتم على جانز أن يجعل الغدتين فى جسم واحد...

وهنا انهال العالم العجوز على الجدار الفولاذى برأسه المغطاة بالفراء، وقال فى حدة بالغة بعثت على فضول بعض البطاريق التى كانت تبحلق من خلال بوابة البيت المفتوحة مما جعلها تطيل من فترة تحديقها وقد تراصت مناقيرها ما بين مقر ومعترض:

ـ كلا ... لم يحدث ذلك بالحتم أيها الإمبراطور العبقرى.. إن جانز قد جنح إلى ذلك بالفعل... لقد عمد إلى ذلك عمدًا.. إننى لا أقر غير هذا... إنه لم يشأ أن يوجد بين الإنسان الجانزى المخلق ذكر ولا أنثى، ولعل جانز قد ضاق ذرعًا بتلك الجبلة التى فطر عليها بنو البشر، والتى أدت إلى عدم إمكان كبح جماح التزايد السكانى بطريقة رهيبة، علاوة على تلك الآلام والمنغصات التى قد تنشأ عن مشكلة الغرائز كنتائج ثانوية لابد منها، ولعل جانز كان: ولسبب ما أحد ضحايا تلك الجبلة الفطرية ومن ثم عمد إلى إلغاء الجنس فى إنسانه الجانزى والذى سمى باسمه.

ـ لقد جانبك الصواب يا سيد بيرسون ـ وأعذرنى على ذلك التصريح ـ فلو أن جانز كان يملك القوة والحياة والصمود للخلايا التناسلية الناتجة عن الخلايا الآدمية: لخلّق بالحتم إنسانًا صناعيًا ما بين ذكر وأنثى، ولكن لم يكن الأمر بالهين عليه يا سيد بيرسون...

ـ كلا .... كلا.... إننى أناقضك فى ذلك بالحتم... بالحتم... لقد جنح جانز إلى ذلك عامدًا عمدًا...

ـ لك فكرك يا سيد بيرسون، ولكنه لا يقوم على منطق علمى قويم، ذلك لأنه تشويه شائبة العاطفة التى يتسم بها فكركم الإنسانى...

ـ لا بأس أيها الإمبراطور المُحير... ولكنَّى أود إجابة على سؤالى... كيف عرف الروسى اللعين مكانك فى القطب الجنوبى؟؟... أليس ذلك أمرا يبعث على الجنون؟؟..

ـ هدئ من روعك يا سيد بيرسون... إنها لحقيقة مؤلمة حقًا أن تعرفها... لتعلم أن الجانب السيئ لسيطرتى على كل العقول الجبارة من أمثالى: إنما هو شيء واحد فحسب... إن لفرط سيطرتى عليها يمكنها أن تدرك بالتحديد مكان وجودى مهما غمض، ولقد حاولت تكثيف مجالى المغناطيسى الكهربائى حول وجهى إلى نطاق يبعد خمسة آلاف ميل وفى كل الاتجاهات، ولكن هذا بدوره يا سيد بيرسون لم يفدنى كثيرًا إلا فى حالات التجسس الهجومية، ولكنه بالقطع لم يفدنى فى حالات التجسس الدفاعية عبر المجالات المغناطيسية والكهربائية لدى الأطراف التى أتعامل معها هجوميًا، وأنت لا يخامرك شك يا سيد بيرسون أن كل أعمالى حتى الآن هجومية، وما لجأت إلى ذلك إلا لثقتى فى قوتى وقدرتى غير المتناهية، فأنت تعلم أننى أستخدم طاقة الاندماج الذرى ولا أستخدم طاقة الانشطار الذرى التى تلجأ إليها العقول الأخرى مما يؤدى إلى ضعفها فى النهاية بسبب ما ينجم عن الانشطار من تلوثات إشعاعية تهتك الأجزاء والتراكيب الحساسة.. إن لى رصيدًا هائلاً من البلازما السائلة للديوتوريوم والتريتيوم بفضل أشعة الليزر.

ـ يا لهول ما أسمع، ويا لأنفاسى التى تكاد تلهث، ويا لقلبى الذى يكاد يتوقف... ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف تفسر تهور ذلك الروسى وسعيه كى ينال منك؟؟؟.. لماذا لم يلجأ الألمان مثلاً إلى ذلك؟... لماذا لم ينهج الإنجليز إلى ذلك النهج؟... بل لماذا لم تجازف الصين بذلك... لماذا؟؟؟... لماذا؟...

ـ هدئ نفسك يا «مستر بيرسون»... سأجلو لك حقيقة ما غمض عليك... لتعلم يا سيد بيرسون أننا نحن العقول الإلكترونية من الأنماط العظمى: لا نفهم إلا لغة المناورات فيما بيننا، ونلتمس لبعضنا الثغرات وفترات الوهن، شأننا فى ذلك شأن الآدميين تمامًا، ولا يمكننا أن نفكر بمنطق آخر غير ذلك... فإذا ما شذ أحدنا عن ذلك النهج ولجأ إلى طريقة التدمير الميكانيكى، فلتعلم تمام العلم أن تلك العقلية بالغة الضعف تمامًا، وهى تعلم ذلك علم اليقين، ومن ثم فإن ذلك يعنى عدم قدرتها التامة على المناورة، ومن هنا يبيت الالتجاء إلى الطرق العيَّية السقيمة أمرًا محتمًا...

ـ إذًا فها هو الأمر قد بات جليًا واضحًا... أنت بوصفك إمبراطورا قد سيطرت بسطوتك وجبروتك على جبابرة العقول، وبالتالى فمن المعلوم أنها تأتمر بأمرك، ولقد صرحت جميعها بتصريحاتك الأخيرة مرددة فى كل البلاد: أن الكرة الأرضية سوف تتفجر نتيجة لبركان مروع ونتيجة للمد الذى سيحدثه القمر..

ـ يا سيد بيرسون: إن ذلك الأمر لم يكن خياليًا إلى أبعد الحدود ... لقد تنبأت بذلك بعض الأديان.. وإن أجزاء ذاكرتى لتختزن العديد من الذكريات الدينية لشتى الأديان... يمكننى أن أذكرك بقول الله خالق الكون فى قرآن الدين الإسلامى "اقتربت الساعة وانشق القمر".. وإننى أفسر انشقاق القمر هنا تفسيرًا يتفق ومنهاجى العلمى وأقول إنه يعنى شق عصا طاعته للأرض بمعنى عدم خضوعه لسيطرة الجاذبية الأرضية، وذلك سوف ينجم عن خلل فى كتلته الفعلية الحالية عن طريق تسرب مكوناته الداخلية فى صورة غازية تنطلق من الفوهات البركانية العديدة التى تغلف كل سطحه...

ـ لا بأس أيها الإمبراطور... إننى أكمل حديثك بقولى إن العقول تأتمر الآن بأمرك، ولقد أعلنت إعلانك الخطير، ولكن لتعلم أن العقليات العلمية البشرية لم تستنتج هذا الاستنتاج بما لديها من قدرات بالحتم سوف تكون أضأل من قدراتك الخارقة... فقط: استنتجت أن الكرة الأرضية تعمد إلى تغيير قشرتها كما لو كانت زاحفًا يود تغيير جلده، وهذا يعنى أن تلك القارات التى نعيش فوقها سوف تختفى فى حركة هضم رهيبة كى يمهد مجروش ذلك السطح فى جوفها وكيما يتألق سطح آخر جديد، وإنك تعلم أيها الإمبراطور أن القارات تتكون من طبقات رسوبية عظيمة القدر، بيد أنها تنزلق باستمرار فوق سطح بازلتى شديد الصلابة ذلك الذى يمثل حاليًا قيعان المحيطات، وهى فى انزلاقها هذا: تشبه انزلاق صابونات عسرة الرغوة فوق سطح زجاجى شديد الخشونة، ومن ثم غدت حركتها غير ملحوظة تمامًا وتتطلب ملايين من السنين حتى تغدو ملحوظة الخطى...

ـ لا بأس يا مستر بيرسون... هذا هو احتمالكم لتفسير تلك الهزات الأرضية والبراكين العنيفة التى تعترى الأرض بطريقة مكثفة لم تمن بها القشرة الأرضية الآمنة من قبل... لو فرضنا ذلك ـ كفرض مستحيل ـ فإنه يعنى اختفاء كل ما على الأرض من أحياء نباتًا كان أم حيوانًا... وهل يعد احتمالكم هذا أمر مطمئن يدعوكم إلى البقاء على تلك الأرض التى سوف تغير جلدها كما تقولون، أو التى ستنفجر كما أنا قائل ومُصر على قولى؟؟..

ـ أواه ... معك حق أيها الإمبراطور الرهيب... لا هذا بمطمئن، ولا ذاك مهدئ للروع.. ولكن ... ولكن... ولكن... إننى أسألك سؤالاً فى هذا الصدد أيها العملاق العجيب....

إننى أسـألك أيهـا الأتون الملتهب فى داخلك بجحيم من الفكر الألمعى المعجـز... مـاذا أعدته الطبيعة كى تحافظ على الكائنات الحية التى تقيم فوق سطح كوكب مـا إذا مـا عنّ لذلك الكوكب أن يغير جلده أو أن ينفجر متبددًا فى الفضاء الكونى اللامتناهى؟...

ـ لا بأس يا مستر بيرسون... لقد أعدت الطبيعة العقل كى يحمى الكائنات من تلك الصرخة الجوفية المفاجئة العاتية الآتيةِ من الأعماق... العقل المفكر وحده هو القادر على حمل تلك الكائنات للفرار بهـا إلى كوكب آخر، وفى هذه الحالة لن يكون غير المريخ؛ كملتجأ حتمى لأهل الأرض نظرا لظروفه الطبيعية المشابهة... لابد أن تنطلق الصواريخ التى قدت من الحديد والتى شحنت بطاقة ناجمة عن اندماج الذرات.. لابد أن تنطلق مقلة بنى البشر ومنتخبات من كل كائناتها الأخرى من كل زوجين اثنين حتى تعيد حياتها وتتكاثر فوق كوكب التهجير... هذا هو الحل الأوحد الذى تضمنه الطبيعة لكائنات أنجبها كوكب قد عصف به الجنون إلى حد إعدام عياله... العقل والحديد هما الكفيـلان بذلك... وإننى أعلم الآن أن كل الدول قـد بدأت بالفعل تبـدو على أهبـة الاستعداد لتلك "الهجرة الكبرى"... ولسوف تمد الدول الكبرى الدول الأخرى الصغرى بالصواريخ، إذ إن على عاتقها وحدها إنقاذ البشرية جمعاء وكائنات الأرض المرافقة، بل والتى لا معزل للبشرية عنها... هذا ولسوف أمدك يا مستر بيرسون بالمنهاج العلمى اللازم لتقسيم المائة مليون نسمة على الصواريخ المتسناة للنقل، ولسوف أتدبر لك كيفية ترحيل النباتات والحيوانات المستأنسة والمتوحشة والنادرة والتراث الآدمى الأدبى والمادى، وتراث الكائنات المجهولة الهابطة إلى الأرض من الكواكب، وما علىَّ لكى أنجز ذلك إلا أن أمضى ثلاثة أيام كاملة كى أنسق ذلك البرنامج... ولتضف إلى معلومك أننى وبعد صعودكم إلى الكوكب الجديد سوف يكون بوسعى إمدادكم بأخبار الأرض إلى أن يحين دمارها ودمارى معها ـ اللهم إلا إذا أزمعتم نقلى معكم ـ وسوف يساعدنى على الإرسال إليكم، تلك السحب من النيكل والغبار الكونى التى تقع على ارتفاع ثمانية كيلو مترات فوق ذلك القطب الجنوبى والتى تسير بسرعة سبعمائة كيلو مترًا فى الساعة على درجة حرارة سبعمائة درجة مئوية تحت الصفر...

وهنا شهق وزفر العالم الأمريكى وقال بعد أن ابتعد عن الكرة العجيبة بحيث صار على حافة القاعدة الفولاذية، وبعد أن رفع ذراعيه إلى أعلى فى شبه تكبيرة أو مناجاة توسلية بطريقة ما بين مقرٍ ومعترض:

ـ والآن.... اسمع أيها الإمبراطور الرهيب: حقيقة إنك جبار قوى، بحيث أبدو أمامك كما لو كنت حصاة تركع تحت أقدام جبل... حقيقة ذلك، ولكن لتعلم أن لدى أربعة أذرع

ممدودة من داخل جسدك وفي متناول يدى كما لو كانت ألجمة تلجمك عند تمردك بالرغم من أنه بإمكانها أيضًا إنقاذك أو نقلك... الذراع الأولى وكما تعلم أيها الإمبراطور يمكنني بها أن أزيد من طاقتك على مختلف الدرجات وذلك بدفع المزيد من البلازما المعرضة لأشعة الليزر، وإن ذلك لأمر حتمى كل ثمانية وأربعين ساعة، والذراع الثانية يمكنني بها أن أعرضك للمزيد من الآلام والنخسات الكهربائية الرادعة التى تدعوك إلى العمل عند أية بادرة من بوادر التكاسل، والذراع الثالثة يمكننى بها أن أشل تفكيرك تمامًا إذا ما تسببت بمغامراتك التهجمية فى الكشف عن مكانك بالقطب الجنوبى بين الحين والحين... أما الذراع الرابعة فيمكننى بها أن أفكك إلى أجزائك ليتم لنا نقلك إلى مكان آخر فى حالة اكتشاف العدو لموقعك..

ـ حقًا حقًا يا مستر بيرسون، وإننى لأحسب ألف حساب لذراع واحد منها فحسب... إنه ذراع التغذية؛ فلو أننى قمت بقتلك وأنت تعلم أن ذلك سهل المنال بالنسبة لى حتى ولو كنت فى داخل حجرتك ومتدثرًا بدثارك... ولك أن تعذرنى على تلك الصراحة، كما أنه لك أن تغفر لى تلك الغطرسة وذلك التهجم على شخصكم الموقر... بيد أنى وكما قلت لك أحسب كل حساب لذراع التغذية الذى يضمن بقائى كإمبراطور على ذلك الوجود، فلو أنك لم تجذبه لمدة تزيد على ثمانية وأربعين ساعة كان فى ذلك حتفى بالإضافة إلى تقهقرى أمام لدغاتٍ وشحنات وترددات العقول الجبارة الأخرى، وبمعنى أوضح أمام أفاعى كهنة الفرعون... ولهذا كله فلا مناص لى من الإذعان لكل أوامرك يا مستر بيرسون...

ـ حسنًا ... حسنًا... نحن الآن فى ذروة التفاهم... إذًا: فلتستمع ولتنصت إلى ذلك السؤال الذى سألقيه على مسامعك الإلكترونية... وما عليك إلا أن تجيب...

ـ سل يا سيد بيرسون ما شئت، على أن تهدئ من روعك...

وتريث العالم عن الكلام، وجعل يتابع بناظريه طيور خطاف البحر "ترن" المقبلة من القطب الشمالى لقضاء فصل الصيف، ثم جمع ذراعيه أمام صدره بطريقة دعت إلى مزيد من فضول البطاريق المحدقة من البوابة مما جعلها تبدو فى حركة مط للأعناق الشبقة وتدعو إلى الجزع من انسلاخ تلك الأعناق عن أجسادها. وبعد لحظات بدت طويلة للإمبراطور هتف بيرسون قائلاً:

ـ من هو خالق الكون؟؟..

ـ يا سيد بيرسون.. يا سيد بيرسون... أرجوك يا سيد بيرسون... فلتحذر تمامًا... يمكنك أن تضيف ذلك السؤال إلى الأذرع الأربعة التى تحكمنى بها.. إننى أعتبر ذلك السؤال

بمثابة الذراع الخامسة... إنه ذراع التدمير يا مستر بيرسون.

ـ أواه... أواه... لا تتنصل عن السؤال أيها الإمبراطور المحير... لا تتنصل وإلا فالويل لك... لسوف تتفجر الكرة الأرضية، ولسنا نعلم بالضبط أى مصير حتمى سوف تقودنا الأقدار إليه... إذًا وطالما أن الأمر كذلك: فلابد لىَّ أن أعرف... لابد لىَّ أن أعرف.

وارتفعت عقيرة العالم بطريقة رهيبة إلى درجة دفعت إلى مزيد من فضول البطاريق التى تجمعت متجاورة الرءوس على عتبة البوابة المفتوحة فى الوقت الذى راح صوت العالم الجهورى يزعق مجلجلاً فى الفضاء لتنبعث منه المزيد والمزيد من أقواس القزح المتعددة الألوان:

ـ فلتجبنى أيها الإمبراطور... لقد ضقت ذرعًا بتلك العلوم التى شُحن بها يافوخى.. لقد قضيت طيلة عمرى مفكرًا دارسًا لشتى العلوم... درست الكيمياء والطبيعة والجيولوجيا والنبات والحيوان والرياضيات العليا والأجناس البشرية وجغرافيا الكواكب.. درست الأديان والآداب بأنواعها... ورغم كل ذلك أجدنى مازلت حائرًا... وإننى أشفق أن أموت دون أن أعرف.... لابد لىَّ أن أعرف أيها الإمبراطور المعجزة... لابد لىَّ أن أعرف منك قبل أن نغادر نحن البشر ذلك الكوكب الأرضى المقضى عليه بالفناء....

ـ أرجوك يا مستر بيرسون... عليك أن تحذر تمامًا مما أنت مقدم عليه... سوف يلحق بىَّ وبك الدمار من جراء ذلك السؤال... وما علىَّ الآن إلا أن أشرح لك مغبة ذلك: على أن تعود إلى الهدوء والسكينة... إن مؤشراتى وعدساتى الآن قد صورت ذبذباتك العصبية بحيث تبدو لىَّ فى أوج توترها بطريقة تدعو إلى الأسى البشرى... ومن حيث إننى لا أدرك الأسى البشرى: فلا يسعنى إلا أن أترجم شعورى نحوك بنصيحة يجب أن تعمل بها تمامًا وإلا فالويل لك ولى فى آن..فلتعلم أن الإجابة على هذا السؤال تتضمن: التقاء كل تيارات الطاقة فى كل أسلاك جسدى... سوف تلتقى تماما بالتضاد الفكرى... التضاد الفكرى أيها السيد بيرسون.. إن عقلك الآدمى بالرغم مما لديه من مرونة لا تتوافر لعقلية كعقليتى: فإنه من المرجح أن يُدمر تمامًا، وإن تدمير عقليتك الآدمية يعنى بالنسبة لك الجنون... أما الدمار بالنسبة لى: لا يعنى إلا الانفجار... الانفجار يا مستر بيرسون... الانفجار يامستر بيرسون إننى ألح فى الرجاء أيها العالم... لا تدمرنى ولا تدمر نفسك أيها الآدمى النابغة!!!...

وهنا انتفض العالم العجوز فى ثيابه القطبية وراح يضرب على جدار الإمبراطور حتى كلت يداه فتخاذلتا إلى جوار جسده الذى بدا هزيلاً أمام كرة الإمبراطور، ثم جعل يرغى ويزبد ويضرب القاعدة الفولاذية تحت قدميه راكلاً ما تجمع فوقها من ثلج مندوف، هاتفًا وهو يتجه فى عصبية إلى الأذرع الأربعة الفضية اللون:

- مهما يكن من أمر: فلا مندوحة لك من أن تجيبنى على ذلك السؤال المضنى الذى مزق أحشاء عقلى وهتك فؤادى وزعزع مفاهيمى عن ذلك الوجود...

وهنا كان قد قبض على الذراع الثانية، ووقف قبالتها كما لو كان جنديًا فى معركة ينتظر أمرًا بالضغط على الزناد، وعلى الفور هتف فى صوت تشيب له الرءوس:

- فلتجبنى أيها الإمبراطور الطاغية... فلتجبنى على سؤالى... إننى أنذرك أيها الجبار... إننى أنذرك يا أفعى موسى التى ابتلعت أفاعى كهنة الفرعون فى جوفها... سوف أسلط عليك شحنات كهربائية لا قبل لك بها... سأظل السمك بها حتى يتحرك تفكيرك فى الاتجاه الذى أريد... سأظل أشحذك بمزيد منها حتى تقر بسرك، ولا أحسب أنك عاجز عن ذلك.. ألست أنت الذى كلفت البشرية ما يعجز عنه التسجيل؟؟... ألست أنت الذى تكاتفت على إنتاجك البشرية على مر السنين وقد جندت لك كل العلوم!!!...

- مهلاً يا مستر بيرسون... مهلاً أيها السيد النابغة... عليك أن تتعقل الأمر، عليك أن تتعقل فى طلبك... إنه طلب رهيب سوف يؤدى بنا ويقودنا إلى التهلكة... إننى أتوسل إليك وأستنهض منطقك العقلانى يا سيد بيرسون...

- حسنًا.... أنت لا ترغب إذًا... سوف أريك كيف تخضع لى أيها الإمبراطور المتغطرس...

وضغط العالم المنفعل على الذراع الثانية درجتين ظاهرتين فوق سطح الكرة الغريبة، وهنا صرخ الإمبراطور، بصوت يشبه أنين طفل تجثم فوق ظهره الأنقاض:

- أيها السيد بيرسون... إننى أتوسل إليك أيها السيد... إننى أستجير بعطفك الآدمى يا مستر، إنك تجعلنى أرتعد... إن أحشائى تتمزق من كهربائك يا مستر بيرسون...

وضغط العالم العجوز درجة أخرى هاتفًا:

- إليك مزيد منها أيها الإمبراطور الذى ابتلعت فى جوفك كل عقول الكرة الأرضية... إليك هذا المزيد من الشحنات المرعبة...

- أحر الرجاء أيها الآدمى... أواه... إننى أشتعل يا مستر بيرسون... إننى أهتز وأرتعد فى داخلى أيها البشرى...

- إننى أضرمها نارًا فى أسلاكك وأجهزتك وأجزائك ايها الإمبراطور الداهية... خذ... هذه لك.. إليك هذه الشحنات التى ترتعد لها فرائصك... وإن لم تستجب: فلسوف أجذب الذراع حتى الدرجة العاشرة...

- رحماك يا سيد بيرسون... رحماك أيها البشرى... لا تفعلها أيها النابغة... أنت لا تعرف خطورة الأمر... إننى أقرأ التموجات العصبية فى غياهيب عقلك، وأعلم أنها قد

أوشكت تمامًا على أن تتفذ ذلك العقاب الصارم الذى هددت به لتوك أيها البشرى الملهم!!!....

وهنا كان بيرسون قد قبض على الذراع الثانية بشدة عاتية قائلاً فى إصرار وعزم وجبروت:

ـ أنت تعلم إذًا أننى قد أوشكت على التنفيذ، وإن هذا ليغرينى حقًا بأن أفعل أيها الإمبراطور المعجز... لا مندوحة لىَّ من أن أفعل ذلك....

وما كاد العالم الأمريكى يهم يجذب الذراع الفضية الرهيبة: حتى صرخ الإمبراطور.

ـ لبيك يا سيد بيرسون... لبيك أيها الآدمى... سوف أطيعك على أن تعلم أن ذلك ليس فى صالحك البتة... سأطيعك على أن تعلم أن فى ذلك دمارى... سأطيعك: وما عليك الآن إلا أن تهدئ من روعك... وأن تخفف من احتدادك.

ورفع الأمريكى العجوز قبضته عن الذراع التى يهدد بها الإمبراطور، وجلس على كومة من الثلوج فوق القاعدة الحديدية التى انحسر الجليد عن بعض أجزائها، وعقد ذراعيه على ركبتيه وأطرق برأسه لائذا بالصمت فى لحظات كان ما أشد كربها على جاك الذى كان يحتضر فى حفرة من الجليد قد أعدها لنفسه كى يودع فيها الحياة حينما تنشق بطنه تدريجيا لينبعث منها جنينان..

وبعد لحظات كئيبة من الصمت: نطق الإمبراطور فى صوت هادئ رصين العبارات:

ـ من حيث إنه لا فاصل بين ثانية وثانية، ودقيقة ودقيقة، وساعة وساعة: إذًا فلا فاصل بين زمان وزمان... ومن حيث إنه لا فاصل بين أرض وماء أو أرض وهواء أو هواء وفراغ، إذًا فلا فاصل بين مكان ومكان، ومن حيث إن الزمان يمر على كل المكان، ومن حيث إن الزمان يقاس بأبعاد المكان إذًا فلا فاصل بين: زمان ومكان.. ومن حيث إن الأشياء التى لا تنفصل لابد وأن تكون من مادة واحدة؛ فإن هذا يجزم أن الزمان هو المكان، والمكان هو الزمان... ومن ثم فإن المكان تكديس للزمان، كما وأن المادة تكديس للعدم، ومن حيث إن شقى الكينونة أصبحا شيئًا واحداً ـ ألا وهما الزمان والمكان ـ فإن ذلك يعنى أن الكائن ليس إلا شقًا واحداً: وهو الزمان المكدس، ومن حيث إن كل كائن يتمثل فى زمان ما ومكان ما، فلقد بات جليًا أنه يتمثل فى زمن مكدس، وإذا ما أزيل عنه ذلك التكدس لتبعثر ذلك الكائن وصار زمنًا مبعثراً، ومن حيث إننا أجزمنا بأن الزمان لا يتبعثر: وذلك لأنه يتكون من وحدات شديدة الالتصاق: فإن ذلك يعنى أن الكائن غير قابل للتبعثر، ومن حيث إن الكائن يموت ويذوى: فإن ذلك يعنى أنه قابل للتبعثر ظاهريًا،

ولكى نجمع بين النقيضين: نقول إنه قابل للتبعثر وعدم التبعثر فى آن واحد... ومن حيث إن المادة تكثيف للعدم: فإن العدم يظل متألمًا متوترًا كميا، لأنه لا يقبل بذلك التكثيف لأنه ليس من جبلاته الطبيعية، من حيث ذلك؛ فإن طابع الأشياء المادية جمعاء هو: الألم... والألم لأنها تريد أن تنطلق من ذلك التكثيف لتنبجس إلى حيز العدم الذى هو مادة الأساس، ومن حيث إن الألم ينتاب كل مادة، ومن حيث إن المادة وعندما تكون بسبيلها إلى العدم تنطلق منها ما يسمى بالطاقة: فإن ذلك يعنى أن الطاقة هى الألم، والألم هو الطاقة.. ولما كان انطلاق الطاقة يعنى انطلاق الألم بكميات مختلفة متفاوتة ما بين هلاك ظاهرى وهلاك كونى دائم... لما كان ذلك: فإنه من المقرر دفع مقابل - وذلك بالمعنى الحسابى - لكل كائن يحدث له فقدان أو زيادة فى جزء من تلك الطاقة، ولقد ظهر ذلك فى صورة ما يسمى: باللذة وكان لزامًا على تلك اللذة أن يتحصل عليها الكائن سواء فى حالة الفقدان أو الاستزادة... ومن حيث إنه لا يوجد شىء فى ذلك الوجود غير الألم؛ فكان من المحتم خلق كل اللذات من ذلك الألم...ولقد حدث ذلك بالفعل بأن صارت كل أنواع اللذات كميات غاية فى الضآلة من الألم... نخلص من ذلك إذًا بأن الألم يعذب المادة، والمادة تبغى الفناء، ولكن الكائنات تتعلق بأهداب اللذة التى هى أجزاء بالغة الضآلة من الألم.. المادة تبغى العدم... الخالق يبغى تكثيف العدم إلى مادة... المادة تتمرد، والعدم يلتهمها، ولكن الله باق.. المادة تتألم، والعدم يلتهمها، ولكن الله باق... المادة تتألم، والعدم يلتهمها، ولكن الله باق.. المادة تتألم، والعدم يلتهمها، ولكن الله باق... إذًا فإن الخالق هو...

وهنا دوى انفجار رهيب، وتطايرت أجزاء الإمبراطور أشلاء فى الفضاء، وتصدع سور البيت الحصين، وأطلق كل مدفع بالسور طلقة واحدة ثم خمد إلى الأبد، وأطاحت إحدى تلك الطلقات بعربة الجليد التى ترقد عليها الفقمة، وتشتت كلاب الهسكى، وانشطر جسد قائدها إلى شطرين: فأعفى نهائيًا من إثبات قيادته بالمعارك الجانبية مع الكلب المجاور، كما طار كلب فى الهواء ليسقط عند أقدام بعض البطاريق البعيدة عن المكان، وأقبلت الكلاب الباقية على لحم قائدها تنهشه، وراحت تلوك ذلك اللحم وقد تسربلت أشداقها بالدماء الحمراء فراحت تلعقها فى لذة بعد أن أصابتها حمى الاستذئاب، وقد ألفت أنفسها فجأة حرة طليقة وقد استردت قيادها، ثم راحت تسعى بين ركام الجليد، فعثرت على جسد جاك الإنسان الجانزى القابع فى حفرته وقد انشقت بطنه بطولها مسربلة بدمائه الزرقاء، وما إن انقضت عليه فى تسابق لا يتسنى إلا للذئاب وحدها: حتى تراجعت عنه لتوها بعدما اكتشفت أن لحمه بالغ المرارة، وعندما أصابها القنوط من ذلك اللحم المر الغريب الذى تأبى مراراته بالتصريح لذلك

اللحم الأبيض بأن يحل ضيفًا فى معداتها ومعيها: راحت تجوس بين ركام الثلوج صاعدة هابطة فوق الأحجار المتناثرة هنا وهناك بعد انهيار ودمار الإمبراطور، واعتلى بعضها صهوة المدافع التى أطلت فوهاتها من بين الأحجار المنهارة، بينما سعى البعض حثيثًا نحو رائحة مادة تنبعث من مكان ما بين الجليد، وإن هى إلا لحظات حتى كانت الكلاب المستذئبة قد اكتشفت جثة العالم بيرسون الأمريكى ـ أو الإله بيرسون فى عرف جاك الإنسان الجانزى.. ولما كانت لا تضمر له مزيدًا من الفضول كما هو حال البطاريق: فإنها قد أقبلت لتوها على الجثة لتملأ أشداقها من لحمها الطرى.. وفى النهاية لم تبق إلا رأس بيرسون المشجوجة، وعلى الفور اشتبك كلبان فى صراع دامٍ عنيف أعملت فيه الأنياب والمخالب فى صورة بشعة انزعجت لها البطاريق التى تجوب المنطقةً على مبعدة، ولم يحسم الأمر إلا تدخل كلب ثالث.. بيد أن تدخله لفض النزاع الناشب: لم يكن بطريقة تخليص الكلبين من بعضهما البعض، بل كان تدخلاً دبلوماسيًا: وذلك بأن انقض على الرأس يلتهمها، حتى أنها وبعد دقائق معدودات كانت ضمن أحشاء ذلك العملاق الهسكى.. امتلأت بطون الكلاب السبعة الباقية على قيد الحياة والتى أصبحت الآن شعثاء الفراء مكشرة الأنياب بشعة المنظر كالشياطين، فراحت تدب بين الأنقاض مطقسة بين أكوام الجليد وأشلاء البناء عن مزيد من اللحم الطيب المذاق بعد أن أصابتها هستيريا اللحم، وما إن وقع بصرها على البطاريق الواقفة على مبعدة فى شكل حلقات، وقد توسطت كل حلقة منها جثة بطريق أو اثنين، تلك التى قضت نحبها على إثر انفجار ودمار الإمبراطور... ما إن وقع بصرها عليها، حتى وقفت تنظر فى إعجاب إلى تلك الفرائس الفضولية الشهية السهلة المنال، ثم جعلت تتقدم نحوها بخطوات لا تتسم بالسرعة حتى لا يكون فى ذلك إزعاجًا لها وتحذيرًا بالفرار إذا ما اشتمت رائحة المهاجمة، وفى تلك الأثناء كانت إناث البطاريق الخمسة التى تحمل القنابل الخمسة العجيبة التكوين لا تزال تمد تلك القنابل بفيض من دفئها الذى هو جزء لا يتجزأ من حنانها وعطفها ورعايتها وأمومتها المكنونة.

تقدمت كلاب الهسكى وئيدًا وئيدًا فى شبه قوس دون أن يبدو على البطاريق الفضولية النشأة ما ينم عن إقامتها وزنا لتلك الذئاب التى لا تعرفها مطلقًا تلك الأصقاع الجنوبية النائية بوصفها طفرات نزحت صناعيًا من الأصقاع المتجمدة الشمالية، وفى ذلك الوقت كانت الإناث الخمس لا تزال تشبع بيضها القاتل بقبس من فيض دفئها..

وفجأة دوت انفجارات خمسة هائلة، سرعان ما أطاحت بكلاب الهسكى السبعة بعيدًا بعيدًا فوق ركام الجليد، فاغرة أفواهها وقد رقدت رقدتها الأخيرة، واستقر أمام كل فم مفغور بطريق شهى دسم كجثة هامدة وقد تطاير عنها الفضول...

وبالرغم من كل ذلك الدمار؛ فلقد كان هناك شيئان صغيران لا يزيد ارتفاعهما عن قدم واحد يتحركان فوق ركام الثلوج، ولم يكن هذان الشيئان غير جنينى جاك الإنسان الجانزى، ولقد كان أمرهما العجيب خير دافع على فضول البطاريق التى تجوب المنطقة، والتى أتت من بعيد لتشهد أحداث الساعة، ولم تمض لحظات حتى كانت قد شكلت حول هذين الصغيرين الجانزيين حلقة تش ه حلقة ذكر الدراويش: ما بين منحن وقائم، وما بين مقر ومعترض.....

* * *

الفصـل الثانى

« غـادة المقـابر »

ـ أواه يا عين جوية... أواه يا عين الشمس... ما أبدعك يا حمام كيلوباترا... ما أروعك أيتها العين الحمئة.... هكذا يقول عنك عمى جمال.. ولكن آأنت حقيقة العين التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم كما يقول عمى جمال؟؟.. آأنت التى شرب منك الإسكندر الأكبر المقدونى عندما جاء إلى واحة سيوة؟؟... ما أخلدك إذًا لو كنت كذلك... ما أطيب ماؤك أيتها العين الحمئة... إنه دافئ فى الصباح، بارد وقت الظهيرة، ساخن فى الليل... عمت صباحا أيتها العين الحمئة الخالدة... لقد اغتسلت وجهى ويدى ورجلى: بمائك الفوار شأنى كل صباح.... وهأنذا قد صففت جدائل شعرى الذهبى على صورتى المنعكسة فوق مائك السلسبيل... وها هى عنزاتى الخمس وخرافى الثلاث قد ارتوت من عذب مائك، ها هو الكلب "صافى" قد أنعش فراءه الأسود الحريرى بقطراتٍ منك، حقيقة إن صدر ثوبى قد ابتل تمامًا بالماء، ولكن لا بأس... فلسوف يجف حتما وأنا فى طريقى إلى مدرسة الأغورمى كيما أذهب بالطعام إلى ابن عمتى "بهاء"... لقد أغفل كراسة الإنشاء فى كوخنا.... كان سيكون أمرًا رائعًا اليوم أن يتحصل على أعلى درجة فى الفصل بعد أن أملاه عمى جمال الموضوع الإنشائى بأسلوبه الرائع الذى يخلب الألباب، والذى يتعذر حتى على مُدرسى المدرسة أو ناظرها تدبيج مثله، ولكن: ها هو قد أغفل الكراسة، وامراه!!.... ولكن لا بأس فلسوف أسرع بها إليه... لن أسمح لعصا أستاذه أن تنال منه اليوم... أليس كذلك يا صافى؟؟؟..

وعلى الفور: استنهضت غادة ابنة الخمسة عشر ربيعًا عزيمتها، ودست مشطها الأثرى الفرعونى والذى كان قد أهداه لها عمها جمال: فى صدرها، وراحت تصفر لعنزتها البيضاء وخرافها السوداء، فأسرعت نحوها وقد رمح من خلفها قافزًا الكلب صافى الأسود العملاق الكث الفراء... وبعد مسيرة قطعتها غادة ما بين سير وعدو، وقد تراقصت ضفائرها الذهبية على رأسها كأرجوحات طريفة دنت من هيكل آمون الذى لم يبق منه عبر الزمن غير جزء من

جدار قائم بمفرده، وقد ظهرت على واجهته لوحة أثرية رائعة للإله آمون وهو يستقبل الإسكندر الأكبر ويخلع عليه شعاره: ألا وهو قرنى الكبش... وقفت غادة بحيث صارت أسفل الجدار تمامًا، وجعلت تتأمل اللوحة مليًا وكأنما تراها لأول مرة وما فتئت تتمتم وقد استقر ناظراها على اللوحة الأثرية:

- آمون ... أكنت حقًا إلهًا يا آمون؟؟.... وما معنى أنك كنت إلهًا يا آمون؟؟... وهل أنت الآن لست إلهًا يا آمون؟؟... وإذا كنت الآن لست إلهًا: فماذا عساك أن تكون؟... لقد زارك الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق.م... إن هذا درس من دروس عمى جمال... لقد نحر الكهنة وقتها الضحايا لذلك الإسكندر الزائر المتقرب... ولقد اتخذ الإسكندر شارتك أيها المعبود آمون ولبسها فوق رأسه، ولذلك فلقد لقب بالإسكندر ذى القرنين... وهذا أيضا ضمن دروس عمى جمال... إنه لما يشرفنى أن أحييكما كل صباح... والآن: عمت صباحًا أيها المعبود آمون... عمت صباحا يا ذا القرنين... لسوف أذهب بالطعام إلى مدرسة ابن عمتى بهاء، كما أننى سأحمل كراسة الإنشاء إليه، وفى الطريق سوف أُسَرى عن نفسى بجمع "قطن العشار" سأدسه فى صدرى كيما تكون وسادة زواجى من بهاء رائعة كبيرة عالية مريحة...

وانطلقت الفتاة ومن خلفها العنزات الخمس وخرافها الثلاث قافزة فى مرح فوق حصباء تشاكسها النسمات بصفعات من أكف الرمال الناعمة، ودنت أخيرًا من نخلاتها العشرين وشجرات الزيتون الثلاثين التى ورثتها عن أمها الراحلة، والتى بدت من بينها خمس نخلات من النوع الغزالى المسرف الطول الغزير السعف، وقد تناثرت من حولها قبور كثيرة متهدمة قديمة يتوسطها كوخ من جذوع النخيل له سقف من السعف.

أقبلت الفتاة نحو باب الكوخ وفتحت بابه الخشبى الذى علق فوقه من الداخل حزام صعود النخيل الليفى وهشت بعض دجاجات وبطات كانت متجمعة حول الباب، وأسرعت من فورها وانحنت أسفل سريرها المصنوع من سعف النخيل والمجاور لسرير ابن عمتها بهاء، وجرت أحد المراجين، والتقطت كيسًا من الخوص الملون وملأته حتى منتصفه ببلح التمر متمتمة:

- إنه بلح لذيذ شهى قد جمعته من أجل حبيبى... إنه تمر الطقطق ألذ أنواع البلح... ولكن رغم ذلك فإننى لا أستطيع بيعه للناس فى الأغورمى، ذلك لأنهم يعتقدون أن نخلاتى العشرين تشرب من دماء الموتى، وبالرغم من أن المقابر قديمة ومتهدمة ومهجورة وما عاد الناس يدفنون موتاهم فيها: فإنهم لا يزالون يعتقدون أنها ترتوى من دمائهم... لا بأس... فأنا وابن عمتى نأكل منها، أما باقى المحصول فلا يسعنى إلا أن أبيعه للناس بواحة سيوة لأنهم بطبيعة الحال يجهلون أمر تلك النخلات المتجنى عليها...

وأزاحت المرجون إلى موضعه أسفل السرير، ثم جذبت مرجوناً آخر والتقطت منه ثلاث بيضات مسلوقة، ودستها فى كيس البلح، وجذبت مرجونًا ثالثًا والتقطت رغيفين وطوتهما ودستهما ثم أغلقت الكيس، والتقطت كراسة كانت فوق السرير المجاور، وجذبت باب الكوخ، وأسرعت تجرى فى أسمالها الزرقاء المرتقة المكونة من قطعتين والتى كشفت عن كتفين هزيلين، وصدر ما يكاد يرتفع نهداه حتى ينخفض مرة أخرى ما بين إحجام وإقدام على الارتفاع...

وإن هى إلا لحظات حتى كانت أمام قبر تهدمت قوالب من مؤخرته مشكلة خنًا مظلمًا، وقد تألق فوقه وفى حفرة مسطحة بضع من نباتات الصبار، والتمعت بجوار اللوحة الرخامية الأمامية والتى نقش عليها اسم المتوفاة: مرآة صغيرة قد ألصقت بعناية فوق واجهة القبر بملاط من الطفل الأحمر.

جلست الفتاة النحيلة الجميلة الطلعة الذهبية الجدائل أمام القبر فى شبه ركوع، ثم قبلت اللوحة الرخامية التى تتسنم مقدمة القبر: واضعة كيس الغذاء والكراسة بجوار كلبها الذى ربض هو الآخر من خلف صاحبته متمسحا بها وقد رتعت الخراف والعنزات بين القبور المتهدمة، قافزة تحت أقدام النخيل الباسق مباهية ذلك النخيل العملاق بقدرتها على الحركة والتجوال...

جعلت الفتاة تحدق فى المرآة الملصقة على واجهة القبر، ثم أنشأت تقول فى صوت خافت النبرات:

ـ أماه.... هل ترينني حقًا يا أمى صباح؟؟... لقد ألصقت تلك المرآة فوق قبرك كى تكون عينًا لك يمكنك أن ترينى بها، وكيما أرى نفسى أنا الأخرى من خلال عينك يا أماه... لقد ورثت عنك يا أمى تلك النخلات العشرين والشجرات الثلاثين... إنها تشرب من دماء الموتى يا أمى ... لقد مات أبى فى الحرب ولا ندرى له قبرًا .... ولكن لا بأس .... فهأنت يا أماه تشرقين بضيائك على المكان... إن عمى جمال ورغم إصراره على الابتعاد عنا، بل وعن الناس جميعًا: اراه هو الآخر يملأ علينا فراغا من حياتنا... ما أعذب دروسه يا أماه، بل ما أطرف عربته العجيبة وثعلبه وذئبه وبغله الصعلوك... وأخيرًا، ما أروع عبده الإنسان الجانزى الرسام النحات "آمون"... ولكن ما قولك الآن؟؟... وهل ترانى صرت جميلة حقًا يا أماه؟؟... إن فتيات الأغورمى يحسدننى على شعرى الذهبى غير الجعد بخلافهن، إنهن يحسدننى على بياض بشرتى... لقد سألت عمى جمال فقال إن نسوة الأغورمى وسيوة: تنحدرن من تزاوج المصريين بالأحباش... إنهن يتزوجن صغيرات يا أماه فى سن الثانية عشرة... أواه لو كنت حية ترزقين يا أماه... لقد كان من

المتوجب عليك أن تلبسى ثوب عرسك فى يوم عرسى كعادة سيوة يا أمى الحبيبة... انظرى يا أماه من خلال مرآتك إلى خصلاتى الذهبية... أليست رائعة يا أماه؟؟.. انظرى من خلال عينك إلى خصلاتى الذهبية... أليست رائعة يا أماه؟؟.. يقول عمى جمال إن وجهى يشبه وجهك تمامًا... أحقيقة ذلك يا أماه؟؟... إننى لم أنعم بنور محياك يا حبيبتى.... لقد كنت سببًا مباشرًا فى موتك... هكذا يقول عمى جمال... لقد ولدتنى يا أماه بالعملية القيصرية، ولقد قضيت نحبك فى تلك العملية، وبقيت أنا كجنين مشاغب يحيى ويميت الآخرين... ليتنى قد مت دونك يا أماه.... ولكن يبدو أننى جنين مشاغب حقا.

وقبلت غادة واجهة القبر واحتضنته، ثم أقبلت على الكلب صافى الرابض من خلفها وقد انطمس ظله فى ظلها الراقد فوق الرمال، وانهمكت فى تعليق كيس الغذاء فى رقبته بواسطة خيط سميك من قطن العشار الحريرى، ثم أسرعت تعدو ناحية قبر قديم آخر قد فرد فوقه "برش" من الخوص قد نشرت فوقه كمية من البلح الغزالى، وأمسكت بأردان البرش وجمعته بلحه، ثم ضفرت تلك الأردان بسرعة وبراعة عجيبة، ثم حملته فوق رأسها بعد أن وضعت كراسة الإنشاء فى صدرها فوق لوزات من قطن العشار، وراحت تسير متهادية فوق الرمال ناظرة إلى الشمس المشرقة من خلف قمتى جبل الدكرور "نادرة وناصرة" متعجبة من تلك الشمس التى لا تتخلف عنها قيد أنملة رغم ما قطعته قدماها عبر الطريق ، مما جعلها تتهم الشمس بالمراوغة الشديدة .

كانت غادة بين الفينة والفينة تهبط بحملها ؛ وتحطه فوق الأرض كيما تلتقط لوزات من قطن العشار تبدو لها متفتحة فى الطريق الرملى متناثرة فوق شجيراتها هنا وهناك ، فى مراوغة شديدة: وكأنما تعمد تلك إلى ذلك التناثر كيما يكون جمع وسادة العرس شيئا يتسم بالعسر والصعوبة... وما زالت غادة تسير فى طريقها ومن خلفها عنزاتها وخرافها وكلبها صافى المدلل الذى كان يبدو فرحًا بحمله الطريف: حتى دنت من مدرسة الأغورمى التمهيدية - وهى مرحلة بعد التحضيرية وقوامها أربع سنوات -

اتخذت غادة مكانًا أسفل السور، وفردت أردان برش البلح ، وقد فطنت إلى أن الطلبة فى فسحة الصباح بعد الحصة الأولى... وبخفة القطط: ارتقت غادة السور الحجرى وبين قبضتيها حفنة من البلح الغزالى الذى تعلم علم اليقين أنه لا يمكن بيعه إلا بتلك الطريقة، حيث لا يفطن أحد إلى أنه يشرب من دماء الموتى شأن الناس فى الجهة التى تسكنها من بلدة الأغورمى.. وارتفعت عقيرة غادة وقد راحت ترقب الطلبة من علٍ وهم يتسابقون ويمرحون لاعبين مع بعضهم البعض لعبة الغميضاء:

ـ البلح الغزالى... البلح الغزالى الشهى... أقبل أيها الصبى الكريم واشتر منى حفنة من البلح الغزالى... إننى أصعد نخيله الباسق وأرتقيه بنفسى من أجل تلك الحفنات من البلح التى أقدمها إليك من أجل قرش واحد للحفنة... أقبل أيها الطالب الكريم. ففى إقبالتك أنت ورفاقك قروش، وفى إقبالة القروش إقبالة ليوم عرسى.. أقبلوا أيها الصبية... أقبلوا يا رفاق .. إن حفنتى تملأ "المنطال"....

وأسرع نحوها صبى يلبس "شورت" الألعاب الأبيض وقد التمع بين أصابعه قرش، وما كاد يدنو به منها وقد شب على قدميه بجوار السور: حتى جذبه صبى آخر قائلاً فى صرامة:

ـ احذر .... إنه بلح يشرب من دماء الموتى...

وما كاد الصبى يسمع ذلك: حتى أسرع مبتعدًا عن السور ناظرًا نظرة هلع إلى تلك البائعة الصغيرة التى أصابها القنوط، فهتفت قائلة، وقد امتلأت عيناها بالدموع كما لو كانت ركامًا فى السماء يوشك أن يهطل سيلاً:

ـ صدقنى أيها الفتى الكريم... إنه بلح شهى لذيذ... إنه أطيب بلح فى الأغورمى... لا مثيل له فى واحة سيوة بأثرها... إنه يرتوى من عين جوية... إنها حمام كليوباترا الأثرى... إليك بلحات منه بلا مقابل... سوف لا ترضى له بديلاً... ستشترى منه كل يوم، وعندما لا أحضر سوف تبتئس لذلك أيما ابتئاس.

وهنا هتف الصبى الذى نهى الطالب عن الشراء قائلاً وهو يبتعد:

ـ كلا.... كلا.... بل إنه يشرب من دماء الموتى.. هه...

أسقط فى يد غادة المقابر، فراحت تجيل الطرف من عل إلى تلك الجماعات من الصبية الذين راحوا يتطلعون إليها شذرًا، ولما يئست تمامًا من بيع البلح: هبطت وعادت أدراجها إلى الأرض وقد تجمعت عنزاتها مع خرافها مستلقية تلعق دفء الضياء بفرائها، فتواثب الكلب صافى على ركبتيها وقد لاحظ حزنها الذى ارتسم فوق محياها النضير، ولم يسعها هى الأخرى إلا أن تجلس فوق الرمال مسندة ظهرها إلى السور، مداعبة فراء الكلب الكث متمتمة فى الوقت الذى كان ناقوس المدرسة يدق معلنًا انتهاء الفسحة الصغيرة:

ـ ما قولك يا صافى؟؟.. الطلبة لا يرغبون فى شراء البلح يا صافى... أيرضيك منهم ذلك؟... إذًا لا مندوحة من الذهاب إلى واحة سيوة لبيعه هناك فى موسم الدميرة... والآن... لقد آن وقت مهمتك يا صافى.. عليك بتلك الكراسة، وعليك بذلك الكيس.. لقد آن لك أن توصلهما إلى بهاء... هيا أسرع يا صافى قبل أن يعنفه أستاذه، ولك منى مكافأة... ستأكل اليوم غذاء طيبا... كما أننى سأعد لك بيتًا رائعًا دافئًا... سأعده لك

فى الخن الذى يبدو بمؤخرة قبر أمى... سيكون خنًا رائعًا بعد تبطينه بمزيد من خوص نخلتى رشيدة ...

ـ نقول - ...

كانت الحصة الثانية فى تلك الأثناء قد بدأت، وما أن انتظم الطلبة فى الفصل الدراسى من السنة الرابعة: حتى دخل عليهم أستاذهم معتمدًا على عصاه ذات البزوز الرفيعة فى ردائه السنوسى الذى يتألف من قفطان حريرى وجبة سوداء فضفاضة مقصبة، وقد بدا مهيب الطلعة حليق الشارب مطلقًا لحيته التى وخطها قليل من الشيب معلنًا عن فجر شيخوخته..

جلس الأستاذ سليمان على مقعده أمام طلبته ومن خلفه بدت سبورة مطلية باللون الأخضر، وقال وهو يجيل الطرف نحو طلبته الذين جلسوا فى هدوء وصمت:

ـ صباح الخير طلبتى الأعزاء... والآن على كل طالب أن يعد كراسة الإنشاء، فلسوف يطالعنا كلاً بما كتب...

كان الطالب بهاء ابن عمة «غادة» الصبى الذى سلخ عامه السادس عشر ولسوء الطالع: يجلس فى الصف الأول، بل وكان أول طالب فى الفصل إلى الميمنة، ولقد كان حظًا سيئًا كذلك: أن يبدأ الأستاذ بالميمنة شأنه فى كل مرة ـ تيمنًا منه بتلك الميمنة ـ وما إن وقع على بهاء الاختيار: حتى صعق فى مجلسه بعد أن تبين فى التو فحسب: أنه قد أغفل كراسته بالكوخ، ولما بدا متلعثمًا مطبق الشفتين لا يتكلم عاقدًا ذراعيه على صدره وقد تهدل شعره الأسود المسترسل فوق جبينه: حتى نهره الأستاذ الوقور بقوله:

ـ والآن.. عليك أن تخرج لنا عن قمطرك... وما عليك أيضًا إلا أن تمد كفك كى تسلم على "الحاجة" لتصيبك ببركتها.. هيا يا بهاء يا بن فريد..

ونهض بهاء واقفًا فى تخاذل وتقدمت به قدماه فى هلع نحو أستاذه وقال وهو يمد كفه مفتوحة:

ـ لقد كتبت الموضوع يا سيدى... لقد كلفتنا بموضوع مفتوح لأول مرة دون تحديد، ولقد كتبته بحق الله يا سيدى، ولكننى أغفلت الكراسة بالبيت..

فقال الأستاذ وهو يرفع عصاه الرهيبة ليهوى بها فوق كفه:

ـ حسنًا يا بهاء... سأعلمك كيف تكذب على أستاذك... هذه لك يا مهمل!!..

وهبطت العصا مكثفة حنق الأستاذ وغيظه فى صورة جرعة قوية من الألم مثبتة أن أنواع الطاقة يمكن تحويلها إلى بعضها البعض حتى ولو كانت هذه الطاقة نفسية أم ذهنية، مادية أم معنوية محسوسة غير ملموسة...

تجلد بهاء وهو يتلقى ضربات العصا التى كانت تهبط على كفه بمزيد من الألم وكأنه يتنزل عليه توًا من السماء... وفى تلك الأثناء راحت نفسه تحدثه بطريقة كانت قد انتقلت إليه من عمه جمال....

أجل ... فلقد فكر فى أن العصا مادة، وأن هذه المادة من ذرات كما درس فى الكيمياء، وأن كفه تتألف هى الأخرى من ذرات، ومعنى ذلك أن هناك ذرات تهوى على ذرات.. أو بالأحرى ذرات مكدسة تهوى على ذرات مكدسة، والنتيجة البينة الناجمة عن ذلك هو ألم مريع يستقبله على التو جهازه العصبى... ومعنى ذلك أنه لولا تكدس الذرات فى كل من كفه والعصا لما..

وخلبته طريقة التفكير التى انتقلت إليه من عمه «جمال» كما لو كانت عدوى وكاد يسترسل فيها، ولكنه أفاق على منظر بعض قطرات الدم التى انبجست من كفه موضع إحدى بزوز العصا الرهيبة بوصفها مادة مكدسة...

وما كادت العصا تغادر كفه بعد أن نالت بغيتها: حتى شاهد كلاً من بالفصل: عجبا..

أجل... فلقد أطل فى تلك الأثناء رأس كلب أسود يحمل فى فمه كراسة من النافذة العملاقة المنفتحة مباشرة على حديقة المدرسة، وإن هى إلا هنيهة: حتى كان الكلب يقفز داخل الفصل متخطيًا الطالب المجاور لتلك النافذة ، وسرعان ما كان بين صفوف القمطرات وقد تدلى من عنقه كيس الغذاء الخوصى.. وتقابل الاثنان بين الصفوف: الآدمى بهاء، والكلبى صافى..

مد بهاء كفيه الملتهبتين نحو كلبه صافى، وانحنى يقبله وقد خيم الهدوء والوجوم على وجوه الطلبة وأستاذهم وعلى العصا التى بدت متخاذلة فى يد الرجل منكسة طرفها نحو الأرض فى شبه لوم وانكسار.

تناول بهاء كراسته المفتقدة، وبرفق وحرص حل الرباط من حول عنق كلبه وجذب الكيس، وقبل غرة رأس صافى بعين دامعة، ولعق الكلب دمعة بدت له مالحة المذاق، ثم أدار ظهره لصاحبه مبصبصًا بذيله كشفرة خاصة بينهما، ثم انطلق عبر النافذة وكأنه جنى جاء ليتحدى، أو لكأنه ملاك جاء لينتقد ويصحح.

ألجمت المفاجأة لسان الأستاذ للحظات، فلقد كان ذلك الأمر هو الأول من نوعه، بل ولم يحدث أن رأى من قبل كلبًا يقوم بمثل تلك المهمة العجيبة، بيد أنه وعندما فاءت إليه نفسه: قال وقد ماجت نفسه بهواجس شتى:

ـ حسنًا يا بهاء... لا بأس... لقد أتى إليك كلبك بكراستك وبغذائك... ما عليك الآن إلا أن تقرأ علينا موضوعك الإنشائى...

انسحب بهاء إلى قمطره متصفحًا وجوه الطلبة حوله وكأنهم صفحات كتاب ضخم طبع الألم حروفه بمداده الأسود عليها، وما إن صار في مكانه بجوار زميله حتى اعتدل في وقفته رافعًا كراسته بين يديه متخذًا وضع المطالعة، وتريث هنيهة، ثم ردد قائلاً:

ـ الموضوع: الألم ـ

وما إن نطق الطالب باسم موضوعه المنتخب العجيب: حتى فغر الأستاذ فاه من الدهشة، وقال وقد اتسعت حدقتاه متفرسًا في وجوه الطلبة المتبهرين من حوله:

ـ أوه .. الألم؟؟.. الألم؟؟.. حقًا... يا له من موضوع طريف فذ في آن.. لا بأس... الآن استمر..

وقرأ الطالب بهاء ما كتبه ملتقطًا ما تبقى من رباطة الجأش في نفسه:

ـ من حيث إنه لا فاصل بين ثانية وثانية، ودقيقة ودقيقة، وساعة وساعة: إذًا فلا فاصل بين زمان وزمان... ومن حيث إنه لا فاصل بين أرض وماء أو أرض وهواء أو هواء وفراغ، إذًا فلا فاصل بين مكان ومكان، ومن حيث إن الزمان يمر على كل المكان، ومن حيث إن الزمان يقاس بأبعاد المكان، إذًا فلا فاصل بين زمان ومكان.. ومن حيث إن الأشياء التي لا تنفصل لابد وأن تكون من مادة واحدة: فإن هذا يجزم أن الزمان هو المكان، والمكان هو الزمان... ومن ثم فإن المكان تكديس للزمان، كما وأن المادة تكديس للعدم، ومن حيث إن شقي الكينونة أصبحا شيئًا واحدًا ـ ألا وهما الزمان والمكان ـ فإن ذلك يعني أن الكائن ليس إلا شقا واحدا: وهو الزمان المكدس، ومن حيث إن كل كائن يتمثل في زمان ما ومكان ما، فلقد بات جليا أنه يتمثل في زمن مكدس، وإذا ما أزيل عنه ذلك التكدس لتبعثر ذلك الكائن وصار زمنًا مبعثرًا، ومن حيث إننا أجزمنا بأن الزمان لا يتبعثر، وذلك لأنه يتكون من وحدات شديدة الالتصاق؛ فإن ذلك يعني أن الكائن غير قابل للتبعثر، ومن حيث إن الكائن يموت ويذوي؛ فإن ذلك يعني أنه قابل للتبعثر ظاهريا، ولكي نجمع بين النقيضين، نقول إنه قابل للتبعثر وعدم التبعثر في آن، ومن حيث إن المادة تكثيف للعدم: فإن العدم يظل متألمًا متوترًا كميا لأنه لا يقبل بذلك التكثيف لأنه ليس من جبلاته الطبيعية، من حيث ذلك؛ فإن طابع الأشياء المادية جمعاء هو: الألم... والألم لأنها تريد أن تنطلق من ذلك التكثيف لتنبجس إلى حيز العدم الذي هو مادة الأساس، ومن حيث إن الألم ينتاب كل مادة، ومن حيث إن المادة وعندما تكون بسبيلها إلى العدم تنطلق منها ما يسمى بالطاقة؛ فإن ذلك يعني أن الطاقة هي الألم، والألم هو الطاقة.. ولما كان انطلاق الطاقة يعني انطلاق الألم بكميات مختلفة متفاوتة ما

بين هلاك ظاهرى وهلاك كونى دائم.. لما كان ذلك؛ فإنه من المقرر دفع مقابل ـ وذلك بالمعنى الحسابى ـ لكل كائن يحدث له فقدان أو زيادة فى جزء من تلك الطاقة، ولقد ظهر ذلك فى صورة ما يسمى باللذة.. وكان لزامًا على تلك اللذة أن يتحصل عليها الكائن سواء فى حالة الفقدان أو الاستزادة.. ومن حيث إنه لا يوجد شيء فى ذلك الوجود غير الألم؛ فكان من المحتم خلق كل اللذات من ذلك الألم... ولقد حدث ذلك بالفعل بأن صارت كل أنواع اللذات كميات غاية فى الضآلة من الألم.. نخلص من ذلك إذًا بأن الألم يعذب المادة، والمادة تبغى الفناء، ولكن الكائنات تتعلق بأهداب اللذة التى هى أجزاء بالغة الضآلة من الألم.. الكائنات مختلفة، ولكنها مادة... المادة تكثيف للعدم.. العدم يتمرد على المادة... المادة تبغى العدم، الخالق يبغى تكثيف العدم إلى مادة.. المادة تتمرد، والعدم يلتهمها؛ ولكن الله باق...

ما إن فرغ بهاء من قراءة موضوعه الذى بدا غير عادي أو محتمل بالنسبة لطالب فى مثل سنه أو حتى فى غير سنه: حتى نكس الأستاذ وجهه مطرقًا متفكرًا سابحًا فى مهامه، ثم رفع رأسه فى بطء شديد قائلاً فى شبه همس:

ـ والآن.. لقد قرأت لنا موضوعك الذى يبدو طريفًا وغريبًا... أنا أقطع بأن هناك أحدهم قد تدخل فى كتابة هذا الموضوع...

أنا لا أعارض بالقطع فى مساعدة الطلبة فى إنشائهم.. بل أنا أشجع على هذا النهج، فهو بمثابة توجيه معنوى محمود... ولكن فحسب: أود أن أعلم حقيقة الأمر، وإننى لا ألومك على ذلك كما قلت لك..

وهنا قال بهاء متلعثمًا:

ـ إننى أصرح لك يا سيدى بأن عمى جمال هو الذى ساعدنى..

فقال الأستاذ وقد جحظت عيناه:

ـ لا بأس يا ولدى... فحسب أود منه أن يجيب على سؤال واحد يمكنك أن توجهه إليه، وإنه لمما يسعدنى أن أتشرف بمعرفته إن أراد هو ذلك.. أود أن تسأله: من أين له بهذا الكلام والموضوع الغريب؟؟.. على أن توافينى بالإجابة فى أقرب فرصة... ولكى أثبت لك أننى مغتبط من موضوعك فإنه لا يسعنى إلا أن أمنحك درجاتك النهائية... ناولنى كراستك...

وتقدم الطالب المنبهر بكراسته إلى أستاذه، وعلى الفور وقع الأستاذ عليها دون أن يعمد إلى إعادة قراءتها ثم ضمن توقيعه الدرجة النهائية، وأمر من فوره الطلبة العشرين بالتصفيق،

فعاد بهاء إلى قمطره وقد زف إليه بعاصفة من التصفيق قد ألهبت أكف الطلبة فغدت وكأنما قد سلمت جميعها على "حاجة" الفصل.

انصرم اليوم الدراسى فى تحصيل الدروس على أيدى الأساتذة السنوسية، وخرج بهاء من المدرسة، واتخذ طريق العودة إلى كوخه المقام بين القبور، وقد اتخذت الشمس طريقها هى الأخرى نحو كهف الأبدية.

كانت الفتاة غادة: قد حملت عصا الترحال بمجرد عودة الكلب صافى إليها بعد أن قام بمهمته الطريفة التى أسفرت عن تغير ملحوظ جوهرى فى مفهوم الأستاذ عن تلميذه، ولقد كان فى مستطاع بهاء أن يترسم خطا غادة المقابر فوق الرمال الذهبية التى كانت أشبه ما تكون بجدائل رائعة فوق رأس الأرض كثيرا ما تداعبها هبات النسيم... ولم يكن بمقدور بهاء أن يترسم خطا غادة المقابر فحسب: بل أيضا كان فى مقدوره أن يقرأ مضمون تلك الخطوات المطبوعة فوق رمال الطريق... أجل... أجل.. كيف لا: وهو ذلك الفتى المفرط الحساسية كما لو كان ميزانا حساسا.. كيف لا: وهو فتى الأغورمى الأوحد الذى جاءت نشأته مع غادة بين القبور... كيف لا وهو ذلك الفتى الذى يمكنه أن يقرأ تحركات سعف النخيل..

كان بهاء: جميل الطلعة حقا، شعره يلهو مع النسيم فى لعب متواصل، وعيناه السوداوان تطالعان كل شىء حولها فى حب وحنو بالغ، وبشرته تطالع الشمس ببياضها: فتستشيط منها غضبًا وحسدًا فتسدد إليها مزيدًا من الأشعة للنيل من ذاك الصفاء، بيد أن هذا لم يكن ليزيدها إلا احمرارًا فوق احمرار: حتى أن الفتى كان يبدو دائمًا خجلاً وجلاً من كل شىء... هذا ولقد تألق جسده المتوسط الطول المعتدل القوام فى بنطاله وقميصه الرماديين اللذين قد اعتادت غادة على غسلهما ونشرهما على حبل ممدود بين النخلتين "رشيدة" و "سعيدة" بوصفهما نخلتين حكيمتين لا تميلان إلى النصائح المتطرفة، وبوصفهما مستشارتين لهما أهميتهما لدى غادة... جعل بهاء يقرأ خطوات غادة وهو ماض يجد فى الطريق، وخلال ذلك راح يستمع إلى حديث نفسه:

– تبدأ خطوات رحلة العودة يا غادة: بمجموعة متسعة المدى مصحوبة بانحرافات جانبية لا تتناسب مع هذا الاتساع: وإن هذا لينم عن ضيق وألم وانقباض وتبرم... والآن.. ها هى الخطوات قد بدأت تضيق عما كانت عليه فى البداية، ولاشك أن ذلك يعنى الضيق من ذلك الضيق... ولكننى ألمح بضع خطوات جانبية عميقة الأثر.. أوه... ذلك قطعًا ابتغاء جمع لوزات قطن العشار.. لك الله يا غادة... دائمًا تفكرين فى أمر الزواج منى بعقل ناضج لا يكتنفه الطيش أو الحماقة.. ها هى غادة قد استراحت، وبالحتم ذلك

يعنى أنها كانت تحمل حملاً.. أوه.. لعلها كانت قد أتت ببلح لبيعه، ويبدو أنها قد عادت به دون أن يصيبها حظ فى البيع...

مازال بهاء يجد فى السير حتى طالعته النخلات العشرون بقاماتها المديدة مشرئبة بأعناقها نحو السماء وقد راح سعفها يهتز متماوجًا بخوصاته المدببة الأطراف: وكأنما هى أقلام عديدة تسطر سطورها فوق صفحات السحب البيض وهى تمر تباعًا كما لو كانت كراسة غير متناهية الصفحات...

كانت غادة فى تلك الأثناء: مستلقية أسفل النخلة رشيدة، وقد ربض إلى جوارها الكلب صافى، بينما راحت العنزات والخراف ترعى فى طمأنينة ما يقع فى متناولها من عشب وكلأ نائم متمسح بجدران المقابر القديمة أو راكع منحن تحت جذوع النخيل، أو متطاول على أشجار الزيتون... وإذ هى كذلك: رنت فجأة إلى السعفة الوسطى المدلاة على شجرتها رشيدة، فتبين لها أنها تعلو وتهبط بشدة فى ابتهاج ظاهر مشيرة بطرفها فى اتجاه معين تعرفه الفتاة، فى الوقت الذى قفز فيه صافى رامحًا فى غبطة وحبور... ومن الفور نهضت غادة وتمتمت وهى تحتضن جذع رشيدة وتقبله:

ـ صدقت يا رشيدة.. لابد أن بهاء مقبل من بعيد... إنك يا رشيدة تستطيعين رؤيته من عليائك... ليتنى فى مثل طولك.. كنت إذاً قد تمتعت بمشاهدته وهو على بعد وصافى يجد مسرعًا لاستقباله...

وهنا شاهدت غادة السعفة الوسطى من رشيدة وهى تهبط وتعلو ملوحة إلى العلياء، وهنا هتفت الفتاة فى ابتهاج وهى تقفز فى أسمالها الزرقاء التيلية:

ـ ما أروعك يا رشيدة.. بل وما أحكمك.. إنك تلوحين لىَّ داعية إلى ارتقائك حتى أشاهد بهاء.. حسنًا.. سوف أفعل..

وهرولت الفتاة ناحية قبر أمها، وركعت أمام المرآة، وجعلت تحدق إلى شعرها وعينيها هامسة للوحة الرخامية:

ـ لعلنى جميلة يا أماه... ألست كذلك؟؟..

وأسرعت الفتاة من جديد مبتعدة عن القبر، وولجت الكوخ، والتقطت حزام صعود النخيل الليفى المعلق فوق الباب من الداخل على مسمار طويل صدئ، وما هى إلا هنيهة حتى كان الحزام يضم كلاً من جذع الفتاة وجذع النخلة الأهيف..

وتقافز الحزام الطريف حجلاً فوق الجذع فى وثبات متتابعة كوثبات الكنغر، وارتفعت غادة على إثر تلك القفزات رويداً رويداً كما لو كانت فى اتجاهها نحو السحاب، وما إن دنت من

سعف النخلة وسباطاتها المدلاة كما لو كانت أقراطًا فى أذنى حسناء متهدلة الجدائل: حتى راحت تحدق بعيدًا بعيدًا فوق الرمال... واستقر ناظراها على نقطة سوداء تتحرك من بعيد، فجلست تتابع تلك النقطة حتى بدأت تكبر شيئًا فشيئًا، كما لو كانت بيضة تتمخض عن جنين، أو كما لو كانت بذرة نمت إلى بادرة ولن تلبث أن تنمو إلى نبات يافع..

وتمخضت النقطة عن علقة، وتمخضت العلقة عن مضغة تدنو وئيدًا وئيدًا...

طاب لغادة أن تشاهد من عليائها ذلك الجنين الحبيب الذى يكبر كلما اقترب... وأخيرًا وبسحر ساحر تحولت المضغة إلى كائن يافع جميل اسمه بهاء: كان هو قرة عينها وكل ما لها ومن لها...

سرت النشوة فى أوصال غادة، وطفحت الدماء لتورد خديها فشددت من قبضتها على جذع النخلة فازداد التصاق صدرها بها، وسرعان ما ألقت برأسها فوق جذع النخلة، وتوجت سباطة البلح رأسها فبدت كما لو كانت تاجًا من الأحجار الكريمة فوق رأس أميرة..

وفى تلك الأثناء كان قد اقترب بهاء من المقابر، وبدا الكلب صافى متواثبا على ساقيه لاعقًا يديه مبصبصًا بذنبه فى ابتهاج وتدلل... وهنا جاءه صوت غادة من أعلى النخلة:

ـ بهاء.... لقد أتيت أخيرًا يا حبيبى... إذًا فلتقترب ولتدن من جذع النخلة... كنت أتمتع برؤياك من بعيد وأنت تقترب... تصور؟؟.. لقد شم صافى رائحتك من على بعد كبير... كما وأن رشيدة قد نبهتنى إلى مجيئك.. الكل هنا مشتاق يا بن عمتى.

وصدع بهاء لأمر غادة، وأسرع يقترب من جذع النخلة، وما إن دنا منه حتى رفع رأسه محدقًا إليها فلم يسعها إلا أن تهتف فى مرح:

ـ حسنًا... إننى أراك صغيرًا يا بهاء... إن النخلة رشيدة مسرفة فى الطول، ولكن لا بأس فإن لذلك فائدة عظيمة... إن طولها الباسق يمكننى من مشاهدتك عند عودتك وأنت على بعد كبير.. أليس ذلك رائعًا من نخلتى رشيدة؟؟.. لقد ورثتها عن أمى يا بهاء... إنك لم ترث شيئا عن أمك... أليس كذلك؟؟...

ـ أوه... إنك تفاخريننى دائمًا بذلك... لا بأس ... أنا لا أمتلك شيئًا بالمرة يا غادة... إننى أعيش فى رحاب ما أورثته لك أمك... أنا لا أمتلك شيئًا... حتى السرير الذى أنام عليه لا أمتلكه... إنه من سعف نخلاتك يا غادة...

ـ أوه... لا تغضب يا بهاء.. فحسب: لتعلم أنه شىء رائع ألا تمتلك شيئًا بينما أمتلك أنا كل شىء... إن الكوخ ملكى.. أليس كذلك يا بهاء؟؟...

ـ بلى... بلى يا غادة...

ـ حسنًا ... والنخلات العشرون ملكى... اليس كذلك يا بهاء؟؟..

ـ بلى... بلى.... إنها ملكك.. لقد ورثيتها عن آمك... إن أمى وأبى لم يورثانى شيئًا البتة...

ـ رائع... وشجرات الزيتون الثلاثون: إنها ملكى أيضًا...

ـ بالطبع يا غادة... وهل تشكين فى ذلك؟؟...

ـ كلا .... أنا لا أشك بالطبع... ولكنّى أتأكد من وضوح هذا المعنى لديك يا بهاء... إن هذه الخراف وتلك العنزات ملكى هى الأخرى.. هل ذلك واضح لديك؟؟...

ـ كل الوضوح يا غادة.. ولكن: ترانى لا أملك إلا ذلك الكلب صافى...

وما إن سمع الكلب صافى اسمه حتى أسرع متواثبًا نحو الفتى وقد كان فى تلك الأثناء متلهيًا فى مشاكسة الخراف، ومن ثم جعل يتواثب ويتقافز...

وهنا قال بهاء وهو يغالب ما يجيش به صدره:

ـ حسنًا.... إن هذا الكلب صافى والذى وجدته ذات يوم جروًا صغيرًا قابعًا فى غرفة الإسكندر ذى القرنين ليمثل الشىء الأوحد الذى أمتلكه...

وهنا هتفت غادة فى مكر ساذج:

ـ حسنًا... ولكنّى أمتلك شيئًا رائعًا... إنه أروع من كل تلك الأشياء التى ذكرتها.

هتفت الفتاة بتلك العبارات الأخيرة وهى تتطلع إلى السحب البيض التى تعبر النخيل فى بطء شديد، ولكنها وعندما أرسلت بصرها ورمته إلى الأرض: لم تجد للفتى وكلبه من أثر أسفل النخلة، فأجفلت قليلاً، ثم راحت تحدق من عليائها بنظرات لاهثة إلى كل ما يحيط بها، ولشد ما كانت دهشتها أن شاهدت الفتى وكلبه راكعين بجوار قبر أمه عمة الفتاة والذى كان على مبعدة من قبر أمها... وعلى الفور عمدت إلى حزامها تجذبه إلى أسفل فى حركات متتابعة: فهبط بها رويدًا حتى استقرت قدماها العاريتان فوق الأرض، وانطلقت تجرى صوب الفتى وكلبه، وما إن دنت منهما أمام القبر حتى وقفت وقد اتسعت حدقتاها وانبهرت أنفاسها وتلاحقت دقات قلبها فى هلع وقنوط...

كان بهاء يبكى أمام قبر أمه عمة غادة، وتهاطلت دموعه الحزينة مبتئسًا من أمه التى لم تشأ أن تترك له شيئًا يمتلكه: الأمر الذى حدا بغادة إلى المفاخرة بما تملكه من نخيل وزيتون وكوخ وخراف وعنزات ودواجن تقع جميعها وسط أرض المقابر التى صارت هى الأخرى ملكًا لها بعد أن هجرها الأهالى ببلدة الأغورمى بواحة سيوة...

كان الكلب يقبع إلى جوار صاحبه الباكى مرُ البكاء وقد طرح حقيبته الجلدية البالية فوق الرمـال.. ولعله كـان يدرى مـا البكاء، وليس أدل على ذلك من استكانتـه إلى الهـدوء والصـمت والاكتئاب وقد نكس وجهـه نحو الأرض، وبين الفينـة والفينة: كان يرفع ناظريه ليسـبـر حـال صاحبه المكلوم الفؤاد على ضوء الشفق الأحمر الذى سربل قمتى جبل الدكرور...

وقفت غادة ترقب الفتى فى صمت يتفجـر حزنًا لما أصاب حبيبها ورفيق طفولتها وابن عمتها، ولقد لامت نفسها على ما بدر منها من مفاخرة مزعجة حقًا، تلك المفاخرة التى كانت إحدى جبلاتها الطبيعية التى لا تجد عنها مذهبًا، أجل.. فكثيرًا مـا استقر عزمها على عدم مفاخرة فتاها... ولكنها كثيرًا ما كانت تعود إلى تلك الجبلة الطبيعية المراوغة...

ضاق صدر الفتاة من حزن الفتى الذى جثا شاكيًا لقبر أمه، فانحنت وراحت تتخلل شعره الأسود المسترسل بأصابعها النحيلة، وفى هدوء جلست إلى جواره، وراحت تخلع عن حبيبها حذاءه المدرسى، فاستسلم لها ناظرا إليها من خلف جيدها وقد استرسل شعرها الذهبى فوقه فى سخاء ونعومة، بيد أنه فاجأها بقوله بعد أن تم لها خلع الحذاء:

- إننى... إننى أكرهك يا غادة...

تدافعت دموع الفتاة تدافعًا عجيبًا، وكأنما الدموع طابور من البشر يدفع بعضهم بعضًا، وعلى الأثر أظلمت الدنيا فى عينيها فما عادت ترى إلا الدموع تروح وتجىء فى مقلتيها كأشباح مريبة.

لم تتمالك الفتاة التى طعنت فى حبها على إثر كلمة واحدة قالها حبيبها ... "أكرهك"... يا لها من كلمة إذًا توجب الانتحار.. يا لها من كلمة إذًا توجب الطرد والتشرد من تلك الجنة التى احتلت بؤرتها ففقدت جنة محتجزة... يا له من فردوس مدلس إذًا... أسرعت الفتاة تعدو وقد ثار شعرها فى كل اتجاه، وما إن صارت أمام قبر أمها: حتى ارتمت أمامه بحيث صارت فى مجال رؤية المرآة كمين عجيبة لأمها...

استقر وجه غادة فوق الرمال فحفر حفرة غائرة له، وقبضت بكفيها على حفنتين من الرمال وكأنما تقبض على ثديى أمها الحقيقية ألا وهى الأرض، وتمطى جسدها وتقلص وتمعج وانقبض وانبسط فى حركات مد وجزر متتابعة انتهت به إلى الخمود والهجود.. هذا فى الوقت الذى كان بهاء قد استلقى بدوره أمام قبر أمه عمة غادة: وقد ابتلع ظل قبر أمه: ظل جسده تمامًا إلى أن زال الشفق الأحمر من السماء ليحل محله ليل بهيم كما لو كان ظلاً لمقبرة كبرى سرعان ما ابتلع ظل قبر الأم بدوره...

انتفض صافى واقفًا، وراح يخطر حول صاحبيه مشمشمًا متحسسًا متمسحًا: ثم أسرع يعدو وقد لفه الظلام نحو غادة، وراح يتلمسها ويتحسسها فى تعجب واندهاش ظاهر، وأقبل على وجهها يلعقه علها تحس به أو تكترث بلعابه الرطب... ولكن هيهات هيهات...

ـ ما هذا !! ما هذا!!. أى أمر يدور من حولى!!. وما تلك السخافات التى أراها جاثمة أمامى!! لماذا تنام الفتاة أمام قبر أمها على تلك الصورة!! لماذا ينام الفتى أمام قبر أمه على ذلك النحو!!.. وهل سيستمر الأمر على ذلك، النحو طوال الليل!!. يا للداهية.. بل ويا للكارثة والأمر الجلل لو حدث ذلك بالفعل...

لعل ذلك ـ قارئى الكريم ـ ما دار فى خلد الكلب صافى وهو يتنقل بين الحبيبين المتغاضبين، وقد استشعر ذلك الأمر المريب الذى دب بينهما..

دار واحتار ووثب وجمح وقفز ويصبص بذنبه وجرى ولهث وهو يجوب المسافة بين الجسدين الممددين فى الظلام أمام القبرين..

ماذا يصنع الآن حيال ذلك الموقف الذى لم يتعرض لمثله من قبل؟؟... حقيقة كان قد علمه العم جمال أساليب شتى فى المعاملات الإنسانية... ولكن كان ذلك أمرًا صعبًا يتطلب مزيدًا من الفهم.

وقف الكلب صافى بعد أن بلغت به الحيرة أى مبلغ: فوق قبر مرتفع متهدم الأركان: وراح يحدق فى كل اتجاه، مرسلاً نباحًا مقترنا برباطة الجأش والابتئاس فى آن واحد، ولكنه وبعدما أصابه القنوط: قفز فى وثبات سريعة فى اتجاه الكوخ الذى ربضت عند بابه العنزات والخراف، وراح يتواثب أمامها محركًا لها نحو حظيرتها الواقعة خلف الكوخ، ولما اطمأن إلى أنها قد باتت فى مكانها: أسرع نحو الكوخ من جديد، وانقض داخلاً، وجذب الغطاءين الصوفيين من فوق السريرين وجرهما معًا على الرمال، وأسرع بأحدهما نحو الفتاة وجره فوقها إلى أن تدثرت تمامًا، وأقبل بالآخر يجره نحو الفتى، وما إن غطاه حتى بصبص بذنبه وقد استشعر الطمأنينة على صاحبه، ثم عاد فارتقى متن القبر المرتفع، وراح ينظر من علٍ فى كل اتجاه، ولكنه وبين لحظة وأخرى كان يثب فى سرعة خارقة وقد شاهد بغتة شيئًا مريبًا لا تلمحه عين الإنسان فى الظلام... وأخيرًا كان يعود إلى مكانه فوق القبر المتداعى مرسلاً نباحه مدويًا مهددًا منذرًا متوعدًا:

ـ من هناك.. نحن هنا... من هناك؟؟.. أنا صافى اليقظ... من هناك؟؟... لا تجازف أيها المعتدى... نحن هنا... من هناك؟؟... هل تعتقد أنه بإمكانك قهرى وأنا وحيد فريد؟؟.. إذًا أقبل وجرب... نحن هنا ... من هناك؟؟... هل تعتقد أن أنيابك أمضى من

أنيابى؟؟.. هل تعتقد أن عضلاتك أقوى من عضلاتى؟؟.. هل تعتقد أن منكبيك أعرض من منكبىّ؟؟... إذاً أرنا إن كنت لصا أو ذئبًا أو ضبعًا أو بنتًا من بنات آوى أو أحد أبناء عرس أو جرذًا من الجرذان.. نحن هنا.. من هناك؟؟.. نحن هنا... من هناك؟؟.. الفتاة راقدة أمام قبر أمها لأنها غضبى... ولكن هنا صافى الشجاع... الفتى راقد أمام قبر أمه لأنه مغضب.. ولكن هنا صافى الشجاع... هل تعتقد أنه بمقدورك أن تنتهز هذه النهزة أيها المعتدى؟؟... ستثكلك أمك لو أضمرت ذلك أو حتى تخيلته.. العنزات والخراف والدواجن فى الحظيرة... ولكن هنا صافى الشجاع.. الكوخ خاوٍ من صاحبيه وبه نقود وطعام وخبز وبلح... ولكن هنا صافى الشجاع... نحن هنا... من هنالك؟؟.. ها... نحن هنا... من هناك؟؟.. لقد وجدنى بهاء جروًا لقيطًا فى حقرة من حفر غرفة الإسكندر ذى القرنين.. لقد التقطنى وربانى وجاد علىّ بالغذاء، كما أن العم جمال جاد علىّ بالكثير من التدريبات... علمنى وهذبنى، وما علىّ الآن إلا أن أرد الجميل.. انظر إلى عضلاتى وامتشاقة طولى وجمال منظرى أيها المعتدى... ألا من مبارزة؟؟.. ها ... نحن هنا؟؟. من هناك؟... ها... نحن هنا... من هناك؟؟.. من هناك؟؟..

***

الفصل الثالث

ـ رحلات أسبوعية ـ

نهضت الشمس مبكرة من فراشها فى كهف الأبدية، وتمسحت ضياؤها بجدران ذلك الكهف وتساقطت بعض من تلك الضياء على مقابر الأغورمى المهجورة: فبددت وكنست ما تجمع على تلك القبور المهجورة: المتهدمة من ظلام متراكم، واحتفل سعف النخلات المشرين بأفراح الضياء، فراحت تستقبلها فوق أسطحها ثم تعود فتلقى بها إلى الأرض فى أشكال شتى، كلها كانت من بنات أفكار النخلات: رشيدة، وفريدة، وبسادة، وميادة، ومجيدة، ومديدة، وحميدة، وسعيدة، وتفريدة، وسديدة، وهويدة، ومرادة، وعودة، ومحمودة، وعيدة، وزادة، ووحيدة، ووديدة، ووجيدة، ومشهودة..

أجل... بيد أن رشيدة وفريدة وبسادة كانت أكثر تفننًا فى تشكيل الضياء...

فلقد صنعت رشيدة شكلاً يجمع بين الظلال والضياء فوق الرمال يشبه صاروخًا عجيبًا يحمل جمعًا من البشر بطريقة شاذة مبهمة... بينما صنعت بسادة شكلاً آخر بواسطة سعفها الذى كان يبدو شعثًا مبعثرًا فوق أم رأسها، لقد صنعت فوق الرمال شكلاً أشبه ما يكون بجمع آخر من البشر، وكان على وجه التحديد جمعاً من النساء قد رفعن أذرعهن ملوحات لذلك الصاروخ الذى بدا متحركًا إلى أعلى، وذلك ما برعت فى إبرازه سعفات النخلة رشيدة الدائمة الاهتزاز فى تماوج حركى متصاعد بطريقة تبدو مدهشة حقًا.. هذا، وبالرغم من أن وجيدة كانت أقل النخلات تفننا فى تشكيل الضياء إلا أنها أثبتت براعة غير متوقعة حينما سددت حزمت ضخمة من ضياء الشمس نحو مرآة قبر أم غادة، ومن ثم عمدت تلك المرآة بوصفها عين الأم الوحيدة التى تطل بها على ذلك الوجود فى رقدتها الأبدية ـ وذاك ما تقول به غادة تمامًا، "وليعذرنى قارئى الكريم إذ أننى ملتزم بشرح وجهة نظرها".. عمدت تلك المرآة إلى عكس تلك الحزمة الضوئية بأكملها كيما تقع رأسًا فوق وجه غادة وعلى وجه التحديد بين عينيها... .

كانت تلك الحزمة الضوئية المنعكسة من مرآة القبر إلى وجه الفتاة أشبه ما تكون بيد سحرية قد امتدت من الأم إلى فتاتها الغضبى، والتى باتت ليلتها فى حضن ذلك القبر المتهدم المنقوض الأركان، ثابرت تلك اليد السحرية الممتدة على مداعبة القناة الحزينة النائمة ما بين عينيها وراحت بعض أصابعها الذهبية الدقيقة تتخلل شعيرات حاجبيها البديعين، وراحت أصابع أخرى تتخلل رموش عينيها فى قبلات حنون دافئة، هذا ولقد بدت بعض من تلك الأصابع متراقصة متمعجة متهادية متحسسة شفتى غادة فى ميوعة دافئة.

وإننى أقطع هنا "قارئى الكريم" بأن غادة قد أحست بتلك الذراع السحرية النابعة رأسا من جسد الأم، وهذا ما يفسر كيف استيقظت الفتاة دافعة النوم عن عينيها فى تكاسل: كما لو كان شخصًا قد أيقظ آخر لم يشبع من النوم بعد..

تلفتت الفتاة من حولها بعد أن دفعت عنها الغطاء: فلمحت تلك الحزمة الضوئية العجيبة الميصبصة والمطلة عليها من مرآة الأم، فابتسمت لها، ودارت ببصرها، فألفت بهاء لا يزال راقدًا بجوار قبر أمه وقد وقف إلى جواره الكلب صافى نابحاً مبصبصًا بذنبه راجيًا أحر الرجاء أن ينهض وقد انصرم الليل ولوحت الشمس من بعيد بأشعتها.

قامت غادة عن الأرض فى تثاقل وقد أحست بشىء من الرطوبة قد دب فى جسدها، واقبلت نحو مرآة أمها ونظرت إلى وجهها: فألفت ازرقاقا واضحا أسفل عينيها فابتأست لذلك أيما ابتئاس، ولكنها راحت تتمتم:

- لا أحسبنى الآن جميلة يا أماه.. ولكن لا بأس.. إن بهاء لايزال يغط فى نومه أمام قبر أمه.. وما علىّ الآن إلا أن أوقظه وأطيب خاطره: ذلك لأن اليوم جمعة.. إنه موعد رحلاتنا الأسبوعية لعمى جمال، وجبل الموتى، وصديقنا عابد مكدس الحسنات.

وغادرت الفتاة قبر أمها متطلعة إلى حديث نخلاتها الهامس، وما إن فهمت منه الكثير حتى يممت شطر بهاء، وإن هى إلا لحظات حتى كانت أمام القبر وعند رأس الفتى المتدثر تماما بالغطاء الصوفى....

داعبت الفتاة فراء الكلب صافى وقبلته بين عينيه مكافأة له على تلك الحراسة الليلية التى أثبت فيها كفاءة وجدارة، ثم أقبلت نحو الغطاء ورفعته فى حذر عن وجه بهاء، وراحت تحدق فى وجهه وهى جاثية فوق الرمال: فهالها أن تشاهد دمعات جافة بين عينيه، فراحت تمسحها بخصلات شعرها الطرفية، وعلى الأثر بدأ الفتى يستفيق من نومه، وتطلعت عيناه إلى السماء: فشاهد النخلات وقد تراقصت سعفاتها فى ابتهاج ظاهر وقد شكلت من خلفها السحب السمحاقية خلفية رائعة...

لم ينهض الفتى: بل ظل مستلقيًا، ولم تغادر الفتاة مكانها بل ظلت راكعة عند رأسه، ولم يسعها آنذاك إلا أن تهمس له وقد شاهدت منه ذلك الوجوم وذلك الصمت المضنى:

ـ بوركت صباحًا يا بهاء.. أرجوك ... لا تؤاخذنى... لا تغضب منى يا بهاء... لك أن تغفر هفواتى التى قد اقترفها بين الحين والحين.. سامحنى يا بهاء!!..

وهنا تنفس بهاء الصعداء كما لو كان يتخلص من كابوس مقبض مخيف.

ـ لا بأس يا غادة... ولكن عليك ألا تكررى ذلك مرة أخرى..

أشرقت الفرحة على نفس غادة، فنهضت فى دلال وراحت تحجل على قدميها المتناهيتى الصغر كما لو كانتا قدمى يابانية قد كبستا فى قالب منذ عهد بعيد..

راحت تمرح وتميس بجسدها بين النخلات والقبور المتهدمة: كما لو كانت طائرًا مغردًا يبتهج بالصبح، أو كما لو كانت فراشة قد خرجت توًا من شرنقتها، وما إن دنت من نخلتها رشيدة والتى كان لا يزال الحزام الليفى يطوقها من أسفل وقد ألقت به غادة فوق الأرض.. ما إن دنت منها: حتى هتفت وهى تتمدد أسفل جذعها المسرف الطول:

ـ والآن أقبل يا بهاء.. ألا تود أن تبهج ابنة عمك؟؟... ألا تود أن تشيع البهجة فى جسد ابنة عمك؟..

وهنا لم يسع بهاء المأخوذ بتصرفاتها الأخيرة إلا أن يقبل نحوها، وما إن دنا منها حتى وقف عند رأسها حافى القدمين مرتديًا لباسه المدرسى.. وهنا هتفت غادة وقد نثرت شعرها الذهبى فوق الرمال البراقة مطوحة ذراعيها إلى الخلف فى ميوعة غير طبيعية:

ـ والآن ... عليك أن تصعد النخلة.. هيا يا بهاء... إن حزام صعود النخيل لا يزال يطوق ساق نخلتى رشيدة كما لو كان خلخالاً حول ساق حسناء.. هيا ارتق النخلة وأرنى كيف تصعد النخيل.. سأنظر إليك من أسفل.. سيطيب لىَّ أن أراك تفعل..

وصدع الفتى المتعجب لأوامر فتاته المتقلبة المزاج، وسرعان ما جمع الحزام الليفى، بين كل من جذعه وجذع النخلة، فراح يصعد فى خفة، وبدأ يتضاءل أمام عينى غادة التى علقت عليه البصر: وقد تخيلته فى طريقه إلى السماء بعيدًا بعيدًا إلى حيث النجوم، بل إلى حيث الكواكب التى تسبح فى الفضاء والسكون شعارها..

ما إن دنا بهاء من سباطات النخلة الممتلئة بالبلح فى سخاء: حتى هتفت غادة وهى تتمعج فوق الرمال:

ـ والآن... ها ها.. لقد صرت فوقى يا بهاء...

ـ فوقك؟؟..

ـ أواه... أواه... أجل... إنك فوقى الآن.. لقد سعيت إلى ذلك بطريقة ماكرة..

ـ أوه... ولكن.. ولكن.. ترى ما فائدة ذلك يا غادة وقد صرت بعيدًا عنك؟؟..

ـ هـه.. أواه.. أواه.. أتسأل ما الفائدة؟؟... إن لذلك فائدة جمة رائعة يا حبيبى.. إنك فوقى الآن: وبالتالى فلسوف يمكنك أن تقذف بالشهد الحلو الطيب فى فمى..

ـ الشهد الحلو!!

ـ أوه.. أجل.... أجل... هيا... هيا... هيا اقذف فى فمى شهدك... إننى تواقة إليه...

ـ أنا لا أفهم من ألغازك اليوم شيئًا.. ألا تفصحين؟؟..

ـ يا لك من فتى قليل الاستجابة.. هيا.. هيا اقطف بلحةً واحدة، ثم دعها تسقط فى فمى.. ولكن فقط عليك أن تتقن التصويب.. هيا.. سوف أفتح فمى، وما عليك إلا أن تسقط البلحة فى داخله... وعند ذلك لن يسعنى إلا أن أمضغها فى بطء شديد كيما أستعذب طعمها كشهد آت منك إلىَّ .. هيا... ولكن عليك أن تحسن التصويب.. البلحة التى لن تسقط فى فمى رأسا وتسقط على الأرض لن أحفل بها.. هيا... هيا يا فتى وأرنا كيف تجيد التصويب.. إنك رجل، والرجال يجب عليهم أن يجيدوا التصويب وإتقانه.

وباندهاش بالغ، مد بهاء أصابعه واقتطف بلحة ناضجة، ثم حدق أسفله فألفى غادة وقد فغرت فاها بطريقة مدهشة ومددت جسدها بطريقة سافرة تدعو إلى العجب والاندهاش...

راح الفتى يعلو ويهبط بالبلحة بين أصابعه فى محاولة ساذجة لإحكام التصويب، وما إن تهيأ له أنه قد أجاد وأحكم تصويبه حتى ترك البلحة تسقط من بين أصابعه، وراح يحلق، ولشد ما كانت دهشته أن وجدها تسقط على الأرض لتندس بين الرمال..

وهنا ضجت الفتاة وقد نهضت جالسة هاتفة:

ـ أوه.. يا لك من فتى لا يحكم التصويب.. لقد خيبت الرجاء... ولكن لا بأس... فلتحاول من جديد، على ألا تخفق فى المرة التالية أبدًا..

واستلقت غادة من جديد، وفغرت فاها، وأغمضت عينيها، وطوحت بذراعها إلى الخلف فوق الرمال وراحت تنتظر، ومرت لحظات فى صبر يكاد ينفد، ولشد ما كانت دهشتها أن تفاجأ ببلحة تستقر فى فمها وقد أقبلت إليها مارقة من أعلى النخلة.. وهنا لم يسع الفتاة إلا أن تفتح عينيها وتلوح بكلتا يديها إلى حبيبها الذى أرسل شهده إلى فمها من عليائه هاتفة فى سعادة غامرة:

ـ أحسنت... أجدت.. يا لك من فتى يجيد التصويب حقًا.. والآن لقد اعترفت بك تمامًا.. يكفينى منك ذلك.. لقد سعيت إلى ذلك بطريقة ماكرة.. تذكر ذلك دائمًا.

وهنا هتف بهاء وقد تحشرج صوته:

ـ إذًا فإننى أخبرك بخبر غريب يا غادة لم أشأ أن أخبرك به بالأمس.. لقد أخبرنا ناظر المدرسة بأن سكان الكرة الأرضية جميعًا سوف يغادرونها فى "هجرة كبرى" إلى كواكب أخرى... ولسوف تتم هذه الهجرة بعد عام إلى المريخ٤ أو كوكب الزهرة٤ حسب الاستفتاء الديمقراطى الذى سيتم بين سكان الأرض جميعًا ذلك لأن كوكب المريخ "٤" يتسم بالمناخ البارد، بينما الزهرة "٤" يتسم بالمناخ الحار..

فهتفت غادة فى انزعاج وهى لا تزال ممدة أسفل جذع النخلة:

ـ ماذا؟؟... ماذا تقول؟؟.. الهجرة الكبرى؟؟؟.. المريخ؟؟.. الزهرة؟؟... ويحى.. ولكن ترى ما السبب؟؟..

ـ ستنفجر الكرة الأرضية يا غادة.. ستنفجر بسبب بركان جوفى يا غادة.. سوف تتطاير أشلاء الكرة الأرضية يا غادة فى الفضاء... سوف تتبدد تمامًا فى فضاء لا نهائى، وسوف ينشق القمر.. سوف يحدث ذلك يا غادة بعد قرابة عام... لسوف ترحل يا غادة عن تلك الأرض..

فهتفت غادة وقد شعرت بدوار مزعج يكتنفها:

ـ أوه.. يا للخبر، بل ويا للكارثة... ولكن نخلاتى العشرين؟؟..

ـ ستتطاير يا غادة..

ـ ولكن... ولكن... شجرات الزيتون الثلاثين؟...

ـ ستحترق يا غادة...

ـ عنزاتى وخرافى؟؟..

ـ سوف تهلك يا غادة...

ـ كوخى؟؟..

ـ سيقفز أشلاءً فى الفضاء يا فتاتى...

ـ ولكن... ولكن... قبر أمى ذا المرآة، وقبر أمك؟..

ـ سيهلكان يا غادة، وسيبتلعهما قبر العدم..

ـ رياه... رياه... الأشياء التى أفاخرك بها... الأشياء التى أفاخرك بامتلاكها: أهكذا سوف تتبدد؟؟... أهكذا سوف تتلاشى؟؟.. أهكذا سوف أعدمها؟؟...

ـ أجل... أجل يا غادة... ولكن لا تبتئسى يا غادة، فلسوف يكون لىَّ أنا غيرها فوق المريخ أو الزهرة... سوف يكون لىَّ أشياء كثيرة سوف أمتلكها، وستكونين معى حتمًا يا غادة... سوف تتمتعين بما أمتلك يا غادة، ولكن ثقى أننى لن أحذو حذوك أبدًا... لن أعمد إلى مفاخرتك يا غادة... سوف لا أفعل مطلقًا يا غادة.. سوف أتركك تنعمين بما أمتلك دون أن أفكر فى مراوغتك أو إغضابك كما تفعلين يا بنة عمى...

ـ إذًا.. إذًا.. هل أفهم من ذلك أنك سوف تكون معى دائمًا يا بهاء؟؟... أيمكنك أن تجزم لىَّ بذلك؟؟..

ـ أوه... أجل... أجل بالقطع يا غادة... كيف يتسنى لىَّ تركك تنأين عنى؟؟..

ـ أننى أمحضك الحب يا بهاء..

ـ أجل... أعلم ذلك يا بنة عمتى... ومن ثم فلا حياة لأحدنا بدون الآخر..

ـ ولكنه أمر مريع يا بهاء.. مريع... مريع... لقد كنت أستمتع دائمًا بأننى أمتلك كل شىء .. كل شىء...

ـ تستمتعين؟؟...

ـ أجل يا بهاء... إننى أمتلك كل شىء بينما أنت متسول مغلوب على أمره شريد ضائع...

ـ متسول؟؟..

ـ أجل... وإنك تستجدى العطاء.. تستجدينى كى أمنحك الطعام: فأمنحك... تستجدينى كى أهبك المأوى: فأهبك... تستجدينى كى أجود عليك بالفراش: فأجود عليك... تستعطفنى أن أشترى لك الملابس: فأشتريها لك... لقد كان ذلك كله مجلبة لسعادتى وحبورى...

ـ إذًا فأنا متسول دائمًا فى نظرك يا غادة؟؟..

ـ أجل... إنه يلذ لىَّ أن أشاهد الأمطار تنهمر فوق النخيل وتبلل جبين المقابر، وتكون أنت بخارج الكوخ، فأظل أنتظرك كمتسول بائس قد أغرقه المطر، ولا ألبث بعد ذلك حتى أدثرك بدثارى الصوفى وأجفف وجهك المبتل، أجلسك فوق السرير، وأضرم لك النار فى هشيم من السعف الجاف فى قصعتى الفخارية، ثم أجلس فوق سريرى قبالتك كى أقص عليك أقصوصاتى الصغيرة التى أؤلفها بنفسى... حقيقة إن أغلبها لا يتسم إلا

بالسذاجة، خاصة وأننى أستخدم الغيلان والعفاريت والمرأة ذات العين الوسطية فى رأسها فى أقصوصاتى... إلا أن هذه الأقصوصات الساذجة كثيرًا ما تبدو لى جميلة رائعة خاصة وأنا أناولك كوبًا من الشاى الممزوج بحليب المنزات وأنا فى مستهلها، وكما تتذكر؛ فإننى أعمد دائمًا إلى البدء فى روايتها بعدما أكون قد أعددت لك ذلك الشراب الساخن اللذيذ، وذلك حتى أفتح شهيتك للسماع كمتسول لائذ بكوخى وفراشى وطعامى وشرابى وأقصوصاتى... الـ.. هه... الساذجة..

ـ أكاد أسقط من فوق النخلة جراء كلامك يا غادة...

ـ كلا يا بهاء... لا يمكنك أن تسقط من فوق المريخ... إنك الآن تخاطبنى من المريخ..

ـ المريخ!! أخاطبك من المريخ؟؟.. كيف أخاطبك وأنت فوق الأرض؟؟.. إن هذا لن يحدث مطلقًا يا غادة... ذلك لأننا سوف نصعد إلى المريخ أو الزهرة معًا...

ـ أواه يا بهاء... ولكن هذا هو الأمر الراهن... أنت فوق، وأنا أسفل.. إذًا فأنا فوق الأرض، وأنت فوق المريخ... هكذا شاءت ظروفنا الحالية، ومن يدرى؟؟..

ـ لا بأس... يمكن أن تصعدى إلى جوارى يا غادة كيما نصير فوق المريخ معًا... ألا يطربك ذلك؟؟..

ـ كلا ... كلا يا بهاء... هل نسيت أننا لا نملك إلا حزامًا واحدًا لصعود النخيل؟؟..

ـ أواه ... حقًا ... حقًا... لقد أغفلت ذلك تمامًا... ولكن ... ويحى... ويحى...

ـ أواه... ماذا أصابك يا بهاء!!.

ـ لقد أثرت شيئًا مهمًا يا غادة دون أن تشعرى بذلك... هبى يا غادة أنه لم يتسن للبشر إلا عددًا ضئيلاً من أحزمة صعود النخيل فى ذلك العام... أقصد عددًا ضئيلاً من الصواريخ للسفر إلى المريخ أو الزهرة.. هبى ذلك... ماذا سيكون الأمر إذًا؟؟.. وترى؟؟.. هل فكر العالم فى ذلك الأمر؟؟.. إنه سيكون أمرًا جللا أن يحدث ذلك.. يا للداهية... بل ويا للبلاء والكارثة يا غادة... إن جسدى يكاد يقشعر ويهتز ويرتعد من جراء تخيل ذلك أو توهمه!!..

ـ أواه... أواه... حقًا... حقًا... ما أبدع خيالك أيها المتسول اللائذ بكوخى... بل ما أغرب أن يحدث ذلك حقا... والآن، دعنا يا حبيبى من كل ذلك فإننا لو استأنفنا الخيال لمخرنا عبابًا لا نملك لأنفسنا الغوص فيه... هيا... هيا يا حبيبى... هيا يا حبيبى الذى لا يملك شيئًا... هيا اهبط من فوق مريخك أو زهرتك التى صعدت إليها بذلك

الصاروخ الذى لا نملك غيره... إننا لا نملك إلا صاروخًا واحدًا بالرغم من أن تعدادنا هنا فردان.. إن صاروخنا لا يتسع إلا لفرد واحد فحسب.. هيا اهبط أيها الفتى، فإن اليوم هو موعد رحلاتنا الأسبوعية إلى عمى جمال وجبل الموتى وصديقنا عابد مكدس الحسنات..

وببطء شديد: هبط بهاء من فوق المريخ المتخيل بواسطة صاروخه الليفى، وما إن وطأت قدماه الأرض حتى أسرعت إليه غادة لترفع عنه الحزام...

كان صافى فى تلك الأثناء قد جنح إلى خُنه الأثير فى مؤخرة قبر أم غادة والذى كسيت جدرانه وأرضيته بخوص النخيل الذى بدا وثيرًا، وعندما افتقدته غادة نادت عليه، فأسرع يلبى النداء رغم ما بذله من نشاط ظاهر خلال تلك الليلة الليلاء المنصرمة...

أقبل الكلب نحو الفتاة، وراح يتثاءب أمامها فى منظر يستدر الشفقة، ومن ثم انحنت الفتاة التى وقف من خلفها فتاها، وراحت تقبله بين أذنيه وكأنما تبثه سرًا، ثم جعلت تحدثه مداعبة فراءه الكثيف بأصابعها النحيلة:

- حقًا لقد سهرت علينا يا صافى، ولقد كنت نعم الحارس، ولكنه موعد رحلاتنا الأسبوعية... عليك إذًا أن تحرس لنا الكوخ والعنزات والخراف إلى أن نعود قبيل غروب الشمس يا صافى... سوف نفتقدك حقًا، ولكن لتعلم أنه من الأفضل لك ألا ترافقنا فى تلك الرحلة، ذلك لأننى أعلم تمامًا أنه لا وئام بينك وبين ثعلب وذئب عمى جمال... إنك تكن لهما كل عداء، وإن مجرد رؤيتهما يبعث فيك جام غضبك وحقدك تمامًا كما لو كنت تشاهد جنيين متجسدين أمامك... والأمر كذلك؛ فلا ريب أن مكوثك ههنا للحراسة ليفضل بالحتم مرافقتنا فى رحلاتنا الأسبوعية..

ونهضت الفتاة، وأقبلت نحو فتاها متأبطة ذراعه مبتسمة ابتسامة بشوشًا وهى ترنو إليه بنظرات الوله وقالت فى دلال:

- والآن... عليك أن تنتعل حذاءك.. أنا لن أنتعل حذائى لأننى أفضل السير حافية القدمين...

- ولكن الصخور ياغادة !!... إننى أخاف عليك من هوام وحشرات الكهوف... ألا تجزعين على قدميك!!...

- كلا ... كلا... إن لى جَلَد على تحمل نتوءات الصخور... لا بأس؛ سوف ألتقط لك الحذاء من أمام قبر أمك..

وهرولت غادة حاجلة على قدميها، وما إن عادت بالحذاء حتى انحنت على قدمى فتاها، وألبسته حذاءه وجوربه الأسودين، ثم ما لبثت أن نهضت واقفة متأملة محياه، وقالت بعد سرحة عابرة:

ـ حسنًا .. انتظر، سوف أعود إليك بالجرة... لقد ملأتها فى أصيل الأمس من عين جوبة... انتظر...

وهرولت الفتاة، وعادت بعد لحظات من كوخها بجرة الماء على رأسها، تلك الجرة التى يقال لها بلغة أهل سيوة "بكلة" وأقبلت نحو بهاء وجعلت تسكب الماء فوق شعره براحتيها، ثم جعلت تجفف وجهه وشعره بذيل ثوبها الأزرق، وأجلسته أمامها على الأرض، ثم أخرجت مشطها الأثرى الفرعونى من صدرها، وانهمكت فى تمشيط شعره حتى إذا ما استحسنت تصفيفه وفرقه تمامًا، نهضت فى سرور وانشراح قائلة فى همة:

ـ والآن ... سوف أعد زوادة صديقنا عابد... إنها تتألف من البلح الغزالى ومجموعة من الأرغفة وعدد من بيض دجاجاتى المسلوق، أما بالنسبة لعمى جمال فإنه عادة لا يحفل بالبلح... إنه يحب الشواء.... ولابد أن لديه المزيد منه... إنه يحترف الصيد منذ فضل الانزواء عن الناس... إنه يعيش عيشة سكان الكهوف..

وانطلقت غادة فى خفة القطط إلى كوخها، وراحت تعد زوادتها فى مرجون من الخوص، ولم تنس أن تدس به عباءتها السوداء التى من المتوجب أن تتدثر بها تماما عندما تخاطب صديقهما عابد مكدس الحسنات... وما لبثت أخيرًا أن بدت على عتبة الباب حاملة فوق رأسها زوادتها الأسبوعية بعد أن دست فى جيبها خمس شمعات بيضاء وعلبة ثقاب، وهتفت منادية ابن عمتها الذى وقف يداعب ويودع كلبه المخلص الذى سوف يقوم على حراسة البيت والعتاد والشجر والنخل إلى أن تحين عودتهما قرب المساء..

وقف الكلب صافى يتابع الخطوات المبتعدة، وعندما تصاغرا عمد إلى اعتلاء متن قبر مرتفع كيما يقربهما من ناظريه، وعندما تحولا إلى نقطتين سوداوين تتحركان من بعيد: هبط من عليائه كى يباشر عمله وقد شعر بحلول المسئولية.

ما إن تلاشى الفتى والفتاة عن ناظرى صافى، حتى كانا قد أشرفا على هيكل آمون الواقع على مبعدة من عين جوبة، تلك العين الأثرية التى كانت مرتادا دائما لغادة وما "تمتلكه" من خراف وعنزات.

وقفت الفتاة والفتى أسفل الهيكل، ورنت إليه، وتمتمت للهيكل بكلماتها الصباحية المعتادة، ثم ما لبثت أن انعطفت بحملها نحو بئر قريب منه، ودعت بهاء كى يتقدمها...

هبط بهاء الدرجات الحجرية العشر الأثرية. الهابطة إلى قاع البئر، وقال هامسًا وهو يستوقد شمعة من شمعات غادة بعود ثقاب:

ـ يقول عمى جمال إن الدهاليز الأثرية التى تجمع ما بين هيكل آمون وجبل الموتى وجبل الدكرور وغرفة الاجتماع الشهيرة بين كهنة آمون والإسكندر الأكبر الزائر المقدونى... يقول عمى إنها كانت مجهولة تمامًا منذ قرابة خمسمائة عام أو يزيد، ويقول أيضًا أن الذى اكتشفها وهو رجل يونانى: كان يعتقد أن قبر الإسكندر لابد وأن يكون موجودًا داخل أحد تلك السراديب الأثرية الضاربة فى غياهيب الزمن، ولكنه باء بالفشل تمامًا كصاحبه الذى منى بالخيبة بعد أن أعياه البحث فى مدينة الإسكندرية بالقرب من شاطئ البحر منذ قرابة ألف وخمسين عامًا...

وهنا كان كل من بهاء وغادة قد دلفا إلى سرداب طويل مظلم متسع، فراحا يسيران فيه بقدم خبيرة تعرف أن تسير على هدى ضوء الشمعة الذى كان يلقى بنفسه بين أحضان الصخور...

قالت غادة وقد عمدت إلى إنزال زوادتها عن رأسها وحملها بين يديها:

ـ ويقول عمى جمال أيضًا إن هذه الكهوف وبالرغم من قيمتها الأثرية: ما عاد الناس يحفلون بها خاصة وأنه قد انتشرت عنها الحكايات والأقاصيص التى تحكى نوادر العفاريت والجان والطلاسم والأيدى المسحورة الممتدة فى الظلام ولعنات الفراعنة التى تذهب بكل شيء. وبكل إنسان يعن له أن يتخطى تلك السراديب فى محاولة للنيل من أسرارهم....

ـ حقًا يا غادة.... ولكن ليس من إنسان غيرنا يستطيع اقتحام تلك السراديب البالغة من الطول: كيلو متر ونصف غربيًا فى اتجاه غرفة الإسكندر حيث يقيم صديقنا عابد مكدس الحسنات، وكيلو متر ونصف جنوبيًا فى اتجاه جبل الدكرور حيث يقيم العم جمال الحبيب...

ـ حقًا يا بهاء، ولكن يا لحسن حظنا: إن جبل الموتى أو "المصبرين" بوصفه مكان لعبنا المفضل لا يبعد عنا أكثر من نصف كيلو متر، ولن تلبث أن نصل إليه بعد قليل...

وساد الصمت، وراح كلٌ من : حذاء بهاء وقدمى غادة يتحسسان الصخور أسفلهما، وراحت الشمعة تحترق من أجلهما وتذوب وتفنى نفسها وتذرف الدموع ألمًا وحسرة على تضاؤلها وفنائها فوق جعد الصخور...

وقطعت غادة الصمت بهمسها:

ـ أتحبني يا بهاء؟؟...

ـ أحبك يا غادة...

ـ كأخت لك أم كحبيبة؟؟..

ـ أوه ... كأخت وكحبيبة يا غادة...

ـ لقد اشتكيتك من قبل لعمي جمال، وقلت له إنني أعد نفسي للزواج منك كما يرتضي هو تمامًا وقلت له إني أخاف من أن يكون حبك لي هو حب الأخ لأخته التي نشأت معه تحت ظلال النخيل والزيتون بين القبور...

ـ وماذا يخيفك من ذلك يا غادة؟؟...

ـ حسنًا.... إن ذلك شيء لا تعيه يا بهاء... سيظل ذلك الأمر مستغلقًا عليك تماما حتى يحين الزواج..

ـ أتتنبئين يا غادة؟؟..

ـ من حق الأنثى أن تتنبأ بأحوال بعلها يا بهاء...

ـ حقًا... أعلم ذلك، ولكنني لا أرى ما يدعو إلى القلق...

ـ لقد علمنا عمي جمال لعبة "الكا" و "البا"... إنها فكرة فرعونية... فيقول القدماء المصريون بأن الروح وهي "البا" في يوم البعث تظل تبحث عن جسدها وهو "الكا" بين عديد من الأجساد... وما إن تجدها حتى تستقر بها من جديد، أما إذا لم تجد الجسد: فإنها تظل روحًا هائمة على وجهها لا تجد لها مستقرًا، ومن أجل ذلك فلقد برع القدماء المصريون في فن التحنيط حتى لا يكبدوا الروح أي "البا" مشقة التعب في البحث المشقي عن جسدها "الكا"...

أجل... أجل يا غادة... إنك تحفظين دروس عمي جمال عن ظهر قلب... إن كلامه يمرق إلى القلوب والعقول معًا، وهذه قدرة أعدها فذة... ليته كان أستاذنا بالمدرسة إذًا: لكنا قد حفظنا الدروس دون أن نكلف أنفسنا عناء استذكارها وتفهمها من جديد عن طريق الكتب والكراسات والمذكرات المضنية...

ـ حسنًا... عليك يا بهاء في هذا الأسبوع أن تكون "البا" التي تبحث عن "الكا"... لقد كنت أنا كذلك في الأسبوع الماضي... لقد حل عليك الدور أن تكون الروح التي تبحث عن الجسد... ولسوف أتقن الاختباء في تابوت من توابيت الموتى الفرعونية المحفورة بالجدران الأثرية بمختلف الدهاليز في جبل الموتى، وعندما تبحث عني، عليك أن

تمسك بأطراف قميصك كما لو كان جناحين تتجنح بهما الروح الباحثة فى تابوت ما على أن تثبت براعة فى ذلك لأننى سوف أختار تابوتًا يصعب عليك العثور عليه بسهولة...

شعر بهاء أثناء سيره أن الأرض بدأت فى الارتفاع، ومن الفور هتف بغادة:

ـ والآن، لقد دنونا فعلاً من جبل الموتى...

ـ مرحى... مرحى يا بهاء... أنت روحى التى سوف تبحث عن جسدى....

وعلى ضوء الشمعة لاحت درجات سلم متآكل منحوتة فى الصخر مرتفعة إلى أعلى...

صعد الشبحان السلم فى بطء وحذر شديد خشية السقوط، وما إن اجتازا السلم حتى كانا فى دهليز طويل بدت فى نهايته فتحته المضيئة المطلة على الدنيا من حول الجبل...

سار بهاء ومن خلفه سارت غادة حاملة زوادتها فوق رأسها، وما أن دنيا من تلك الفتحة الأثرية المطلة على أسفل الجبل: حتى حطت الفتاة حملها فوق الأرض وراحت تحدق إلى ذلك المنظر الخلاب الذى يأخذ بالألباب وقد تضافر سعف النخيل البادى على مبعدة من سفح جبل الموتى المخروطى الجيرى البالغ من الارتفاع خمسين مترًا، وقد بدت فتحات السراديب الفرعونية كما لو كانت خلية نحل، ولما فاءت نفس الفتاة إليها وقد أخذها سحر المنظر حتى هممت لفتاها:

ـ لم يحن بعد عيد الثوم حيث يتوافد الأهالى إلى الجبل... لا أحد هنا يا حبيبى... هيا... هيا الآن إلى الدهليز الذى تعودنا على اللعب فيه لعبة "الكا" و "البا".

وعلى الفور، تقهقرا إلى حيث فتحة فى منتصف السرداب تؤدى إلى سرداب مظلم آخر سرعان ما قاد إلى فناء متسع على جانبيه فتحات تنتهى بسلمات تقود إلى التوابيت الحجرية المحفورة فى الجدران...

هممت الفتاة متوسطة بحملها الفناء المتسع وقد بددت الشمعة مزيدًا من الظلام:

ـ لولا عمى جمال لما اجترأنا على ولوج ذلك المكان المهيب... حقًا لقد وهبنا الشجاعة ورباطة الجأش.

ـ أى نعم يا غادة..يا لها من شيم قد وهبها لنا... إننى أحبه يا غادة حبًا جمًا، ولسوف أجعله نبراسًا منيرًا يضيىء حياتى... لسوف أحفظ ما يقوله لىَّ حتى ولو كان غريبًا... ويكفى أنه يتكلم فيتغلغل حديثه إلى عمق أعماقى...

ـ إذًا هيا .... هيا نعيد الحياة للعبته الفريدة التى تعلمناها منه... هيا يا حبيبى...

وتركت الفتاة زوادتها على الأرض الصخرية ذات الجدران المغطاة بالنقوش الفرعونية المحفورة ما بين ملونة وغير ملونة، ومشت على ضوء الشمعة التى يمسكها الفتى المغمض العينين، وراحت فى خفة تفتش عن تابوت يمكن أن يرهق الفتى فى العثور عليه، وما إن ارتضت تابوتًا وسطيًا وانتخبته وقد دلفت إليه عن طريق الفتحة الوسطى على جانب من الدهليز... ما إن انتخبته حتى ارتقته واستلقت بداخله وقد خيم الظلام من حولها كما لو كان غطاء التابوت المفتقد وقد جثم ليغلق ذلك التابوت المنتخب... ومرت لحظات جعلت الفتاة تحدث نفسها فيها وقد سرت فى جسدها رعدة مبهمة:

ـ أهكذا سنكون يوم نموت؟!.. حمدًا لله أن الإنسان لا يشعر بشىء عندما يموت.. فلو أن الإنسان كان حيًا وهو ميت بداخل ذلك التابوت لصعب الأمر... ما أشنع الأمر لو كان كذلك.. إذًا حمدًا لله أننا نكون موتى حينما نموت...

فتح بهاء عينيه، وراح يطوف ببصره فى أنحاء الفناء الرحيب الذى تناثرت على جوانبه الفتحات المؤدية إلى توابيت الموتى، وعندما رسا اختياره على فتحة معينة بطريقة عشوائية محضة حتى أسرع داخلاً وراح يطقس عن "الكا"...

جعل يحدق فى التوابيت الحجرية المتجاورة الخاوية تمامًا من مومياواتها، وعندما تبين له تماما أنه قد أخطأ الفتحة التى انتخبتها غادة، حتى خرج لتوه بعد أن استوقد شمعة جديدة وقد قاربت شمعته التى يمسكها على الانتهاء .. ومن ثم عرج على فتحة أخرى مجاورة، ولكنه افتقد "الكا" فى هذه أيضًا، وهنا عنّ له أن يعرج على الفتحة الأخيرة بأقصى ركن الفناء، ومن فوره أسرع إليها وراح يبحث ولكنه لم يجد لـ "كا" من أثر...

وهنا أصابته الحيرة، واستبد به الارتباك، ولكنه لم ييئس، بل أسرع إلى فتحة وسطية وولجها، وراح يبحث بقلب هلع لاهث متواثب خلف الضلوع، ولشد ما كانت دهشته حقًا أن يجد غادة راقدة فى تابوت وسطى، فأسرع إليها وقد رفع الضوء غطاء الظلام المخيم على التابوت، وما إن شاهدته غادة وقد مثل عند رأسها ناشرًا أردان قميصه بين أصابعه حتى كما لو كان روحًا ذات جناحين... ما أن شاهدته همست:

ـ أيتها "البا"... لقد وجدت "الكا" التى تخصك...

ـ أجل أيتها "الكا" ولكن تراني قد تكبدت مشقة فى هذا اليوم كيما أعثر عليك... إنك متعبة للغاية أيتها "الكا"...

ـ أكان الأمر كذلك حقًا؟؟... ولكن ألا تحمدين لىَّ أيتها "البا" أننى محنطة تماما؟؟... لقد أشرف على تحنيطى أمهر الكهنة فى مدرسة الإله "أنفو" الذى له رأس ابن آوى وجسد آدمى.

ـ حقًا... حقًا أيتها "الكا"... إنه لتحنيط رائع... انظرى أيتها "الكا" إلى شعرك... انظرى إلى وجهك النضير... انظرى إلى عينيك الكحيلتين... انظرى إلى بشرتك الخمرية.. يا له من كاهن نابغة حقًا أن جعلك ترقدين هكذا عبر السنين جسدًا نضيرًا لم يلحقه الفناء...

ـ جميل منك هذا المديح أيتها "البا"... ولكن: ألا يمكن لك أن تعزز إعجابك بى وبمهارة تحنيط الكاهن لى؟؟.. ألا يمكنك تعزيز إعجابك بى ولو بقبلة؟؟...

ـ أوه ... ولكن ... ولكن يا غادة... ألا تذكرين نصائح عمى جمال؟؟... لقد نصح بأنه لا مدعاة للقبلات... لقد نصح بأن نلتزم حتى نتزوج أيتها "الكا"...

ـ إذًا أفهم من ذلك أن "البا" لا يمكن لها أن تخالف نصائح عمى جمال ولو للحظة واحدة؟؟...

ـ إنه خير لنا أن نفعل أيتها "الكا"...

ـ لا بأس... ألا يمكن إذًا أن تطبع قبلة فوق كفى؟؟؟... إنها عربون الوفاء أيتها "البا"...

ـ حسنًا... حسنًا إذا كان الأمر كذلك أيتها "الكا" الحبيبة....

بيد أنه ما كاد بهاء يترك أردان قميصه الذى كان يتخذ شكل الجناحين ويمد يده كى يمسك بكف غادة: حتى أتاهما صوت مبهم من خلال الظلام:

ـ ما أمتع أن تعثر "البا" على "الكا" حقًا...

بهتت الفتاة فتجمدت فى مستقرها، وارتدت يدا بهاء لائذة بجانبيه، ورغم أن عينيه راحتا تسعيان منقبتين فى الظلام: إلا أنهما كانتا أضعف من أن تسبر كل الغور..

وعاد الصوت المبهم يهمس من جديد:

ـ لماذا لم تقبلى كف "الكا" "أيتها" "البا" وقد وجدتها!!

وهنا تجاسر بهاء وحرك شفتيه فيما يشبه التمتمة:

ـ ولكن.... من... من أنت!!

ـ أوه... إننى آمون أيتها "البا".

ـ آمون!! الإله آمون المصرى القديم!!

ـ كلا أيتها الـ "البا"... إننى آمون العبد ولست آمون الإله...

ـ آمون العبد؟؟..

ـ أجل ... ألا تعرفتى؟؟.. إنك تعرفتى يا بهاء.. إنك تعرفتى حق المعرفة... ألم تسمع صوتى من قبل؟؟.. إننى عبد عمك جمال يا بهاء... إننى صانع التماثيل... أم تشاهد تماثيلى من قبل؟؟... لقد شاهدتها... لقد شاهدت تماثيلى الصلصالية والحجرية بل والرملية...

وهنا هتفت غادة وهى راقدة فى تابوتها:

ـ العبد آمون؟؟... العبد آمون؟؟... عبد عمى جمال؟؟... رباه.... رباه.. ولكن ما الذى أتى بك إلى هذا المكان أيها العبد الجانزى العجيب؟..

فهمس الصوت:

ـ حقًا... يا له من سؤال... ما الذى أتى بىَّ إلى هنا؟؟.. لقد هربت من عمكما، وذلك لم يحدث من قبل أيتها "البا" ويا أيتها "الكا"... إنه الأمر الأول من نوعه.. حقيقة إن عمكما جمال يعمد إلى ضربى بالسوط لأسباب قد تبدو واهية لا تدعو إلى البطش، ولكن لم تحرضنى نفسى على الهرب منه بالرغم من كل ذلك... لكم ضربنى وعنفنى بسبب انحراف يسير فى أنف تمثال، أو عدم الإتيان بمنظر يطيبُ له... لقد انهمرت السيول على قمة "نادرة" وهى إحدى قمتى جبل الدكرور كما تعلمان... انهمرت السيول على تلك القمة، ونجمت عن ذلك كمية ضخمة من الصلصال الأصفر، ولما كنا نسكن فى بيت السلطان بالقرب من ذلك الصلصال: فلقد كلفنى بجمع كل الصلصال المتراكم عند سفح قمة الجبل، كيما أصنع منه عديدًا من أشكال النساء... لقد كلفنى بعمل مجموعة ضخمة من تماثيل النساء فى مناظر شتى تظهرهن جميعا متزلفات راجيات متوسلات له وهو واقف عند باب الكهف... إنه عمل جد مضن أيتها "البا" ويا أيتها "الكا"... ولكن يهون الأمر طالما أن ذلك يبعث السرور والابتهاج فى نفسِ ربى جمال... لقدْ قمت بعمل عدد لا بأس به من تماثيل النساء عند عتبة باب الكهف من ذلك الصلصال، ويمكنكما رؤيتهما اليوم إن شئتما... ولكن... ولكن...

فقال بهاء وهو يقدم لفظًا ويؤخر آخر:

ـ ولكن؟؟.. أيها العبد آمون؟؟... ألا تبرز لنا من مكمنك فتكلمك؟؟... إن صوتك يبعث الرعب فى قلبينا... إننا لا نراك...

ـ حسنًا أيتها "الكا"... يمكننى أن أبرز لكما الآن طالما أننا قد تعارفنا... إننى لم أشأ أن أبرز لكما ولما يكن هناك تعارف قد تم بعد خاصة ونحن فى تلك الظلمات.

وببطء اقترب شبح مريب من نهاية المقبرة التى تضم العديد من التوابيت على الجانبين وقد جمع بينهما طريق ضيق لا يتسع إلا لفرد واحد...

لم تمض لحظات حتى ظهر الإنسان الجانزى العارى تمامًا، ولكن وبالرغم من عريه: لم يكن هناك ثمة ما يخجل من عدم ستره...

تقدم منهما آمون العبد الجانزى ذو الشعر الكستنائى جميل الطلعة متوسط الطول معتدل القوام خمرى اللون، وقد بدا على خطواته عُرج خفيف... وهنا اعتدلت الفتاة جالسة فى تابوتها وراحت تحملق إلى ذلك الإنسان المخلق المدعو بالعبد آمون نحات التماثيل والذى ظهر لهما عنوة دون مقدمات، أو أسباب شافية فى ظلمات ما أشد حلكتها وفى مكان ما أفظعه...

مثل آمون أمام الفتى فبديا فى طول متماثل، وجعلا يحدقان كلٌ إلى الآخر وقد ضمهما ذلك المكان الرهيب، وما لبث الإنسان الجانزى أن قال ناظرًا بعين ثاقبة إلى وجه بهاء:

ـ أتعلم يا بهاء لماذا أتيت ههنا؟؟... أتعلمين أيتها "البا" الباحثة عن "الكا" الخاصة بها؟؟... ذلك لأننى أحسست فى صباح اليوم بإحساسات ستنتابنى وتكتنف جسدى كله، ولقد فهمت مسبقًا أنها أحاسيس نزوة العمر...

ـ نزوة العمر!!..

ـ أجل... أجل أيتها "البا" إنها نزوة رائعة، ولكن بالنسبة لنا لا تتكرر إلا مرة واحدة... إنها نزوة ذاتية بالنسبة لىَّ بوصفى إنسانًا جانزيًا أتكاثر ذاتيًا، وبعدها.. هه... وبعدها...

وهنا تجاسرت غادة وقالت وهى لا تزال جالسة القرفصاء فى تابوتها:

ـ ماذا بعد يا آمون؟؟!..

فقال آمون وهو يضم ذراعيه إلى صدره:

ـ وبعدها... سأكون حاملاً بالطبع أيتها "الكا" وسيستمر حملى مدة اثنى عشر شهرًا... وبعدها .... هه.... وبعدها...

وهنا همست غادة:

ـ وبعدها ماذا؟؟ ماذا أيها العبد آمون؟؟

فقال آمون العبد وهو يتخلل شعره الكستنائى بأصابعه:

ـ وبعدها... وبعدها أموت أيتها "البا"...

فقال بهاء وقد جحظت عيناه:

ـ تموت؟؟ بعد الوضع؟؟؟

فقال العبد وهو يحدق إلى ركن مظلم من أركان بهو التوابيت:

ـ أجل... أموت بعد أن أضع الجنينين اللذين أحملهما فى أحشائى... سينهشان بأسنانهما جدار بطنى ليخرجا... هكذا خلق الإنسان الجانزى... ليس له من فرصة للحياة بعد أن يلد للمرة الأولى والأخيرة...

وما كاد الإنسان المخلق يلفظ آخر كلماته: حتى زاغ بصره، وارتعشت وجنتاه وتواردت الدماء الزرقاء إلى خديه واتسعت حدقتاه ثم عاد تماماً فى منظر يبعث على الريبة، وهنا همس بهاء فى انزعاج:

ـ ماذا؟؟... ماذا بك يا آمون؟؟..

فقال الجانزى وهو يكاد يترنح وكأنما شرب كأسًا من خمر معتق:

ـ أواه.. أواه.. نزوة العمر... النزوة التى ستنتابنى.. ساعة برمتها... لقد حدثنى عنها إنسان جانزى آخر كان يباع للآلهة الآدميين فى سوق الرقيق والنخاسين بالقاهرة بالقلعة الأثرية التى حدثت بها مذبحة القلعة منذ قديم الزمن أيام المماليك .. حدثنى عنها ذلك الرقيق الجانزى وقد كان مصفدًا بنفس السلسلة التى كانت تكبلنى بيد أن ذلك الإنسان كان حاملاً فى شهره الثانى، بينما كنت أنا فى ريعان شبابى آنذاك.. لقد كان عمرى وقتها خمسة عشر عامًا وهذا العمر بالنسبة لنا أوج الشباب، ذلك لأننا لا نعيش أكثر من ثلاثين عامًا، وكان عمر الإنسان الجانزى الحامل تسعة وعشرين عامًا وشهرين.. تصور.. لقد اشترته امرأة موسرة على جانب عظيم من الجمال لقد جاءت إلى السوق بعربة فاخرة... اشترته بمبلغ خمسمائة جنيه، بالرغم من أنها تعلم أنه حامل وأنه لن يلبث حتى يموت.. ولعل هذه المرأة كانت تبغى الجنينين اللذين ستجود بهما بطنه.. وفور ذلك جاء معكما جمال بعربته المبتذلة حقًا تلك العربة التى كانت مثار ضحك جميع من بالسوق من نخاسين وزبائن من علية القوم.. لقد اشترانى يومها بمبلغ مائتى جنيه، ولتعلمى أيتها "البا" وأنت أيتها "الكا" أن هذا المبلغ يبدو ضئيلاً، ومن المرجح أنه ضئيل بالفعل، بيد أن ذلك كان بسبب عرج ساقى اليمنى المصابة من الداخل

منذ طفولتى... حاول النخاس تجنب إظهار عرجى، ولكنه أخفق تمامًا، ولذلك فلقد ابتهج للغاية حينما نجح فى بيعى... لقد اشترانى عمكما لموهبتى الرائعة ألا وهى موهبة النحت وصناعة التماثيل... أواه.. أواه...

فقالت غادة وقد شعرت أنها قد تجمدت تمامًا فى تابوتها الذى تقبع فيه:

- ماذا بك أيها العبد آمون؟؟..

- يبدو أنه قد حان وقت نزوتى... وقت نشوتى أيتها "الكا".

- أواه هل هناك ما يخجل؟؟..

- أواه أواه أيتها "الكا"... إنك تتحدثين وتتبثين بأشياء لا يمكن أن تحدث إلا لكم يا معشر الآلهة الآدميين.. إننى عبد جانزى... إنها نزوة ذاتية.. فقط سينتابنى نوع من أنواع الرقص الإباحى وأنا راقد.. أواه.. أواه يا إلهى جانز حسنًا أيتها «البا».. حسنا أيتها «الكا»... يمكنكما مشاهدتى على ألا تبوحا بشىء لعمكما... والآن سوف أتجه إلى الفناء الرحيب وعليكما أن تتبعانى إن أردتما مشاهدتى وأنا فى نزوة العمر..

ولم يضف آمون العبد كلمة واحدة بعد ذلك، بل لقد سار فى الطريق الضيق بعد انحنائه لبهاء، وما لبث أن صعد الدرجات القليلة التى تقود إلى الفناء الرحيب وقد عرجت ساقه اليمنى عرجًا خفيفًا، وخلال ذلك سقطت ضياء الشمعة التى يمسكها بهاء على ظهره فأبانت عن عدد من آثار ضربات السوط وقد تسربل بعضها بدماء زرقاء..

توسط آمون العبد الجانزى ساحة الفناء المغلق من كل اتجاه حيث لا يصلها بالعالم الخارجى غير باب واحد منحوت فى الصخر نقشت عليه صورة الإله آه ون ذى رأس الكبش، وبينما هو كذلك كان بهاء ينحنى على أذن غادة القابعة فى تابوتها هامسًا لها:

- هيا.... هيا يا غادة... إنها فرصة لن تعوض... ألا تشاهدين نزوة العمر بالنسبة لإنسان جانزى؟؟... ليس هناك ما يخجل يا غادة كما حدثنا آمون.

وعلى الفور قفزت غادة تابوتها الحجرى، وأمسكت بيد بهاء وقد التصق جسداهما عبر ذلك الطريق الضيق الذى تخلل التوابيت الفرعونية المقدودة من الصخر، وما زالا يسيران ببطء حتى ارتقيا الدرج الصاعد إلى أعلى ووقفا يحدقان وقد ألقت ضياء الشمعة بنفسها فى أحضان الجانزى...

كان آمون قد استلقى فوق الأرض الصخرية بجوار زوادة غادة، وقد أشرقت على وجهه ابتسامة رائعة وهو يسدد بصره إلى أعلى..

مدد العبد جسده تمامًا ثم جمع جذعه بين ساعديه فيما يشبه القنفذ، ثم انقلب رأسًا على عقب، وطوح بوجهه ذات اليمين وذات اليسار، وراح يتمعج فى هلامية وقد توارت إلى وجنتيه الدماء: فأضفت عليه حمرة غير محتملة أو متخيلة : ذلك لأن دماءه زرقاء... فمن أين له بتلك الحمرة؟؟... وخلال ذلك كان يتمتم بكلام مبهم تمامًا:

ـ عندما نتحصل على مزيد من الطاقة لابد أن نجنى اللذة فى نفس اللحظة، وعندما نفقد الطاقة نجنى اللذة أيضًا فى نفس اللحظة... فى الفقدان لذة.. وفى الاستزادة لذة.. ولكن اللذة ألم غاية فى الضآلة... إنه ألم يدغدغ ويهدهد الجسد، ومن هنا جاءت اللذة.. إن سوط إلهى جمال كان يقمقع فوق جسدى.. لقد كان يلهبنى بمزيد من الألم، ولكن وبعد انمضاء زمن على ضربى كان الألم يتلاشى ببطء، وبعدها كنت أحس بلذة مبهمة تدغدغ جسدى جراء ضربات السوط... إننى الآن أرقص... أبتهج.. النجوم ملك يمينى.. الكواكب ملك يسارى... أنا آمون العبد... لقد كان هناك فى غابر الزمان آمون الإله... وفى حاضر الأيام هناك آمون العبد... رعدة مبهمة... لذة عارمة... أنفاسى تضيق... قلبى يلهث... ضلوعى تشرئب وترقص من خلف جلدى... الجنة تقترب... أتلظى فى النار... لقد ولجت الجنة والنار معًا... أنعم بالفردوس وأنشوى فى الجحيم.. أواه... أواه... افصلوا الجنة عن النار... ابتعدوا أيها الزبانية... أواه يا زبانية جهنم... لماذا تلجون الجنة!! أخرجن يا حوريات الفردوس من النار... مالى أراكن فى كبد النار بجمالكن الصارخ!! ألا تخشين الحريق أيتها الحوريات؟؟!.. جمالكن يا فاتنات الفردوس... ولكن يا للعجب!!. إن الحوريات لا تخشين الجحيم.. عجبًا ولكن لماذا أخشاه أنا!! ابتعدى أيتها الأنهار العذبة حتى لا يتبخر ماؤك السلسبيل على سعير الجحيم... ولكن يا للعجب... إن الأنهار تجرى دون أن يتبخر سلسبيلها... يا أدواح الجنة ويا أزاهيرها: ألا تقلعين عن صقر!! لقد أخبلتنى أيها الجُحيم.. لقد حيرتنى أيتها الجنة... أواه... يجب أن تنفصلا تمامًا... يجب أن تنفصلا تمامًا... لماذا تشغلان نفس المكان فى مخيلتى!! إن مكان الجحيم والفردوس الأثير: هو جسدى... ما هذا الاستعباد؟؟.. كيف تحتل الجنة والنار جسدًا واحدًا!! لست أدرى لماذا.... أواه... أواه... أريد أن أصرخ... أريد أن تشتت ذرارى جسدى فى الهواء... بل فى العدم.. ولكن لماذا أتشتت؟؟.. لماذا تلك الرغبة؟؟... تبًا لها من رغبة حمقاء... تبا لك يا جانز... لماذا خلقتنى؟؟.. لماذا خلقتنى على ذلك النحو؟؟.. أواه... بل شكرًا لك يا إلهى أن خلقتنى كيما أنال تلك اللذة العارمة الطاغية... أواه... بل تبًا لك ياإلهى جانز... لقد خلقتنى كى أموت فى نهاية المطاف بعد أن أكون قد نلت ما لذ وطاب من ظلم الآلهة الآدميين

أمثالك... أواه... بل الحمد، لك يا إلهي جانز لأنك تشفق عليَّ فى النهاية إشفاقة الأم الحنون تلك التى تضم صغيرها فى أحضانها بعد أن يكون قد أمضه التعب وأكله الجهاد... جسدى يرتعد... تبًا للجحيم... سحقًا للجنة... لا أرغب فى النار، ولا أصبو إلى الجنة... أريد الفناء... أريد أن أتبدد.. الثورة تطفح على جسدى ببركان يلقى بالحمم... الحمم تنساب فى شكل مخروط مدمر سرعان ما تنمو فوقه الأعشاب بعد أن يخمد... لا أريد الجنة... الحمم تنساب فى النار... كلا... بل أريدهما... أريدهما معًا... مرحبًا بهما... أقبلى أيتها النار... هلمى أيتها الجنة... أواه... كلا... بل ابتعدا... ابتعدا عنى... ابتعدا أنتما الاثنان... كفى... لا أريدكما... كفى .... كفى... إليكما عنى... إليكما عنى...

كانت عينا آمون فى تلك اللحظات قد جحظتا تمامًا تحملقان إلى لا شيء ونكس وجهه كما لو كان قد أذل حقًا فصار عبدًا ربما لشيء ما: أو ربما عبدًا على الإطلاق - وإن ذلك ليتوقف على الشعور الشخصى لذلك الإنسان الصناعى - والأمر كذلك: شعرت كلاً من "الكا والبا" بهول الموقف الذى لم يكن يخطر لهما على بال أو خيال، فلم يسعهما إلا أن ينكسا وجهيهما وقد لاذ أحدهما بحضن الآخر بطريقة لا شعورية تمامًا، وبعد لحظات ما كان أعجبها بدأ الإنسان الجانزى يحرك رأسه من جديد، وقام ببطء شديد من مكانه، وانتصب واقفًا على قدميه ثم سدد بصرًا شاردًا نحو الفتى والفتاة الواقفين على مبعدة، وهمس وكأنما قد بعث بعثًا جديدًا:

ما موقفكما؟ ما الذى أذهلكما؟

- أكان الأمر خلايا حقا؟؟؟!!.

فأجاب بهاء وهو يكاد يلهث:

- لست أدرى... ولكن يبدو أن الأمر خطير قبل أن يكون خلايًا أيها العبد آمون...

فقال آمون وهو يركع أمامهما ثم قام معتدلاً وقد بدا جسده كأبدع ما تكون الأجساد:

- مولاى... يا سليل الآلهة... مولاتى يا سليلة الأرباب: تسنى لى فى رحابكما أن أنال نشوتى التى لا تتكرر أبدًا، وبالطبع لا يمكننى مشاهدتكما معًا كما شاهدتمانى لأنكما آلهة... ولكن بودى أن أنتفع بشفاعتكما لدى إلهى عمكما...

فقال بهاء فى توجس:

- حسنًا... ما خطبك يا آمون؟؟؟ ... أتود شفاعتنا حقًا؟؟.

فهمس الإنسان الجانزى مكررًا رجاءه:

ـ أجل ياسليل الأرباب.. أنت تعلم الآن أننى ولأول مرة قد تهربت طيلة هذه المدة من المثول بين يدى إلهى، وستكون آخر مره يعن لىَّ فيها أن أناى عن ربى... إننى عبده.. لقد اشترانى بماله، ولا يسعنى إلا أن أخدمه حتى نهاية عمرى، وفى خاتمة المطاف يجب علىَّ أن ألد جنينين رائعين يتمتعان بموهبتين متباينتين حسب الانعزالات الوراثية التى ستتجم بداخلى كما يقول عمكما.. إننى أكون شاكرًا لكما حينما لو تشفعتما لىَّ عنده يمككما أن تنتحلا من أجلى أى عذر لائق لتغيبى عنه طيلة مساء الأمس وحتى هذه الساعة من نهار اليوم، ويمكن أن تكون زيارتى لكما سائلاً عن حالكما: عذرًا لائقًا مقبولاً...

فقالتا غادة وهى تكاد لا تعى ما تقول:

ـ حسنًا .. يمكننا انتحال ذلك العذر حين لا ينام منك سوط عمى فعاود الجانزى الركوع من جديد ثم وقف هامساً فى أدب جم.

ـ هنئت وسعدت «الكا» سليلة الآلهة.

شعرت غادة بمزيد من السعادة والغبطة لنعتها بسليلة الآلهة، ذلك النعت الذى كان يتناغم مع طبيعتها وجبلتها خاصة وأنها كانت تعتد دائمًا بما تمتلك، وهى تؤمن بالقطع أن الجبلة الطبيعية للآلهة: هى امتلاك الأشياء والمفاخرة بذلك... وإزاء ذلك الشعور الصادق الصافى من حيث الأعماق، أومأت برأسها لابن عمتها وقالت مداعبة:

ـ والآن... لقد استقر رأينا على ذلك الانتحال... ولا يسعنا الآن إلا أن نبدأ رحلتنا إلى صديقنا عابد مكدس الحسنات حتى نهبه زوادتنا الأسبوعية، وبعدها نعرج إلى حيث يقيم عمنا فى بيت السلطان بجبل الدكرور...

وبخفة تقدمت من حملها كيما ترفعه عن الأرض، وحين ذلك: ما كان من العبد آمون إلا أن اعترض بانحناءة يسيرة قائلاً:

ـ ما عاش العبد آمون لو ترك سليلة الأرباب تحمل تلك الزوادة طوال الطريق... سأتولى ذلك يا بنت الآلهة..

وهنا همس بهاء الذى كان يحمل شمعته وقد رفعها إلى أعلى لتبدد مزيدًا من الظلمة..

ـ إذًا، فلتتبعنا يا آمون.

وبدأ الركب الثلاثى فى التحرك، وسرعان ما ابتلعهم النفق الهابط إلى أسفل حيث أحشاء الجبل، ومن فور ذلك احتواهم سرداب طويل فرعونى يبلغ طوله كيلو متر ونصف فى اتجاه

الغرب كان عليه أن يقود إلى غرفة اجتماع الإسكندر بكهنة آمون فى غابر الأزمان.. كان عليه أن يقود كلاً من الفتى المتقدم بشمعته، وتلك الفتاة المترنمة، وذلك الإنسان المخلق آمون الذى يحمل الزوادة ممنيا النفس بشفاعة سليلى الآلهة لدرء ما قد يحل به من عقاب..

وأخيرا، تنبهت الأقدام إلى أن الأرض بدأت ترتفع، وأنهم قاب قوسين من الجبل الذى تتربع عليه الغرفة الشهيرة، وما زادهم التنبه إلى ذلك: إلا إسراعًا فى الخطوات، وما هى إلا لحظات حتى كان الجميع يرتقون السلم الأثرى الذى قد من الصخور الرسوبية التى تكون أديم الجبل المسطح القمة تمامًا والذى كان فيما قبل يفاخر بمعبد آمون الإله الفرعونى والذى تهدم تمامًا ولم يبق منه غير تلك الغرفة الشهيرة.. ولما كان الدرج يقود رأسًا إلى منتصف تلك القاعة الأثرية: فإن الركب قد ألفى نفسه فجأة فى كبدها دونما مقدمات، ولشد ما كانت فرحة "الكا والبا" أن وجدتا عابدًا الصديق الأثير واقفًا بالقرب من النافذة متطلعًا من خلال نظارته إلى النخيل المتعانق من بعيد..

كان عابد الصديق: رجلاً طويل القامة عريض المنكبين مفرط النحول يرتدى حلة تبدو بالية ذات لون رمادى استبد بها القدم مما أضفى عليها مزيدًا من اللون الرمادى...

كان للرجل وجه ضامر قد تمسح بعديد من الصفات: فاكتسب مسحات منها.. فهذه مسحة من النبل ومسحة من الصفاء... وتلك مسحات أخرى من القنوط والغموض والاكتئاب.. وفوق قمة ذلك الوجه العريض الجبهة الضيق العينين المشرئب الأنف: كان يتربع شعّر مسترسل طوح به الرجل إلى الخلف دونما اكتراث وقد وخطه شيب قد زج بأنفه فى ديجور السواد...

كان الرجل آنذاك يقف معتمدًا على مرفقيه على القاعدة الحجرية للنافذة، وبالقرب منه وبجوار الجدار كانت تقبع حشوة من قماش الكتان المتهتك البالى وقد برزت من بعض التهتكات قبضات من قطن المشار... وإلى جوار تلك الحشوة كان هناك "مرجون" من الخوص يبدو خاويًا إلا من كسرات من الخبز المقدد... وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ثمة ما يدعو للبيان والتبيان فى تلك الغرفة الأثرية الصخرية المرتفعة السقف الحجرية الأرضية..

ما إن دخل الركب المرتحل حتى التفت عابد الصديق إلى الخلف فى انزعاج شديد، ولقد بدا أمامه بهاء ممسكًا شمعته، وغادة التى قد أسدلت على نفسها وشاحها الأسود فغطاها تمامًا من الوجه إلى أخمص القدم، وذلك الإنسان الجانزى العارى الذى وضع الزوادة عند قدمى الصديق دون أن يبخل بمزيد من الركمات والانحناءات...

وقف عابد هنيهة يتفرس فى أفراد الركب الوافد ثم قال فى هدوء حتى ليكاد لا يسمع له قول رغم السكون المخيم:

- مرحبًا... مرحبًا بكم... مرحبا وشكرًا لكم على زيارتكم تلك... أعلم أنها الزيارة الأسبوعية، ولكنني أكاد أنسى ذلك دائمًا... إن الأسبوع طويل، وطوله من شأنه أن ينسيني كل شيء كما وأن الذكرى أو التذكر في حد ذاته يعتبر اعتداء.. أجل... أليس التذكر مرجعه اختزان الأحداث والمعلومات؟؟.. إن الاختزان في حد ذاته اعتداء.. ولذلك فإنني لا أختزن أي شيء حتى ولو كان المختزن لا يزيد عن ذكرى... معذرة... معذرة أيها الصديقان، إنني أريد دائمًا أن أطمئن إلى عدم اعتدائي على أي شيء..

وانحنى عابد على الزوادة وراح يقلب محتوياتها بين أصابعه الجد نحيلة ثم قال:

- آواه... يا لها من زوادة... بيض وبلح وخبز... ما أسخاها من زوادة أيها الصديقان... يا لكما من كريمين أيها الأخوان.. ولكن ... ولكن...

وحرك عابد رأسه في ألم مستبد وأشاح بوجهه ناحية النافذة وحدق إلى النخيل الملوح بسعفه على مبعدة ثم همس:

- ولكن ... ولكن... ألا يعد قبولي لتلك الزوادة اعتداء على بعض ما تمتلكان؟؟... ألا يعد ذلك بحق الله؟؟..

وهنا تجاسرت غادة وقالت بعد أن حدقت إلى الصديق بعينها الوحيدة التي سمحت لها بأن تطل من أسفل الوشاح:

- كلا أيها الصديق المتعبد المتبتل... كلا أيها الصديق الوفي... إنها زوادة تقيم الأود فحسب...

وهنا أشاح عابد للمرة الثانية بوجهه تجاه النافذة المزخرفة من الداخل بنقوش فرعونية أثرية وقال وكأنما يخاطب النخيل البعيد:

- إنك تخفين جسدك بأكمله من وراء الحجاب كما كنا قد اتفقنا تمامًا... إنني سعيد بذلك أيتها الصديقة، ولك أن تعذريني على ذلك لأنني أود أن أكدس الحسنات حتى أدخل الجنة.. لا أريد معصية واحدة أو وسواسًا شيطانيًا واحدًا... لا أريد أن أكدس السيئات... بل أريد دائما أن أكدس الحسنات... إنها تحتم دخول الجنة.. سيصبح دخول الجنة بذلك أمرًا حتميًا... ولكن..ولكن... ويحي... ألا يعد سماع صوتك الأنثوي معصية؟؟.. ألا يعد كذلك؟..ويحي.... ويحي أيتها الصديقة.. ويحي أيها الصديق... إنكما تقبلان علي بالمزيد من المعاصي التي أنا في حل منها... رباه... رباه... إنني أكدس الحسنات... الحسنات...

وهنا هتف بهاء في ضيق وتبرم:

ـ كلا... كلا أيها الصديق الوفى... إنها ليست معصية البتة... أنت وشأنك لو اعتبرتها كذلك...

ثم وجه حديثه إلى غادة:

ـ إذًا، نحن لا يسعنا إلا نطيب خاطر صديقنا عابد... عليك ألا تتحدثى مطلقًا يا غادة... على أن أخاطبه وحدى...

وهنا تهللت أسارير عابد وأدار وجهه ناحية الجماعة الزائرة وقال فى حبور:

ـ أحسنت... أحسنت يا بهاء... ولكن... تصور يا صديقى الوفى: إن العديد من الأهالى هنا يتبركون بى بوصفى إنسانًا متعبدًا... وإن الكثيرين يفدون إلىَّ جالبين معهم الطعام والشراب من بلح وخبز وجبن وخضر طازجة وماء للشرب، حتى اللحم المطهى يأتون إلىَّ به... تصوروا أيها الرفاق... تصوروا ..

وهنا تجاسر آمون العبد وهمس:

ـ يا له من حظ موات يا سليل الآلهة... إنه من حسن طالعك أن يأتى الآلهة كيما يغدقوا عليك بالخير الوفير...

وإزاء ذلك التصريح تلبد وجه عابد بالغيوم وقال فى قنوط:

ـ طيب... ولكن تصوروا جميعًا... لقد درب قوم آخرون أنفسهم على أمر مضاد تمامًا.

فتعجب بهاء بقوله:

ـ أمر مضاد تمامًا!!.

فاستطرد عابد وهو يتخلل شعره بأصابعه النحيلة:

ـ أى نعم... فبمد ما يولى من جاء بالزاد: أرى آخر يأتى كى يستولى عليه من الفور دون أن يترك لىَّ شيئًا منه.. تصوروا !!

تصوروا ياسادة ياكرام

فاحتد بهاء بقوله وهو ينظر إلى غادة نظرات ذات معنى:

ـ أواه.. وتتركهم يفعلون!! وتتركهم يفعلون!!

فقال عابد وهو يربت على كتف بهاء:

ـ هدئ من روعك يا فتى... هدئ من روعك يا صديقى العزيز.. لا حيلة لىَّ فى ذلك أيها الوفى... أن أحوزها بمفردى: لهو جرم أخلاقى... أن أستولى على الزاد بأكمله: لهو معصية وسيئة... أن استهلكها وحدى: لهو وزر مريع...

وبما أن بهاء قد ضاق ذرعًا بذلك النمط من التفكير: قال فى لوعة وحسرة:

ـ واحسرتاه واحسرتاه من حسناتك.. إن الزاد: هبة... هبة... ليس لأحد امتلاكه غيرك.. هذه هى الشريعة هذا هو العرف.. ولكن خبرنى: ماذا تفعل عندما تجوع والأمر كذلك؟؟!!.

فقال عابد وهو يبتسم ابتسامة بشوش:

ـ أوه تصور يا صديقى... تصور ياصديقى إننى أتسول العطاء من الشخص الآخر الذى يأتى ليستولى على الزاد تصور.. إننى أتوسل إليه أن يترك لىَّ النذر. أستجديه أن يترك أقل القليل ولكن تصور... ولكنه غالبًا ما يأبى.. وأحيانًا ما يرضى بترك شىء لا يكاد يقيم الأود... ولكن لا بأس... لا بأس فأنا لو طالبته بأكثر من ذلك: لكان اعتداء منى عليه.. وأنا لا أود أن أكون معتديًا لأنى أكدس الحسنات... وأكدسها لأنى أحتم دخول الجنة... أحتمها.. سأدخلها... سأدخلها... سأدخلها بالحتم.

وما إن لفظ الرجل جملته الأخيرة حتى شاهد الجميع شبح إنسان يروح ويجىء أمام باب الغرفة الأثرية ذلك الباب الذى يقود إلى الأرض الفضاء العالية التى تحيط بذلك الأثر الفرعونى، وحين ذلك لم يسع الصديق المكدس للحسنات إلا أن يشير ناحية الباب الفرعونى بسبابته قائلاً فى تلعثم ظاهر:

ـ إنه.. إنه: هو... هو الرجل الذى يستولى دائمًا على كل ما يجلبه لى الناس من صدقات أعيش عليها... لا بأس.. إننى أعذره فيبدو أن الرجل فقير... إنه يمر على مروره اليومى عسى أن يكون أحدهم قد أتى إلىَّ بشىء ما... إنه الآن يعلم أن بعض الناس فى حضرتى، وهو ينتظر ذهابكم من لدنى على أحر من الجمر... لا بأس... لقد أتيت إلى تلك الواحة بعد أن استقال عمكما جمال من عمله كباحث زراعى.. لقد استقال لأسباب أجدها تافهة جدًا خاصة وأن ذلك النهج لا يتلاءم وشخصه مطلقا، لا ولا مع مبادئه فى الحياة... كان التفانى فى العمل والتضحية والمثابرة والإخلاص فى كل شىء ضمن أسسه التى يسير على هديها وبمقتضاها، فكيف يصل به كل ذلك فى النهاية إلى تدمير كل شىء؟ كيف يصل به فى النهاية إلى الاستقالة من العمل كتصرف سلبى لا يتسم بالإيجابية أو تتويجًا لها... ومع ذلك فهو يدعى أن تصرفه هذا هو أوج الإيجابية أو تتويجًا لها... لقد نصحته بعدم ذلك ولكنه لم ينتصح... كان قبيل استقالته قد توصل إلى بحث، ولكن، إنه لما يدعو للأسف أن يستولى أحد أقرانه عليه... تقدم الباحث الآخر به رسميًا واعتمد باسمه، ولم يسع عمكما حيال ذلك الفشل الذى مُنى به إلا أن

يتصرف تصرفًا همجيًا أودى بكل شيء... لقد أرغى وأزبد وأضرم نيران غيظه فى كل من حوله، ولم يسع إدارة البحث العلمى إلا أن تعمد إلى مجازاته جزاءً حسبت أنه رادعًا له حتى يلتزم الحدود اللائقة، ولكنه قابل هذا الجزاء الذى لم يزد عن "لفت النظر" رغم ما فعله.. قابل هذا الجزاء اليسير بالاستقالة الفورية. أما أنا فلقد كنت مثالاً للباحث الزراعى الفاشل... لقد أفنيت زهرة عمرى دون أن أحظى بابتكار بحث واحد.. أتعلمان لماذا أيها الصديقان الودودان اللطيفى المعشر ؟؟... لن تصدقا أيها الصديقان... إننى لم أحظ بإنجاز بحث واحد لا لجدب فى ملكتى البحثية، ولكن فقط لأننى كلما كنت أشرع فى بحث ما أرى نفسى أرتكب جرمًا أخلاقيًا بذلك البحث... أجل... أليس احتكار البحث باسمى يعد حبًا للتملك والامتلاك ؟؟.. ومن حيث إن الامتلاك نوع من أنواع الاعتداء؛ فإننى قد آليت على نفسى عدم الاستفادة بأى بحث أنجزه، ومن ثم كنت أشرع دائمًا فى هبة البحث ليدعى غيرى امتلاكه.. إن ذلك أفضل أيها الصديقان.. ويومها كنت أشعر بفيض من السعادة العارمة التى لم يكن ليحققها امتلاك البحث ذاته وضمه تحت لواء اسمى..

وهنا كان بهاء قد ضاق ذرعًا بحديث الرجل الواقف قبالته بالقرب من النافذة، فتمتم فاغر الفاه:

- رباه... إن يافوخى يكاد ينفجر... إننى أتلمظ غيظًا وحنقًا أيعد ذلك سلوك لعاقل أريب؟؟..

وبما أن عابد الصديق قد لاحظ التعب البادى فوق وجوه الزائرين فإنه دعاهم جميعًا إلى الجلوس قائلاً وهو يعمد إلى إسناد ظهره إلى الحائط الحجيرى الأثرى بعد أن أجلس الجميع على حاشيته البالية:

- إننى آسف أيها الأصدقاء الودودون على أننى لا أمتلك شيئًا تجلسون عليه أفضل من ذلك.. إننى آسف يا أصدقاء...

فهمست غادة كخطأ غير مغتفر لها - بعد أن سددت مزيدًا من النظرات إلى مناطق معينة من الإنسان الجانزى العارى بعينها الوحيدة المطلة من خلف الغطاء الأسود وكأنما تطمئن إلى أنه ليس هناك ثمة ما يخجل من عدم ستره:

- لا تأسف أيها الصديق... إننا نعلم أنك لا تمتلك شيئًا.

فقال عابد بعد أن أعلن عن استيائه من حديثها بالازورار برقبته فى الاتجاه الآخر:

ـ أما عن عمكما: فهو كان عكسى تمامًا... عكسى تمامًا كنت أقدر فيه كل شيء رغم اختلاف مبادئنا.. كان نعم الأصدقاء.. بل حاباني وعضدني كثيرا، وزج بأنفه في أمور رهيبة من أجلي.. أيها الأوفياء لقد عرض نفسه لكل ماهو مهلك من أجلي لقد تخاصم مع رؤسائه من أجلي... انعزل عن زملائه من أجلي... تخاصم مع رؤسائه من أجلي... استقال عمكما وسحب كل أوراقه الوظيفية من وزارة البحث العلمى التطبيقى ثم أسدل على نفسه الستار فلم يعد يتردد على مدينة طنطا التى كنا نعمل بها معا فى حقل التجارب الزراعية... اختفى فلم نعد نعثر له على أثر حتى أننى تشككت آنذاك وقد كنت مقيمًا بالجيزة.. تشككت وقتها أنه ربما يكون قد انتحر... ولقد ذرفت من أجل ذلك دمعًا لم أذرفه على موت أبى...

وتطلع الرجل إلى سقف الحجرة الأثرية وقال وكأنما يعانى من غيبوبة:

ـ وفى يوم من الأيام، وبعد مرور ثلاثة أعوام على اختفائه: كنت أتجول فى طرق القاهرة، وفجأة وبينما أمر بشارع الشهيد الدرع/ يوسف صديق لمحت سيارة مبتذلة على مبعدة وقد وقف أمامها لفيف من رجال المرور وضباطهم متضاحكين مازحين مع شخص ضخم الجسد كما لو كان هرقل فى جبروته مرسلاً لحيته وقد بدا شعر رأسه طويلاً مرسلاً فى كل اتجاه دون تصفيف، أما عن ردائه فلقد كان تنورة من الفراء الأسود طوق جزؤها العلوى نصف صدره بحيث بدا نصف ذلك الصدر العارم العضلات عاريًا، وبالنسبة إلىَّ ما ينتعله الرجل؛ فلقد كان حذاؤه أشبه ما يكون بصندل الإسكندر الأكبر قد امتدت سيوره الجلدية السوداء متضافرة تضافرًا حلزونيًا إلى ما دون الركبة بقليل، وفوق تنورته الفرائية تمنطق الرجل بحزام عريض من الجلد الموشى بخيوط من الجلد الملون.. والحق أقول إننى قد ذهلت وأنا على بعد من تلك العضلات الفولاذية البارزة تلك التى يكتنزها ساعداه وقد وقف الرجل معتمدًا على قوس كبير من الألياف الزجاجية إنجليزى الصنع، وقد بدت بداخل العربة جعبته مكتظة بالسهام الطريفة ذات ريشات زاهية الألوان، هذا ولقد استرعى انتباهى أيضًا غزال صغير مربوط بحبل قصير وقف على ميمنة الرجل فى اضطراب ظاهر.

وعاد عابد إلى حديثه بلهجة حزينة غامضة عاقدًا ذراعيه الطويلتين النحيلتين على صدره:

ـ لقد كانت السيارة يا أصدقاء، والتى رأيتها على بعد كأطرف ما تكون السيارات.. لقد كانت من طراز "مون"، أو القمر وهو طراز كما تعلمان عتيق.. بيد أن سقفها أو "كبودها"،

وكذلك غطاء محركها كانا من البوص المجدول بطريقة صنع السلال، وكان مانع الصدمات أو "الإكسدام": عبارة عن فلق من فلقات جذوع النخيل، كما أن تلك السيارة لم يكن لها زجاج أمامى بالمرة.

واستطرد "عابد" الذى جعل يحدق بشدة إلى الزوادة الموضوعة على مبعدة فوق الأرض الحجرية المقسمة إلى بلاطات كبيرة قد تآكلت بعض حوافها:

ـ حسنًا يا أصدقائى الأوفياء أما عن عجلة القيادة فلقد استعاض عنها بقرنى غزال حقيقيين.

وابتسم الرجل ابتسامة شاردة غير مركزة وقال وهو يفتح عينيه الواهنتين ويغلقهما:

ـ أما بالنسبة للمقاعد فلقد كانت المقاعد من سعف النخيل كما شاهدتما، ولقد ألقيت فوقها وسائد من جلد الغزال الموشى بجلد الثعابين قد حشيت بقطن وفير.. وعندما استبد بىَّ الفضول، ولو أن ذلك يمثل نوعًا من أنواع الاعتداء أيها الأصدقاء، غافلت نفسى تمامًا ورحت أقترب من الرجل وعربته ومن زمرة رجال المرور الواقفين من حوله وعلى رأسهم ضابط عجوز برتبة "مدافع ثالث".. حدقت أيها الأصدقاء إلى الرجل الضخم، ورحت أستحضر الذكرى، وجعلت أجرده فى مخيلتى من لحيته المسترسلة فى سخاء وقد وخطها شئ من الشيب الطفيف مستعينًا بملاقط خيالى وشفرات وفتل الحلاقين المتوهمة: مراعيًا ألا أتسبب له فى أدنى أذى وأنا أقوم بنتش الشعرات من جذورها شعرة شعرة ملقيًا بها من خلف ظهرى، وببطء تكشفت لىَّ الحقيقة..أجل أيها الأصدقاء..

وهنا دمعت عينا الرجل بفيض من دموع، وقال من خلال عبراته حتى لتخال كلماته وكأنما هى نزيف دافق:

ـ أجل أجل أيها الرفاق لقد كان هو عمكما جمال ..قدر لىَّ أن أراه رغم أن ذلك لم يكن متوقعًا، فلقد نما إلى اعتقادى وكما قلت لكما أنه قد انتحر فى ظروف غامضة ...

ومن جديد طفحت من عينى الرجل دمعات جليلة ترقرقت فوق خديه وقال وكأنما يترنم بدمعاته وكلماته على أوتار الصدور:

ـ اندفعت إلى عمكما جمال، ورحت أحتضنه وأقبله وقد وقف رجال المرور وبعض السابلة من حولنا وقد راعتهم المفاجأة التى دخلت عليه بها، ولكن عمكما لم يكلف نفسه حرارة المقابلة، بل لقد اكتفى بأن نظر إلىَّ فى ثبات وقال وهو يشد على يدى:

ـ ويك... أهذا أنت أخيرًا يا عابد؟؟... كيف حالك؟؟ شارد الفؤاد.

ولم أتمالك أيها الأصدقاء، بل لقد أجبته دامع العينين متأجج النفس:

ـ شر حال أيها الزميل الحبيب... لقد أنفقت وقتًا طويلاً فى البحث عنك، وبذلت ما وسعنى البذل للسعى إليك... ذرفت من الدموع غاليها رخيصًا على ذكراك.. طفست فى كل مكان... بحثت فى الإسكندرية والقاهرة... تجولت فى ربوع السويس... سافرت إلى معظم بلدان مصر، ولكننى لم أعثر لك على أثر فأيقنت بالهلاك، وشعرت آنذاك أننى قد افتقدت واحدًا من أعضاء جسدى، فتدهور حالى، وخار ما تبقى لىَّ من عزيمة... تنكرت لزملائى ورؤسائى وأقاربى، وتدثرت بدثار القنوط، ورحت أطقس فى سراديب نفسى عنك... رحت أصنع من نفسى بداخل نفسى صديقا يشبهك تمام الشبه، أحدثه ويحدثنى، وأبثه لواعجى وأوصابى... وصنعتك أيها الصديق من لدائن نفسى، ويوم أن صنعتك أغلقت على نفسى وعليك كل أجزاء جسدى، فما عدت أتكلم إلى أحد أو أسمع لأحد بل تركتك أنت تحدثنى.. والحق أقول إننى كنت أكتفى بالاستماع إليك دون أن أحدث نفسى بمناقشتك أو معارضتك أو التطاول على فكرك العبقرى؛ لأننى أعلم أنك لا تنطق إلا بكل حكيم وبكل نفيس... لقد اكتفيت بأن أستمع إلى أعاجيبك وغرائبك.. كان صوتك يتصاعد عذبًا فى جنباتى فيثلج فؤادى، وتستكين له روحى المعذبة.. كانت كلماتك أيها الصديق تتصاعد من أعماقى وكأنها فقاقيع تلتقطها خياشيمى لتحفظ علىَّ الحياة...

حدثت عمكما كل ذلك الحديث أيها الأصدقاء النبلاء الأوفياء، ولكنه رغم ذلك ، ورغم وجوم الحاضرين المتجمعين من حول العربه المبتذلة بعد أن كانوا ضاحكين متهللين متندرين رغم كل ذلك؛ فإنه لم يكلف نفسه أكثر من قوله:

ـ هه... ألا زلت على قيد الحياة يا عابد؟؟... هه.... لقد حسبتك قد تلاشيت... ولكن قل لى... ما وجودك على قيد الحياة؟؟..

صعقت أيها الإخوة لتلك الإجابة المحبطة التى لا تتسم بروح الصداقة أو الزمالة، ولكن وبسحر ساحر لم أعرف كيف تلاشت كلماته المفزعة وأقلعت عن خاطرى لتحل محلها كلمات عذبة لها وقع موسيقى شنف أذنى... أجل... لقد تغلب "جمال" الذى بنيته فى أعماقى على "جمال" الذى كنت أشاهده وأسمعه وأخاطبه فى ذاك الوقت.. يا لهما من خصمين عنيدين هذين "الجمالين" يا أصدقاء..

وحانت من الرجل التفاتة نحو شبح يمرق فى سرعة أمام باب غرفة الاجتماع الشهيرة، فقال متمتمًا:

- إنه رجل آخر من الذين يستولون دائمًا على الزاد الذى يهبه لىَّ المتصدقون..

وسكت هنيهة ثم عاد يتابع حديثه:

ويما أن رجال المرور قد فطنوا إلى ما بينى وبين عمكما من علاقة وصداقة قديمة؛ فإنهم قد مضوا مسرعين وقد نظر كل منهم إلىَّ نظرة عطف وإشفاق، وما إن انفردنا معًا على قارعة الطريق والناس والأطفال من حولنا يمرون ببطء وهم يرشقوننا بنظرات التعجب والاستفهام وقد اعتلت شفاههم جميعًا ابتسامات مبتذلة... ما إن انفردنا حتى حدثته محاورًا:

- صديقى وأخى ورفيق العمر... لقد افتقدتك، وتوهمت أنك قد انتحرت، ولكننى هاأنذا أراك تتمتع بالصحة رغم حالك وهيئتك المستغربة.

ولم تكن إجابة عمكما الصديق إلا نظرة طويلة متفرسة سرعان ما نفذت إلى غياهيب نفسى، وأخيرا قطع نظرته الطويلة بقوله:

- اسمع يا عابد: إنك ترانى الآن وقد أقلعت نهائيًا عن مجتمعكم المتكالب على كل أنواع السقم... وأنت تعلم تماما أننى أمقت الأشياء الرتيبة... كما أمقت الزحام... أواه... تبًا للزحام، إننى أكرهه تمامًا... إن الزحام نوع من أنواع التكالب، ففيه تتبدى السفاسف والمسفات.. اسمع يا عابد: أنت تعلم أننى كنت أتقاضى مرتبًا زهيدًا، وتعلم أن هذا المرتب كان غير مجز بالمرة، بل كنت أنفقه على عملى دون أن استفيد منه شيئًا، كما أن ملابسى كانت من أرث الملابس وأبلاها وأقلها تهندمًا بما لا يتفق وباحث زراعى، كنت أعمل معك فى بلد غريب عن مسقط رأسى، وكنت غالبًا ما أقضى أوقاتى بعد العودة من العمل فى المساء على المقاهى، ولكم عانيت جراء ذلك خاصة وأننى كنت فى أغلب الأحيان عرضة لمجالسة الأشقياء من القوم بغية مشاهدة برامج التليفزيون.. كان من المحتم علىّ مثلا: أن أجلس إلى جوار أحدهم راح يدخن "الحمية" باصقًا ما عن له من بصاق فوق المألوف قد أثخنه البلغم... كان علىَّ أن أستمع إلى ما تيسر من ظرف بعض الماجنين المازحين وقد أفلت منهم زمام العبارات التى تلقى على الأسماع بوقع سخيف... كان علىَّ أن أتحمل طرق الأبالسة للتعرف على شخصى، وذلك من حيث إنى غريب وهم من أبناء البلدة، وأنت تعلم أن الغريب قد يكون مهابًا وقد يكون مبتذلا منبوذا فى آن آخر... كان علىَّ أن أتحمل أحدهم وقد سولت له نفسه أن يعرف محتويات كتاب ضخم أحمله، وقد يكون ذلك الكتاب "فى فلسفة اللغة" وقد يكون الذى سولت له نفسه أن يتاخمنى فى الإطلاع عليه دركى مبتذل أعياه تفسير شخصى وتفسير جلوسى على الدوام فى نفس المقهى المنحطة.. ويما أننى لم أكن من هواة "لعن المذاهب" كبعضهم

فلقد كنت أتحمل وأتجلد كاظمًا غيظى وحنقى واستشاطتى من ذلك التدخل السافر فى أخص خصائصى.. كنت قد دأبت على إعطاء ساعى المقهى قرشًا كهبة منى له عن كل مشروب أشربه... ولما فهم هو ذلك جعل ينهال على بطنى بأكوابه اللمينة حتى تكون قد ضاقت بها سعتى المعدية، ومن ثم لا أجد مندوحه من الفرار من الصعلوك الذى يقذف بالحمم واللافا إلى معدتى... فحسب: كان يطيب لىَّ أن أشاهد عجوزًا قد طارت عنه أسنانه وهو يمضغ ما يشربه من فناجين القهوة فنجانا إثر فنجان، معاملاً ذلك السائل الخشن القوام كما لو كان شيئًا يحتاج إلى أسنان قد صنعها خياله التواق إلى أسنان حقن .. كان يطيب لىَّ أن أشاهد رجلاً متسولاً يدخن ثلث سيجارته ثم يعمد إلى إطفائها مدخرًا لها فى جيب جلبابه كيما ينال منها قسطًا آخر فى وقت آخر، كان يطيب أن أشاهد امرأة تتسول فى المقهى ومن خلفها رجل ضرير تعوله بتسولها... كان يطيب لىَّ أن أشاهد مجنونًا جالسًا فى أسماله أمام ماسح الأحذية حتى إذا ما انتهى من مسح الحذاء عمد الرجل الفقير إلى خلع حذائه ليسير فى الطريق حافيا خشية أن يتسخ الحذاء اللامع ويفقد لمعته من جديد..

وتلفت عمكما من حوله ليسبر الوقت ثم قال:

ـ أواه يا عابد... لقد تركت حديثى ينساب على عواهنه... والآن...لقد آن لىَّ أن أتركك وشأنك لأنى سأمضى إلى حيث متجر الفراء والجلود، فأنت ترى بالسيارة كمية من فراء الثعالب وجلود الغزلان والثعابين، كما أننى سأقوم ببيع الغزال الصغير لصاحب المحل نفسه...

ـ آه يا صديق العمر... ألا تود أن أقف على مقامك؟؟... لقد انزويت عنىَّ تمامًا، وأنت تعلم قدرك لدى... أستحلفك بالله أيها الصديق ألا تتركنى وشأنى هكذا ولم تثلج صدرى بعد... من المحتم أن أعرف أين تعيش، وصدقنى أننى لن أبوح لأحد بذلك، وما عهدتك تخفى عنىَّ سرًا...

وهنا رمقنى عمكما الزميل الحبيب بنظرة ثاقبة جد خطيرة لا تزال ماثلة فى مخيلتى بدهاليز يافوخى، وقال وكأنما قد أسقط فى يده:

ـ حسنًا... لن تستفيد شيئًا يا عابد.. مضى ما مضى... أنا الآن أعيش حاضرا مختلفا تماما بعد أن ارتفعت بىَّ السن... لقد انتبذت مكانًا قصيًا عنكم جميعًا، والآن أراك تود التعرف على ذاك المكان القصى.. حسنًا... لتعلم أنه مهما أتقنت الوصف فلن يكون لذلك..

وهنا قاطعت عمكما فى لهفة وشوق يجأر بالحنين:

- رحماك صديقى.. رحماك أيها الزميل النبيل... بودى أن أذهب معك كيما أقف على أمرك... ألا تثق فى صديق يقدرك ويصبو إليك أينما كنت وأينما حللت؟؟؟.

وحانت من عابد التفاته نحو شبح رجل يمرق مسرعًا أمام الباب، فأردف قائلاً وهو يمط شفتيه فى قنوط.

- وأخيرًا، رضى عمكما بمرافقتى فى رحلته التى كانت من أغرب الرحلات التى قمت بها طيلة حياتى التى أمضيتها بالجيزة..

- فبعد ما باع كل ما لديه من فراء وجلود وفيرة وكذا غزالة الصغيرة عرج على بعض المحال فاشترى مجموعة من الأحجار الجافة البطارية لمذياعه الترانزستور، وكمية من بذور الطماطم معلقًا على ذلك بأنه سوف يزرعها فى سفح الجبل على ما ينتجه بغله المتشرد من سماد عضوى، وعلى جورانو الخفافيش التى عادة ما يوجد بكهوف الجبال الرابضة على الصحراء المحيطة بالواحات، واشترى عددًا من زجاجات البيرة ماركة "حور" أودعها صندوق العربة معلقًا بأنه لا غنى عنها خاصة عند تناول لحم مرمرى، واشترى عددا من الأكواب الزجاجية عوضًا عن التى تحطمت لديه بكهفه "بيت السلطان" ومجموعة من إبر حياكة الجلود وخيوط من جلد أمعاء الحيوانات، وكمية من البهار غير المصحون تتألف من الفلفل الأسمر والكمون وقرون الشطة الحبشية الحريفة والكرفس، وعرج: فاشترى فستانًا جاهزًا من الحرير الأحمر، وحذاء أحمر وجوربا أبيض لصبية فى سن الخامسة من عمرها - وقد كانت هى أنت يا غادة ولعلك تذكرين - واشترى أيضًا جلبابًا أبيض وقميصا وبنطلونًا وحذاءً وجوربًا أسود لصبى فى سن السادسة - وكان هذا الصبى هو أنت يا بهاء ولعلك تذكر ذلك - لقد حييته على ذلك فى ضميرى وأيقنت بحبه لكما، وأخيرًا ركبنا العربة المبتذلة وقد حفتنا نظرات الاستذكار..

ثم أردف عابد الصديق بعد سرحة عابرة:

- لقد فاتنى أن أذكر لكما أن عمكما قد خط على غطاء صندوق العربة من الخلف "باحث زراعى مرفوت" وأنتما تعلمان أنه كان يجيد خطوط اللغة العربية، ولشدما كان تعجبى أن شاهدت بجوارى على الكرسى الخلفى وأنا أهم بالجلوس من خلف عمكما مبلغًا من العملات الورقية، فلم أشأ أن أبلغ عمكما عنها إلا بعد أن تحركت السيارة متخذة طريق القاهرة/ الإسكندرية الصحراوى... أجل، فلقد انتهزت فرصة خلود عمكما إلى السكون والهدوء والصمت وهو يقود العربة ممسكًا بقرنى الغزال كمجلة قيادة مبتكرة... انتهزت هذه الفرصة وقلت له:

ـ يوجد شيء من المال بجوارى يا صديقى العزيز...

ولكنه لم يجبنى..

وقطع عابد حديثه قائلاً بعد ما لمح شبح الرجل الذى سن أسنانه للاستيلاء على الزوادة وهو يمرق مسرعًا وقد ألفى الزائران مازالوا لدنه، وهنا لم يسعه إلا أن يقول فى شبه قنوط:

ـ حسنًا... لا يسعنى الآن إلا أن أتناول شيئًا من زوادتكما يا سادة يا كرام قبل أن تولوا عنّى إلى حيث يقيم عمكما بكهف بيت السلطان بجبل الدكرور، سأتناول شيئًا قبل أن يأتى الرجل ليستولى على الزاد، فأنا لم أتناول طعامًا منذ مساء الأمس...

ولم تتمالك غادة، وقد سمعت تصريح الصديق الأخير، وقامت من مقامها وقد لفتها العباءة بسربالها وقبضت على أذن المرجون وجرته حتى أدنته من الصديق، وبأصابع طويلة نحيلة: تناول عابد ثمرات ورغيفًا وبيضة، وراح يتناول طعامه ببطء شديد غامسا لقمة بالبيضة الوحيدة التى قشرها عامدًا إلى جعل نصيب كل لقمة من البيضة نصيبًا يكاد لا يذكر، وذلك حتى يتسنى له أن يوزع تلك البيضة على الرغيف بأكمله... وفى كل مرة وعند رفع كل لقمة إلى فمه: كان يعمد إلى تقبيل اللقمة وما حملته فوقها من فتات البيض متمتمًا:

ـ ربى.. إننى لا أعتدى.. إنه غذاء منك قد أتى إلىَّ به الرفاق...

ـ ربى: إننى لا أعتدى، فهم الذين قد أتوا به إلىَّ... حسنات... حسنات... حسنات... إننى أكدس الحسنات، ذلك لأننى أحتم دخول الجنة... أحتم دخول الجنة..

وبما أن الرجل قد انتهى من تناول طعامه: فلقد اعتدل جالسًا وقبل يديه وجهًا وظهرًا، وأمال جسده حتى لامس الحائط فى شبه استرخاء، وقال مستأنفًا حديثه الذى خلب الألباب من حوله لدرجة جعلت غادة تقلع عن التلفت إلى جسد الإنسان الجانزى العارى:

ـ بيد أن عمكما أجابنى بعد لحظات طويلة بقوله:

ـ هه... إن هذه النقود هبة... صدقة... أتعلم لماذا؟؟... ذلك لأن بعضهم لابد وأنه قرأ العبارة التى خططتها على السيارة من الخلف.. لابد ذلك... ولكن... لا بأس... يمكننى أن أقبل الصدقات... هه... ما ضيم ذلك؟؟.. سأقبلها ولو أننى لا أقيم وزنًا لها إلا لسبب واحد فحسب... إنها محصلة شيء ثمين له بقايا على ظهر ذلك المسطح الأرضى... إنها تعبير عن بقايا إنسانية محتضرة.. كان بودى يا زميلى التعس أن تكون لى بطاقة شخصية لا يمكن لها أن تبلى أو ترث أو تتمزق فى جيبى من كثرة التداول.. كان بودى أن تكون هذه البطاقة الشخصية هى إنسانيتى فحسب وكونى إنسانًا أحمل

وجه إنسان يدب على قدمين ويحمل لسانا ينطق..

وقطعت يا أصدقائى هذه الجولة الذهنية الحلوة متسائلاً:

ـ يبدو أننا فى الطريق إلى الإسكندرية يا أحب صديق... إنه الطريق الصحراوى...

فقال وهو يقبض بشدة على قرنى الغزال كعجلة قيادة مبتكرة:

ـ أجل... أصبت يا عابد.. أنا لا أعتقد أننى محق فى مصاحبتك لىَّ فى الرحلة، وأعتقد أنك غير محق أنت الآخر، ولكن ترانى وكما كنت دائمًا قد وقعت فى شراك ما أسميه بالانصياع للإلحاحات الوقتية... لا بأس... لتعلم يا صديقى أن مقامى هو: واحة سيوة...

وهنا تلاحقت أنفاسى هولاً يا أصدقاء، فرحت فى غيبوبة لبضع ثوان أفقت بعدها متمتمًا:

ـ رباه... واحة سيوة..!!!

فقال عمكما بعد أن تأفف جراء هبات الهواء التى تصفع وجهه لعدم وجود زجاج:

ـ أى نعم... اسمع يا عابد: عليك أن تذكرنى عندما تصل إلى الإسكندرية بأن أشترى منظارًا مقربًا... عليك أن تذكرنى لأننى بالقطع سوف أنسى..

ثم أردف:

ـ إننى أتخذ من كهف بيت السلطان مأوى لىَّ... إنه كهف أثرى فرعونى بقمة ناصرة وهى إحدى قمتى جبل الدكرور الذى يبعد ميلين ونصف شرقًا عن واحة سيوة.... إنه كهف قائم على ستة أعمدة قد نقشت عليها كتابات هيروغليفية مصرية، وإذا ما أسمينا الكهف بالغرفة؛ فإنه يكون أسفل تلك الغرفة غرفة أخرى تسمى بيت السلطان من الحجر الجيرى وهى قائمة على ستة أعمدة، وعند مدخل الباب ثلاث غرف: يمنى ويسرى مساحة كل منها ثلاثة أمتار فى متر ونصف فى مترين، وحجرة وسطى طولها مائة وثمانين سنتيمترًا، وأضيف إلى علمك أن هذه المغارة تتصل بكل من هيكل آمون وجبل الموتى بممرات أثرية كانت مجهولة تمامًا منذ قرابة ألف عام..

وأردف قائلاً وهو يتأمل الشمس التى اتخذت طريقها حثيثًا إلى موطئ أقدام الغروب وقد حداها وأرشدها سحاب سمحاقى قد تخضب بلون الشفق الأحمر وقد أخذ على عاتقه مهمة إرشاد الشمس إلى طريقها حتى لا تضل فى السماء اللامتناهية :

ـ أما وقد تبين لك أن الرحلة جد صعبة وعسيرة بل وجد منفرة بالنسبة لرجل متحضر مثلك... أما وقد تبين لك ذلك؛ فإنه بات من السهل نكوصك على عقبيك بعد وصولنا إلى الإسكندرية حيث يمكنك التقهقر منها إلى القاهرة فتستقل قطار العودة، ولا ريب أنك تكون قد استفدت بإمضاء وقت الرحلة فى رفقتى طالما أنك تواقٌ لرؤيتى كما أنت قائل..

فقلت على الفور كمن يوشك أن يصيبه القنوط :

ـ أواه يا صديقى... كيف لىَّ أن أتقهقر!!.. كلا.... كلا... يسعدنى أن أستمر معك فى رحلتك... يسعدنى ذلك أيها الصديق العظيم والخلُّ الحميم..

صمت عمكما قليلاً ثم قال وهو يضغط على بوق السيارة ليصدر صوتًا أجشًا كغراب عجوز مغتبط قد عثر على دودة بعد أن أوسع الأرض نبشًا:

ـ حسنًا، على أن تعدنى بالعودة من حيث أتيت بعد قضاء يومين سوف أسمح لك بهما رغم أنفى ولست أعلم لماذا يصيبنى الخضوع والخنوع إليك فى بعض الأحيان... لا بأس.. هل تعدنى بأنك سوف تعود أدراجك يا عابد؟؟..

فقلت له ودموعى تكاد تنساب جراء حديثه الذى يجلب على النفس اللوعة:

ـ لك السمع يا صديقى... أعدك طالما أن ذلك يرضيك.. سأرحل عنك، ولكن بعد أن أكون قد ألممت بدقائق الأمور... إن ذلك سوف يجلب على نفسى السلوى... فحسب أريد أن أريح "جمال" الذى هو بداخلى... إن جمال الذى بداخلى يناشدنى أن أضعه فى مكانه اللائق، وهو يستنكر منى حاليًا أن أضعه فى نفس المكان ونفس البيئة ونفس الظروف التى عاصرناه فيها.. إنه يستنكرها تمامًا، فهو يقول بأنه من العبث أن يظل كما هو رغم تغير كل شىء... إنه بعد ذلك غير منطقى ولذلك فإنه قلق فى غياهيبى، وإن قلقه يدمرنى ويشقينى ويبعث فى نفسى الاكتئاب.. لا تدع "جمال" الذى بداخلى يشقينى، إنه كما تعلم دائمًا ثائر... إنه يخرج علىَّ من الأعماق ويمسك بخناقى ويجذبنى من تلابيبى ويعمد إلى الانتقام منى بشتى الوسائل، إنه يخرج علىَّ فى الظلام فيسهد ليلى، وينهض معى فيدجى نهارى..

وساد صمت طويل لم أسمع فيه غير البوق ثلاث مرات على فترات متقطعة، والأمر كذلك؛ فإننى شئت أن أقطع الصمت بسؤال كان قد اقتحم على يافوخى منذ أن رأيت السيارة البدائية وحتى قبل أن أعرف صاحبها:

ـ ولكن... ولكن أود أن أسألك يا صديقى الغالى... ما أمر عربتك هذه!!... فإذا ما ضربنا صفحًا عن تعليقات الناس ألا تسبب لك حرجًا من رجالات المرور!!..

وهنا ولأول مرة رأيت عمكما وقد انخرط فى قهقهات متتابعة وهو ينظر إلى سحابة سمحاقية سهمية الشكل وهى تقوم بإرشاد الشمس إلى طريقها الصواب بعد أن أوشكت تلك الشمس الراحلة أن تضل طريقها فى السماء الواسعة... جعل عمكما يقهقه ثم يضغط على البوق بين أصابعه كيما يشاركه القهقهة والتهيق ثم مد يده أسفل مقعده وأخرج زجاجة البيرة ليجرع منها جرعات كبيرة قائلاً وهو يكاد لا يتمالك:

- أواه يا صديقى العتيق... إنها عربة مبتذلة حقًا... ولكنها رغم ذلك تتمتع بمحرك متين قوى تحسد عليه... إن عجلاتها شديدة المراس إنها تمخر عباب الرمال وكأنها تتهادى فوق أرض مسفلتة... إننى أشبهها بالإوزة... إنها وفية تمامًا لا تسلم قيادها إلا لصاحبها فحسب...

ثم عاد لقهقهاته من جديد وهو يضرب بقبضتيه الفولاذيتين فوق قرنى الغزال، فسألته من خلال ذلك محاولاً أن أجد ثغرة بين قهقهاته كى أبث فى أذنيه كلماتى:

- حسنًا... ولكن... إنها من طراز "مون" العتيق... ولكن... ما خطبها، وما الذى جعلك تصنع لها تلك الأجزاء المضحكة يا صاحبى!!.

وهنا تبددت قهقهاته ليعقبها وجوم كئيب، ثم قال فى صوت خافت النبرات:

- إن غرود الرمال مراوغة حقًا... لقد سكنت فى كهف بيت السلطان كما قلت لك، وكم منيت النفس وأنا أعيش على الصيد: بأن تتحرك تلك الغرود الرملية المتاخمة للمنطقة فتكشف لىّ عن مدينة أثرية أو عن كنز دفين لقد كنت أُمنى النفس حقًا بذلك، ولكن وفى يوم ما وبينما أقوم بإصلاح الكورونا وأنظف أجزاء السيارة من الداخل عند سفح جبل الدكرور وقد رفعت غطاء المحرك و "الكبود" وكذا كنت قد فككت المقاعد من أماكنها لتنظيفها وحشوها بقطن العشار، ولقد كان ذلك بعد مرور عام من سكنى بيت السلطان وبعد شراء العربة من مبيع للسيارات الأثرية وذلك بمبلغ واتانى من صيد الصحراء ومن بيع شىء كنت قد وجدته بمحض الصدفة... بينما ذلك إذ بعاصفة رملية تهب فجأة بشكل رهيب لم أعهده طيلة عمرى بل ولم أكن أتخيله لدرجة أن حبات الرمال الخشنة جعلت تصفع وجهى وجسدى وكأنها ملايين من الأكف الحانقة الغضبى، فجعلت أزور بعنقى فى اتجاه مضاد وقد أيقنت تمامًا بالهلاك كما هلك من قبل جيش قمبيز الذى كان قوامه خمسون ألفًا من المحاربين والفرسان والذى زحف من طيبة إلى واحة آمون عام خمسمائة وخمسة وعشرين قبل الميلاد بغرض غزوها. تلك الحملة التى لا يزال لغزها قائمًا من أسرار الصحراء، ولكنّى ما عتمت أن زحفت من مكانى حتى صرت أسفل العربة التى ربضت فوق الرمال

وكأنها جمل محنك قد صهرته التجارب مع الزوابع الرملية واستترت بعجلاتها، بيد أن ذلك كاد يقتلنى بالدفن حيًا، إذ سرعان ما كانت تتجمع الرمال من حولى بشكل رهيب وقد سدت كل منفذ بين عجلات السيارة، ولكننى كنت أعمد فى اللحظة المناسبة إلى إهالة تلك الرمال المراوغة الشيطانية الرغبة... كنت أصنع لنفسى الحفرة تلو الحفرة كيما أستنشق الهواء... كانت الرياح تنعق وتزعق وتشهق وتزفر وتصفر وتزغرد وتهدل وتصدح وتموء وتنبح وتعوى وتسقسق وتسجع وتنق وتزأر وتهدر وتخور وتفور وتولول وتملأ الدنيا فحيحًا، ثم تقرقر ثم يجىء صوتها خريرًا وقد عزفت الرمال على جدران العربة عشرات الألحان المتضاربة، وحتى البوق لم يسمه هو الآخر إلا أن يصرخ ناعقًا كما لو كان حمارا قد أثقل كاهله حملاً لا يقوى عليه...

انكمشت أسفل العربة وقد أيقنت أنها قد تكون شاهدًا قائمًا فوق مقبرتى، وعمومًا فلقد استحسنت أن يكون شاهد مقبرتى هو عربتى... ولما كنت لم أحز بغلى الصعلوك المتشرد، لا ولا منكر ونكير، ولما لم يكن فى كنفى الطفلان بهاء وغادة، فلقد راضيت النفس بأن أموت تلك الميتة وقد رقدت فى أحضان حبيبتى التى كانت تحملنى من سيوة إلى القاهرة والإسكندرية كيما أبيع ما تجمع لى من فراء وكيما أشترى ما يعُن لىَّ من متاع وشراب وملبس وعتاد..

وبما أنه لم يكن هناك مندوحة من الموت: فلقد تركت نفسى أنغمس فى هلام من الرمال تمامًا كما تنغمس الآن الشمس فى هلام من الظلمة..

تركت نفسى يا صديقى أنغمس وأغوص فى الرمال، ورحت أحتوى حباتها الناعمة بين أصابعى مستعرضًا وسائد قبرى الحريرية وقد احتوتها عربتى الفولاذية الجاثمة فى حرص وغيرة وكأنها تخشى أن يحتوينى قبرًا آخر غيرها..

أغلقت الرياح كل ثغرة من حولى بأديم الصحراء وقد تحلقت الرمال من حول العربة، وكأنما أتى عدد غفير من اللحادين الخبراء كيما يغلقوا على تلك الثغرات لا حفاظًا علىَّ ولكن لكيلا تزكم رائحتى أنوف الناس وقد غدت جثتى نهبًا للفناء...

وفجأة... سمعت صوتًا وسطًا ما بين المواء والأنين، وتكرر الصوت ما بين هنيهة وأخرى... والحق أقول إن يدى لم تمتد لكى أنال حصة ولو أخيرة من الهواء، ولكن فقط لكى أسبر مجلبة ذلك المواء أو ذاك الأنين بعدما استشعرت شعورًا راسخًا بأن الرياح والزوابع بدأت تكف عن إلقاء محاضراتها على يافوخى ونفسى وجسدى وقد دق ناقوس القدر معلنًا انتهاء الحصة..

امتدت يداى، ورحت اكتسح الرمال بأصابعى التى جعلت تتحرك حركة منتظمة كما لو كانت الذراع التى تمسح زجاج السيارة عندما تهطل الأمطار... وما إن تكشفت ثغرة بين الرمال

مطلة على العالم الخارجي حتى رحت أتطلع من برزخي الذي قبرتني فيه الرياح والزوابع قسرًا عني وكأنما أرادتني أن أجرب المعيشة في البرزخ وقد جربت العيش فيما قبل بالكهوف وبعدما جربت في زمن سابق العيش في بيوت الحضر... ولكن لم يدم تطلعي طويلاً إلى الحد الذي يجعلني أستطيع أن أجسم ما رأيته لك، فلقد تسلل إليَّ شيئان عجيبان من خلال تلك الثغرة الموصلة ما بين برزخي والوجود الخارجي، وسوف يترى ويترى عجبك واستغرابك عندما تعلم أن هذين الشيئين لم يكونا إلا جروين مختلفين تمامًا... أجل.. أجل لقد كان أحدهما جروًا أصفر من جراء الثعالب بينما الآخر جروًا من جراء الذئاب الرمادية... أسرع الجروان يلجان الثغرة وقد تقدم الجرو الذئب على الجرو الثعلب، وعندما صرنا وجهًا لوجه أنا وهما وقد بدوت لهما كائنًا بشعا أو شيطانًا مختبئًا أو غولاً لن يلبث حتى ينقض عليهما... لما بدا لهما الأمر كذلك ـ وهذا ما تخيلته ساعتها ـ .... جمدا في مكانيهما عند مدخل الثغرة، وراحا يحدقان معًا إلى وجهي وجعلا يحدجاني بنظرات الاستفسار عن كنهي وعما أضمره لهما في الوقت الراهن... وإنني لم أكن أتخيل في يوم ما: أن أصادف جروين على تلك الدرجة الرائعة من الخبرة في علم النفس البشري... أجل... إنني أجزم بذلك بحق الله... لقد حدجاني بنظراتهما وقد تلاصق جسداهما حتى غديا جسدًا واحدًا له رأسان، فسبرا ما بغياهيبي، ولعل ذلك كان عن طريق نظراتي التي تنم عن التعب والقنوط والاستغراب والتأمل مع مزيج من الوهم والغموض والشعور بالهلاك والبقاء في آن... وبما أنهما قد سبرا كل ما تجيش به نفسي؛ فلقد تقدما حثيثًا بداخل برزخي فرارًا من تلك الزوابع الرهيبة التي أخرجتهما بالطبع من وكريهما اللذين وضعا بهما إحياء لذكرى أجدادهما من قاطني الفيافي والقفار، ولعل أميهما قد هلكتا في رحلة صيد لصالح الأبناء وقد دهمتهما الأعاصير التي تقيم وتقعد الغرود الرملية، لتجثم في النهاية فوق أماكن غير أماكنها كأباطرة متوجة...

أسرع الجروان نحوي، وما إن استشعرا الدفء في جسدي وفي فرائي الذي أرتديه، حتى لاذا بحضني وراحا يلعقاني بنظراتهما ولسانيهما الناعمين اللاهثين زائمين في تدلل يبعث في نفوس الرجال الرغبة في الأمومة كشعور غير منطقي أو منطقي ـ وأترك لك يا عابد التعليق على ذلك فأنا كثيرًا ما ينفلت مني زمام المنطق فأضل في هلام من الظلمة تمامًا كما تضل الشمس وقد ادلهمت السحابة المرشدة.

ائتنست بالصغيرين، وشعرت بأنني شيء قدر له أن ينبعث من البرزخ، فربت على فرائهما، ودغدغت لهما بأصابعي بين ضلوعهما، فركنا إليَّ وجعلا يلعقان راحتي ليستحلبا منها الدفء، وألقيت بكفي متجاورين فوق الرمال الناعمة، فأسرعا إليهما ليتخذاهما خنًا دافئًا يشع الحرارة المفتقدة، وتوهم الثعلب الصغير أن أطراف أصابعي نوع من أنواع الحلمات الثديية،

فراح يرضعها بين لسانه ولثته اللينة الناعمة، فطاب ليَّ أن أتركهما وشأنهما هكذا ونسيت نفسى تمامًا وتمطيت بجسدى، ثم كورت ما بين فخذى وساقى فتكون بين صدرى وبطنى كهف رائع دافئ سرعان ما قبع فيه الصغيران بعد أن فطنا إلى أن كفى إن هما إلا كهفًا يفتقر إلى الاتساع الكافى والدفء المبتغى، وجعل الجرو الذئب يتحسس جدران كهفه الجديد متفحصًا فرائى الذى كان يتكون آنذاك من عدد لا بأس به من جلود الثعالب الرمادية والتى كنت قد أفلحت فى اتخاذ تنورة منها... هذا فى الوقت الذى كان الثعلب الصغير قد بدأ يحفر بقدميه الأماميتين حفرة بديعة بين الرمال الناعمة حتى يصير الكهف رائعًا دافئًا خلابًا بحق وحقيق...

يا له من كهف لطيف إذًا قد اتخذه الشيطانان الصغيران.. هه.... لقد جندا "بشطارتهما" كل شىء لصالحهما... فهاهما قد اتخذا من هيكل السيارة السفلى جبلاً عاليًا فولاذيًا وكأنه درع صنديد، وهاهما قد حفرا الرمال أسفلهما كيما يتربعا بداخل كهف مبهج، وهاهما قد اتخذا منى أمًا دافئة الفراء حنونة الصدر قد أعيتها غريزتها فراحت تعطف ببذخ على ثعلب صغير وذئب طفل فى آن...

يا "للشطارة" بل ويا للجرأة والتطاول والثقة الممزوجة بالسذاجة، ويا للتدلل غير المفطوم بل ويا للدعابة التى كان من غير المنطقى أن تأتى من فور الزوبعة الرملية المهلكة، كما أنه من غير المنطقى أن يتطاول بها الصغيران على برزخى تحت الأرضى أو تحت "العربى" الذى كنت قد استقررت به روحًا وجسدًا.. "با" و"كا" بلغة الفراعنة...

وأخذتنى التأملات التى أعادتنى إلى حياة البرزخ تمامًا، ورحت أتفرس من كثب فى "منكر ونكير" اللطيفى المعشر اللذين قد لاذا بأحضانى وأحضان الرمال الناعمة... إنهما لم يسألانى عن سيئاتى أو ذنوبى، لا ولم يضربانى "بالمرزبة" كيما أنخسف إلى سابع أرض وأسفل سافلين.. كلا... إنهما لم يأتيا إلا طلبًا للدفء والسلام والوئام دون أن يحملا معهما المرزبة المخيفة التى كنت فيما مضى أرتعد من ذكرها.. إذًا والأمر كذلك: فهنيئًا لكما يا "منكر ونكير"... هنيئًا لكما دفء جسدى وحلمات أصابعى... هنيئًا لكما برزخى الذى اقتحمتما خلوته علىَّ بعد زوبعة رملية شرسة كانت هى بالقطع المرزبة الرهيبة التى قذفت بىَّ إلى سابع أرض وأسفل سافلين العربة الميمونة...

وتنفس عابد الصديق المكدس للحسنات، وقال وهو يريح ساعده فوق كتف بهاء فى إخاء ومحبة:

ــ وهنا كنا قد دخلنا مدينة الإسكندرية، فأشرقت علينا بأنوارها المبهجة، وكان منظرًا لا يمكن أن أنساه، إذ شاهدت رجالات المرور يحيون العربة المبتذلة دون أن يستوقفها أحدهم،

ولم يكن ليسع عمكما إزاء تلك التحيات إلا أن يرفع يديه بالتحية ملوحًا، وقد اقتحمت يداه واجهة العربة من الأمام ومن الموضع الذى كان ولابد أن يكون مغطى بالزجاج...

وهبطنا من العربة بشارع البطل الشهيد طيار أول/ ممتاز المصرى، ورحنا نتنقل بين المحال الفخمة على جانبى الطريق وقد استرعى انتباهنا كثرة الذين يرتدون الموضة الجديدة التى كانت قد غزت الملابس منذ عام فحسب... أجل... لقد كان هناك عدد كبير من عليَّة القوم وبخاصة الشباب منهم: يرتدون الزى الفرعونى الذى يتألف من تنورة حريرية مقصبة مشغولة على محيطها الطرفى بحروف هيروغليفية ذهبية قرأها عمكما جمال من فوره:

ـ مصر... مصر... مصر... هذه هى الكلمات المشغولة والمكررة حول التنورة وهى بالخط الهيروغليفى.. لقد درست اللغة الفرعونية بمعهد الآثار متتلمذا به مع نخبة من الأطباء والصيادلة والمحامين والمعلمين الأفذاذ..

كان كل شاب يتمنطق بحزام عريض من الجلد الطبيعى رائع الصنع وقد جملت مقدمته بحلية فضية أو ذهبية فخمة نقشت عليها رأس "أبو الهول"، كما أن كلاً منهم كان ينتعل صندلاً جلديًا رائعًا يشبه تمام الشبه صندل عمكما جمال فيما خلا بعض الزركشات والحواف المشغولة التى كان يقتصر إليها الأخير... أما بالنسبة لشعر الرأس: فلقد بدا بعض الشبان والرجال وقد تحلوا بشعر مستعار مختلف ألوانه ما بين أسود فاحم وأحمر شركسى، ولكن الأغلبية كانت تبدو بشعر طبيعى قد جمل بشريط أزرق يلف حول الرأس وقد تدلى جزء منه خلف الجيد فى شكل انسيابى..

وبالنسبة للنساء: فلقد كن يرفلن فى ثياب غاية فى الضيق ملتصقة على أجساد غاية فى النحول ذات صدور شامخة، بيد أن أطراف هذه الأثواب كانت مفرطة فى الاتساع والتجرجر على الأرض وقد حُليت بكرانيش مكدسة الثنيات فى شكل زخرفى بهيج..

لم يعرنى الناس أدنى التفات، ولكن الأنظار كانت تحط باستمرار على عمكما، ولقد كنت أحسب أنه سيقابل باستنكار شديد بالإسكندرية كما كنت قد شاهدت ذلك من بعض القاهريين، ولكننى فوجئت بعكس ذلك تمامًا... لقد شهدت نظرات الإعجاب تسيل من عيون النسوة والرجال والشباب بل والصغار، ومن بينهم شاب كانت فى رفقته فتاة ترتدى بنطالاً أزرق لامعًا... أسرع إلينا ذلك الشاب يستوقفنا ونحن نتنقل من مبيع إلى مبيع، وحيانا بالإنجليزية مخاطبًا عمكما، وفى معرض الحديث سأله الأجنبى قائلاً:

ـ لعلها موضة جديدة يا سيدى... إنها رائعة... هل يسمح لى كرمكم بأن أحظى بصور كذكرى؟؟... يمكننى عرضها بإنجلترا... لاشك أنها ستلقى رواجًا، وربما تكون موضة

العام القادم... ولما كان ذلك الطلب سخاء أكثر من اللازم بالنسبة لعمكما: فإنه لم يلبث أن انحنى تجلة وتحية للأجنبى قائلا وقد أشرقت على وجهه ابتسامة تنطوى على شىء من المرارة:

ـ يشرفنى ذلك يا سيدى... يمكنك أن تلتقط صورًا كذكرى... ومن يعلم... إنه شرف لىَّ أن تشاهد إنجلترا بأثرها... هه... ما انحدرت إليه حالى.. أو... هه... ما ارتفعت إليه حالى...

لم تكن هناك فرصة، لم تكن هناك مندوحة من الوقت يمكن للشاب الأجنبى فيها أن يلقى أضواء على تلك المرارة والغصة التى تغلب على حديث عمكما، بل لقد عمد من فوره إلى رفع آلة التصوير إلى ناظريه، وراح يوسع عمكما تصويرًا، ولو أن للصور أن تبتلع أجزاء بأثرها من جسد الإنسان لكان قد تلاشى عمكما عن آخره قطعة وراء قطعة، وناهيكما أيها الصديقان عن نظرات الإعجاب التى أبدتها الفتاة الأجنبية والتى ترامت قسرًا عنها لتلعق كل عضلة من عضلات ساعدى عمكما العظيم عظمة مستبدة...

اشترى عمكما شيئًا من الروائح العطرية، ومجموعة من الكراسات والأقلام، كما اشترى قفصًا صغيرًا خشبيًا به زوج من طيور "الحسون"، وبينما ذلك ذكرته فجأة بالمنظار المقرب الذى نوه عنه فى الطريق، ولقد كان ابتهاجه لا حدود له لكونى قد ذكرته، إذ سرعان ما ضرب على كتفى فى فرحة عارمة، وقال مقهقهًا:

ـ أواه... لقد أفلحت يا عابد فى شىء ما ولأول مرة... لقد ذكرتنى... لقد كنت نسيت ذلك تمامًا كما توقعت، والآن هلم بنا إلى المبيع...

ومن البصريات: اشترى عمكما منظارًا مقربًا ألمانى الصنع وعندما أراد أن يجربه أمام صاحب المبيع، صوبه إلى وجهى متمتمًا:

ـ أواه... هأنذا أراك أكبر مما يجب يا عابد... كما أننى أراك أقرب مما يجب... كان لابد لىَّ من رؤيتك شديد البعد بالقدر الكافى يا عابد.. أواه... تبًا لذلك المنظار المقرب والمكبر الذى يجعلك على ذلك النحو من الحجم وعلى ذلك النحو من القرب.. حسنًا... حسنًا لابد لىَّ من جعله يكف عن ذلك.. هأنذا أخفضه عن بصرى، وهأنذا أديره كيما ينكمش على نفسه، وهأنذا أضعه فى قرابة... أواه... ولكن... ولكنك مازلت قريبًا يا عابد... حقيقة أنه قد صغر حجمك ولكنك مازلت قريبًا..

ولم يكف عمكما عن سخريته إلا بعد أن خرجنا من المبيع لنستقل العربة من جديد لتبتلعنا الطرق وكأنها حيات ضواغط تنطلق بداخل معيها فى سرعة، انطلقت السيارة متخذة طريق

"المكس" لتتخرط فى طريق طوله مائتين وتسعين كيلو مترًا حيث تقع مرسى مطروح فى أقصى هذا الرقم...

وبما أن الظلام قد خيم وقد أحاطتنا الجبال وسلاسلها الممتدة بين الإسكندرية ومرسى مطروح؛ فإن عمكما قد أبطأ العربة وأشعل "لمبتيه" الواهنتين بداخل فانوسيهما العتيقين، وما إن تم له ذلك حتى أسرع العربة من جديد، وراح يمخر بها عباب المكان والزمان فى آن... وبعد مندوحة من الوقت عاد عمكما إلى حديثه ليكمله بعد هذه الجملة من الأحداث الاعتراضية:

ـ تركتُ ياعابد "منكر ونكير" يمرحان كما يحلو لهما، ولم يكن تركى لهما بمحض اختيارى بل لأنه قد غافلنى النوم، فرحت فى سبات عميق طوقنى بأحلام: جُبت خلالها فردوس السماء وجحيم الأرض وطفت بالزملاء والأقارب الأحياء منهم والأموات على حد سواء، حتى أنت يا عابد قد شاهدتك وأنت تجوب الطرق وقد ارتديت كيسًا من أكياس القطن مقزقزًا شيئًا من بذور القطن قد ملأت بها راحتيك...

وفتحت عينى؛ فإذا بأشعة الشمس تبصبص لىَّ من تلك الثغرة التى أحدثتها بين الرمال والتى ولجها علىَّ "منكر ونكير" ليستقرا معى بداخل البرزخ المكون... كانت أشعة الشمس تبصبص لىَّ... "أن انهض"...

رميت ببصرى إلى "منكر ونكير" فوجدتهما ما زالا يقبعان بداخل الحفرة وقد تدثر كل منهما بالآخر فى حنو طفولى جميل...

لم يلبث الجروان الصغيران طويلاً على حالهما من الهجود، فلقد نهض الجرو الذئب بعد أن دفع عنه الجرو الثعلب فى شبه لوم على ذلك التكاسل والشمس قد لوحت بأذرعها الممتدة عبر السماء ـ على حد تصور إخناتون ـ دقت أجراس النهوض... وما عتم الجروان أن تسابقا نحو الثغرة فى مرح وقد بصبصا بذنبيهما ابتهاجًا بالشمس...

خرج الجروان أحدهما إثر الآخر كيما يستطلعا عالمنا خارج البرزخ، ولما اطمأنا إلى أن كل شىء على ما يرام، دلفا داخلين من جديد راقصين أمامى مداعبين أصابعى وفرائى وساعدى، وبعد ذلك الرقص واللف والدوران وتلك "البروبا جاندا" التى دخل علىَّ بها منكر ونكير، بل وتلك الأوانطة المدهشة التى صنعت ديكورًا جماليًا طمس معالم "أصلهما وفصلهما"... بعد كل ذلك: بدأ الجرو الثعلب يموء ويصوى ويزقزق كأنه عصفور أليف، وكان بين الفينة والفينة يشيح بوجهه ناحية الثغرة، ولما كرر لى ذلك أكثر من مرة خاصة وأنه كان يعمد إلى تسليط عينيه البراقتين على عينى مباشرة كلفة مستغربة ربما كانت طلسما يعميه سائر البشر من الأطفال... لما كرر لىَّ ذلك؛ فإننى وبسحر ساحر زحفت من موضعى بعد أن خيل إلىَّ أننى لن

أبرحه، ومددت يدى نحو الرمال المتجمعة حول الثغرة، ورحت أزيحها، بينما راح منكر ونكير يشجعانى على ذلك كتمد سافر على حرمة البرزخ المكتون أسفل العربة، وكان تشجيعهما لىّ يتلخص فى: نوع من الرقص والنط والشقلبة والدحرجة والغوص فى حرير الرمال والتردى فى الحفر والأكوام الرملية ثم الوثب عاليًا مع انقضاض سريع كل على الآخر مع مداعبات غير ملحوظة لظلال أصابعى فوق الرمال، وذلك مع مزيد من الصوصوة والزقزقة والمواء والتجشؤات...

وأخيرًا، استطعت وبفضل ذلك التشجيع المتقن أن أزيل كل الرمال المتجمعة بين العجلة الأمامية والخلفية على الجانب الأيمن من العربة، ومن فور ذلك زحفت خارجا، فاستقبلنى الصغيران بالهش والبش وقد تعودا علىّ تمامًا... وما إن نهضت وانتصبت واقفًا فى صعوبة بالغة حتى اكتشفت من فورى أن غطاء المحرك "وكبود" العربة والمقاعد الأمامية والخلفية قد سرقتها الرياح بطريقتها الهمجية واستولت عليها بطريقة لا تتسم بالذوق...

وعندما بدأت أحرق الأرم على تلك الخسة المفجعة من جانب الزوابع التى خلقت لىّ غرودًا عديدة تبينتها لتوى على مدى البصر حتى أن بعضها قد تطاول على جبل الدكرور، فراحت بعض تلك الغرود تمط أعناقها متطلعة إلى كهفى الأثير "بيت السلطان"..

وبينما أنا كذلك وقد أصابنى القنوط، إذ بىّ أرى الصغيرين "منكر ونكير" يخطران أمامى بعد أن انتزعت قوسى وسهامى من بين براثن الرمال التى اقتحمت العربة، إذ بى أراهما مستعرضين ما فى جعبتهما من ألاعيب قد "خالت علىّ بالفعل" وبحركات مسرحية راحا يقدمان لىّ فوق الرمال ضروبًا وألوانًا من النصب والاحتيال والاعيب صبيانية من التمردة و "الضحك على الذقون"، والحق أقول إنهما راحا يجرجرانى من شاربى وقد بدا بعقلية داهية بينما بدوت ساعتها بعقلية صغيرة ساذجة مضحوك عليها... حقًا لقد "ألبسانى الطاقية" وراحا يزفانى إلى حيث كهفى بقمة ناصرة من جبل الدكرور، وخلال الطريق كنت ألمح نظراتهما المتواثبة نحو وجهى تقول:

ـ أواه... أمازلت تحرق الأرم!! لا بأس، ها نحن الصغيرين سوف نؤنس وحشتك... ماذا تقول!! نحن وحشان!! لا ... ليس بعد... ماذا تقول!!... سوف نكبر ونصير وحشين منكرين!! كلا.. "دع الملك للمالك"... ماذا تقول!! لابد من قتلنا!! لا بأس... عليك بقتلنا بالوسيلة التى تشاء... ولكن فقط ألا يُسرك أن تأتنس بنا ونحن صغار!!. إننا معشر الصغار... ماذا تقول!! إنك تستريب فى أخلاقنا عندما نكبر!! عندما نصير يافعين عليك بطردنا من لدنك... ألا يرضيك ذلك الحل!!. يمكنك أن تسدد إلينا سهما واحدًا بقوسك الجبار فتصرعنا لتونا، ولك أن تنتفع بذلك السهم بعد ذلك إن شئت. "هيه"..... "إيه رأيك"!!.

وبلطف راح الصغيران يتسلقان الرمال الناعمة أمامى ما بين صعود وزحلقة... يا للمتعة إذًا... تبًا لكى أيتها الفرود، لك طريقة فى الهزر مزعجة وجد مقلقة وجد رائعة... لقد بسطت لىَّ الأرض حريرًا جميلاً ناعمًا خلابًا يلذ لك لو رأيته أن ترتقيه متمتمًا بتلك الرمال الحريرية... ياله من مخمل إذاً جادت علىَّ به الفرود الرملية المراوغة... لقد وهبتنى ذاك المصعد المخملى إلى كهفى فى تدرج رائع عوضًا عن غطاء العربة وكبودها وزجاجها ومقاعدها المفتقدة...

تصور يا صديقى العتيق... تصور يا زميلى البالى المتهتك... تصور... لقد أوحى لى الصغيران "منكر ونكير" بلعبة أو رياضة طريفة للغاية، لقد صعد الشيطانان الدرج الرملى لمسافة مرتفعة ثم تركا جسديهما ليتدحرجا من عل فى نعومة وانسيابية ورشاقة... أواه أواه أيها الصديق العتيق... لكم أنا ساذج دائمًا... إننى طفلى اليافوخ... أجل... وليس أدل على ذلك من أنى قد احتذيت حذو منكر ونكير، فلقد أسرعت وأنا ممسك بجعبة سهامى وقوسى وجعلت أرتقى الدرج الرائع حتى إذا ما دنوت من باب الكهف: رحت أرقب العربة وقد غرق نصفها فى حمام رملى رائع ولما اطمأننت إلى أن سيارتى مقتنعة ومتمتعة بذلك الحمام؛ فإننى وجدت انه من المناسب حقًا أن أحتفى بذلك الحمام بأن أتزحلق وأنزلق كما ينزلق منكر ونكير، وعندما هبطت إلى سفح الجبل، نهضت على الفور لإعادة الكرة من جديد، ولما شاهدنى الصغيران أفعل اكتفيا بأن حدجانى بنظراتهما من عل وقد جلسا متجاورين متلاصقين وقد تعاقد ذنباهما وتلاصقت شعيرات شاربيهما متراقصة ربما كشفرة تشير: إما إلى سذاجتى أو إلى إعجابهما بذلك الدرس المستفاد منهما فى فن الزحلقة... أما وقد فطنا إلى نبوغهما، وأنهما قد علما آدميًا كيف يتزحلق وكيف يمتع نفسه بذلك الدمقس الطبيعى، فلقد شاءا أن يضيفا إلى الدرس درسًا آخر فى فن الدعابة وإضفاء الكوميديا على تلك اللعبة... أى نعم... فما عتم الجرو الذئب أن نظر إلى وجه صاحبه ثم أشاح بوجهه إلى الأمام فى هيئة الذى يقول:

ـ اتبعنى...

ومن فور ذلك أسرعا ينزلقان حتى إذا ما دنيا منى راحا يجنبانى من فرائى ومن أصابعى وشعر رأسى مع مزيد من الرقصات والوثبات التى كانت تسفر عن غوص أرجلهما فى هلام الرمال... وصعدت الدرج الرملى من جديد، حتى اقتربت من قوسى وسهامى المكدسة فى جعبتها فوق الرمال فى محاولة جديدة للتزحلق وقد كان الجروان فى تلك اللحظات بموضع سفلى بالنسبة لىَّ بحيث جعلا ينظران إلىَّ من أسفل إلى أعلى، وكأنهما مدربان يشاهدان كيف سينزلق صغيرهما الذى درباه، وقد رفع الجرو الثعلب إحدى رجليه الأمامية وثناها إلى الخلف

فوق الرمال، فبدا كما لو كان سيهم بتدوين الدرجات التى سيراها مجزية على طريقتى فى فن التزحلق... وفيما كنت أهم بالانزلاق من ذلك الموضع، إذ بىَّ ألمح مطاردة، أجل.. فلقد لمحت غزالاً يمرق مسرعًا عند سفح الجبل وقد انطلق من خلفه ذئب كبير كأنه الرمح المارق... ومن الفور، وبطريقة تلقائية لم أشعر إلا والقوس فى يدى والسهم على وتره وعينى على مكان التصويب... واستقر سهمى أيها الزميل العتيق فى عنق الغزال، فترنح وارتمى فوق الرمال، وما لبث الذئب أن توقف قليلاً عند موضع الغزال متشممًا السهم والدماء المنبجسة، بيد أنه ما كاد يلمح سهما جديدًا يستقر فوق وتر قوسى حتى أطلق لأرجله العنان متفقدًا فريسته التى كان هو السبب فى استدراجها إلى ذلك المكان... وانطلقت من فورى أعدو نحو السفح إلى حيث الغزال وفى يدى قوسى وجعبة سهامى، بينما جلس المدربان منكر ونكير متجاورين وقد بهرهما ذلك النوع من الرياضة والبطولة التى طلعت عليهما بها، وقد كانا لا يعهدان فى شخصى حتى تلك اللحظات إلا السذاجة والخيبة والفشل، ولعل ذلك ما جعلهما يصابان بنوع من القنوط لتضاؤل رياضتهما بالنسبة لتلك الرياضة الجديدة المبهرة الوقع على نفسيهما... وحملت الغزال فوق كتفى بعد أن نحرته بخنجرى. فبديت كصياد بدائى رائع عائد بفريسة محترمة إلى كهفه ويمد أن أجاد فى يوم كهذا تسديد السهام... ومازلت أجد فى صعود الدرج الرملى الحريرى بحملى النفيس والصغيران منكر ونكير من خلفى يلثمان قدمى لاستدرار عطفى كنوع من "البيولوتيكا"، مازلت أجد فى الصعود حتى صرت أمام باب كهفى الأثرى، فتطلعت إلى كتاباته الهيروغليفية هنيهة، ثم تقدمت داخلاً... وبما أننى صرت بداخل الغرفة؛ فلقد ألقيت بصيدى النفيس على الأرض، ثم ألقيت بجسدى على سريرى الوثير المصنوع من سعف النخيل والذى حشيت حشوته ووساداته بقطن المشار، وعندما نلت قسطًا من الراحة نهضت؛ فإذا بالصغيرين منكر ونكير قد صعدا فوق مجموعة من الكتب فى ركن من أركان الحجرة كنت قد ألقيت بها على أرضيتها الصخرية فوق قطعة كبيرة من جلد الغزال، ولقد انتهى بهما الأمر إلى سحب كتاب له جلدة بنية اللون كان يضم بين دفتيه قصة عن الفراعنة كنت قد ألفتها منذ زمن بعيد ولم يكن نصيبها من النور إلا ذلك الركن المهجور، كأنه جحر فى جبل مهجور يدعى جبل الدكرور يأويه رجل مغمور، انحنت عليه الدهور، فنال منها ما هو ميسور... أواه... أجل... لقد جرجر الصغيران منكر ونكير بيت التاريخ حتى إذا ما صار فوق الأرض، جعلا يتصفحانه من جديد ما بين ورقة وورقة ورزمة رزمة، ولقد سررت أيما سرور أن يعيد قراءة روايتى: ثعلب وذئب حديثى السن بكرى الفؤاد: فتمددت فوق فراشى وجعلت أرقبهما من كثب وقد بدوت لنفسى كمؤلف نابغة سعيد بمتابعة قارئيه الجهبذين، وأخيرًا حانت منى التفاتة إلى منظر الشمس وهى تغرب فى عين حمئة... إنها عين جوبة أو حمام كليوباترا، فغمرنى جمالها، بيد أننى تذكرت من الفور غزالى، فقمت بما يقوم به الصياد بصيده، وسرعان ما كان

اللحم الرائع قد علق بخطافين حديدين على بوابة الكهف، ثم استخرجت شيئًا من الفحم الذى كنت أصنعه بنفسى من أحطاب وشجيرات الصحراء محتفظًا به فى الغرفة السفلية "بيت السلطان"، وبعد لحظات تصاعدت رائحة الشواء شهية لتزكم أنفى وأنف الصغيرين منكر ونكير المطالعين لروايتى العتيقة واللذين كانا قد أقبلا نحوى يستمتعان بالدفء وقد أقبل الظلام بظلته يسدلها فوق هامات الجبال، فرحنا نلتهم الشواء وقد بدونا كما لو كنا ذئبين وثعلب أو ثعلبين وذئب نأكل اللحم بطريقة أكثر تمدنًا من إخوان لنا فى البرية والفيافى...

وأراح عابد نفسه قليلاً بأن كف عن حديثه الذى بهر آذان السامعين لدرجة جعلت غادة لا تحفل بمشكلة الاطمئنان، إنه ليس هناك ثمة مايخجل من جسد الإنسان الجانزى آمون العبد... وعاد عابد إلى حديثه بعد لحظات وهو يسدد نظره إلى الباب وقد لمح شبح الرجل الذى يبتغى الاستيلاء على الزوادة وهو يمرق للمرة العاشرة:

ـ قضينا الليل يا أصدقاء لا يغمض لنا جفن، ومررنا على أكثر من نقطة شرطة، ولقد سرنى وبدد قلقى معرفة رجال المرور لعمكما وعربته المذرية التى لم يكن من المتخيل تركها تمر وهى على تلك الصورة المفزعة، ويبدو أنهم كانوا شديدى الكرم مع عمكما الصديق....

وعندما أقبلت ضياء الصباح بجيوشها مطاردة جيوش الظلام: توقف عمكما بعربته بعد أن عرج على مدق جانبي قاده إلى حيث شاطئ البحر، وفتحنا الأبواب وهبطنا، واستلقى عمكما قليلاً فوق الرمال المترامية فوق صخور سوداء لا حدود لها ترتفع أحيانًا لتكون جبالاً متوسطة الارتفاع مهيبة المنظر وقد اكتساها الغموض، واحتذيت حذوه، وبعد أن نلنا قسطًا من النوم أفقنا : فإذا بالشمس فى كبد السماء، وجلس جمال الصديق فى مكانه، وراح يكتسح شاطئ البحر بناظرين، ثم جعل يحدق بشدة إلى المياه الزرقاء المسودة التى بدت لىَّ مخيفة رهيبة وكأنها تضم بين أحشائها عالمًا من الجن والعفاريت، وما لبث عمكما أن قام من مقامه مهرولاً إلى الماء دون أن يخلع نعليه، وبقفزة واحدة كان بين اللجج، فلم يسعنى إلا أن أرقبه وهو يسبح فى نشاط ظاهر، وبعد أن نال حصته من السباحة، خرج من الماء مبتهجًا وجعل يتجول فوق الرمال والحصباء، وفجأة نادانى فأسرعت إليه، ومن الفور قال لى مشيرًا إلى مكان معين:

ـ انظر... أنا الساحر جمال... سوف نأكل بيضًا طازجًا فى الحال يا صاحبى...

وأسرع نحو المكان الذى كان يشير إليه والذى بدت عنده بضع آثار لم تكن لى خبرة بها، وجعل يحفر بأصابعه حتى إذا ما توغلت يداه إلى عمق قدم واحد: بدت لنا مجموعة من البيضات الكبيرة، وهنا قال عمكما فى مرح وهو يخرجها من حفرتها:

ـ إنها بيض سلحفاة البحر الخضراء... إنها تضع البيض على علامة حركة المد والجزر... ولو تركنا ذلك البيض على حاله بحفرته لفقس بعد ثلاثة أشهر، ولكن يبدو أننا لن نفعل، مع بالغ الاعتذار للأم الحنون... أقبل أيها الصديق العتيق... إنها لذيذة ومقوية ومشبعة... عليك بكسرها وابتلاعها نيئة... إنها رائعة.. شهية.

وما كاد يكمل كلامه حتى كان قد ابتلع بيضة كسرها فوق صخرة قريبة، ولما كنت جائعًا إلى الحد الكافي: فإننى لم أجد مندوحة من تقليده فيما يصنع، رغم تقززى ونفورى من ذلك الطعام الفطرى الذى أجبرنى عليه..

وما كدت أبتلع واحدة بصعوبة بالغة: حتى كان هو قد أتى على خمسٍ مطوحًا بقشرها إلى الماء ليسبح فوق زبده وكأنه قوارب بيضاء قد لفظت راكبيها .. وركبنا العربة، ومرقت بنا من فورها، وراحت تنهب الزمان مع المكان، وبعدما انتصف النهار كنا قد اجتزنا "أبو صير"، "والحمام" و "العلمين" و "سيدى عبد الرحمن" و"الضبعة" و"فوكة": ومنها مرقت السيارة متهادية فى طريقها حتى مفرق طريق رأس الحكمة، ومنه تقدمنا حتى مفرق "باقوش" منطلقين منه إلى سيدى حنيش "ثم" سملا"، وأخيرًا دخلنا مدينة مرسى مطروح المتربعة عند أقصى الرقم ٢٩٠..

وبما أننى لم أكن قد زرت مرسى مطروح من قبل؛ فلقد شاء عمكما أن يعرفنى ببعض معالمها من شواطئ وحدائق صغيرة مبعثرة فى الصحراء تضم أشجار الزيتون والتين المسمى هناك "بالتين البيوضى" الذى لا تحمر ثماره متمسكة بخضارها رغم أنها تقطر عسلاً طيب المذاق، وكان من بين ما خلبنى تلك البحيرة الملحية الصحراوية المهجورة الواقعة بعد معسكرات الحرب العالمية الأولى الألمانية، وكذا صخرة كليوباترا الواقعة بعد تلك البحيرة عند شاطئ مهجور، تلك الصخرة السوداء المحتوية على حمام للسباحة تزوره المياه من بوابة جانبية ثم تستأذنه للخروج من بوابة جانبية أخرى.. وانطلقنا بالعربة العجيبة من مرسى مطروح فى الطريق العمومى بالجهة الغربية من البلدة، ولم تلبث أن أحاطتنا التلال، حتى إذا ما انسخلنا منها مرقنا إلى أرض مسطحة شاهدت فيها بعض الأغنام ترعى وقد جلس راعيها يسمع الشمس الغاربة ألحانًا شجية، وعند ذلك لم يسعنا إلا أن نتزود من مائه الذى أقبل علينا به فى قربته ليملأ قربتنا الكبيرة الرابضة خاوية خلف مسند المقعد الخلفى، وانطلقت العربة ولما أزال معجبًا بشاعرية الرجل، بيد أنه ما كادت تمضى أيها الأخوين ـ وهذا بلغة أن الزمان هو المكان كما يقول عمكما جمال فى وقتنا الراهن ـ ما كادت تمضى ستة كيلومترات، حتى كان قد تلاشى إعجابى بشاعرية الرجل، ذلك كيما يحل محل إعجاب ملكنى عن آخرى: أجل ... فلقد دخلنا ما يسمى بوادى الرمال: وهى أرض مليئة بالزهر فيما يشبه الروضة، وهنا ترجل وجمع

بعضًا منها هاتفًا فى سعادة غامرة:

ـ هذا هو نبات "رجل الأسد": إنه مغطى تمامًا بالزغب لوقايته من البرد والجفاف.. هل تود أن تموت منتحرًا هنا؟؟.. إذًا عليك بأكل هذا النبات ذى الأزهار الوردية الخلابة.. إنه نبات "اللحلاح".. وهذا هو نبات السعوط.. انظر إلى هذا النبات: إنه "الحسك"..

واستراحت الأزهار الخلابة بجوارى على المقعد الخلفى، ولم يقلع عمكما عن المكان إلا بعد أن رصع بالزهر فلقة النخلة التى يتخذها بديلاً "للإكسدام"... انطلقنا من تلك الهضبة المسطحة التى استغرقت ستة كيلو مترات، بعدها بدأ مفرق: سيوة/ السلوم حيث يتفرع فرعين لو لم يكن يعرفهما عمكما معرفة اليقين لكان أحجى بنا أن نعتمد على "رفة القرش العشوائية" كيما نختار أحدهما إلى سيوة دون أن نخطئ فنختار طريق السلوم... وامتد ذلك الطريق مسافة عشرة كيلو مترات زاخرة بالحشائش والمراعى المترامية على مدى البصر لينتهى أخيرًا إلى "وادى الحرائق" حيث ارتوينا من بئر "ابن طريفة" الذى يروى بعض الزراعات المتناثرة تلك التى قُدم لنا فيها أحد الأعراب كمية من تمر الطقطق كانت هى قوتنا بعد جوع استمر نصف يوم، وإنه لا يخفى عنكما أيها الأخوان السرعة التى تم بها هضم بيض السلحفاة الذى تناولته نيئًا كشخص مرافق لإنسان قد تحول إلى البدائية كعمكما، وفى نهاية ذلك الوادى كنا قد اقتربنا من بئر "حجفة شريفة" حيث توقفنا قليلاً لنتزود بالماء وقبل أن نعود إلى ركوب العربة: ضرب عمكما الأرض بقدميه مغضبًا متمتمًا وهو ينظر فى ابتئاس إلى عدد كبير من القنافذ قد هلكت منسحقة تحت عجلات العربة:

ـ تبًا للقنافذ جميعًا... دائمًا حمقاء.. إن القنافذ لا تعتقد إلا فى وسيلتها الدفاعية المثلى ألا وهى التكور داخل أشواكها... إنها تتكور أمام كل شىء وأمام كل عدو، وهى تعتقد فى سذاجة أن ذلك التكور سوف يحميها من العربة كوحش مريب، وبذلك فإن أعدادًا كبيرة منها تدفع أرواحها رخيصة نتيجة لذلك الاعتقاد الخاطىء فى جدوى تلك الوسيلة الدفاعية...

وما إن دنونا من "بئر الكنائس" تلك البئر التى تتكون من عينين بين كل منهما مائة ياردة، حتى خيم الظلام... وما إن دنونا من ذلك البئر، حتى لاحت لنا على ضوء القمر أطلال قلاع رومانية كانت تحوم حولها بعض الخفافيش وكأنها ومضات: ما تكاد تومض حتى تعود فتختفى... ولم يلبث عمكما حتى توقف بعربته أمام تلك الأطلال، وتمطى بجسده المريض المنكبين المكتنز العضلات، وراح يحك على لحيته، ثم قال لى وقد وقف فى مكانه فى هيئة رومانى متسلح بقوس وسهام يقف أمام بوابة حصن منيع:

ـ والآن يا صديقى العتيق.. ههنا سوف نبيت ليلتنا التى بالطبع لن تكون ليلاء بالنسبة لى، والتى ستكون ليلاء بالنسبة لك، ولا تلومن إلا نفسك... أنت الذى تشبثت فى مرافقتى، وهأنت ستذوق الحنظل يا صاحبى...

فقلت فى مرارة تكتنفها السعادة:

ـ كلا... كلا يا صديقى العظيم... إننى مبتهج بمرافقتك ومصاحبتك...

مضت برهات بعدها تجول صديقى حول المكان مطقسًا عن أعشاب قصب الرمال الجافة النامية هنا وهناك وكأنها شعرٌ أشعث كثيف لمجموعة من الجن يتمرسون على ألعاب اليوجا بحيث دفنت أجسادهم ولم تبق إلا شعورهم مطلة على عالم الإنس...

ما إن جمع عمكما دون الاستعانة بىَّ كعهدى به دائمًا... ما إن جمع كمية من الحطب فى شكل كومة حتى حملها بين ساعديه الجبارين، ثم اتخذ طريقه إلى بوابة الحصن المتصدع، ودلف داخلاً إلى حجرة متآكلة الجدران قد تهدم جزء من جدراها، وفى تلك اللحظة شاهدنا طائرًا داكنًا يفر ليبتلعه الظلام ومن الفور همس عمكما وهو يلقى بحمله:

ـ إنها "أم قويق"... إنها عدوة فئران الصحراء واليربوع.. لقد عكرنا عليها صفوها، ومع ذلك فلابد أنها بسبيلها إلى فريسة دسمة...

أصابتنى القشعريرة يا أصدقاء لمجرد ذكر "أم قويق" وفى تلك اللحظات كان عمكما قد انهمك فى عملية رائعة حقًا بعد أن ألقى بقوسه وسهامه فوق أرض الحجرة بأن قذف بها دون أن يلجها، أجل... فلقد أسرع بإخراج قطعة من قلف الشجر وقلم من الزان كان يحتفظ بهما فى العربة أسفل مقعده الأمامى، وجثا أمام باب الحجرة الأثرية الرومانية وراح يدير القلم الزان فى قلف الشجرة بعد أن وضع كمية من قصب الرمال الجاف بينهما، ومازال يدير القلم الزان بين راحتيه، حتى تولدت شرارة أضرمت النار فى هشيم الحطب، فاستوقد عمكما النار فى الكمية التى جلبها وكومها أمام الحجرة، ودلفنا معًا إليها، ولقد ازداد عجبى حينما شاهدت على ضوء النار أمام الحجرة أن أرضيتها قد افترشت بكميات لا بأس بها من قصب الرمال الجاف حتى لتخاله حصيرًا مجدولاً، ولم يلبث عمكما أن قال لىَّ وهو يرتمى فوق الأرض:

ـ أنا الذى افترشتها بذلك الحطب منذ زمن... لقد أويت إلى تلك الحجرة أكثر من مرة.. والآن يا له من دفء حقًا سوف يسرى فى أجسادنا ونحن نيام... إنها نار رائعة... انظر يا صديقى المتهتك... انظر يا صديقى المدمر لكل شىء... انظر إلى النار... إنها ترقص لىَّ... يا له من لهب ماجن فاحش الرقصات... إن خصلات اللهب تتلوى أيها الصديق... أتعلم لماذا لا تشاهد شيئًا مما أشاهد؟!!!. ذلك لأنك مدمر... لأنك لا تملك لنفسك

وللآخرين إلا شيئًا واحدًا فحسب، الدمار ثم الدمار ثم الدمار.. انظر إلى النار... إننى أرى مجموعة من الغوازى الجميلات رحن يرقصن فى فجور أمامى... انظر ها هى إحداهن قد كشفت عن نهديها فى إغراء بالغ.. انظر... إننى أشاهد إحداهن وقد خلعت ثيابها وراحت تتمعج بجسدها وتتثنى فى ميوعة وهلامية لا يمكن وصفها... ولكن بالطبع يا صاحبى البالى والذى تشبه أسمالاً رثت من طول لبسها... بالطبع ياصاحبى لا يمكن لك أن تراهن كما أراهن... والحق أقول هكذا أفضل... عليك ألا تستطيع مشاهدتهن... أتعلم لماذا؟؟... ذلك لأنى غيور بطبعى.. لا أحب أن يشاهدهن غيرى.. إنهن جميعًا إناثى... أجل... أجل... إنهن ملكى، وليس من حق أحد مشاهدتهن غيرى.. ألا تبًا لك لو تطلعت إليهن.. تبًا لك يا عابد...

وسرح قليلا بخاطره وتوقف عن أخابيله يا أصدقاء... أتعلمون لماذا؟؟.. ذلك لأنه قد راح فى نوم عميق... ما أعمقه.. وبعد أن تنهّد تنهيدة طويلة جعلت أتلفت إلى الراقصات اللائى كان يشير إليهن فلم ألمح واحدة منهن: فحمدت الله على أننى لم أنتهك حرمة صديقى العظيم، بيد أننى جعلت أتطلع إلى النار حتى خمد لهيبها فبدت فى هيئة جمرات يدفئ بعضها بعضًا، فأيقنت من فورى أن الراقصات قد ذهبن بعد أن استشعرن نوم زوجهن أو أليفهن المدله بحبهن، وتخيلت أنهن قد رحلن عن النار لتظهرن له فى أحلام بهيجة أعلم أنها تحلق به فيما وراء الوجود وما وراء الواقع المرير الذى يقاسيه...

وعندما شعرت بذهاب راقصات النار، وذهاب صديقى الوحيد معهن على متن الأحلام رقدت أنا الآخر ووجهى إلى سقف الحجرة.. طالبت بالنوم، ولكنه أبى أن يزور أجفانى، فأيقنت أن عمكما قد استولى على النوم لنفسه دون أن يترك لىَّ قسطًا يعيننى على الإغفاء، فلم يحز ذلك فى صدرى، بل تمنيت له نومًا هنيئًا، واستغرقنى الأرق بدلاً من أن يستغرقنى النوم ، وراحت تمر من أمامى طوائف وطوائف من العفاريت والجن، وراح "أبو رجل مسلوخة" الذى كانت تخيفنى به أمى فى طفولتى... راح اللعين يدب برجله "المسلوخة" أمام ناظرى بشتى المناظر البشعة، وببطء تحولت جمرات النار التى كنت أنظر إليها بين الفينة والفينة إلى عيون حمراء لرهط من الأبالسة قد عقدوا اجتماعًا للتشاور فى أمرى وما عساهم صانعين بشخصى وقد قذفت بنفسى إلى تلك البقاع... أما عن نجوم السماء التى كنت ألمحها من خلال جدار الحجرة الأثرية المتهدم فلقد تحولت بالتبعية إلى مجموعة ضخمة من العناكب البراقة قد قبعت فى شبكة من الضياء، وما علىَّ إلا أن أجوس فى تلك الشباك فتكبلنى لتنقض على العناكب فتغرز عصارتها لتهضمنى قبل ابتلاعى، وقد تحولت إلى سائل لزج كيما تقذف بنفاياتى وملابسى وعظامى فى النهاية لتتبدد فوق العراء...

واستيقظ ثلاثتنا: الصباح وعمكما وأنا... وإننى موقن بأن الصباح نفسه لم يستيقظ إلا على صوت "حجل الرمال" الملائكى النغم... ومن الفور تمطى عمكما، ثم وثب من فراشه الوثير وأدى تمرين الضغط، وقبض على كتلة من الجرانيت الأحمر وراح يرفعها إلى أعلى عديدًا من المرات وهو يشهق ويزفر كما لو كان يتهيأ لبطولة رياضية، ثم جعل يثب عاليًا فى سعادة، وانحنى ليقبل أديم أرض القلعة الرومانية متمتمًا:

ـ إننى أقبل أديم أرض البطولات... أرض القدماء، ويوم أموت لابد وأن كل جزء من جسدى سوف يوسع الأرض تقبيلاً... إذًا فلماذا لا أقبل أديم الأرض منذ الآن.. لا شىء: شىء، لا شىء: شىء لعنة الله عليك يا عابد...

وبعد تكراره وترديده لتلك العبارة المبهمة: خرج متنكبًا قوسه وسهامه قائلاً فى صيغة آمرة:

ـ عليك بالبقاء ههنا... لن أغيب عنك أكثر من عشرين دقيقة...

وغاب عنّى الصديق مدة أطول مما ذكر بعشر دقائق، بيد أنه كان يحمل فى يده أرنبا بريا كبيرا يجمع لونه ما بين الأبيض والأصفر، ولم يلبث أن استل خنجره الذى يحمله فى قرابه أسفل طيات الفراء الذى يرتديه كنتورة، وما عتم الأرنب أن انسلخ بطريقة بدائية تمامًا، وتضوعت رائحة الشواء إلى أنفينا، وكان نصيبى من ذلك الصيد: فخذًا رائعًا انغرس فيه السيخ الحديدى الذى كان يقبع منزويًا بجانب دواسة القدم بالعربة...

انهمكت العربة المبتذلة أخيرًا فى طى ستة عشر كيلو مترًا فى الوقت الذى انهمكت فيه معدتانا فى هضم الشواء الشهى، وما إن تجاوزنا تلك المسافة، حتى كنا قد انخرطنا فى "مسرب الإسطبل"، وخلال ذلك مررنا بتلين يبلغ ارتفاعهما عن سطح الأرض ستمائة قدم، ولم نزل نمضى فى الطريق حتى اقتربنا من "بئر جلازر" الذى تزودنا منه بالماء بمعاونة بعض الأعراب الذين تضاحكوا شيئًا من الوقت مع عمكما، وخلال ذلك كنت أقبع بالعربة لأرقب ما يجرى من حولى، مفتونا بروعة عمكما العظيم الذى أبت نفسه الحياة الرتيبة التى كان يحياها معنا ضاربًا عرض الحائط بسفاسف المدينة.. وبما أنه كان أمامنا ثلاثة عشر كيلو مترات فلقد جعل عمكما يترنم بأغنية أثرية اكتشفت اسطوانتها ضمن اسطوانات أخرى: بعثة ألمانية على رأسها العالم المكتشف الأثرى "كارل مارتن"، وكانت الأغنية لمطرب وموسيقار مصرى نابغة قرأ اسمه بصعوبة بالغة، كما وأن تلك الاسطوانة لم يقدر لها أن تسمع تامة متكاملة، ذلك لأن شطرًا منها كان محطمًا غائر التضاريس وقد انحنى عليه الدهر وأكلت منه عوامل الفناء والإفناء... بيد أنه وبالرغم من ذلك؛ فلقد أعلن خبر اكتشافها على الصفحات الأولى من صحف مصر، كما وأن الإذاعة المصرية كان لها الفخر كى تشنف بها آذان العرب وقد قدر لها

أن تبقى على مر الزمن ألفًا وخمسين عامًا... أجل... لقد كان مطلع الأغنية "النيل نجاشى" وكان الجزء من اسم الموسيقار النابغة الذى أمكن للأثريين قراءته هو "محمد عبد"... وقد يكون بالطبع "محمد عبدالله" أو شيئًا من هذا القبيل...

كان عمكما ما يكاد يفرغ من ترديد مقطع، حتى يعود إلى ترديده من جديد وقد غمرته النشوة والسعادة وهزه الطرب، بيد أنه كان دائم التطلع إلى الشمس وهى فى رحلتها السماوية الأبدية.. وتزودنا من بئر "الحلو" وملأنا قربتنا التى جعلت تضحك وتقرقر وتترجرج فى ميوعة وخلاعة طوال الرحلة وكأنها راقصة مبتذلة معجبة بكرشها السمين الممتلئ الهلامى.. وتجاوزنا بئر "الإسطبل" الأثرى بخمسة كيلو مترات فأحاطتنا تلال متتابعة فى شكل سلاسل متبادلة خلت أنها سوف تسترسل دونما انقطاع، ولكننا وبعد خمسة عشر كيلو مترات تبدلت الرؤية فإذا بنا نمر بممر ضيق يقال له "نقيب البويب" وبعد مسيرة دنونا من "بئر البويب" حيث شاهدنا استراحة أثرية متهدمة خالية من كل شىء ولم نلبث بعد ذلك أن صعدنا هضبة كبرى سرنا فوقها أربعة وعشرين كيلو مترا، وبدت تلك الهضبة المترامية الأطراف أيضًا غير متناهية، بيد أنه ما كدنا نصل إلى "بئر النص" حتى هبط عمكما من العربة ليزوده الأعراب بالماء، وما إن تم له ذلك، حتى ركب العربة وهو يسألنى بلهجة الذى يفخر ويفاخر بما يعلم:

ـ والآن... أيها الصديق العتيق... علمت أن هذا البئر يسمى بئر "النص"... هل يمكنك أن تفسر لىَّ ذلك الاسم أو مضمون التسوية ؟؟.. بالطبع ... هه ... بالطبع لن تستطيع أيها الصديق العتيق الذى زج بأنفه لتتفرس فى رمل الصحـراء... وبما أنك لا تعلم إذًا فلتعلم... إنك صديقى سواء كنت عتيقا أو لم تكن... إنه يسمى كذلك لأنه يقع فى منتصف المسافة بين مرسى مطروح وواحة سيوة...

وضربنا صفحًا عن بئر "الباسور" فلم نتوقف عنده، وما إن اجتزناه بعشرة كيلومترات، حتى كنا على مفرق: "مسرب الخالدة" الذى يفرق واحة سيوة عن واحدة "الجارة" فتوقف بالعربة، وهبطنا بعد أن أمرنى بأن أنتظر ولا أتحرك من داخل السيارة، وما إن ابتعد مسافة مرمى حجر حتى لوح بيديه نحو خيام لعشيرة من العرب الرُّحل، وبين الفينة والفينة كان يهتف بأعلى صوته، ولم يزل كذلك حتى أبصرت امرأة تقترب من بعيد، وما إن دنت منه حتى حيته وطبعت على كفه قبلة..

كانت امرأة لا يقل عمرها عن خمسين عامًا، ولكنها بالقطع كانت ذات جمال بدوى ذوى وتغضن، كانت تتشح بالسواد، بيد أنها تتزين بمجموعة غريبة من الحلى حدثنى عنها عمكما فيما بعد كتقليد من تقاليد أهالى سيوة... وكانت تتزين " المزنقة " وهى أقراص من الخرز الملون تلبس ملاصقة للعنق "والميسورة" وهى عقد طويل من حبات الذهب عليها قطع ذهبية

مستديرة سجلت عليها آيات القرآن... "والجمر" وهى هلال مزخرف على الجبين، "والأقراط" وهى تزين الأذن والشعر... هذا بالإضافة إلى الأساور والحزام والخلاخيل الفضية.. تبادل صديقى العظيم الحديث مع المرأة، ولكنَّى لم أكد أسمع منه شيئًا ليعدهما عن العربة، ولم تمض برهات حتى كان يقفل عائدًا وعلى وجهه شبح ابتسامة غريبة، وبينما يهم بتشغيل العربة راح يتمتم سائلاً:

لعلك تتساءل عن أمر تلك المرأة!!... هه... إنها... إنها غزالة "آكلة ناسها" على حد تعبير أهل سيوة... وذلك يعنى أيها الصديق العتيق أنها كانت "غولة" لأكثر من مرة...

وبما أن دهشتى قد ازدادت فلقد سألت فى إلحاح ساذج:

ـ غولة!!

ولم يملك عمكما إلا أن انفجر ضاحكًا بعد أن نال جرعة من البيرة، وقال من خلال ضحكاته المتفجرة كما لو كان قد صام دهرًا عن الضحك:

ـ "الغولة" فى عرف أهل سيوة هى تلك المرأة التى مات عنها زوجها، إن الناس يبتعدون عن مثل تلك المرأة مدة أربعين يومًا، ويحق لها بعدها أن تتزوج وأن تخاطب الناس ويخاطبوها...

وعاد إلى القهقهة من جديد ثم قال متمالكًا:

ـ وهذه المرأة يا صاحبى قد مات عنها... ها ها... لن تصدق... لقد مات عنها عشرة أزواج برمتهم... هل تصدق !! هل تصدق !! ولكن... إننى أعذر هؤلاء الأزواج جميعًا... أتعلم لماذا!! أتعلم لماذا يأيها الصديق العتيق؟؟.. ذلك لأنها ذات سحر وجمال يندر أن تجد مثيله بين الأعرابيات... ولعلك قد تبينت فيها ذلك رغم ارتفاع العمر بها... لقد كانت فاتنة... طاغية الفتنة... لها عينان ساحرتان... ساحرتان... ساحرتان... كانت لها جاذبية مهلكة.. أتفهم كلامى وتعيه أيها الصديق العتيق؟؟..

وجرع جرعة أخرى من البيرة حفظها بين شدقيه للحظات وكأنما لم يهن عليه أن يفتقد مذاقها الرائع بعدما تهبط إلى معدته، ولكنه هتف بعد أن ابتلعها مجازفًا بافتقاد طعمها:

ـ وأنت تعلم أننى لا أستطيع مقاومة الجاذبية.. الفتنة.. السحر.. العيون.. العيون الحائرة الغاطسة السابحة فى هلام من الظلمة.. من الجحيم.. من الفردوس المدنس.. ها ها ..

ولم أشأ أن أعترض على عمكما بأسئلة مستفسرة عن ماهية علاقته بتلك المرأة.. أجل.. لم أشأ ذلك أيها الأصدقاء، لأننى شئت أن أتركه يتكلم ويتكلم على سجيته ليحكى لىَّ ما يود أن

يحكيه، وليكتم عنّى ما يود كتمانه، حتى لا أشعره بمعنى من معانى الزحام الذى يمقته أشد المقت..

وسارت السيارة متهادية كالإوزة فى "مسرب القطرانى" ولم نزل كذلك حتى لاح لنا جبل جيرى عال قدر عمكما ارتفاعه بثلاثين مترًا، وما إن اقتربنا منه حتى هتف فى مرح وهو يقف بالعربة:

- إنه جبل "الحميمات".. إن من يصعده لا يصاب بحمى الملاريا.. هكذا يعتقد أهل سيوة، وأظنك لست بصاعده.. إذًا عليك أن تمكث ههنا حتى أعود بعد صعوده، إنها رياضتى المفضلة كلما أتيت إلى هذا المكان.. سأصعد الجبل وسيكون من نصيبى زجاجة بيرة بأكملها.. إننى أحب أن أكافئ نفسى دائمًا وأن أجزل لها العطاء.. لا أحد يكافئنى.. أنا أكافئ نفسى..

وأسرع من الفور وتنكب قوسه وسهامه وانطلق بخطًا واسعة فوق الرمال فى اتجاه الجبل.. كان عظيمًا حقًا، كان رائعا وهو يتقدم نحو الجبل الرابض فى العداء، ومن مكانى جعلت أتابعه بنظراتى.. حقًا إن الجبل عظيم ولا يرحب إلا بالعظماء.. ومن بعيد شاهدته وهو يصعد الصخور فى جرأة وشجاعة وقوة، وكان من المقلق حقًا أن يختفى عن عينى وهو يصعد الجبل، فأصابنى الانزعاج خشية أن يكون قد أصابه سوء، ولكنه ما عتم أن ظهر ملوحًا من فوق قمة الجبل ممسكًا بشئ لم أتمكن من تبينه على وجه التحقيق.. وبخفة هبط عمكما البطل الجبل، وجعل يقترب حتى دنا منى، فأبصرته وقد قبض على أرنب برى من وسط فرائه..

وبما أن صديقى صياد متمرس؛ فإنه سرعان ما أتخم معدتينا بشواء لذيذ قد أضرم نارًا له بجوار العربة وأشار علىّ بأن أفرك يدى بالرمال، ففعلت وزالت عن أصابعى لزوجة دهن الشواء، ومن فور ذلك نهض صديقى الجالس فوق الرمال وراح يخاطب الشمس الغاربة من خلف الجبال رافعًا يديه إليها فى شبه دعاء:

- يأيتها الشمس.. لقد كنت أراك دائمًا.. أراك وأنا باحث زراعى.. أتفهمين؟؟.. كما أننى أراك الآن وأنا.. هه.. وأنا رجل بدائى يجوب البرية والقفار متنكبًا قوسه وسهامه.. إذًا نخلص من ذلك بأننى سوف أراك دائمًا.. دائمًا.. إذًا فأنت صديقتى على الدوام.. والآن اسمعينى: لا شئ: شئ.. لا شئ: شئ..

وتراجعت ذراعاه إلى جانبيه من عليائهما وقد تخضبتا بلون الشمس الخجول، واستدار ناحيتى وحدجنى بنظرات مخيفة ساخرة متحدية لكل شئ ولكنه لم يلبث أن ركب العربة دون أن ينطق، وما إن احتل مكانه أمام عجلة القيادة المبتكرة، حتى تناول زجاجة جديدة من البيرة،

وراح يجرعها جرعة إثر جرعة، ولم يلبث طويلاً حتى كان قد أتى عليها فألقى بها فوق الرمال وقد احمر خداه فى توهج ظاهر مما جعلنى أتخوف من التحدث إليه ومخاطبته، فآثرت السكوت وقلبى يتراقص، ولم أشعر إلا والعربة تتحرك بنا، وما كادت تتخذ طريقها من جديد حتى قال وكأنما يخاطب نفسه:

ـ خن وطعام وشراب.. هذه كل متطلباتى فى الحياة.. ها ها.. ولكن تصور.. تصور.. إن أصعب المتطلبات هو: الخن.. الخن.. أتسمع؟؟.. اسمع أيها الصديق العتيق؟؟.. الخن هو أصعب الجميع.. أتعلم لماذا؟؟.. ها ها.. ذلك لأن الخن لابد وأن يضم خنًا آخر، ولابد لذلك الخن الثانى أن يضم خنًا ثالثًا.. خن فى خن فى خن فى خن.. يا للداهية.. إنه البلاء الأعظم يا صاحبى..

ولم أحاول أيها الأصدقاء، بل ولم أجترئ على مناقشته، لا ولم أجرؤ على إيهامه بأننى أفهم تمامًا ما يقول: ذلك لأننى أعلم أنه حاد الذكاء بحيث لو فعلت لتمرد علىَّ واتهمنى بالكذب والخداع، تلك الصفات التى أعلم أنه يمجها ويمقتها.. لذت بالصمت والعربة ماضية جادة فى طريقها حتى دخلنا ممر "مجاحظ" حيث تلألأت مياه عين مجاحظ على ضوء القمر المسرف فى نثر الضياء فى بذخ على الرمال والحصباء وهامات الجبال والتلال، وما أن تجاوزنا العين حتى قال فى شبه غيبوبة:

ـ هذه العين لابد وأن يذبح المسافر عندها ذبيحة لعودته سالمًا إلى سيوة.. هه.. وما أظننا بفاعلين.. لقد التهمنا أرنبًا دسمًا..

وسار بالعربة وقطع بها مسافة لم أقدر طولها، ولم يلبث أن ترجل عن العربة وهبطت معه، ووقفت إلى جواره موجها وجهى شطر وجهته، فقال مشيرًا:

ـ انظر يا صاحبى الموغل فى القدم.. هذا هو اتجاه الغرب.. وهذا هو اتجاه الجنوب.. انظر إلى جهة الغرب.. هناك.. جبل "خميسة" يتوسط تلالاً ذهبية.. فى ذلك الجبل يقبع كهفى "بيت السلطان".. إنه يتصل بهيكل آمون وجبل الموتى وغرفة الإسكندر بدهاليز فرعونية كانت غير معروفة منذ أمد بعيد.. إنها دهاليز يكتنفها الغموض وتحيط بها قصص الشياطين والعفاريت والجن المتجسد والأبالسة الهامسين والملائكة المنبوذين، ومن أجل ذلك كله فإن أحدًا لا يلجها مطلقًا من سكان بلدة الأغورمى أو واحة سيوة.. أنا.. أنا فحسب الذى يمكن له أن يرتادها يا صاحبى.. أتعلم لماذا؟؟..

فقلت له من فورى مغتنمًا فرصة مواتية لتمجيد صديقى:

ـ أجل.. أجل.. ذلك لأنك عظيم.. عظيم.. ذلك لأنك عظيم يا صديقى.. وصمت عابد الصديق المكدس للحسنات عندما انتهت روايته إلى تلك النهاية، وقال بعد أن جحظت

عيناه لبرهات عندما لمح شبح الرجل الذى ينتظر ذهاب الزائرين المتصدقين وهو يمرق من أمام باب الغرفة للمرة العشرين:

ـ وهكذا يا أصدقاء قدر لىَّ أن أشاهد كهف صديقى عمكما جمال الحبيب "بيت السلطان" بجبل الدكرور، وقدر لىَّ أن أنام لدنه بعد أن جاد علىَّ بمزيد من الفراء لأفترش به أرض الحجرة الوسطى، وقدر لىَّ أن أشاهد "منكر ونكير" اللذين قد اتضح لىَّ أنهما: انثى ذئب وذكر ثعلب وقد صفدهما بسلسلتين فولانيتين على جانبى عتبة باب الكهف، ولقد كان يلذ لىَّ كثيرًا أن أراهما معًا يأويان نهارًا إلى كهفيهما اللذين صنعهما لهما عمكما من الطفل الأحمر المعجون بطريقة فذة حقًا، وكان يلذ لىَّ أن أراهما يخرجان ليلاً أمام فتحتى الكهفين... قدر لىَّ أن أعيش على صيد صديقى الحبيب لمدة أسبوع كامل تحت إلحاحى للمكوث معه...

وهنا قاطعه بهاء قائلاً: بعد أن كف غادة عن الحديث بعدما تبين رغبتها فى ذلك:

ـ ألم تعد منذ ذلك الوقت إلى بلدك وعملك يأيها الصديق؟؟..

فقال عابد وهو يرقد فوق حشيته المتهتكة الجوانب:

ـ نعم.. نعم لم أعد إلى بلدى منذ ذلك الوقت لم أعد مطلقا... لقد عنفنى صديقى وتطاول علىَّ حتى كاد يعتدى بالضرب لقد لفظنى... لقد لفظنى صديقى الوحيد من كهفه بيت السلطان بعد أن تبين رغبتى القوية فى المكوث معه، وهو ما لم يكن ليحسب حسابه عندما أتى بىَّ إلى واحة سيوة لم يكن يعتقد ذلك، بل ولم يكن يتخيله... وقعت بينى وبينه مشادة أخيرة أسفرت عن تركى لكهفه ماضيًا فى ذلك السرداب الموصل بينه وبين غرفة الإسكندر الأكبر تلك التى كان قد جعلنى أزورها أكثر من مرة فيما قبل.. وما إن احتوتنى تلك الغرفة حتى عقدت العزم على سكناها حتى الممات... حتى الممات يا أصدقاء ... ولكن... ولكن..

وهنا غلب الرجل البكاء، فانهمرت دموعه، كما انهمرت دمعات حيية من عين غادة الوحيدة المطلة من خلف الحجاب، وعندما شاهد الرجل منها ذلك قال فى لوعة:

ـ لفظنى صديقى وزميلى بعدما أتى بىَّ إلى ذلك المكان المهجور... لقد لفظنى صديقى الحبيب لفظنى وجعلنى أسكن وحدى هنا.. وتشاء المقادير أن يشاهدنى بعض القوم فاعتقدوا فى شخصى النسك، فأغدقوا علىَّ بالغذاء والماء تبركًا بى وتيمنًا..

وما كاد الصديق المكدس للحسنات يلفظ كلمة الغذاء، حتى شاهد الرجل الذى يود لو استولى على زاده يمرق للمرة الحادية والعشرين وقد بدا عليه أنه يتلمظ غيظًا من هؤلاء

الزائرين المتعنتين الذين لا يبرحون المكان، فأغمض عينيه فى ازدراء واستغفار، وهنا لم يسع بهاء إلا أن ينهض مسرعًا نحو باب الغرفة وقد استبد به الغيظ والحنق وراح يحدق ذات اليمين وذات اليسار، ولكنه لم يشاهد للرجل من أثر، فحسبه شيطانًا يروح ويجيىء دون أن يعلن عن وجوده، وفى غمرة ذلك الحنق عاد بهاء واقترب من صديقه المكدس للحسنات، وقال فى لهجة عارمة الغيظ:

ـ اسمع أيها الصديق... ليس هناك من يذود عنك غيرك... عليك أن تذود وتدرأ عن نفسك كل من يود اغتصاب زادك.. يجب عليك ذلك أيها الصديق البائس... إننى أشفق عليك.. إن قلبى يتمزق من أجلك... إن نفسى تذهب حسرات...

ونظر إلى غادة نظرة خاصة كشفرة بينهما، فما لبثت أن نهضت وهو فى أعقابها، وتلاهما الإنسان الجانزى آمون العبد منحنيًا عدة مرات وقد وقف أربابه قبالته فى تهيؤ للرحيل... وأخيرًا، شد بهاء على يد عابد بعد أن نهض الأخير من فراشه مودعًا، وقال له:

ـ والآن وداعًا أيها الصديق... وداعًا إلى أن تحين رحلتنا الأسبوعية المقبلة .. سنأتى لك بالزاد.. عليك أن تحافظ عليه من المعتدين الغاصبين.. وداعًا ياصديقى.

وتقدم بهاء من الدرجات الهابطة ومن خلفه غادة فآمون العبد الجانزى صانع التماثيل، ولم يلبثوا جميعًا أن ابتلعتهم الظلمة، وما كادوا يبتعدون بداخل الدهليز الطويل فى اتجاهم إلى العم بجبل الدكرور، حتى سمعوا صوتًا من الخلف، فوقفوا فى أماكنهم ينصتون، ومن الفور تبينوا صوت الصديق عابد يهتف بهم من بعيد:

ـ مهلاً يا أصدقاء ... فحسب... أود أن أطمئن إلى أننّى لم أعتد على وقتكم... أصدقونى القول يا أصدقاء...

فهتف بهاء نائبًا عن الجميع:

ـ أبدًا... لم يحدث أيها الصديق... لقد أغدقت علينا أنت بوقتك وبحديثك الطيب...

فرد الصوت آتيًا إلى الآذان عبر الظلمة التى لم يشأ أن يبددها بهاء بإشعال شمعة جديدة حسنًا... حسنًا يا صديقى... فحسب... أود أن أطمئن إلى أننى لم أعتد على زادكم.. أريد أن أطمئن يا أصدقاء...

فردت غادة كخطأ غير مغتفر وقد خيل لها أنها قد لمست جسد العبد الجانزى صانع التماثيل قسرا عنها مما جعلها تستريب فى أن هناك ثمة ما هو مخجل:... أبدًا .. أبدًا إنه من خيرى أيها الصديق... إنه ملكى حقًا... ولكننّى أغدق عليك به عن طيب خاطر لأنك صديق..

ويبدو أن بهاء قد استاء من نزعة الملكية التى تسيطر على ابنة عمته، فلقد عمد إلى جذبها من ذراعها كى تكف، وقال مصححًا تلك النغمة المتعبة:

ـ إنه من خيرك... من خيرك يا صديق...

فهتف عابد:

ـ إذًا ... إذًا لقد عادت إلىَّ الطمأنينة... لقد عاودتنى الهناءة والسعادة... ولكن فحسب... فحسب... أود منكما أن تحملا السلام والتحية والتبجيل والتجلة إلى صديقى العظيم... جمال البطل... الصديق الوحيد...

فهتف بهاء قائلاً:

ـ لك ذلك أيها الصديق... لك ذلك.. والآن فلتعد مسرعًا... فلتعد مسرعاً.

وعلى الأثر تلاشى الحديث وتبدد الهتاف، وعاد الدهليز الأثرى إلى هدوئه الجنائزى، وتقدم الراحلون بداخله، هذا، بينما عاد عابد أدراجه إلى حجرة الإسكندر الأكبر، وصعد الدرج الذى قاده إلى أعلى، وتقدم نحو حشوته، بيد أنه جمد فى مكانه على التو... أجل... فلقد فوجئ بأن الزوادة قد تلاشت تمامًا ولم يبق منها إلا عشر بلحات من التمر ونصف رغيف ونصف بيضة مسلوقة غير مقشورة... ولكن رغم ذلك؛ فقد شاهد على إفريز النافذة الأثرية قلة ماء ملأت توًا ربما من عين جوبة العين الحمئة...

* * *

أمـا مـاس أبيـو صـاحب أولا لا قلس ** يامـا من ايتـادم توحيـلاً اتخلص

كان ذلك ما سمعه الركب المرتحل من العم جمال عندما وصلوا إلى جبل الدكرور وصعدوا الدرج فصاروا بداخل الحجرة الوسطى "بيت السلطان" تلك التى عن طريقها كانوا أمام بوابة الكهف الأثرى الفرعونى حيث يربض "منكر وتكير" ومع اعتذارنا للقارئ الكريم عن عدم تأنيث الذئبة منكر ـ وحيث كان يصدح زوج من طيور "الحسون" فى قفصهما المعلق على عتبة البوابة..

وقف الثلاثة المرتحلون عند باب الكهف يحدقون نحو السفح حيث شاهدوا العم منهمكًا فى تنظيف زجاج السيارة التى بدت حقًا كالعروس فى ذلك اليوم وقد ظهر إلى جوارها البغل "الصعلوك المتشرد" العريض المنكبين الضخم الجثة والذى خط على ظهره بالخط العريض نعت "الصعلوك" على جانب ونعت "المتشرد" على الجانب الآخر...

همست غادة لبهاء وقد وقف الإنسان الجانزى آمون العبد العارى من خلفهما فى هيئة الذى راح يتلقى وعده:

ـ يا للتغير والتطور المفاجئ.. لابد أن عمنا قد واتاه شيء كثير من المال.. لقد اشترى لعربته زجاجًا أماميًا جديدًا، لقد نبذ فلقة النخلة وركب إكسدامًا جديدًا لامعًا، إننى ألمح مقاعد جديدة حمراء اللون... إننى ألمح أيضا عجلة قيادة رائعة مستديرة... رباه...

فهمس بهاء مغتبطًا:

ـ حقًا يا غادة... يا له من تغير رائع... إنها تبدو خلابة المنظر... له حق... إنه منهمك فى تنظيفها بقبضات من قطن العشار... إنه يبدو سعيدا مترنمًا... حياك الله يا عمى العزيز...

فهمست غادة دون أن تقترب أكثر من اللازم من بهاء خشية أن يكون هناك ثمة ما يخجل:

ـ بل قل حياك الله يا عمى الحبيب..

ـ إنه يترنم بزجل أهالى سيوة... أتدرين ماذا يعنى بذلك البيت؟؟... إنه يقول "قل للصاحب لاتبك، فكثيرًا من الناس فى أشد الضيق تتخلص"... وإن ترديده لذلك البيت ليعنى فرحته وتخلصه من مساوئ عربته فيما قبل... لابد أنه قد سافر بها إما إلى القاهرة أو الإسكندرية كيما يشترى لها قطع الغيار التى تنقصها، وذلك بعد أن تجمع له المال المطلوب...

وفى تلك الأثناء كانت قد احمرت عيون كل من الذئبة "منكر" والثعلب "نكير" الرابضين على جانبى بوابة الكهف وقد تدلت السلاسل من عنقيهما مكبلة وحشيتهما، ولم يلبث أن صدر عن الذئبة نوعًا عميقًا من الأصوات يشبه الهمهمة والغمغمة الداخلية ربما كان تهديدا ووعيدا منها وقد بدت من خلفها فوهة جحرها الصناعى الضيق المصنوع من الطفل الأحمر.

وهنا نظر بهاء إلى غادة نظرات ذات معنى وقال هامسًا:

ـ إنها تهدد وتتوعد ... إنها مدلاة الأثداء ...

وهنا همس العبد الجانزى من الخلف وقد توسطت رأسه بشعرها الكستنائى المسافة بين بهاء وغادة:

ـ والآن .. والآن لقد جاء دوركما يا ربيبى الآلهة.. لقد حل دوركما كيما تتشفعا لى لدى إلهى.. إننى أرتعد فرقًا يا أبناء الآلهة.

فقال بهاء فى تردد :

ـ لا تخف أيها العبد آمون... سوف نتشفع لك ما وسعنا التشفع... حقًا لقد آن وقتنا... إننى أدعو الله أن يقبل عمنا الرجاء إننى... أدعو الله...

فهمس العبد آمون بلهجة خاصة:

ـ خالقكم؟؟..

فقال بهاء:

ـ أجل ... أجل أيها العبد آمون ...

فقال العبد آمون وهو مطأطئ الرأس.

ـ حسبت أنكم آلهة لا تخلقون؟؟.

وهنا ابتأس بهاء من أن يؤدى ذلك المفهوم إلى تمرد وتمرد ذلك العبد على عمه فى المستقبل، ولكنه سرعان ما تجاوز عن ذلك الابتئاس التوجس، وقال:

ـ حسنًا... والآن هلمى بنا يا غادة نهبط الدرج الرملى إلى حيث عمنا عند السفح كيما نحييه وكيما ونسأله السؤال الذى وجهه الأستاذ إلىّ بشأن الموضوع الإنشائى الذى أملاه علىّ، وكيما لنتشفع لآمون... والآن ما عليك يا آمون إلا أن تنتظرنا هنا حتى نمتص غضب عمنا...

وما إن أتم بهاء حديثه حتى شاهد الجميع عجبًا... أجل فلقد خرج فى تلك اللحظات جروان صغيران من فوهة جحر الذئبة "منكر"، جرو ثعلب أصفر، وجرو ذئب رمادى...

انبهر الجميع وتوقفوا فى أماكنهم بعد أن كادوا يبرحونها، ولكن الجروان لم يمهلا الزائرين، فلقد أسرعا نحوهم وراحا يتقافزان عند أرجلهم فى نوع من الهزر الطفولى والدلال المسرف... ومن ثم فلقد رحب الزائران وهشا وبشا للصغيرين اللذين لم يشاءا أن يتركاهما وشأنهما دون أن يرحبا بهما ترحيبا يتواءم مع قدرهما فى ذلك المكان .. وترحيبًا يمحو آثار وحشية أبويهما الرابضين كشيطانين أمام عتبة الكهف.

عبر بهاء وغادة البوابة فى حذر من "منكر ونكير" الكبيرين الرابضين، وراحا يهبطان الدرج الرملى المخملى وكأنه مرتقى من الدمقس، ومازالا يهبطان وأرجلهما تغوصان فى الرمال الناعمة، حتى كانا عند السفح، ومن الفور راحا يهللان فى مرح وهما على بعد من العم:

ـ السلام والتحية على عمنا الحبيب.. تجلة للعم الحبيب... تقديرًا للعم الحبيب قبلاتنا...

وأدار العم الكث اللحية وجهة إلى الزائرين، ثم وقف وقد كان منحنيًا على "رفارف العربة" البيضاء التى تشبه الإوزة وما أن اعتدل بقامته المتوسطة الطول العريضة المنكبين المفتولة العضلات، حتى تمطى فى الهواء وقال هاتفًا و "الكا" و "البا" يقبلان نحوه فى مرح:

ـ هه .. تقبلان عليَّ دائمًا بمزيد من "الأوانطة" و "البولوتيكا" والحيل والألاعيب... تقبلان عليَّ دائمًا بمزيد من الضحك على الذقون" تمامًا كما فعل من قبل الصغيران "منكر ونكير" يوم الزويعة الشرسة... هه... هكذا شأن الصغار مع الكبار دائمًا ... ولكن لتعلما أنكما اليوم قد أتيتما في ظرف أرفضكما فيه، فليس كالظرف الذي أقبل على فيه الصغيران "منكر ونكير"... أنتما اليوم قد أتيتما في يوم له شمس رائعة ونسيم منعش.. والأروع من ذلك فإنكما وكما تشاهدان أن عربتي صارت كعروس تلبس ثوب الزفاف الأبيض وقد وقفت بين الجبال كيما تزف إلى عريسها... هل يمكن القول بعد ذلك أن هناك مبررًا لزيارتكما؟؟..

وهنا كان قد اقترب كل من بهاء وغادة من العم، وعندما نطق بهذا التعبير الأخير اعتراهما شيء من الوجوم: بيد أن العم لم يمهلهما، فلقد قبض على حزامه العريض الذي يتمنطق به وقال في لهجة جادة:

ـ إنني لا أمزح ... لديَّ ما يكفيني ... إنني لست إلا عمًا فحسب... (إنني لست إلا عمًا لكما فحسب) أتفهمان؟؟.. ولتعلما أنني عم عاق ... عاق... أتفهمان؟؟... أتدريان لماذا؟؟... ذلك لأنني عندما عُهد إلى بتربيتكما وأنتما صغيران، جعلتكما من فوري في كنف حارس المقابر العم "عنتر" الحبشي الزنجي العجوز الطيب القلب الذي عاش بلا أهل ولا زوجة... تخلصت منكما وجعلتكما في رعايته بين المقابر... نشأتما في ذلك الكوخ الذي تسكنانا فيه حاليًا بين القبور... وعندما مات عنكما: ظللتما هناك رغم حداثتكما، إن ذلك الرجل الزنجي كان طيب القلب حقًا.. تصوروا أنه لم تحزن عليه غير المقابر.. المقابر هي التي حزنت عليه وحدها... أتعلمان كيف؟؟... ذلك لأن الناس من بعد موته هجروا تلك المقابر ليدفنوا موتاهم في مكان آخر، ومنذ ذلك اليوم ماتت المقابر.. تصوروا.. حقًا كل شيء يموت حتى المقابر...

وهنا اعترضت غادة في تحد ظاهر:

ـ ولكن أرض المقابر والنخلات والأشجار ملكي، كذلك والدواجن والخراف والعنزات... فقط الكلب صافي هو الذي لا امتلكه.. ليتني كنت أمتلكه هو الآخر..

فقال العم جمال وهو يحك على لحيته المسترسلة في شبه تلعثم:

ـ (حقًا... حقًا...) كل ما ذكرتيه فهو ملكك.. لقد كانت الأرض ملكًا لأمك قبل أن يتخذها الأهالي مقابرًا... لقد صرحت لهم هي بذلك طالما أنها أرض لا ينبت عليها غير نخيل البلح وبعض أشجار الزيتون التي زرعت مؤخرًا... لقد كانت أختي امرأة خيرة.... حقًا

أنت تملكين كل شيء وبهاء لا يملك شيئًا فيما عدا الكلب صافى فهو ملكه...

وهنا تنهد بهاء وهو يكاد يغمى عليه من جراء ذلك الحديث ثم همس:

ـ حتى أنت يا عمى؟؟..

فقال العم فى لهجة شديدة بعد أن صوب سهامًا من نظراته:

ـ أنا لا أقول إلا الحق... أنت يا بهاء تعيش فى رحاب من كرم غادة ... إنها تملك كل شيء... أنت لم ترث شيئًا... بعد موتى يمكنكما أن تتقاسما ما أمتلكه، وهو لا يزيد بأى حال عن تلك السيارة وذلك البغل... أما قوسى ورغم أنه غالى الثمن وسهامى و "منكر ونكير" وسريرى المصنوع من الجريد ومجموعة الكتب الموجودة بالغرفة الوسطى وكمية الفراء الملقاة هنا وهناك بغرفات الكهف الثلاث ؛ فإننى لا أعتقد أنها مجتمعة تمثل قيمة مادية يعتد بها يمكن توريثها والتكالب على قسمتها، ومع ذلك فإننى منذ الآن أستطيع أن أقسم لكما ما يمكنكما أن ترثاه عنِّى فور مماتى... سيارتى "الإوزة البيضاء" ستكون من نصيب غادة، وبغلى الصعلوك المتشرد وقوسى وسهامى وجلودى وفرائى وسريرى وكتبى ستكون من نصيب بهاء.. . تلك إذًا قسمة "ضيزى"... ولكن هكذا يجب أن تكون...

فهتف بهاء فى احتداد كطفل يطالب بحقه من اللعب:

ـ حقًا.. حقًا ياعمى العظيم ... "تلك إذن قسمة ضيزى"...

ولما كانت تلك القسمة الضيزى فى صالح الفتاة "غادة المقابر"؛ فإنها شاءت أن تعبر عن مزيد من غبطتها بتلك التركة المسبقة على أن يكون ذلك التعبير على مسمع ومرأى من بهاء كنوع جديد من المباهاة بما ستمتلكه من متاع الدنيا، ولم يكن ينقصها لكى تبدى سعادتها مزيدًا من الذكاء أو سعة الحيلة، فلقد قفزت من مكانها فى غبطة وأسرعت تجرى إلى حيث الأزهار والأعشاب البرية الجبلية الجميلة النامية هنا وهناك عند سفح الجبل متمسحة بالصخور، وما أن جمعتِ منها كمية لا بأس بها حتى أسرعت نحو العربة وهى تختلس بين لحظة وأخرى نظرة إلى بهاء...

اعتلت الفتاة "كبود" العربة الجديد، وراحت تغرس الأزهار البرية الصغيرة المتباينة الألوان ما بين وردى وأزرق واصفر وقرنفلى، وعندما تم لها ذلك؛ قفزت وراحت ترصع الأبواب والجوانب و"الإكسدام" ثم ابتعدت عن العربة لترقب كم صار منظرها جميلاً خلابًا بعد أن اتخذت زينتها، وعندما أعجبتها نتيجة جهودها، هتفت فى حبور:

ـ هأنذا قد جملت لك عربتك يا عمى ... إنك عم حبيب حقًا ... لقد سرتنى هذه القسمة الضيزى التى قسمتها ... يا لها من قسمة ضيزى ... لقد أحببتك أكثر وأكثر من أجل تلك القسمة الضيزى ...

فرد عليها العم جمال بعد أن جعل يستعرض عربته المجملة المرصعة بالأزهار البرية الصغيرة وقد أشرقت على ثغره ابتسامة باعدت بين شعيرات لحيته فجعلتها تبدو مفلطحة بعض الشىء:

ـ أوه... حقًا ... ولكن اسمعى.. لا ريب أنك لن تتعلمى كيف تقودين السيارة، ومن ثم فعلى بهاء أن يتعلم كيف يقودها .. سأعلمه من أجل ذلك، وبذلك فسوف يكون من المحتم التمسك بذلك السائق الذى سوف يخلفنى....

فقال بهاء منتهزًا فرصة للمجاملة، ولعل تلك المجاملة يمكن لها أن تحذف شيئًا من رصيد ممتلكات غادة المقبلة كيما تضاف إلى رصيده الأعجف:

ـ بعد عمر طويل يا عمى جمال... بودى لو مت أنا قبلك...

فقال العم وهو يحدق فى دهاء:

ـ هه ... نوع من "الأونطة" ستدخل علىَّ بها كما دخل علىَّ بها من قبل الصغيران منكر ونكير... يوم الزوبعة الرملية الشرسة التى كادت تدفننى تحت إوزتى اسمع يا بهاء: عليك أن تقبل بهذه القسمة... يجب أن تقرها تماما.

ابتأس بهاء ونكس وجهه إلى الأرض وقد شعر بإسفاف عمه له أمام غادة المقابر الموقرة دائمًا رغم أنها لم ولن تتلق قسطًا من التعليم...

لماذا إذًا هذه المعاملة وهذه التجلة؟.. ألأنها أنثى؟... ألأنى ذكر؟!... إذًا أفهم من ذلك أن الأنثى أفضل من الذكر... ولكننى أعلم أن الدين يكرم الرجل أيضًا ويجعله قواما على النساء... وأعلم أيضا أن المرأة عندما تلد تفضل أن تلد ذكرًا على أن تلد أنثى.. ما هذا التناقض؟... لابد أن فى الأمر شيئًا إذًا... أأشك فى أنه عمى؟؟.. إن القصة غير متكاملة تمامًا... ولكن ماهذا الشبه الذى تقره غادة؟ ما هذا التشابه بينى وبينه الذى تجزم به غادة؟... إنه يضيف مزيدًا إلى قصة "إنه عمى"، وطالما أن الأمر كذلك: فلماذا يجتهد دائمًا لكى يميز علىَّ غادة؟!... لابد وأنه عمها هى وليس عمى أنا... ولكن وبما أنه عمنا نحن الاثنين: كان يجب عليه أن ينتهج نهجًا عادلاً.. أواه... لست أدرى... لست أدرى...

كان ذلك الحديث ـ قارئى الكريم ـ بمثابة حديث مع النفس جعل يهتف ويهمس فى أعماق بهاء وهو واقف يتأمل ويحدج، ولعل العم جمال لاحظ بفراسته ما يعتمل فى صدر الفتى، فلقد ابتسم ابتسامة لم يفهم بهاء مؤداها أو معناها، ثم هتف مؤكدًا معنى ربما كان يقصده:

- والآن... هيا يا غادة... افتحى باب العربة واجلسى وجربى المقاعد الجديدة... إنها محشوة بالإسفنج، وجلدها الأحمر من أفخر الجلود .... ستشعرين بأنك تجلسين على الهواء..

واغتبطت غادة بذلك التطور من ذلك العم الذى كان منذ لحظات يتضرر من زيارتهما الأسبوعية، وأسرعت من فورها حاجلة على قدميها العاريتين أمام بهاء المأخوذ بتصرفاتها الصبيانية، وفتحت الباب بطريقة جد ساذجة، وجعلت تتحسس نعومة المقاعد، وجاءها صوت العم مشجعًا وقد وقف إلى جوار بهاء عاقدا ذراعيه حول صدره:

- والآن لقد تبينت نعومة المقاعد، هيا اجلسى وتقافزى كما يحلو لك... لسوف ترثينها عنّى يا غادة بعد موتى...

وأسرعت غادة تقفز إلى داخل العربة وارتمت فوق المقعد الأمامى بجوار مقعد القيادة، وجعلت تتواثب، وقد طفحت على وجهها ابتسامة عريضة، وجاءها صوت العم:

- والآن ... هيا اخرجى... لقد تأكدت الآن من روعة إوزتى البيضاء التى سترثينها...

وخرجت غادة وأسرعت إلى العم الذى كان قد ترك مكانه ليستلقى عند بداية مرتقاه الرملى الناعم الحريرى الصاعد نحو كهفه الأثير... وعندما دنت من بهاء الواقف مبهورًا بجوار السيارة همست: هيا هيا ماهذا الشبه الذى تقره غادة؟ نجلس بجوار عمنا ... إنه يود مجالستنا فوق الرمال... يجب أن نبعث فى نفسه السلوى والسرور بأية وسيلة ... يكفى أنك سوف ترث عنه بغله الصعلوك المتشرد ومنكر ونكير والفراء والقوس الإنجليزى الصنع والسهام، ويكفى أنك سوف تكون سائقًا لعربتى الإوزة البيضاء...

فهمس بهاء فى حنق وغيظ:

- إذًا... ليته لا يموت مطلقا يا غادة ...

- لماذا ؟ ... ألكى لا أرث الإوزة البيضاء؟!..

- أجل ... أجل ...

- إذًا فأنت تتمنين موته رغبة فى وراثة الإوزة البيضاء...

ولما لم تحر جوابًا، فلقد غمزت له بجانب عينها، وأسرعت تجرى حتى إذا ما دنت من عمها المستلقى فوق الرمال ممدودًا ساعديه المفتولين، جلست إلى جواره، وراحت تربت وتداعب أصابعه هامسة فى الوقت الذى كان لا يزال بهاء واقفًا فى شبه ابتئاس إلى جوار الإوزة:

ـ لك أصابع جميلة يا عمى...

وهنا جعل العم يحدق إلى السحابة العابرة ثم همس:

ـ كنت أحسبك ستقولين: لك ذراعان قويتان يا عمى ...

ـ أكنت تودنى أن أقول لك ذلك حقا؟؟.. إذًا فإننى أقولها لك ياعمى الحبيب..

ـ كلا... لا أقصد ذلك، ولكن فحسب كنت أحسبك ستردين ما كان يردده البعض سالف الزمن .. ولكن أراك الآن وقد خلعت علىّ صفة لم أكن لألتفت إليها من قبل... وعلى العموم فهذه الصفة أيسر منالا من الأذرع القوية المفتولة التى تتطلب مزيدًا من الرياضة العنيفة والتغذية المبالغ فيها...

وتطلعت غادة إلى بهاء الذى فتح باب العربة فى تلك الآونة ليجلس على مقعد القيادة مستعرضا كيف سيقود العربة التى ستمتلكها، ثم عادت تقول وهى تحدق إلى قدمى عمها الذى لاذ بالصمت:

ـ لك قدمان جميلتان يا عمى...

فقال العم مقهقهًا وقد تألقت عضلات فخذيه وساقيه فيما يشبه الأبطال الصناديد:

ـ حسبتك ستقولين: لك عضلات قوية تحلى ساقيك وفخذيك... إننى أتسلق الجبال على الدوام خاصة جبل الحميمات... إنها لمتعة أية متعة .. حسنًا يا غادة ... أحسب أن الأنوثة قد استيقظت فيك بشكل ملحوظ، وما علينا إلا أن نُعجل بزواجك من بهاء ابن عمتك...

وهنا سألت غادة فى توجس وقد تواردت الدماء إلى وجنتيها:

ـ بماذا تعلل إنجاب عمتى لبهاء كذكر؟؟.. وبماذا تعلل إنجاب أمى لىّ كأنثى ياعمى ..؟؟

فقال بعد أن قهقه طويلاً وبعد أن انحنى إلى الأمام برأسه ليرقب بهاء الذى جلس إلى عجلة القيادة محركًا لها بطريقة جد ساذجة:

ـ ليس هناك غير تعليل واحد فحسب.. ذلك لأن عمتك أشطر من أمك.. عمتك أشطر فأنجبت ولدًا، وأمك أقل شطارة فأنجبت أنثى ـ لو كانت أمك أشطر لأنجبتك ولدًا.. هذا كل ما فى الأمر..

وهنا تهللت أسارير غادة ونهضت تهرول إلى بهاء الجالس بالعربة متصنعًا عدم الغضب، وعندما دنت من نافذة السيارة التى استبدل كبودها بكبود رائع معدنى أبيض الطلاء، همست لبهاء:

ـ ابشر... ابشر يا بهاء... لقداتضح أن أمك أشطر من أمى أتعلم كيف؟؟.. ذلك لأنها قد أنجبتك ولدًا، ولذلك فهى أشطر..

وما إن لمحت شفتى بهاء تهمان بالحديث حتى استولت على نفسها من أمامه، وأسرعت تعدو إلى العم المستلقى فوق الرمال، وهمست وهى تتخلل بأصابعها شعر رأسه المسترسل فى سخاء على جيده وجبينه:

ـ ألن تساعدنا يا عمى العظيم فى مشروع الزواج؟؟.. إننا رهن إشارتك...

ـ هه... كلا... لن أساعد أحدًا ... فكما قلت لكما: أنا عم عاق.. عاق أتفهمين؟؟.. يجب أن تدخرى المال اللازم للزواج من تجارتك فى محصول البلح والزيتون الذى يغله النخيل والشجر... يجب عليك ذلك...

فقالت غادة بأسلوب لا تستحق عليه إلا الصلب عاليًا فوق نخلتها رشيدة الرشيدة:

ـ ولكن.. أنت تعلم يا عمى العزيز أن الفتى هو الذى يدفع المهر... هذه هى العادة المألوفة، وإننى أراك الآن تعمد إلى ما هو عكس ذلك تمامًا، إنك تجعلنى أقوم بتدبير مهر العريس.. تجعلنى أدخره من المال الذى هو مالى بالقطع مال أمى الراحلة التى أورثتنى شجرها ونخلها... أليس من حقى أن أتحصل على مهر من العريس لشراء أثاث الزوجية والحلى والملابس اللازمة؟؟..

ولم تشعر غادة إلا والعم ينهض جالسًا من رقدته، لينقض على وجهها بصفعة كادت تذهب بسمع أذنها...

جمدت غادة المقابر فى مكانها وتكست وجهها، بينما عاد العم إلى رقدته فوق الرمال وقد جحظت عيناه...

ـ ما هذا؟... ماهذا؟... لابد وأننى قد أسأت إلى العم الذى يغدق علىَّ من كرمه... يا لىَّ من شريرة إذًا... يا لها من صفعة تتواءم مع شرى...

كان هذا ما جال بخاطر غادة وهى تحملق إلى الرمال التى تجلس عليها... أما وقد تبين لها خطؤها فلقد همست فى ابتئاس وقد حمدت الله على عدم انتباه بهاء لما حدث بسبب انهماكه فى استعراض السيارة التى سوف يقودها لها:

ـ معذرة يا عمى الكريم ... أقدم لك جام أسفى ...

فقال العم فى قنوط:

ـ هكذا أنتن دائمًا ... لا فرق بين هذه وتلك... لقد خطبت وشبكت فيما مضى ست مرات... قدمت لست فتيات ست شبكات من الذهب على مدى سبع سنوات ... في كل عام شبكة ... وبالرغم من كل ذلك الذهب الذى جدت به عليهن؛ فإننى لم أحظ بزيجة واحدة، وها هى المأساة تتكرر... أنت تطالبين الآن بمهر العريس.. هه ... مهر العريس... يا لله.. تتكلمين وكأن العريس لا يمت لك بأدنى صلة... أليس ذلك صفاقة منك!! أليس ذلك ضعة ونقص أدب وعدم إقامة وزن لأى شيء!! لقد نشأتكما معًا فى كوخ واحد كيما ينمو ويترعرع الحب بينكما... كيما تدينين له بالولاء.. وهذا ما افتقرت إليه أنا نفسى أيام صباى... لقد جندت لكما رجلاً حبشيًا زنجيًا رحيمًا عطوفًا وقورًا كريمًا... لقد كرس العجوز لكما ما تبقى له من حياته كحارس للمقابر التى نشأتما بينها... أما من ناحيتى؛ فإننى لم أبخل بإمداد الرجل بالمال اللازم لإعالتكما والإنفاق عليكما أيام الطفولة والحضانة، كما أننى لم أبخل عليكما بالثياب والأحذية التى كنت أشتريها لكما من الإسكندرية والقاهرة، والله يشهد كم عانيت من أجل جمع المال... كان علىَّ لجمعه أن أجوب الفيافى والقفاز والجبال متنكبا قوسى وجعبة سهامى كيما أتصيد الغزلان والأرانب والأفاعى والجوارح... الله وحده هو الذى يشهد على ذلك العناء... واليوم تأتين إلىَّ تترجمين لى ما يعتمل فى صدرك كأننى حقود... كأننى قد أعددتها لـ... لـ... إنه ... إنه... هه.. إنه هو... أنا ... هن.. الماضى... الحاضر... المستقبل... إعادة... تكرار... شيء يبعث على الحسرة ... هه... هو... أنا ... أوه... هه... لا شيء: شيء..

وطفرت دمعات من عينى العم، هاتين العينين اللتين كانت غادة المقابر لا تحسب أنه يمكن لهما أن تدمعا...

عجبا... لقد صفعنى العم جمال، ولكن عيناى لم تدمعا... ولكننى أراه الآن وقد دمعت عيناه... ما هذا؟؟... ماهذا؟؟ .. حسنًا إذا كان الأمر كذلك فلابد أن أوضح له الأمر...

ما أن جاش وجدانها بذلك التفكير، حتى همست وقد تهدل شعرها فى كل اتجاه:

ـ أواه يا عمى ... لا تبتئس... سوف أوضح لك الأمر... إننى أحب بهاء كما تود ياعمى تمامًا. ولكن، أتعلم لماذا طلبت منك ذلك الطلب الذى أحزنك والذى صفعتنى من أجله؟؟... أتود أن أطلعك على جلية الأمر؟؟.. أتود أن تعلم كم أحب بهاء؟؟.. حسنًا... لتعلم يا عمى العظيم أننى كلما عن لىَّ بيع البلح أو الزيتون كل عام؛ فإننى لا أقابل إلا بكل نفور من الناس... أتعلم لماذا؟؟.. إنه أمر لم أشتك لك منه من قبل يا عمى

الحبيب... إن الناس يأنفون الزيتون والبلح باعتبار أن نخيلى وشجرى تشرب من دماء الموتى... هكذا يعتقدون..هكذا يعتقدون ولا سبيل إلى إقناعهم بغير ذلك...

ابتسم العم، وتقشع شىء غير قليل من الغمام الذى خيم على مخيلته... أهكذا الدور إذًا؟؟... أهكذا إذًا مغزى الطلب؟؟... إنها إذًا تتعجل الزواج من بهاء وهذا هو أوج ما يطالب به العم لا طمعًا فى الزواج العاجل حقيقة، ولكن فحسب لأن ذلك الطلب المتعجل لا يعبر إلا عن حب مكنون مرتقب مأمول فيه...

لم يسع العم إزاء ذلك الوضوح فى الرؤية إلا أن يربت على كتف غادة المقابر فى حنو وعطف هامسًا فى لوعة:

ـ حسنا يا غادة ... لك أن تسامحينى إذًا على تلك الصفعة التى كانت مكافأة لك اليوم على تلك الزيارة الأسبوعية... وطالما أن الأمر كذلك فإننى سوف أتبصر الموضوع... لابد وأن تكون أسعد زيجة فى الأغورمى... لابد أن أطوف بكما يوم الزواج بعربتى الإوزة البيضاء فى كل الأغورمى وواحة سيوة، وذلك بعد أن أرصعها بتحف من الأزهار الجبلية النادرة والتى أعرف أماكنها فى كل ربوع الصحراء... سوف أقيد بالعربة من الأمام غزالين حتى يبدو أنهما اللذين يسيران العربة... سوف أعلق على كل نخلة من نخلاتك العشرين فانوسا مضيئا... سوف أبنى حجرة بديعة بنفسى من الحجر الأبيض فى الموضع الذى يوجد به كوخكما، وسوف أجعل عبدى آمون الجانزى الذى هرب منى اليوم إلى حيث لا أدرى.. وإننى ادعو الله أن يعود ـ سوف أجعله بوصفه عبدًا خانزيا نحاتًا وصانعًا للتماثيل سوف أجعله يبدع لكما تمثالين رائعين لشخصكما بالحجم الطبيعى من الحجر الجيرى الذى سيقده من الجبل، وسيقف التمثالان بين أشجار الزيتون وتحت هامات النخيل... خبرينى إذًا: ما هو الوضع الذى ترغبين فيه حتى ينقذ عليه التمثال...

وبما أن السؤال كان بالغ الصعوبة بحيث لم يكن من المتخيل أن يفجؤها به: فإنها أطرقت قادحة زناد الفكر للحظات، همست بعدها فى حماس مذهل وقد اقتربت بشفتيها من إذًا عمها المستلقى، بعد أن رنت إلى بهاء الجالس فى السيارة وقد أغلق على نفسه أبوابها وزجاجها بحيث لا يمكن له أن يسمع شيئًا:

ـ رائع رائع أيها العم الكريم.. لقد اهتديت إلى الوضع المناسب لى ولبهاء ... يجب عليك ألا تسأل بهاء عن الوضع الذى يناسبه.... حقيقة إنه تلميذ بالمدرسة وأنا لم أتعلم حرفًا واحدًا: ولكننّى ورغم ذلك لا أحسب أننى أقل عنه روعة فى الخيال... على آمون أن

يبدع لىَّ تمثالاً يجسدنى فيه وأنا واقفة وعلى رأسى مرجون من الخوص مملوء ببلح الطقطق، مادة يدى بحفنة من ذلك البلح كيما يشتريه صبى صغير واقف أمامى، بيد أن ذلك الصغير يبدو وقد أزور وأشاح بوجهه فى الاتجاه الآخر فى سمت الذى يأنف من شراء البلح لكونه يشرب من دماء الموتى، وذلك فى الوقت الذى يقف فيه بهاء من خلفى فى ردائه المدرسى ممسكًا حقيبته الجلدية وقد بدا على وجهه القنوط والابتئاس، وهو يعلم أننى ما أبيع البلح إلا لجمع المال اللازم للزواج... ولكن هيهات أن يجتمع المال.. هيهات... هيهات...

انبهر العم لفكرة غادة المدهشة غير المتوقعة، وما أن فاءت إليه نفسه همس:

ـ صبى يأنف من الشراء ... فتاةً على رأسها مرجون مملوء بالبلح وتمد يدها بحفنة منه.. فتى يقف من الخلف فى قنوط ظاهر... قاعدة حجرية بيضاء نقشت عليها الأسماء: جمال... بهاء... غادة... آمون... يا لها من فكرة فنية إذًا ... ولكن... أين الكلب صافى؟؟... حسنًا ... لابد أن يظهر صافى وقد شب على ساقى الفتى بهاء الواقف من الخلف وقد بدا عليه القنوط.. أجل... لابد من ذلك...

ثم أردف فى ابتئاس ولوعة:

ـ ولكن ... أين هو ذلك الوغد الهارب؟؟.. لا أحسبه فر هاربًا منى لا أحسبه قد فعل، فلو أنه قد فر بلا رجعة؛ فإن ذلك لن يكون فى صالحه مطلقًا... أجل فلسوف يعثر عليه غيرى لا محالة، ولابد أن الذى سيعثر عليه سوف يسلمه للشرطة رأسًا، ذلك لأنه سيعرف عن طريق الوشم الذى تحت إبطه أنه عبد مملوك وبالتالى فهو عبد فار، ولا ريب أن العبد الفار لا يمكن أن تقوم له قائمة أو يستديم لدى أحدهم، ومن ثم فإن قانون الشرطة الصارم يقضى بإعدام هؤلاء العبيد الخارجين المارقين عن قوانين الآلهة الآدميين... إنهم يعدمون رميًا بالرصاص بمجرد العثور عليهم...

وهنا طرأ على تفكير غادة طارئ، فلقد نهضت مسرعة من فورها إلى حيث العربة، ودنت منها وطرقت على زجاج النافذة بعد أن اختلست النظر إلى سوط جلدى ملقى على المقعد الخلفى، فضغط بهاء الزر الذى يحرك الزجاج إلى أسفل، وما إن انفتحت النافذة حتى همست غادة لبهاء:

ـ لقد حان الحين يا بهاء... لقد حان وقت الشفاعة ولات وقت للضياع، هيا اهبط إلى عمك كيما نزف إليه خبر وجوده بداخل الكهف... هيا أسرع...

وهبط بهاء من العربة وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وما أن دنا الاثنان من العم الجالس على الرمال جلسا إلى جواره بحيث وزعا نفسيهما على جانبيه، وابتدرت غادة العم بقولها:

ـ إذًا ... وطالما أنك مبتئس لفقدان العبد آمون الذى سوف يصنع لنا التمثال الرائع الذى وعدت به؛ فإننا نزف لك نبأً يثلج صدرك...

فهتف العم جمال فى دهشة:

ـ هيه ... خبرانى خبرانى... ماذا وراءكما؟؟..

فقال بهاء فى تلعثم:

ـ إننا لم نشأ أن نذكر لك الأمر يا عمى منذ اللحظة التى آتينا فيها ... والآن لقد آن الأوان لتعلم يا عمى العظيم أن آمون كان قد قام بزيارة لنا فى الوقت الذى افتقدته فيه وحسبته قد فر هاربًا منك... لقد أسعدتنا زيارته... لقد قال لنا عند زيارته أنه قد اشتاق إلينا...

وهنا هتف العم فى غيظ:

ـ والآن ... أين هو... أين هو... ؟؟

فقال بهاء وهو يكاد يرتعد:

ـ إنه... بالكهف.. ولنا رجاء ألا تبطش به لأنه لم يقصد الهرب...

فنهض العم وهو يتملظ غيظًا قائلاً فى غلظة:

ـ إلىّ يا بهاء.. إلىّ بالسوط من داخل العربة...

فقال بهاء وقد نهض مضطربا:

ـ ولكن ... يا عمى... إن العبد آمون ...

ـ أوه ... لا جدوى... لها جدوى ... سأذيقه المر...

ومن الفور أسرع نحو العربة وفتح بابها الخلفى والتقط السوط ثم اتجه إلى المرتقى الرملى الذى يقود إلى الكهف فى خطوات عسكرية غضبى، وقد وقف كلاً من بهاء وغادة عند السفح يتطلعان إلى أعلى معلقين النظر على مجموعة تماثيل النسوة الصلصالية الغريبة المتلاصقة والتى تقع أعلى المرتقى الرملى مباشرة أمام الكهف..

صعد العم المرتقى الرملى وقد غاصت قدماه؛ وهبط إليه الصغيران منكر ونكير: متدحرجين متشقلبين مبصبصين إليه بذنبيهما وما أن لمحهما العم يفعلان حتى هتف.

ـ كلا... لا مدعاة لتلك "البولوتيكا" سألقنه درسًا لن ينساه... لقد أضرم نار غيظى... كان يجب عليه أن يخبرنى عن وجهته بدلاً من تركى على أحر من الجمر...

وما أن ارتقى العم المرتقى الرملى بأكمله حتى صار أمام بوابة الكهف فصار بين اليافعين "منكر ونكير"... وبطريقة فجائية: برز العبد آمون من داخل الكهف مظهرًا شجاعة عجيبة وأسرع بالركوع عند قدمى العم مرددا:

ـ لبيك... لبيك ...

انهال السوط فوق بدنه يقرقع ويفرقع، وانبجست الدماء الزرقاء، وهنا قد أقبل الجروان الصغيران منكر ونكير فحدقا بنظرة لوم إلى الكبيرين الجالسين بلا مبالاة أمام جحريهما، ثم أسرعا يتقافزان ويتشقلبان عند ساقى العم وقد أشبعا الدنيا صراخًا...

وألقى العم بسوطه فوق الأرض وهتف بالعبد آمرًا:

ـ عليك الآن بالانسحاب إلى حجرتى... واستلق على سريرى... هيا... وفى صباح الغد سوف تقوم بإكمال مجموعة تماثيل النسوة، يجب أن تبذل ما وسعك البذل كيما تبديهن جميعا متوسلات متزلفات راجيات... هيا انسحب من فورك...

وببطء نهض العبد آمون بعد ما ناله من ضربات السوط، وانحنى عديدًا من المرات وقد تهدل شعره الكستنائى فى كل الاتجاهات، ثم انسحب إلى الحجرة الوسطى من كهف بيت السلطان، واتجه العم جمال بوجهه ناحية سفح الجبل، وما فتئ أن شاهد بهاء وغادة وقد جمدا فى مكانيهما لايبرحاه، وبما أنه قد أحس بمرارة موقفهما كزائرين يقومان برحلتهما الأسبوعية؛ فإنه قد أشار عليهما بالصعود إليه..

تحرك بهاء من مكانه فى اتجاهه نحو المرتقى الرملى وفى أعقابه غادة، صعد بهاء وغادة إلى حيث الكهف، وابتدرهما العم محاولاً أن يكون كيسًا قدر مستطاعه:

ـ عفوكما أيها الزائران... وكما قلت لكما يبدو أننى عم شديد العقوق... عاق إلى أبعد الحدود... يبدو أننى كذلك حقًا... لقد نال العبد جزاءه هكذا يجب أن تكون المعاملة معه.. لا مندوحة من ذلك..

وهنا كان قد أقبل الصغيران منكر ونكير بعد أن ارتقيا المصعد الرملى، فهش وبش لهما العم مرحبا، ثم هتف مقهقهًا:

ـ تصورا... لقد كانت الأم ذئبة، والأب كان ثعلبًا.. ولكن الأبناء قلبا الوضع ولم يعجبهما حال والديهما وجنسيهما... ها هما قد عبثا بكل شىء... تصورا... إن الجرو الذكر

ذئب، والجرو الأنثى ثعلب... يا للأبناء، دائمًا يحبون شقلبة الأشياء رأسًا على عقب... لقد أخذت الطبيعة بحقها من نفسها حقًا... يا للداهية..

وهنا تحين بهاء تلك الفرصة الذهبية المتاحة كيما يسأل العم سؤال أساتذه وقد عاودت العم الابتسامة:

ـ بودى لو سألتك يا عمى سؤالاً كان قد طرحه علىَّ أستاذ اللغة العربية...

فقال العم مقهقهًا وهو يتجه إلى الداخل:

ـ هه.. أستاذ اللغة العربية!!.. هه... هل يمكنه أن يبزنى فى تلك اللغة!!.. سله إذًا متى يصير الاسم المبنى : معربًا ؟؟..

فقال بهاء فى شبه تلعثم:

ـ إن الأستاذ يسألنى كيف تسنى لك كتابة هذا الموضوع الإنشائى الذى اعترفت له قسرًا عنى أنك أنت الذى قد أمليته على !!...

وجم العم وحك على لحيته فى استغراب شديد، ولكنه عاد فواصل تقدمه نحو غرفته، ودلف إليها ومن خلفه الزائران؛ فأبصر العبد آمون راقدًا على ظهره فوق السرير، وقد تسربل جسده ببقع من الدماء الزرقاء، وعندئذ لم يسعه إلا أن يجلس فوق فراء الثعالب والذئاب وجلود الغزلان وجلود الثعابين فوق أرض الغرفة، ولم يلبث أن جلس إلى جواره الزائرين...

أسند العم ظهره إلى الحائط، وراح فى غيبوبة، ثم قال بعد أن فاءت إليه نفسه:

ـ فى يوم ما، وبينما كنت أدير المذياع الصغير بطريقة عشوائية كما هى عادتى دائمًا دون مراعاة للمحطات: إذ بى أوقف الزر عند علامة متطرفة من لوحة التدريج... أجل... لقد استرعى انتباهى ناطق باللغة الإنجليزية، وكان الناطق رصين العبارات واضح الجمل سديد المنطق قوى النطق بالكلمات دون أدنى إبهام أو تداخل أو تآكل فى الحروف، وبما أننى مازلت أجيد التعبير والفهم بالإنجليزية لكثرة قراءتى فى المراجع: فإننى أسرعت إلى قلمى، ورحت أدون ما يتحدث به الناطق، وبالاستعانة بالقاموس "العربى الإنجليزى" جعلت أترجم ما استطعت التقاطه من المذياع وذلك بعد أن لاحظت أن الناطق قد امتنع فجأة عن كلامه؛ فجعلت أترجم مستعينًا بمرجعى البدائى بمكتبة الكهف الصغيرة، ولعلمكما أنه كان بودى لو اقتنيت مرجعًا إلكترونيًا ناطقًا لولا أنه غالى الثمن بالنسبة لرجل بدائى مثلى يرتزق من صيد الأفاعى وسائر الضوارى... والأفاعى.

وبعد أن تمت لىَّ الترجمة، صار بين يدى ما يشبه موضوعا إنشائيًا عجيبًا رهيبا حقا، وحرت فى عنونة ذلك الموضوع الإنشائى، لكننى وعندما أعملت ذهنى فيه، ارتأيت أن أنسب عنوان له "الألم" ... هذا هو كل ما فى أمر ذلك الموضوع...

اندهش بهاء لذلك التفسير، فأسرع يقول:

ـ حسنًا يا عمى ... سأخبر أستاذى بذلك، وإننى أفيدك أنه قد منحنى الدرجات النهائية...

فقال العم فى سعادة:

ـ أحقًا تقول! لقد أثلجت صدرى... لقد حسبت أنه وقع عليك عقوبة بسبب ذلك الموضوع الإنشائى الغريب...

وهنا كان قد اختمر فى عقل بهاء أن ينبئ عمه ذلك النبأ العجيب الذى سمع به فى مدرسته؛ فأسرع يقول:

ـ ألم تسمع يا عمى بذلك الخبر المزعوم القائل بأن أحياء الكرة الأرضية لابد وأن يهاجروا إلى كوكبى الزهرة والمريخ فور عامنا الحالى والذى بعده سوف تنفجر الكرة الأرضية أو تغير قشرتها؟؟..

ولما لم يكن هذا النبأ بالجديد على العم؛ فلقد قال وهو يتنفس الصعداء:

ـ أنت تعلم يا بهاء أن الشائعات والتنبؤات كثيرة خاصة العلمية منها، ولقد تربع على عرش التنبؤ والحدس منذ قديم العهود: الهنود وقدماء المصريون والصينيون، ولقد بزت هؤلاء فى وقتنا الحاضر: الأجهزة العلمية المتناهية الدقة... يقال إن عقلية ضخمة تسمى "الإمبراطور" استطاعت أن تتنبأ بذلك الحدث غير المعقول، ولكننى لا أعد ذلك إلا نوعًا من أنواع التخبط والتشاؤم العلمى... لا أحسب أن هناك بركانًا جوفيًا يمكن له أن يبدد كرتنا الأرضية... لا أحسب أن ذلك سوف يحدث بالرغم من أن هناك أنباء تقول بأن الدول الكبرى قد بدأت تستعد فعلاً بالصواريخ العابرة للكواكب... لا تقلق نفسك يا بهاء من هذه الناحية... يجب أن تعيش يومك...

وهنا تهللت أسارير غادة لتفنيد العم لذلك الخبر المزعج وقالت:

ـ لك الله يا عمى الحبيب... حياك الله ياعمى العظيم... لقد طمأنتنى على ممتلكاتى... لقد كادت تتبدد فى الفراغ بسبب ذلك الخبر المقبض ... مرحى... مرحى لقد اطمأننت الآن على كوخى وعنزاتى وخرافى ونخلاتى وشجرى...

ثم أردفت بعد أن رنت إلى جسد العبد آمون المستلقى عاريًا فوق السرير دون أن يكون هناك ثمة ما يخجل:

ـ لقد حدثنا صديقنا عابد المكدس للحسنات عنك حديثًا طويلاً جد شق... لقد حدثنا عن رحلتكما معا إلى واحة سيوة منذ عهد بعيد، لقد أمتعنا بتفاصيل الرحلة، وإننى أتوق إلى التزين بالحلى التى ذكر أنه شاهدها تزين المرأة الأعرابية العجيبة التى قابلتها فى الصحراء خلال الرحلة... لقد ذكر أن اسمها "غزالة"....

وما إن سمع العم منها ذلك التصريح الأخير حتى هتف فى غيظ وقد برزت عيناه فى شكل مخيف:

ـ ألا تبا لك يا عابد أيها الصديق العتيق... دائمًا تجلب على النكبات والوصمات... كيف له أن يحدثكما ذلك الحديث الطويل ثم بعد ذلك يدعى أنه يكدس الحسنات؟... فليرح نفسه... لن تقبل حسناته... لن تقبل طالما أن لسانه يهرف بكل شىء... اسمعا: عليكما ألا تستمعا إليه كثيرًا لأنه سوف يلوث أفكاركما... سوف ينغص عليكما حياتكما... هل تسمعان؟؟.. والآن دعونا من كل ذلك وهيا لتشاهدا ما كان قد صنعه لىَّ آمون العبد من تماثيل ستبدو لكما عجيبة حقًا...

ونهض العم، وخرج من الحجرة وفى إثره الزائران "الكاو البا" وسار متقدمًا نحو مجموعة التماثيل الصلصالية المتلاصقة والتى اتجهت بأنظارها جميعًا إلى بوابة الكهف، وتوقف عندها ثم قال فى لهجة التفاخر:

ـ انظرا... إنهن تمثلن مجموعة صاخبة من النسوة العاريات قد ارتمين فوق الأرض زاحفات إلىّ راجيات متوسلات متزلفات لشخصى... إنهن يتمنيننى ويقبلن قدمى متلهفات تواقات أن أتعطف عليهن بحبى... هه... ولكننى لا أتعطف.. هه ... إننى لا أرحم ... يا لقلبى القاسى حقًا... هه... تبًا لىَّ وسحقًا...

وتقدم من مجموعة التماثيل الطفلية الحمراء ثم تمتم مخاطبا تلك التماثيل:

ـ كلا ... كلا... لن ألبى نداءكن ... لن ... لن ... لن...

ونظرت الكا إلى البا نظرات لها معنى تكشف من الفور للعم حاد الذكاء، ومن ثم لم يفته أن يبعد تفكيرهما إلى فكر آخر، فقال مبتسمًا وهو يخطو نحو قفص عصفورى الحسون المعلق عند بوابة الكهف:

ـ حسنًا... يجمل بىَّ اليوم أن أهديكما هدية... أنا لم أصد اليوم صيدًا واحدا يمكن أن أعطيكما منه نصيبًا... لا بأس... إليكما هذا القفص... سأشترى فيما بعد عصفورًا من عصافير الحسون وآخر من عصافير الكنارى، وسأعمد إلى تزويجهما... إن النتاج يسمى بالبغال.. إنها تمتاز بالصوت الشجى... يمكننى أن أهديكما "بغلاً" فيما بعد... اسمعى يا غادة: يمكنك فى زيارتك المقبلة أن تجلبى لىّ شيئًا من "اللبجى"... أتدرين كيف تصنعين اللبجى؟؟.. عليك بتعليق وعاء صغير تنتهى إليه غابة مثقوبة.... سينتقل اللبجى بهذه الطريقة من قمة النخلة إلى الوعاء... إنه مسكر حقيقة، ولكنه مرطب وسيكون رائعًا إلى جانب الشواء...

ثم أردف وهو يتنفس الصعداء:

ـ بمجرد رحليكما سأمتطى صهوة الصعلوك كيما نفوز ولو بأرنب برى أو ببعض القنابر أو الحجل... لقد بدأت أجوع، ولم يعد لدى غير زجاجات البيرة... سيكون طعامًا شهيًا مع مزيد من ثمار الطماطم النامية على ماء النبع الصغير عند سفح قمة نادرة.... لقد أفلح الصعلوك المتشرد فى تسميدها بسماده العضوى... إنها تنتج ثمارًا كبيرة مستديرة كما لو كانت ثمار التفاح... والآن... لقد بدأت الشمس تتخذ طريق الغروب... عليكما إذًا بالرحيل... لقد سرتنى تلك الزيارة، ولو أننى كنت فى حل منها... يمكنكما أن تتخذا طريقكما على الأرض وليس بالنفق... يجب أن تكون العودة من تلك الرحلة الأسبوعية تتسم بالشاعرية... كما أن الرمال سوف تكون فرحة بحملكما إلىّ حيث جنتكما، وإننى موقن بأن النسمات التى تهب علينا الآن سوف تسترق نفسها كيما تزف أنباء اتخاذكما طريق العودة إلى النخلات الثلاثين المتصتة بسعفها الراقص، وها هما عصفورا الحسون سوف يشدوان لكما أناشيد الحب طوال الطريق... هيا... وإلى الملتقى فى رحلة أسبوعية أخرى، ولكن تذكرا دائمًا أننى عم: عاق ... عاق...

وحالما أتم حديثه ترك "الكا والبا" ثم تنكب قوسه الإنجليزى الصنع وسهامه، وراح يهبط مرتقاه الرملى متمتمًا بصوت مسموع:

ـ أنا عاق ... عاق ... لا شىء: شىء..... لا شىء: شىء...

لم تتحرك الكا والبا من مكانيهما أمام بوابة كهف بيت السلطان إلا بعد أن امطتى العم العجيب صهوة بغله الذى انطلق به كيما يلفى كينونته بشقيها زمانا ومكانا...

وعاد العم جمال بعد ساعتين من رحيله فوق بغله الصعلوك من رحلة صيد من أجل طعام العشاء، ورغم أنه جاب أماكن كان يعلم أنه لابد وأن يصادق فيها غزالا، إلا أنه قد أخفق تمامًا

كان اللى كان * كله بأوان
وآدى المكان * فوق ضهر جان
وعليه نعيش

عندك مجال * تبنى ف آمال
اركب خيال * اعبر محال
تنفخ ف هيش

اعمل كبير * منصب خطير
لفوك حرير * ح يجيبك نكير
يقلبها خيش

على إيه ندم * كله لعدم
أخّر قدم * قدم قدم
برضك مافيش

روح له وناجيه * دوغرى تلاقيه
كله بإديه * لوقلت ليه؟
عقلك يطيش

راح اللّى راح * على إيه نواح؟
الفجر لاح * هلّ الصباح؟
طاير بريش

الريش شعاع * زى الشراع
للكون يساع * يدى اللى جاع
حتى الحشيش

حقيقه أنه. وقد شاهد غزالا يطل بقرنيه من بين صخرتين ناتئتين فى جبل قليل الارتفاع، وحقيقة أنه سدد سهمًا إليه، ولكنه لم يكن موفقًا، فلقد أسرع الغزال بالفرار فى اللحظة المناسبة، ولكن العم لم ييئس، بل راح يسدد سهامه إلى طيور الحجل التى كانت قد بدأت تنكت الرمال للمبيت، وعندما اجتمع له خمسة من طيور الحجل اكتفى بذلك، وتنكب قوسه عائدًا...

عاد العم بصيده، والشمس لما تغرب بعد، فدلف داخلاً حجرته بعد أن آوى بغله بالحجرة الثالثة الأخيرة المتطرفة، وعندما رأى العبد آمون لا يزال مستلقيًا فوق السرير ربت على ظهره وقال فى هدوء:

ـ لا تبتئس يا آمون... سوف تغادر الحياة بعد شهور، ولتعلم أننى أعلم جلية الأمر، لسوف احكى لك حكاية حتى أطيب خاطرك... الآن ما عليك إلا ان تنهض كيما نعد طعام العشاء، فلابد أن الأربعة "منكر ونكير" قد جاعت، ولم يتناول منا طعامًا غير الصعلوك... حقًا لقد أعفيت من غذاء الحسون...

وعلى ضوء القمر المستدير والذى أطل بمحياه من بين السحب البيض والجبال، جلس الجميع يأكلون فوق الرمال أمام بوابة الكهف الفرعونى: العم جمال، وآمون، والثعلب منكر، والذئبة نكير، والثعلبة الصغيرة منكر، والذئب الصغير نكير... أجل لقد جلست تلك الضوارى الستة تأكل فى نهم واشتهاء...

وبينما ذلك، كانت عينا العم ترقب فى يقظة اللهب المتراقص فوق اللظى، كما جعلت ترقب الراقصات المياسات، ثم راح يتحدث إلى آمون وقد جلس القرفصاء:

ـ أواه يا آمون العزيز... لقد خدمتنى حقًا وآنست وحدتى ووحشتى فى ذلك القفز. لقد عاملتك معاملة كان قد ألح علّى بها من باعوك لى.... لقد نصحونى بتلك المعاملة التى نفذتها بإتقان وإخلاص، ولكن يبدو أننى إله فاشل حقا، إن من صفات الإله الحقيقة ألا يستلهم طريقة التأله من الآخرين، بل لابد أن يستلهمها من التلقاء... أواه... تبًا لىَّ إذًا من إله فاشل يجب أن يتنازل فورًا عن عرشه موصومًا بالعار والشنار....

واستلقى العم فوق الرمال وأنشأ يقول:

ـ لقد حكيت لصديقى العتيق عابد مكدس الحسنات... حكيت له أشياء كثيرة، لكننى لم أشأ ان اقص عليه تلك القصة التى سأرويها لك أتعمل لماذا؟؟! ذلك لأننى خشيت أن يذكرها لأحدهم، لعلمى التام أن لسانه عادة ما يهرف بالحديث خابطًا خبط عشواء دونما روية أو سعة أفق رغم أنه لا يضمر سوءًا لىَّ... لقد شاهد المرأة "آكلة ناسها"...

لقد رأى غزالة وأنا أقابلها خلال تلك الرحلة التى عدت فيها معه إلى واحة سيوة... لقد شاهدنى وأنا أسلم عليها وأحييها... حدثته عن تلك المرأة حديثًا مقتضبًا ذاكرًا له أنها كانت غولة أكثر من مرة، لكتنى حجبت عنه حقيقة اتضح فيما بعد أننى محق فى إخفائها.... أجل... لقد أخفيت عنه أن المرأة التى كانت فاتنة الأعراب فى يوم ما هى "أم بهاء"...

واهتز العبد آمون المتربع لهذا الخبر وقال:

ـ أم بهاء!!... وأنت!!...

فقال العم مستأنفًا ومجيبًا:

ـ أى نعم ... أم بهاء... وكنت أنا زوجها، لقد كنت الزوج الحادى عشر... تصور أيها العبد آمون!!... لقد فتنتنى وأنا فى رحلة صيد... أسرتنى حسنها وجمالها، وعندما فاتحت أعرابيًا بشأنها وقد كان يرعى الغنم فى الصحراء، ضاحكنى مستنكرًا:

ـ يا صاحبى الصياد البطل.... حقيقة إنك بطل قوى لم تر الصحراء مثلك من قبل: ولكن لتعلم أنها "آكلة ناسها"...

لم أكن قد عرفت بعد ما معنى ذلك النعت؛ لذلك لم يجد مندوحة من التفسير كيما يثينى عنها، ولكننى ولشدة فتنتها وسحرها الذى أسرنى وخلبنى وجعلنى أتمناها: فإننى غامرت واتخذت سبيلى إلى خيمتها التى تسكنها مع أبويها العتيقين، وما إن فاتحت أبويها: حتى رحبا بىَّ، ولكننى قلت للعروس "آكلة ناسها" فى حضرتهما:

ـ اسمعى يا غزالة... اعلمى أننى أرغب فى الزواج منك ولكن بشرط واحد: لابد وأن تقريه.

فقالت غزالة فى لهفة وهى تتطلع إلى جسدى الذى كان أروع وأقوى من وقتنا الحاضر:

ـ رهن إشارتك يا سيدى ...

وهنا اعتدلت فى مجلسى بالخيمة وقلت لها فى حزم:

ـ أنت لا تلدين، ولكن اقسمى أنك لو حملت فإنك سوف تعطينى من أنجبه بمجرد الفطام...

وهنا تمتمت متلعثمة فى معية الفرحة والحزن:

ـ لك ذلك أيها البطل الصياد... اتفقنا ... أنا أعرابية ولا أحب الحنث بالوعد... لن أنقض وعدى... إنه آل بيننا إلى يوم الدين...

وقرأنا الفاتحة على ذلك الشرط، وتم لنا الزواج... وضربنا خيمة الزواج فى مكان قريب من خيمة الأبوين الفقيرين، والحق أقول إننى قد أعنت غزالة على رعى غنماتها القلائل، كما أننى قد أغدقت عليها من صيدى الذى كان أيامها وفيرًا، ولكننى لم أتخل عن كهفى بيت السلطان الذى كنت أبيت فيه ثلاثة أيام فى الأسبوع...

أغرمت بىَّ غزالة وادعت: أننى قد فقت أزواجها الآخرين فى القوة والحسن والحديث والمعاشرة والسخاء والكرم، وحدث عن ذلك ما شئت أيها العبد آمون.... ولكن لتعلم أننى كنت أرجح قبيل الزواج أنها سوف تسلك معى نفس المسلك وأنها ستشنف أذنى بما يقلل من وطأة معرفتى لزواجها السابق بعشر رجال برمتهم لا لشىء إلا لكى تحتفظ بزيجتها... ولكنى كنت قد اشترطت عليها أن أتركها بمجرد إنجابها وفطامها لطفلى الذى كنت أنتظره من تلك الفاتنة...

وحدثت المعجزة، وتحققت النبوءة، وجادت بطن غزالة بطفل جميل كان يحمل صفاتى وصفاتها...

فهمس العبد الجانزى وقد جحظت عيناه :

ـ بهاء !!..

ـ أجل ... بهاء يا آمون ... لقد طلقت غزالة فور الفطام ورحلت عنها بولدى...

فاعترض آمون و قد بدا أنه يعيش الأحداث:

ـ ولكنك الآن تقول بأنك عمه !!...

ـ أجل... إننى أدعىَّ ذلك، ولكن سوف يذهب عجبك إذا ما أبديت لك المنطق الذى سرت عليه... أى نعم... فبما أن أمه على قيد الحياة ولا تعرفه بل ولم تشاهده بعد الفطام؛ فإننى لم أجد بدًا من أن يجهل أباه هو الآخر حتى تتساوى الكفتان... كفة الأم وكفة الأب، وبذلك أكون عادلاً فى كل شىء... وكان من حسن الطالع أن أتعرف إلى رجل حبشى زنجى يدعى "عنتر" وهو حارس المقابر العجوز ببلدة الأغورمى... لقد تعرفت إليه وأنا فى رحلة صيد، فعهدت إليه بتربية الطفل المقطوم بعد أن أفهمته أننى عمه، وذلك على أن أساعده فى متطلباته وغذائه، فرحب العجوز بذلك لكونه يعيش بقية العمر منفردًا وحيدًا بين المقابر العتيقة والنخيل الشارد الطول...

وتوقف العم قليلاً ثم عاد يستأنف:

ـ وفى يوم ما، وأثناء عودتى من رحلة للقاهرة اشتريت خلالها بعض اللوازم والمتاع وبعت الكثير من الجلود والفراء والقرون التى تجمعت لىَّ من الصيد... أثناء عودتى من تلك

الرحلة وبينما أنطلق بعربتى مارقًا من حى المكس إلى حيث بداية طريق الإسكندرية/ مرسى مطروح، إذ بى ألمح عجبًا على ضوء المصباحين الأماميين... أجل... لمحت امرأة تلبس السواد تمرق من بعيد على الطريق لتختفى تمامًا عن بصرى وذلك بعد أن وضعت شيئًا غريبًا لم أتبينه على وجه التحديد أمام العربة...

توقفت يا آمون بالعربة وأنا على بعد كبير من ذلك الشيء، وهبطت إلى الطريق المظلم الخالى من المارة: ورحت أقترب فى بطء، ولشد ما كان عجبى أن وجدت طفلة فى أحضان الطريق... جمدت فى مكانى لحظة، ولكننى وبعد أن فاءت إلىَّ نفسى، وجدت أنه لا مندوحة من التقاطها والعودة بها إلى عربتى وليكن من أمرها ما يكون...

حملتها بأسمالها وخرقها على صدرى، وركبت العربة ووضعتها على المقعد المجاور لمقعد القيادة، ورحت أنهب الأرض نهبًا، والليل قد أسدل سدوله وظلته....

كانت الطفلة الرائعة الجمال ذات الذوائب الذهبية والتى أسميتها غادة فور وصولى إلى واحة سيوة، كانت تغط فى نومها منذ أن حملتها من فوق أسفلت الطريق... أجل... ظلت تلك الطفلة نائمة إلى أن دنوت من بلدة "فوكة" على طريق مرسى مطروح/ الإسكندرية، وأخيرًا استيقظت ونظرت إلىَّ بجانب عينها والعربة ماضية فى الطريق المقفر من كل شيء.... ولكنها ما لبثت أن رفست برجليها ما فوقها من أسمال وخرق بالية، ثم راحت تبكى فى احتداد... فلم أجد مندوحة من التوقف والأخذ بخاطر الطفلة... توقفت وسط الطريق الذى أحاطته التلال ورفعتها فوق صدرى: فرفعت إلىَّ قدميها وجذبت بها لحيتى التى بدت لها شيئًا غير ضرورى يستوجب الحلق... جعلت تبكى فى دلال وهى عاكفة على جذب شعيرات لحيتى بقدميها الخلابتين، وعندما انتفشت انتفاشة مزعجة رحت أحملق إلى وجهى فى مرآة السيارة، فاندهشت لتلك الانتفاشة التى تكنى عن عدم إعجاب الطفلة بتلك اللحية المبتذلة المتهدلة... حقًا لقد استنكرت هذه اللحية أن تنمو على عواهنها دون تطويش أو تهذيب.. فعجبت من تلك الغطرسة البادرة من طفلة كانت ستمهك تحت عجلات الإوزة البيضاء... ولكننى رحت أربت على الطفلة وأقبلها مبعدا عنها شعيرات شاربى ولحيتى ما وسعنى الأمر وجعلت أتمتم لها:

- حسنًا أيتها الطفلة المراوغة، ومع ذلك لن أطوش أو أزيل لحيتى.... لن أستمع لأوامر "مفعوصة" مثلك... لقد وضعتك أمك المجرمة فى طريق إوزتى البيضاء وكدت "أفعصك" لولا أننى أشفقت من "فعصك" تحت العجلات... أبعد كل ذلك تأتين أيتها "المفعوصة" كيما تأمرينى بإزالة واجتثاث لحيتى العظيمة من جذورها؟؟...

وصاحت الطفلة ولوحت بقدميها إلى أعلى فى محاولة لإبداء رأيها الأول والأخير فى لحيتى.. ماذا أصنع يا آمون حتى أسكت تلك العفريتة.. ولم أشعر يا آمون إلا ويدى تمتد إلى زجاجة البيرة القابعة منزوية على نفسها أسفل مقعد القيادة، وأمسكت بها وقربتها من شفتى غادة حتى "أبلفها" كيما تطلق سراح لحيتى التى لا يمكن لىَّ أن أتخلى عنها!!.. تصور يا آمون!!.. لقد جعلت غادة تجرع من زجاجة البيرة فى استساغة لا تتأتى إلا للمدمنين..

شربت المدمنة غادة حتى ارتوت، ولا أحسب أن عمرها كان يزيد على شهرين، وما لبث أن بدلت صراخها بضحكات جذلة لا تتأتى إلا لمدمنى الخمر المخلصين فى إدمانهم.. وهنا همست لها:

ـ حسنًا ... اتفقنا.. ستكونين زوجة رائعة لابنى بهاء.. أجل.. سأربيك من أجله.. ولكن عليك أن تكونى زوجة مهذبة.. سأنشئك معه فى كوخ واحد عند العم عنتر الحبشى.. لقد خطبت من قبل ست فتيات ووهبتهن ست شبكات من الذهب: ولكننى لم أحظ بزيجة واحدة.. انظرى كم أنا أب رحيم يا غادة!!.. إننى أنشئ زوجة ابنى معه منذ نعومة أظافره.. ألست أبًا رائعًا يا غادة يا زوجة ابنى بهاء!!.. لا تخافى، إن بهاء جميل الطلعة، وسيكون فى مثل قامة أبيه وقوته.. أتطمعين فى أكثر من ذلك أيتها المدمنة!!.. ولكن ويحى، يا لى من حم فاجر حقًا.. كيف تشربين البيرة يا ماجنة وأنت بعد غضة الإهاب!!.. يالى من رجل فاجر حقًا.. بل ويا لك من زوجة لعوب.. الحق عليك أنت.. الوزر وزرك.. لماذا تقبلين بتلك البيرة..!!.. خبرينى!!..

ولكن أين هى يا آمون تلك التى سوف تخبرنى!!.. لقد ذهبت على أجنحة النوم كى تشاهد من هو ذاك المدعو "بهاء" الذى أتحدث عنه كزوج لها!!.. وهل يمكن وبتلك الثقة بالنفس أن ارتضى لها عريسًا لم تره!!.. كلا.. لابد أن تذهب إلى ذلك العريس على وجه السرعة حتى تتبين أمره، إن كان ملائمًا لها أو غير ملائم بوصفها "مفعوصة" أتت من فوق الأسفلت.. أجل.. لقد حدث أن ذهبت كيما تراه بالفعل، ولم يكن ذلك إلا على أجنحة النوم الذى بالطبع كان أسرع من الإوزة البيضاء وأسرع من الصوت بل وأسرع من الضوء..

واستراح العم جمال هنيهة وقد ربض كل من منكر ونكير الصغيرين بعيدًا عنه متجاورين، وعاد العم يقول بعد لحظات:

ـ وبعد ما كبر كل من بهاء وغادة؛ فصار هو فى سن السادسة، وصارت هى فى سن الخامسة مات فجأة العجوز الحبشى عنتر بعد أن عمر ثمانين عامًا، ومن فور مماته أقلع الناس عن دفن موتاهم فى تلك المدافن التى صارت مهجورة بطبيعة الحال، ومن

ثم، شئت أن يشب كلاً من الفتى والفتاة بمعزل عنى، وكنت فى تلك الأثناء قد اشتريت أرض المقابر المهجورة من أجل نخيلها، وكان ثمن الأرض والنخيل بخسا حقا... وغرست الزيتون، ولما طالبتنى الفتاة وطالبنى الفتى بإطلاعهما على شأن أبويهما وأميهما، حكيت لهما تلك القصة التى تدعى أننى عمهما وقد عهد إلىَّ بتربيتهما بعد موت الأبوين والأمين، ولقد اخترت قبرًا من قبور النساء، وأفهمت غادة أن ذلك القبر هو قبر أمها الراحلة، واخترت قبرًا آخر على مبعدة، وأفهمت بهاء أن القبر هو قبر أمه... لقد عمدت غادة كطفلة شقية خصبة الخيال إلى لصق مرآة فوق واجهة قبر أمها كعين وحيدة تشرف بها على الكون بعد رحيلها إلى عالم الأبدية... هذا، ولا يفوتنى أن اذكر لك يا آمون أننى عمدت إلى استخراج شهادة ميلاد بهاء باسم أب آخر وبذلك صار اسمه "بهاء فريد".

* * *

نقــول...

استجابت الشمس وصنعت ما عليها فحدت المرتحلين إلى طريقهما، وصدع عصفورا الحسون، فراحا ينشدان طوال الطريق أناشيد الهيام، وعملت الرمال الذهبية ما عليها فراحت تربت على الأقدام فى رفق وحنو، وما لبث بهاء وغادة يسيران حتى صارا بين منازل الأغورمى التى بنى بعضها بالأحجار الجيرية البيضاء، وبينما هما يسيران والشفق الأحمر قد بدأ يسربل جانبًا من السماء وما يقع تحت طائلته من سحب سمحاقية: إذ بهما يشاهدان عجبًا...

أجل... فلقد كان المرتحلان فى تلك الآونة قد اقتدنا من منزل متطرف يقع بمفرده وسط الرمال وكان ذلك المنزل أيسر حالا من المنازل المجاورة... لقد كان فيلا من طابق واحد يحيطها حديقة غناء قد تفتحت فيها الأزهار فى كرنفال بهيج... أمام بوابة تلك الفيلا التى نقش على لوحتها الرخامية "جاسر شداد" مدرس تربية بدنية وملاكم" وقف رجل برفقة فتاة صغيرة بارعة الجمال لا يزيد عمرها على عشر سنوات ذات عينين خضراوين وشعر أسود قد ترك على عواهنه، أما عن وجهها الصبوح فلقد كان أقرب إلى وجه الملائكة منه إلى وجه فتاة تلبس أسمالا رثة حافية القدمين...

أما عن الرجل فلقد كان رث الهندام أيضًا قد زركشت سترته بعدد من الرقع الجديدة الزاهية الألوان تلك التى كانت تفاخر أديم السترة بجدتها، وكان بنطاله ذا خطوط طولية وعرضية متقاطعة، بيد أن الرجل كان جميل الطلعة مسترسل الشعر، له عينان خضراوان

جميلتان... وقف ذلك الرجل الذى لا يقل عمره عن خمسين عامًا هاتفًا على مبعدة من البوابة، وقد وقفت كلاً من الكا والبا على بعد:

ـ يا وسام الكمال... يا وسام الكمال... الا تشفقين على والدك!!...الا تشفقين!!... لقد أورثتك قدمين صغيرتين رشيقتين... لقد أورثتك أذنين نادرتين وأنفًا دقيقًا كبنان يشير إلى شفتين فاتنتين... أنا خير مورث للصفات الوراثية الحميدة التى لا تشترى بخزائن المال... إننى خير مورث للصفات... الا تبًا للورش الميكانيكية... الا تبًا لها... الاَ تسمعين يا بنيتى!!... عليك إذًا أن تردى الجميل لأبيك المسكين الذى ماتت عنه زوجته... لقد أحوجنى الزمن... يجب أن تعطينى ما يقيم أودى وأود أختك المسكينة "حنين"، إننى أيضًا أرسل أكثر من نصف معاشى لأختك نوال بجامعة القاهرة.... يجب أن تعطينى نقودًا، ويجب أن يعطينى زوجك الملاكم مقابل تلك الصفات الوراثية التى أورثتها لك..فلتعطيانى حقى... قلت لك ذلك...

وأردف الرجل هاتفًا وقد اقترب بشدة من البوابة الحديدية الخضراء التى لا تود أن تنطلق متخذًا لهجة جديدة مفعمة بسذاجة غير معهودة يشحذها البؤس:

ـ قلت لكما أن تعطيانى حقى... أعطيانى مقابل أنفك الدقيق... أعطيانى مقابل أذنيك الصغيرتين... أعطيانى مقابل عينيك الخضراوين... قلت لكما ذلك... أعطيانى حق قوامك الرشيق... أعطيانى مقابل قدمك البديع... أعطيانى حق لون جلدك الأبيض البض... قلت لكما ذلك... كل شيء له مقابل، ولابد أن تعطيانى مقابل هذه الصفات التى يمكن لكما أن تورثاها لأبنائكما وبناتكما.... قلت لكما ذلك... لن أبرح مكانى من أمام هذه البوابة إلا إذا أعطيتمانى حقى...

وعلى حين فجأة فتحت البوابة ثلث انفتاحة، وإذ بقبضة متوجة بقفاز منتفخ كما لو كان قد نفخ غيظًا فى أوداجه.. إذ بتلك القبضة تعاجل وجه الرجل بلكمة صاروخية قذفت به فوق الرمال الحريرية، وقد تناثرت من حوله جميع صفاته الوراثية المنوه عنها....

أجل ... فبمجرد أن انطرح الرجل أرضًا أمام ابنته الصغيرة التى أخذت فجمدت فى مكانها، وأمام بهاء وغادة الواقفين متجاورين على مبعدة... بمجرد أن طرح الرجل أرضًا كانت قد انزلقت إحدى عينيه الخضراوين من مكانها باليافوخ فوق الرمال، وتنصلت الأذنان عن موضعهما مسرعتين إلى الأرض، وترنحت الأنف من هول الضربة لتنزلق نحو أديم الأرض المضطرب صعودًا وهبوطًا تحت الأقدام اللاهثة، وتخاذلت كف الرجل اليسرى لتنغرس أصبعها فى وضع عمودى فى سلام حار مع حبات الرمال...

أجل... لقد تناثرت صفات الرجل الوراثية فوق الرمال.... ولا عجب قارئى الكريم؛ فلقد كانت جميع تلك الأجزاء "صناعية" ولا يمكن لها أن تصمد أمام قفاز منتفخ بداخله قبضة فولاذية كعفريت مزود بزنبرك...

يا للمأساة إذًا ... أهكذا يكون تصرف الأبناء مع الآباء المفلسين بعد أن خذلتهم سبل الرزق الشريف!!... أهكذا يكون الأمر إذًا!!... لقد تناثرت أجزاء الرجل الصناعية التى اضطر إليها بعد كارثة قد أحاقت به وهو يعمل بالورش الميكانيكية... ربما كان يتقاضى معاشًا لا يكفيه هو وابنته، وربما كان له أولاد آخر... ربما كان ذلك هو الأمر... يا للقسوة إذًا وعدم الإنسانية... أيحتمل أن يكون عمى إذًا على صواب جراء تلك الأباطيل!!... ربما...

ما إن جالت بخاطر بهاء تلك الخواطر حتى كان ينتزع من بين يدى غادة قفص عصفورى الحسون، ولم يعطها الفرصة كى تعترض، إذ أنه قد خيل إليه فى تلك الأثناء أن غادة لابد وأنها قد عقدت العزم على الاستيلاء لنفسها على القفص بطيريه طالما أن العم جمال لم يحدد ملكيته لأيهما ـ كخطأ غير مغتفر له - .... أجل.... لم يعطها فرصة الاعتراض، فلقد أسرع يهبه لتلك الفتاة الصغيرة حنين الواقفة إلى جوار أبيها بعد أن جمعت له فى حجر ثوبها صفاته الوراثية المتناثرة فوق الرمال هنا وهناك وهنالك...

ما كادت الصبية الصغيرة الفاتنة الصفات تلتقط قفص الحسون من يدى بهاء وقد استبدت بها الدهشة: حتى تراجع من فوره إلى حيث غادة المستاءة تمامًا من تصرفه الأبله الساذج الذى يستحق عليه الصلب عاليًا فوق نخلتها رشيدة الرشيدة كمتسول حقير يلوذ بكوخها وطعامها ومقابرها وأقصوصاتها الساذجة .... وما كاد بهاء يتراجع: حتى هتف الرجل الجالس فى إعياء فوق الرمال بعد أن شكر لبهاء صنيعه وهو على بعد:

ـ هيا يا حنين... عليك به... إنه زوج من طيور الحسون...

وما كاد الأب يهتف بذلك لابنته النادرة الجمال والتى لا يمكن حتى لغادة أن تضاهيها، حتى استدارت إلى الخلف وراحت تتقدم بقدميها الحافيتين نحو البوابة الفولاذية الخضراء، وعندما دنت منها هتفت فى صوت عذب جميل ساذج النبرات:

ـ يا أختى الجميلة ... يا وسام الكمال... إننا لم نحضر لنتسول منكما شيئًا ... فحسب فحسب: إنه زوج من طيور الحسون الرائعة جئنا لكما به... إنه يساوى جنيها يا وسام الكمال، ويمكننا أن نعيش على ذلك الجنيه لمدة خمسة أيام... لم نطرق بابك للتسول يا وسام الكمال... فحسب فحسب: إنه زوج من طيور الحسون فى قفص بديع... إنه يساوى جنيهًا...

وهنا هتف الأب وقد فرغ من تركيب عينه الخضراء فى محجرها:

ـ بل جنيهين يا حمقاء...

فصححت الصغيرة حنين فى ابتئاس وتلعثم:

ـ عفوا يا أختاه وسام الكمال... بل إنه يساوى جنيهين أيتها الفطينة...

وهنا هتف الأب بعد أن فرغ من تركيب أذنيه:

ـ إننى أسمعهما الآن جيدًا وأوضح من ذى قبل... كلا.. بل إنه يساوى ثلاثة جنيهات يا حمقاء... إن صوت زوج الحسون عذب شجى....

فصححت الصغيرة فى قنوط وحزن وقد وقفت كما لو كانت طفلاً ينشد ممسكًا بفانوس رمضان أمام بيت عند الغروب وقد انطلق المدفع والكبار منهمكين فى التهام طعام إفطارهم:

ـ بل إنه يساوى ثلاثة جنيهات بعد أن سمعه أبى وسيم بطريقة أفضل فور تركيبه أذنيه...

وهنا هتف الأب فى حدة وقد انتهى من تركيب أنفه:

ـ لقد وقعت فى المطب أيتها الحمقاء، إن تصريحك الأخير يعنى أن زوج الحسون لم يكن معنا منذ البداية... صوبى الخطأ يا حمقاء....

لاذت الصغيرة الحائرة بالصمت لحظة متفكرة برأسها الصغير، بيد أنها أسرعت تقول وقد رمقها الأب بنظرة نارية:

ـ معذرة يا وسام الكمال... إن زوج الحسون يساوى بالفعل ثلاثة جنيهات حتى قبل أن يعيد أبى تركيب أذنيه اللتين قد سقطتا على الأرض بفعل اللكمة...

فهتف الأب فى حمق وهو يتلمظ غيظًا وقد انتهى من تركيب كفه:

ـ أواه يا حمقاء... يا لك من ساذجة... كحلتيها فأعميتيها... غبية... غـ....

ولم يكمل الرجل الملقى به فوق الرمال كلمته، ذلك لأنه وفى تلك اللحظات امتدت يد نسائية بضة بيضاء جملت أظافرها بطلاء وردى... امتدت من خلف البوابة التى انفتحت ربع انفتاحة، وكان بين أصابع تلك اليد وردة حمراء زاهية تامة التفتح فيحاء العطر، وقد لف حول ساقها ثلاثة جنيهات....

وإذ شاهدت الصغيرة حنين تلك اليد الممتدة أقبلت نحوها فى تحفظ رغم أنها كانت تعلم أن تلك اليد الممتدة لا يحتمل أن تكون غير يد أختها وسام الكمال...

التقطت الصغيرة الوردة وما على ساقها من جنيهات وهرولت فرحة لا تدانيها فرحة نحو أبيها الجالس فى إعياء، وعندما مثلت بين يديه مثول الصبح وقد نسيت تمامًا الكا والبا الواقفتين على بعد منها: همست:

ـ أبى .... أبشر يا أبى.... سوف يكون العشاء رائعًا حقًا... جبنًا قطعت عليه ثمار الطماطم وأضيف إليه مزيدًا من زيت الزيتون السيوى، وإلى جوار ذلك عيدان الجرجير التى جمعتها من جوانب الطرق، وفوق كل ذلك رغفان من الخبز الطازج... الطازج يا أبى... ولكن عليك أن ترسل لأختى نوال جنيهًا ونصفًا بالبريد إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة.. لقد انتصف الشهر... لا يجب أن تقترض من زميلاتها يا أبى...

ولم يسع الأب إلا أن يربت على ظهر ابنته وأن يقبلها دامعًا، تلك التى فرحت وسعدت لسعده وابتهجت لابتهاجه، فجلست إلى جواره ممسكة بوردتها وقد جذبت على أصابع قدميها رداءها البالى وكأنما تجلس فى عقر دارها، واضعة كفها فوق حجر أبيها مورث الصفات المغبون... بيد أن الرجل التفت إلى الواقفين على بعد، وأمعن النظرات، وفى النهاية لم يسعه إلا أن يهمس للصغيرة:

ـ عليك بشكرهما يا صغيرتى الوديعة...

فنهضت الصغيرة البضة الجسد، وراحت تقترب من الكا والبا الواقفتين على مرمى حجر، وعندما دنت من غادة وفى يدها الوردة ذات الساق الطويلة: ماست بخصرها ثم عدلت شعرها دافعة به إلى الخلف، وابتسمت فى دلال وطفولة:

ـ أبى يشكركما... وحنين تشكركما... ووسام الكمال تشكركما... وعليه، فإن الله نفسه يشكركما... إننى أبلغ شكر الجميع.... إليك إذًا وردتى أيتها الفتاة الطيبة الجميلة...

ثم أردفت وهى لم تتلق ردًا على شكرها بعد أن ناولت الوردة لغادة:

ـ بودى لو عرفت الطريق إلى بيتكما... سوف تتخرج أختى نوال فى كلية الحقوق، ولا ريب أنها سوف تعطينا نقودًا، ولا ريب أننا سنتحدث إليها فى أمر الحسون، ولاشك أنها سوف تعطينا الثلاثة جنيهات، ولابد أننى سوف أسعى بنفسى لردها إليكما...

لم يتمالك بهاء أكثر من ذلك، بل لقد تلعثم لسانه، وقد شعر بغصة تنهك وتجذب حلقومه، لقد ماتت كلماته فوق شفتيه فانطبقتا تمامًا، ولما لم يجد فى نفسه القدرة على التفوه ولو بكلمة استدار إلى الخلف متابعًا سيره وقد تبعته غادة دون أن تحدث الصغيرة هى الأخرى ردًا على شكرها... وما إن ابتعدا حتى هتفت بهما الصغيرة فى حيرة:

- الا أعرف أين تسكنان إذاً؟؟...

وهنا هتفت غادة من بعيد:

- المقابر المهجورة ....

* * *

ـ من هناك؟... نحن هنا؟... من هناك؟... نحن هنا... لقد عاد كلاً من بهاء وغادة إلى الكوخ بعد رحلتهما الأسبوعية الطريفة... من هناك؟... نحن هنا... نحن هنا فوق متن أعلى كتلة من الحجر الجيرى قطعت من أجل بناء القبور منذ زمن بعيد من جيل الموتى... من هناك؟... نحن هنا... حقيقة إننى الشيء الوحيد الذى يمتلكه بهاء... غادة تملك الشجر والنخل والخراف والماعز والكوخ والدواجن... ولكننى صافى الشجاع... نحن هنا... من هناك؟... حقيقة إنها تملك كل شيء... نحن هنا... ولكن هل يمكن لأحد حراسة ممتلكاتها غيرى؟.. نحن هنا... من هناك؟.. هل يمكن لأحد استصغار قدرى بالرغم من أننى الشيء الوحيد الذى يمتلكه بهاء؟... نحن هنا... من هناك؟... نحن هنا... من هناك؟.. الظلام مخيم، والليل بهيم، ولكن هنا صافى الشجاع... السكون مخيف والمقابر مهجورة... ولكن هنا صافى الشجاع... ألا من مبارزة؟... نحن هنا... من هنالك؟ ... انظر إلى عضلاتى... انظر إلى امتشاقة جسدى يأيها المعتدى... هل تعتقد أنك أقوى منى وأشد بأساً؟... إذاً أقبل وجرب، أقبل وجرب وسترى بنفسك... نحن هنا... من هناك؟... نحن هنا... من هناك؟... نحن هنا...

* * *

"الفصـل الرابـع"

«آلهة وعباد».. ولكن العم يقول.. «نخاسون وعبيد»

ـ وكيف أصفع غادة يا آمون هذا ما لم أحسبه يبدر منى حيال زوجة ابنى بهاء المرتقبة... حقيقة هذا ما كان يجب أن يكون ولكنه أيضًا كان أحجى بىَّ أن أتحمل ذلك النزوع الفطرى الذى تبدى فى حب الملكية...

ـ لا تبتئس مولاى... يمكنك أن تجلب عليها السعادة بمزيد من الملكية... يمكننى أن أصنع لها التماثيل فى خلال أربعة أيام فحسب... يمكننى أن أبدأ اليوم لو شئتم ذلك.. اليوم هو الأحد ولازلنا فى الصباح الندى.. هيا ننتهز فرحة الشمس وإشراقتها، ألا تود يا مولاى أن تشارك أفراح الضياء؟؟....

ـ حسنًا يا آمون... ولكننى كنت أفهمتها فيما قبل أننى عم عاق...

ـ يمكنك أن تظل عاقًا يا مولاى بالرغم من هذه التماثيل...

ـ حسنا ... لك ذكاء جهنمى يخشى منه يا آمون... ولكن لدى اقتراح... علينا أن نجرب منهاجًا جديدًا... عليك أن تنادينى باسمى دون أن تضيف إلىّ صفة إله، وعلىّ أنا الآخر أن أناديك بآمون دون أن أضيف صفة العبد...

ـ مولاى..

ـ لتكن آخر مرة تنطق بمثل تلك الصفات يا آمون... أسمعت؟؟... إنه أمر من ... من... أوه.... من.... من مخدومك مثلاً... إنه أمر منِّى إليك.. فلتدعنى سيدك فحسب...

صمت آمون ووقف مطرقًا أمام العم جمال عند بوابة كهف بيت السلطان حيث بدا على مبعدة من منكر ونكير اليافعين، غزال صغير مقيد بحبل قصير، فى ذلك الإصباح البهيج الذى أشرقت فيه شمس ضحوك بسامة المحيا راحت تغدق بفوتونات ضيائها على كل شىء، فصيرت كل شىء: شيئًا وليس كما يدعى العم جمال...

ما لبث العم الصياد أن تقدم من السلسلة الحديدية التى تصفد الذئبة منكر، ورفعها عن

حلقة فولاذية بارزة من أديم الصخر أمام جحرها الصناعي، ثم نهض من جثوته واتجه إلى سلسلة الثعلب نكير، وحالما صارت السلسلتان بين قبضتيه، قال:

- هيا... هيا بنا يا آمون... لدينا غزال رائع اليوم... ولعل غادة تكون قد أعدت لي شيئًا من اللبجي كبديل للبيرة التي نضب معينها لدي.. إن بهاء وغادة لم يأكلا شيئا من صيدي خلال رحلتهما الأسبوعية البارحة، ألا يعد ذلك بخل منا يا آمون؟... حقيقة إنني عم عاق، ولكن يجب ألا يكون العقوق مجحفا لدرجة عدم إطعام الأبناء الزائرين.. هيا يا آمون... سأقيد اليافعين منكر ونكير على جانبي الإوزة البيضاء حتى يحرساها، ولو أنني أعلم أنه ما من أحد بالأغورمي يمكن له أن يقربها... سنرحل على بغلتنا.. يتوجب أن تركب من خلفي حتى إذا ما دنونا من الأحياء الأهلة عليك أن تترجل فتبدو في الصورة التي يألفها الناس عن العبيد الجانزيين... أما بالنسبة للحجر الذي ستصنع منه التماثيل فإنني أعرف مكان قطعة كبيرة من الحجر الجيري... إنها ملقاه عند نهاية المقابر المهجورة... لقد استجلبت منذ زمن بعيد كي تقطع إلى أجزاء مناسبة لبناء المقابر، إنها مستجلبة من جبل الموتى "المصبرين"... تلك القطعة سوف تمكنك من صناعة التماثيل متجاورة وقد ضمتها قاعدة واحدة، كما أنها سوف تمكنك من صناعة التماثيل بالأحجام الطبيعية، وما عليك الآن إلا أن تحضر أزاميلك ومطارقك الخاصة بالنحت من حجرتي، وعليك أيضًا أن تحضر لي منظاري المقرب من فوق مجموعة الكتب... هيا يا آمون... إن الإصباح رائع... انظر إلى الأزهار البرية المتناهية الصغر... إنها تطل من الحصباء المتناثرة وقد أفرحتها الضياء وربت الدفء على خدودها...

وتقدم العم نحو درجه الرملي، وراح يهبط ببطء ومن خلفه آمون ممسكًا بحبل الغزال وخلال ذلك راح العم يترنم:

شـوفت الزمـان يا آمـون	*	يا عـبـد يا مملوك
يا مـا بدعت ولا فنون	*	ح تموت ونفـتكروك
دفـن ولا جـنـون ؟	*	الرأي لـلي بـاعـوك
أيام مـا كـان فـرعـون	*	إلـه تـديـن لـه مـلـوك
إلـه وكـنـت مـصـون	*	ف مـصـر يوم عـبـدوك

قيد العم كلا من منكر ونكير على جانبي العربة البيضاء، ثم امتطى صهوة بغله متنكبا قوسه وجعبة سهامه الزاخرة وقد توجتها ريشات الجوارح المتباينة الألوان ما بين أبيض

ورمادى وأزرق، وناوله آمون السفافيد الخمسة التى كانت بأرضية المربة، وكذا مجموعة الأزاميل والمطارق ورفع له غزاله الصغير الذى كان قد صاده بطريقة الأنشوطة فأرقده أمامه، ثم وثب آمون فى خفة من خلفه، وعلى الأثر: انطلق البغل فوق الرمال وقد برزت بعض حروف اسمه من بين أرجل الراكبين على الجانبين وقد شيعتهما من على بعد أنظار منكر ونكير الصغيرين على قمة الكثيب أمام بوابة الكهف...

وفى الطريق وعندما أشرف الركب على بيوت الأغورمى المتناثرة راح بعض الأهالى من رجال ونسوة وأطفال يرشقونهما بنظرات الإعجاب، وقد بدت فى تلك الأثناء أعداد كبيرة من الطيور الوديعة التى يقال لها عصافير الجنة محلقة فى كل اتجاه، فما تكاد تلمس الأرض حتى تعود فتحلق إلى العلياء من جديد بسرعات خاطفة....

وعندما دنوا من بيت متطرف على شكل فيلا محاطة بحديقة صغيرة غناء لمحا شابا رياضيًا أفطس الأنف يقف إلى جوار زوجته الحسناء عند باب تلك الفيلا...

سدد العم جمال مزيدًا من النظرات إلى كل من الشاب والزوجة الفاتنة، ولعله وبفراسته سبر ما يجول بخاطر ذلك الشاب الأسمر البشرة الذى يرتدى "فانلة" بيضاء قصيرة الأكمام كشفت عن عضلات شبه ضامرة رغم تفاخر الشاب بها، وهنا همس العم لآمون:

ـ أرأيت إلى ذلك الرياضى؟؟... إنه ملاكم... إله ملاكم...

ـ إن زوجته تبدو رائعة الجمال... إنها تسدد إلينا النظرات...

ـ سنجعلها تسدد مزيدًا منها رغم أنف الملاكم...

وفى لمح البصر كان سهم فوق وتر القوس الإنجليزى المصنوع من الألياف الزجاجية بعد أن أبطأ من سرعة البغل، وفى سرعة الضوء كان السهم يستقر فى عصفور من عصافير "الجنة" المحلقة بطريقة خاطفة وكأنها "وهم "طائر"...

سقط السهم من عليائه بعيدًا بعيدا فوق الرمال وفى قمته العصفور الذى كان يفاخر بتحليقاته الخاطفة التى يراوغ بها من يعن له اصطياده، وهنا همس العم:

ـ والآن: انظر خلفك يا آمون ووافنى بالنتيجة...

ونظر آمون خلفه فى سرعة ثم عاد يقول:

ـ لقد برزت عيون الإلهين...

فقال العم فى عظمة:

ـ حسنا... والآن انظر... إننى ألمح رجلاً وفتاة صغيرة يقتربان من بعيد...

ـ أجل ... إننى أيضًا ألمح الفتاة الصغيرة تسرع ناحية السهم والعصفور... إنها تلتقطه...

- أجل... إنها مصادفة رائعة... إننى أعرف الرجل والفتاة، ولكننى لم أرهما منذ زمن طويل... إنه مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون، والزوجة الحسناء ابنته، والرجل الرياضى زوجها.

وهنا لمح كلاً من العم وآمون الفتاة الصغيرة حنين وهى تقترب منهما حافية القدمين فى أسمالها وما إن دنت وفى يدها العصفور والسهم، حتى هتفت فى مرح وفرح:

- نشكركما... هذا صيد يمكن أن نعطيه لأختى وسام الكمال وزوجها نظير مقابل...

وتركتهما الفتاة ومضت مهرولة إلى حيث الزوجين، وما أن دنت منهما أمام البوابة هتفت:

- إصباح مشرق يا أختى وسام الكمال... تحية لك يا وسام الكمال فى إصباح هل نوره من السماء... إننى لم أحضر كى أتسول لوالدنا... لقد كنت أتجول فى صحبته لالتقاط عيدان الجرجير من الطريق...فحسب، إنه صيد رائع جاد علينا به الصياد البطل، ويمكنكما شراءه... إننى لم أحضر لأتسول... فحسب إنه...

وهنا قاطعها الزوج بعد أن قفز فى الهواء ذات اليمين وذات اليسار فى حركات رياضية بدت مبتذلة:

- هه.... لابد أنك حمقاء... إنه لا يصلح للشراء... إن لحمه لا يؤكل كلحم الغراب النوحى... ألا فلتفرنقعى أيتها الحمقاء....

سمعت حنين تصريحه الأخير فأصابها الابتئاس والقنوط وتمتمت وهى تبتعد مهرولة:

- لا يسعنى إلا الاعتذار يا زوج أختى... معذرة يا أختى وسام الكمال... معذرة يا أختاه... فقط كنت طمعت فى مزيد من النقود كيما ندخرها لإرسالها لأختنا نوال بكلية الحقوق...

كان الركب العجيب فى تلك الأثناء قد دنا من ذلك الرجل البائس مورث الصفات الحميدة، ودار بين الرجل والعم حديث طويل قال فى نهايته وقد بدت على بعد مرمى حجر نخلة وحيدة مذكرة:

- لقد أسعدتنى رؤيتك أيها البطل الصياد المثقف... إننى خير مورث للصفات الوراثية الحميدة، ومع ذلك ها هو حالى يا سيدى... ليتنى فى مثل شجاعتك وقوتك... هأنت ترانى أنحدر إلى أسوأ حال بعد فصلى من شركة "أحمس" للصناعات الثقيلة بعد كارثة الورش الميكانيكية...

وهنا كانت قد دنت حنين ممسكة بالسهم والعصفور الذى طارت روحه فى الهواء بحيث لا يمكن لأى سهم أن يخترقها مهما كانت سرعته... وما أن دنت الصغيرة هتفت:

ـ معذرة سيدى البطل الصياد... إننى أرد لك العصفور بسهمه... إنه لا يصلح للأكل كما هو حال لحم الغراب النوحى...

وهنا لم يسع العم جمال إلا أن يوسع للصغيرة فى الابتسام، والتقط منها السهم بالعصفور ليهمس من فوق مطيته:

ـ حسنا... والآن... انظرى أيتها الصغيرة الرائعة الحسن... انظرى... سوف يحلق العصفور من جديد... ولكن لثانية واحدة...

واستقر السهم فوق الوتر من جديد، وفى لمح البصر طار السهم فى الهواء، فهتفت حنين وقد طارت نفسها عجبًا:

ـ ويحى... لقد طار العصفور... لقد استقر السهم وانغرس فى أعلى جذع النخلة العالية... صلبت العصفور على الجذع...

ـ أجل... سيظل كذلك... عليك وأنت تمرين فى ذلك المكان أن تنظرى إليه برهات لأنه سيظل مصلوبًا هكذا...

وانطلق، وما كاد يبتعد قليلاً: حتى هتفت الفتاة فى حيرة:

ـ هل يمكن لىّ إذًا أن أعرف سبب موت وصلب العصفور طالما أننا لن نأكله!!...

فرد عليها العم هاتفا بأعلى صوته وقد صار على بعد:

ـ سلى أباك إذًا: لماذا صلب بعض الأنبياء؟؟...

وسرعان ما تلاشى الركب من خلف ستار كثيف من الغبار...

* * *

نقـول:

كان بهاء قد عاد فى تلك الأثناء من المدرسة حاملاً أنباء أكثر تشاؤمًا بالنسبة لموضوع الهجرة الكبرى وانفجار الكرة الأرضية واستعداد الدول الكبرى لمواجهة تلك الخطر الذى لم تشهد البشرية والكائنات الأرضية مثيله، ورغم ذلك فإنه لم يشأ أن يحدث غادة فى مثل تلك الأمور، فبعدما استقبله الكلب صافى الشجاع، دلف هو وغادة إلى الكوخ، حيث ابتدرته:

ـ والآن... لقد عدت أيها المتسول، حسنًا... لقد كنت أنتظرك محدقة إليك من أعلى النخلة رشيدة... هل رأيت وعاء اللبجى الفخارى المعلق فوق النخلة بسادة؟؟... لقد كشفت عليه اليوم ووجدت أنه قد امتلأ حتى النصف... أنت الآن تلوذ بكوخى: لأنك لا تملك شيئًا... إنك الآن ستلوذ بطعامى، وأخيرًا سوف تلوذ بقصصى الساذجة...

حسنًا... لقد أعددت لك الطعام منذ الصباح: فولا مدمسا وكمية من بلح الطقطق وبيضتين مسلوقتين وكوبًا من لبن الماعز الطازج وجبنًا قريشًا قد تبل بالشطة الحبشية المصحونة وعليه مزيد من زيت الزيتون وثمرتان من ثمار الطماطم التى أزرعها دائمًا خلف قبر "العم عنتر الحبشى" حتى تمتص من دمائه الزنجية، وإلى جانب ذلك فإننى قد أعددت لك مزيدًا من عيدان الجرجير والمقدونس التى أرهقت نفسى فى التقاطها من على جوانب الطرق، وفوق كل ذلك فإننى أعددت لك مفاجأة.... أجل يا بهاء... إنها سمانة قد صدتها اليوم... لقد وجدتها فى خن مظلم بأحد المقابر، والذى كشف لىَّ عنها الكلب صافى... سلقتها لك... ولا ريب أننا سنتقاسمها معًا...

فقال بهاء وقد جلس فوق سريره المقابل لسريرها:

ـ أسرعى يا غادة... إننى جائع...

وانحنت غادة أسفل سريرها وجذبت مرجونًا واسعًا من الخوص المجدول المبرقش والذى صنعته على يدها من خوص رشيدة وبسادة وميادة وفريدة، ولشد ما أدهش بهاء أن وجد عددا من الأطباق الفخارية يربو على العشرة قد امتلأت بأصناف الطعام التى أشارت إليها غادة، وما أن شاهد ذلك الطعام حتى أسرع يجلس فى لهفة، وتناول رغيفًا مقددًا وراح يزدرد طعامه وقد جلست هى على رمل أرضية الكوخ قبالته، وما كاد بهاء يلتهم بضع لقم حتى همست غادة وهى تقضم ثمرة طماطم:

ـ أرأيت إلى ذلك الطعام المتنوع الذى أعددته لك اليوم؟؟... ما عليك إلا أن تأكل فحسب... يجب أن تشكر لىَّ صنعى أيها المتسول الذى سوف أسمح له بأن يكون سائقا لعربتى الإوزة البيضاء...

سمع بهاء هذا الكلام وقد انتفخت أشداق غادة بالطعام فغدا منظرها يوحى بالجشع، فأطرق لحظة وقد توقف عن المضغ تمامًا رغم فمه الممتلئ، وفجأة، أسرع يفرغ ما فى فمه باصقا له فوق الأرض، ثم أسرع خارجًا من الكوخ ولكنه ما كاد يفعل حتى لمح الركب العجيب قد اقترب من المقابر المهجورة وقد استقبله الكلب صافى بنباحه المرح، والأمر كذلك: فلقد تطاير حنقه وغضبه، فهرول فى ردائه المدرسى حافى القدمين صوب القادمين، وما أن صار أمام ركوبة عمه الذى كان يقودها آمون مترجلاً: هتف فى سعادة وهو يتقافز:

ـ مرحبا... مرحبا عمي جمال... لقد تبدلت المقابر المهجورة إلى روض بهيج بمقدمك...

وهنا لم يسع العم إلا أن يقول :

ـ هه ... أيضًا هذه "بروباجاندا" يدخل بها الصغار على الكبار...

ثم أردف قبل أن يتأمل الفتى عبارته:

ـ والآن عليك بهذا الغزال ... إنه وليمة اليوم ... إنكما لم تتناولا شيئًا من صيدى فى زيارتكما السابقة ... لا بأس... هل أعدت لىَّ شيئًا من اللبجى؟؟... إنها تحسن صنيعًا لو أنها فعلت...

أنزل الغزال الصغير الجميل إلى الأرض: وجعل الفتى يجذبه بالحبل القصير رامحًا بين المقابر وصافى من خلفه نابحًا متواثبًا...

كانت غادة فى تلك الآونة بين نارين حقًا... فلابد لها من استقبال العم وعبده كما يجب، ولكنها تخوفت أن يعمد بهاء إلى الشكوى منها ومن سلوكها معه أثناء وجبة طعام الغداء خاصة وأن العم كان قد استاء منها فى الأسبوع المتصرم لدرجة جعلته يعمد إلى صفعها صفعة ضارية....

والحال كذلك لم تجد الفتاة بدًا من الوقوف أمام باب كوخها لتستقبل الجميع دون أن تعمد إلى الابتعاد عن الباب قيد أنملة. ..وما أن لمحها بهاء تقف محملقة صعد بغزاله فوق متن أحد القبور المتهدمة، والكلب صافى يتواثب أمام القبر، وما إن فعل حتى هتف فى مرح:

ـ انظرى يا غادة... سنأكل اليوم من صيد عمى... لن أحفل بطعامك يا غادة طالما أنه طعام تتصدقين به على متسول...

ووضعت غادة إصبعها فوق فمها مشيرة له بالسكوت كرجاء منها، ثم انفلتت تستقبل العم بالترحاب ذلك الذى كان يقترب فوق صهوة بغله، وعندما دنا من الكوخ ترجل هابطاً معلقًا البصر على إناء اللبجى المعلق على جذع النخلة بسادة بحبال ليفية مجدولة، ثم قال مبتسمًا لغادة:

ـ لقد أحسنت صنعًا يا غادة... لقدامتثلت لأوامر عمك... والآن من المتوجب أن نستريح فوق سريريكما أنا وآمون... يمكنكما أن تنادياه بآمون فحسب دون إضافة صفة العبد إلى اسمه... هيا يا آمون كيما ننال قسطًا من الراحة استعدادا للطعام والعمل... أنت على سرير بهاء... وأنا على سرير غادة، وما عليك يا غادة إلا أن تعدى السفافيد التى ستجدينها فى كيس جلدى جانبى فوق الركوبة التى تركتها ترعى الآن على الأعشاب... عليك أن تعدى هذه السفافيد فوق حجرين كبيرين تستوقدين بينهما كمية من "قحوف النخيل" الجافة... فليتم ذلك خلال إغفاءتى أنا وآمون، ذلك لأن لكما منا اليوم مفاجأة أخرى...

وهنا هتفت غادة فى مرح:

ـ ولكن، يا عمى العزيز... إن الطعام معد... انظر: ها هو فوق المرجون... إنه اليوم وفير متنوع كما لم يكن فى يوم مضى... ألا تأكلان من طعام قد أعددته بيدى؟؟..

فقال العم ضاحكًا وهو يلج الكوخ متجنبًا المرجون حتى لا يطأه بصندله:

ـ ما هذا؟؟؟.. جبن قريش وطماطم وزيت وجرجير وبلح وبيض وخبز وطير مسلوق؟؟..

حسنًا... طعام شهى، ولكن لدينا اليوم طعام أشهى... إنها وليمة احتفالاً بزواجك المقبل من بهاء، واحتفاء أيضًا بتلك المفاجأة التى سوف نشرع فيها منذ اليوم..

وهنا هتفت غادة فى فرحة:

ـ لقد عرفتها... أتراها التماثيل التى قد وعدتنى بها؟؟.. .

فقال العم وقد استلقى على الفراش الذى بدا له وثيرًا أكثر مما يجب خاصة وأن غادة قد عمدت إلى حشو المراتب بمزيد من قطن العشار:

ـ أجل... يا لك من ذكية... بالفعل سوف نشرع اليوم فى صنع التماثيل من بعد الوليمة... والآن.. هيا يا آمون... إنه نوم مريح سنتبعه بشواء وخمر آت من قمة النخلة بسادة وكأنه خمر مقترض من جنات عدن قد هبطت إلينا به إحدى الحوريات وقد علمت مسبقًا أننا سوف نكون من أهل الجنة، ولعله نما إلى علمها أننا قد أدرجنا بالفعل فى كشف الأسماء.

واستلقى آمون فوق سرير بهاء، وأغلقت غادة الباب بعد أن دفعت بمرجون الغذاء أسفل السرير وأسرعت تعدو نحو بهاء الذى كان يرتع بالغزال بين المقابر المهجورة وقد تعقبه صافى، وما هى إلا لحظة حتى كانت بين يديه أمام قبر أمه، فهمست له فى توجس:

ـ أناشدك ألا تتغص على العم زيارته... لا يجب عليك أن...

ـ هونى عليك يا غادة... إننى جائع حقًا، ولكنها سوف تكون وليمة رائعة يولها لىَّ عمى.. لن آكل من طعامك يا غادة... إنه غزال رائع، وإنه لمما يزيد من روعته أنه جاء فى حينه... فى وقت الجوع.. حياك الله ياعمى العظيم.

اطمأنت غادة بفراستها إلى أن بهاء لن يعكر صفو اليوم، ومن ثم أسرعت فى فرحة الذى تبدد عنه الخوف فجأة، وأسرعت تنظر هنا وهناك ملتمسة عن قطعتين كبيرتين من الحجر دون أن تجترئ على نداء بهاء ليخف لمساعدتها، وأخيرا اهتدت إلى الحجرين الملائمين خلف مقبرة قديمة قد نبت عليها الغزير من الحشائش والهندباء البرية، فراحت تدحرجهما إلى أن صارا بالقرب من الكوخ، ومن فورها شرعت فى تثبيتهما متباعدين بمزيد من الحصباء والتربة، وحفرت بينهما حفرة مستديرة، ثم أسرعت إلى الحظيرة خلف الكوخ، وارتقتها وجعلت

تقذف من عليائها "قحوف" النخيل واحدة إثر الأخرى عامدة إلى تصويبها مباشرة إلى بؤرة الحفرة، مثبتة حذقها ومهارتها فى التوصيب مما جعل بهاء يطلق عليها البصر وهو يلهو بغزاله على متن أعلى قبر مهجور، وللغرض عينه؛ فلقد كانت تعمد إلى الرقص وهز الخاصرة والوثب عاليا فى كل مرة تسدد فيها وتفلح فى قذف قحف النخيل بحيث يستقر فى كبد الحفرة، بيد أنها كانت تعمد أيضًا إلى لطم خديها كلما انحرفت قطعة عن مكان التصويب... وامتلأت الحفرة فهبطت إلى الأرض، ومن الفور، أسرعت تجرى صوب البغل الذى وقف يرعى على نباتات السمار والحلفا والنجيل النامى هنا وهناك بين المقابر وفوق متونها، لدرجة أن الغزير منها كان يملأ فجوات كبيرة من فجواتها الوسطية الغائرة مما جعلها تبدو كمداود طبيعية، ولقد كان ذلك بمثابة استقبال طريف تستقبل به المقابر ضيفها الصعلوك...

دنت الفتاة من البغل، وأسرعت تخرج سفافيد الشواء الخمسة من الحقيبة الجلدية الجانبية ولم يفتها أن تستعرض بقية محتوياتها من أزاميل ومطارق حديدية ومنظار مقرب بداخل قراب جلدى... وعادت مهرولة إلى موقدها وطفقت تحز لها مجارى سطحية متوازية على الحجرين المتقابلين، ومن فور ذلك رصت السفافيد على تلك المجارى المبتكرة بحيث بدت المسافة بين كل سفودين "متر" واحد قاسته بمزيد من الدقة...

وما أن تم لغادة عمل تلك المتوجبات: حتى أسرعت إلى "بوكلتها" الفارغة المجاورة لباب الكوخ، وحملتها فوق رأسها والتقطت حزام صعود النخيل الملقى بجوارها، واتجهت إلى حيث يقف البغل أمام مدوده الطريف، ووضعت البوكلة على الأرض، والتقطت المنظار من الحقيبة وأخرجته من قرابه، ثم أسرعت ترتقى النخلة بسادة المجاورة بمساعدة حزامها، وعندما صارت على ارتفاع كبير قربت المنظار من عينيها، ووجهته إلى عين جوية، ومن ثم راحت تتمتم مندهشة لذلك المنظار العجيب:

ـ يا لها من فكرة... يا لى من ذكية إذًا ... وددت أن أتبين إن كانت هناك نسوة عند العين من عدم وجودهن ... يا لها من عين حمئة حقًا.. إنها صافية... إننى أشاهدها كما لو كنت عند ضفتها... حسنًا... لا نساء هناك... سأذهب وأملأ البوكلة، لو كانت هناك سيدات أو فتيات لما ذهبت... سأذهب على صهوة بغل عمى الرائع... إننى جد مبتئسة لأنه سيكون من نصيب بهاء عندما يموت العم... ليته كان يكون ملكى هو الآخرى شأن الإوزة البيضاء...

وقبل أن تهبط لم يفتها أن تلتفت إلى الخلف مطقسة عن بهاء وغزاله وكلبه الشجاع صافى، وإذ عثرت عليه سددت إليه المنظار، وراحت ترقبه من عل، مركزة عدساتها على وجهه متمتمة:

ـ يا لك من فتى ... أتكون فرحتك بالغزال إلى تلك الدرجة!!... لابد أنك تحب الشواء كعمك.. لا بأس فإن كل ما يهمنى أن تكون قويًا... يهمنى ذلك بوصفك بعلى المرتقب... أواه... ليتك تصير على شاكلة عمك من قوة وامتشاقة جسد... والآن... وطالما أننى أرى وجهك وكأنه ملاصق لوجهى فلا يسعنى إلا أن أطبع على خدك قبلات وقبلات ماجنة... هاأنذا أقبلك أول قبلة... أوه .. ما كدت أقبلك حتى انحرفت بوجهك فجاة مضاحكا صافى المتواثب أمامك.. لا بأس... سوف أنتظر حتى تتوقف عن تحريك وجهك يمنة ويسرة.. مرحى، مرحى... ها هى فرصة سانحة... لقد جلس الفتى فوق القبر مدليا ساقيه كما لو كانت المقبرة مصطبة.. يا لها من فرصة مواتية إذًا... هاأنذا أطبع على خدك قبلة... يا لها من قبلة رائعة... لقد استجاب الفتى أخيرًا لقبلاتى فلم يحرك وجهه.. إذًا والحال كذلك: فلابد من قبلة أخرى... ياالله... إنها أعذب من سابقتها... ومع ذلك فإن الفتى لم يحرك وجهه... أوه... لعله قد استمرأ قبلاتى الحارة... ولكن يا لىَّ من ماجنة.. كيف أفعل ذلك وأنا الأنثى!!.. فى تلك الحالة كان لابد وأن يكون البادئ... يا لى من فتاة مسرفة السذاجة.. يا لى من فتاة طائشة ـ غير جائزية ـ حمقاء ماجنة لا تستحق إلا الصلب عاليًا على نخلتى رشيدة الرشيدة... لا بأس... علىّ أن أهبط الآن من فوق المريخ أو الزهرة بوصفهما كوكبين يخيل لبهاء الساذج أنه بإمكانه حيازة أملاك فوقها...

وحجلاً، جعلت غادة تهبط من عليائها، وتصادف أن كان البغل القريب يحك ظهره بجذع النخلة بسادة فى تلك الأثناء وكأنما يعمد إلى إزالة أحد نعوته وصفاته المخلوعة عليه من قبل العم، وانتهزت غادة هذه الفرصة وسرعان ما وثبت فوق ظهره تاركةً حزامها الليفى يسقط على الأرض من حول جذع النخلة، فشاهدها بهاء الذى كان يلهو على مبعدة، فغفر فاه لتلك العفريتة التى زادت عن حدودها فى الشيطنة...

ولكى تفاخر الفتاة فتاها، هتفت من فوق مطيتها بعد أن دست المنظار فى الحقيبة:

ـ أقبل يا بهاء... إننى بسبيلى إلى عين جوية... أقبل وناولنى البوكلة حتى أملأها لكم استعدادًا للوليمة...

وتريث الفتى قليلاً متفكرًا فى ألا يساعد هذه الشقية التى تعتبره متسولاً، ولكنه ما أن تذكر أن الماء لازم للوليمة وأن العم سوف يفتقده: فإنه رمح نحوها بغزاله فى صحبة كلبه السعيد، وناولها بوكلتها فأمسكت بها من أذنيها، ورفعتها إلى رأسها، وهى تمسكها بيد، بينما قبضت باليد الأخرى على سرج مطيتها الرائعة... وتحرك البغل على مهل مخترقًا المقابر، وما

أن صار على مبعدة حتى لمحت الفتاة قادمًا من بعيد؛ فهتفت بالبغل أن يتوقف، وراحت تتابع القادم بنظراتها...

كانت القادمة هى حنين الصغيرة، تلك التى كانت تمسك بين قبضتيها حزمة من عيدان الجرجير وعندما دنت من غادة، هتفت فى حبور:

- مرحى... لقد أتيت اليوم إلى المقابر المهجورة... لقد خيل إلىَّ أنك تضللينى عن بيتكم، ولكن هاأنذا قد تبينت صدقك... لا تخافى ولا تجزعى أيتها الفتاة الجميلة.. فحسب فحسب، لقد جئت كى إلتقط شيئًا من عيدان الجرجير التى أحبها ويحبها أبى وسيم.... يمكننى أيضًا أن أعثر على عيدان الجعضيض الذى ينمو محتكًا بجدران المقابر الرطبة...

حدجت غادة الصغيرة بنظراتها هنيهة، ولكنها لم تلبث أن قالت:

- إن شعرك غير مصفف... لدى مشط فرعونى أثرى كان قد أهداه لى عمى جمال بعد أن عثر عليه فى إحدى مغارات جبل الموتى...

وتوقفت غادة بجوار أحد المقابر، واعتلت حنين القبر، وسرعان ما قفزت فوق البغل بعد أن اعتراها شىء من التردد والإحجام، وهنا همست غادة وهى تنطلق بالمطية:

- طوقى خصرى بذراعيك... إن خصرى نحيل للغاية... أليس كذلك؟؟...

وفعلت حنين ثم همست مبتسمة:

- بلى ... إنه نحيل للغاية...

- وصدرى مرتفع للغاية... أليس كذلك؟؟...

- بلى .... بلى...

- ولكونك الآن تركبين من خلفى: فإنه من الممكن أن تصفى شعرى بأنه ذهبى بديع ينهدل فوق جيدى فى خصلات حريرية... أليس كذلك؟؟...

- هو ذاك بالقطع.. يا له من شعر ناعم...

- حقيقة إنى رثة الهندام، ولكن هذا لا يمنع أنى أملك جسدًا فاتنًا... أليس كذلك؟؟..

- هى الحقيقة بعينها... ما اسمك أيتها الغادة؟؟.. إن أبى وسيم يسمى كل جميلة غادة...

- أواه ... أواه ... لقد نطقت باسمى دون أن تشعرى... إن اسمى غادة...

- مرحى يا غادة... إننى سعيدة بك... بغلكم رائع...

- أجل ... إن رئيس الحكومة نفسه لا يمتلك مثله...

وهنا أحجمت الصغيرة عن التعليق متفكرة فى سذاجة فيما إذا كان رئيس الحكومة حقًا لا يمكن له أن يملك مثله أو أنه بمستطاعه، بيد أن غادة لم تمهلها فلقد أسرعت تهمس:

ـ اسمعى، عليك أن تمدى يدك باحتراس إلى حقيبة العم الجلدية، إنها فى متناول يدك من خلفى، عليك أن تخرجى المنظار، حتى يمكن لنا أن نحدق إلى عين جوية ونحن نقترب منها... إنها متعة لا تطاولها متعة...

وانحنت حنين على الحقيبة، ومدت يدها بداخلها، وأخرجت المنظار بقرابه، وهنا هتفت غادة:

ـ والآن أخرجى المنظار من القراب فى حرص... إن عدساته من الزجاج النادر ... ونفذت الصغيرة حنين الأمر، فعادت غادة تأمر:

ـ والآن عليك أن تقربى المنظار من عين غادة تلك التى جعلت تتأمل العين وهى تقترب رويدا رويدا مرددة:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ صدق الله العظيم (الكهف : ٨٣-٨٦)

لقد حفظتها عن عمى جمال... إنه يحب هذه الآية وكل قصص القرآن الكريم...

وبعدما شبعت تحديقا بطريقة آسرة همست للصغيرة:

ـ والآن لقد حل عليك الدور.. عليك أن تحدقى من خلال المنظار، سترين عجبا... هيا حدقى من خلفى...

وقربت المنظار من عينيها وجعلت تحدق متأملة العين الحمئة التى صارت قريبة كبيرة خلابة متلألئة، ولم يسعها إلا أن تهمس:

ـ يا له من منظار مقرب مكبر رائع... يا له من منظار...

ـ حقًا... ألم أقل لك؟؟... إن رئيس الحكومة نفسه لا يملك مثله...

وعادت الصغيرة المسكينة ابنة مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون... عادت تجهد ذهنها الصغير متفكرة فيما إذا كان رئيس الحكومة يملك مثله أو لا يملك، بيد أنه لم يواتها الوقت الكافى لذلك، فلقد كانت المطية المطيعة قد وصلت بهما إلى عين جوية، فهبطت غادة

فقزًا بعد أن ألقت بالبوكلة من فوق رأسها على الرمال، ثم أسرعت إلى حنين البضة لتهبط بها عن ظهر بغلها الذى اتخذ طريقه من فوره إلى حافة العين، وراحت تغسل قدميها عامدة إلى حكهما بقطعة من الحجر الخفاف الإسفنجى المتناثر هنا وهناك حتى يبدو كعباها نظيفين جميلين غير متشققين، وهتفت بحنين الواقفة على مبعدة فدنت منها، وبمزيد من المرح، عكفت غادة على غسل وجه حنين وشعرها، ثم أجلستها فوق الرمال على بعد من العين، ثم قعدت قبالتها وأخرجت مشطها الأثرى الفرعونى من بين نهديها، وجعلت تمشط للصغيرة شعرها الأسود الفاحم الحريرى الخصلات...

جربت غادة العديد من التسريحات ولكنها فى النهاية عمدت إلى فرق الشعر من المنتصف، وطوحت به إلى الخلف، وهرولت بعيدًا وجمعت صحبة من الأزهار الذهبية النامية بريا، ومزقت من ذيل ثوبها الأزرق البالى شريطًا قصيرًا وأقبلت به نحو الصغيرة التى كانت لاتزال تجلس فوق الرمال متربعة ساقيها كما لو كانت تجلس فى عقر دارها جاذبة أردان ثوبها أسفل أصابع قدميها، وجلست قبالتها وجذبت جدائل الشعر من مؤخرة اليافوخ بطريقة مؤلمة، ثم راحت تلف الشريط وتحبكه من حوله فبدا الشعر من الخلف كما لو كان ذيل الحصان غزير الخصلات وقد رصع بباقة من زهر الأقحوان الذهبى...

انتهت غادة من عملها، وهتفت وهى تنهض فى سعادة :

ـ والآن... إنك رائعة الجمال حقًا... عيناك خضراوان، ويجب أن تعطى أباك وسيمًا حقها... شعرك فاحم السواد حريرى الخصلات، أحجى بك أن تعطى لأبيكِ مقابله... وجهك مستدير أبيض من المتوجب أن تعطى لأبيك حقه... أصابعك بضة وأسنانك صغيرة بيضاء، والحق أحق بأن يحق بحق مستحق محق فتعطى لأبيك مورث الصفات مقابلها... والآن هيا كيما تزدهى بجمالك الرائع على صفحة ماء العين...

وأمسكت غادة الصغيرة المندهشة من يدها، وجعلت تحجل بها إلى أن دنت من صفحة ماء العين الحمئة العذبة الدافئة وهمست:

ـ والآن ... انظرى... أليس رائعًا جمالك بعد أن صففت لك شعرك الفاحم السواد؟؟..

- بلى ... إن شعرى غدا رائعًا حقًا يا غادة... إن ابنة رئيس الحكومة نفسها لا تملك مثله..

وما إن سمعت غادة تلك الإجابة المروعة حتى طوقت خصرها بكفيها وتراقصت واهتزت ذات اليمين وذات اليسار فى ميوعة مبتذلة، وقالت وقد تساقط من عينيها الغيظ:

ـ هه ... أتقلدينني فى كلامى إذًا!!... إياك أن أسمعها منك مرة أخرى... أنا التى تقول

ذلك فحسب... أتفهمين؟؟... إن هذا الكلام ملكى فحسب... فحسب...

وأجفلت الصغيرة واجمة، ولكن غادة أوسعت لها فى الابتسام وانسحبت بها إلى بقعة قريبة وجلست إليها لتقول:

ـ إنك جميلة هكذا يا حنين ... إذًا فعليك ألا تكبرى ....

ـ ألا أكبر !!...

ـ أوه ... أجل ... فإذا ما كبرت: فإنه سوف ينبت لك مثل هذين النهدين...

وأبرزت غادة أحد نهديها هامسة:

ـ انظرى ... سيصير لك مثل هذا ... إنه قلة أدب أن يصير لك مثل ذلك... إننى لست جانزية، ولذلك فمن المتوجب أن أتزوج، وكذلك حال بهاء... مسكين... إنه ليس جانزيًا. واحسرتاه... أنا التى تركت نفسى أكبر... إن الفتاة إذا ما كبرت: يتوجب على أهلها أن يزوجوها من عريس، وأنت فقيرة وأبوك لا يملك أى نقود يزوجك بها... أجل... ألم تتذكما بزوج الحسون؟... واحسرتاه... أنا التى تركت نفسها تكبر... أنا التى تركت نفسى أكبر... ليتنى لم أفعل... أنا الجانية...

حملقت الصغيرة الجالسة كجلسة الكاتب الفرعونى المتربع، ثم فكرت قليلا وعندما أعياها التفكير قالت بعد هنيهة:

ـ ولكن... هل كان بوسعك ألا تكبرى يا غادة؟؟...

فأجابت غادة فى خبث:

ـ أواه ... أجل... أتودين ألا تكبرى حتى لا تكبدى أباك المسكين المعدم نفقات زواجك من عريس سيقلق راحتك ويضربك؟!..

ـ رباه ... أجل... ليتنى أستطيع ذلك يا أختاه شفقة على والدى المعدم الذى أنقذتيه بثمن زوج الحسون الذى سوف أرده إليك بعد تخرج أختى نوال...

ـ إذًا .... فإننى أسر لك سرا على شريطة ألا تفشيه لأحد حتى ولو كان أبوكى... أتعاهدينى؟؟؟

ـ أجل يا أختاه ... إننى رهن إشارتك طالما أنه بوسعك ألا أكبر...

ـ حسنا ... فعندما نعود إلى المقابر: سوف أذهب بك إلى حيث قبر عم عنتر الحبشى الزنجى... إنه رجل مبارك من الأولياء... سأقف بك أمام قبره، وسأطلب منه أن يجعلك لا تكبرين، ثم بعد ذلك سوف أضع أذنى فوق جدار القبر كى أستمع إلى كلامه، وإذا

أجاب من الداخل بأنه سوف يفعل فسأخبرك... إننى وحدى التى يمكن لها أن تكلمه أو تسمعه لأنه صديقى، وصديقى لأنى أسقيه الماء كل خميس، وأقدم الشعير للطير الذى يقف فوق قبره... إننى راعية شئونه الخاصة...

ـ رائع.. رائع يا غادة ... إنك مدهشة يا أختاه ...

ملأت غادة الجرة وغسلت حزمة الجرجير، ومن الفور: جعلت الصغيرة حنين تنحنى على ركبتيها بجوار البغل، ووضعت الجرة فوق متنه، ثم عاونت الصغيرة على الركوب من خلفها...

طوى البغل المسافة، وأخيرًا حط عصا الترحال بين المقابر المهجورة، وهناك وجدا العم جمال وآمون قد استيقظا وقعدا أمام الموقد الذى أشعله بهاء الجالس قبالته فوق حجر كبير، وبينما كانت غادة تجيل البصر إذا بها تشاهد الغزال مذبوحًا ومعلقا بخطاف أمام الكوخ على طريقة الجزارين: مسلوخًا نظيفًا شهيًا مرمريًا...

ابتدر العم غادة وهو يهم بقطع قطعة من لحم الفخذ بعد أن تطلع إلى الصغيرة حنين:

ـ ها لقد عدتما ... حسنًا فعلت يا غادة... والآن: مرحبًا بالصغيرة الجميلة ابنة مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون... عليك يا غادة ريثما نعد اللحم للشواء أن تصعدى نخلتك بسادة لتعودى لنا بوعاء اللبجى... هيا يا غادة...

وصدعت الفتاة للأمر، واستجلبت طبق جمع البلح الخوصى المسطح الذى سيوضع بين ذراعى الحزام ليهبط بوعاء اللبجى، وأسرعت تجرى نحو نخلتها بسادة والفتاة الصغيرة من خلفها، وبعدما دنت منها جعلت تتطلع إلى قبر العم عنتر الحبشى الزنجى المجاور، ومن ثم همست للصغيرة:

ـ والآن... ها هو قبر عم عنتر... إنها فرصة لا تعوض... ففى مضمومة الساقين والذراعين والأصابع... عليك ألا ترمشى أو تهشى أو تمشى أو تتثاءبى أو تنطقى.. حسنًا ... حدقى إلى لوحة القبر الرخامية... حسنا...

وجثت غادة أمام القبر ووضعت كفًا فوق كف فى وضع عمودى فى شبه تضرع، ثم جعلت تهمس فى صوت غريب:

ـ عنتر يا عنتر يا متعنتر بالعنتر.. أيها العم الحبش الزنجى غادة تحدثك من خلال عالمك... غادة تضرع إليك يا عم عنتر أن توقف نمو الصغيرة حنين الواقفة أمامك الآن دون أن تتنفس أو تنطق... غادة تضرع إليك كيما تمنع حنين ابنة وسيم مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون... تمنعها من أن تصير فتاة يافعة، فقلة أدب أن ينمو لها

نهدان، وكذلك فإن أباها فقير معدم لا يملك قوت يومه ولا قبل له بتزويجها من عريس يقلق راحتها...

وصمتت غادة قليلاً، وتطلعت إلى حنين، وعندما شاهدتها لا تتحرك أو تتثاءب، ألصقت أذنها بجدار القبر متظاهرة بأنها تصيخ السمع، ومضت هنيهة عادت تهمس بعدها:

ـ أبشرى يا حنين، يمكنك أن تتحركى الآن كما يحلو لك... لقد همس لىَّ العم عنتر قائلاً: إنه قد أجاب طلبك، وسيوقف نموك فى الحال عند هذا الحد...

فهمست حنين مقبلة غادة فى وجنتها:

– شكرًا لك يا أختاه ... لقد كدت أتحرك كيما أطرد ذبابة لئيمة جاءت وحطت فوق أنفى عامدة إلى مشاكستى ومضايقتى محرضة لىَّ كيما أتحرك فأفسد الموقف تمامًا فلا يستجيب لى العم عنتر المتمنتر بالعنتر... شكرًا لك يا أختاه أن أوقفت نموى حتى لا يتكبد أبى وسيم نفقات زواجى بعدما أكبر ويصير لى نهدان ضخمان... إنها قلة أدب أن يحدث ذلك حقًا...

وأردفت بعد إطراقة وبعد أن نهضت غادة من أمام القبر:

ـ شكرًا للعم عنتر. أن رئيس الحكومة نفسه لا يملك عنترًا مثله.

كشرت غادة عن أنيابها وقالت وهى تهم بصعود النخلة بسادة بعد التقاط الطبق الخوص والحزام الليفى الملقى فوق الأرض:

ـ أواه ... ألا تبًا لك يا حنين ... قلت لك ألا تقليدنى .... أنا التى تقولها فحسب... سوف أصفعك كما صفعنى عمى العظيم بصفعته العظيمة يوم طالبته بمهر العريس الذى لابد وأنه سوف يكون ... سوف يكون ... ولو أنه لم يكن ... هه ... فسوف أعلمه أن يكون...

تركت غادة الفتاة وطفقت ترتقى نخلتها بسادة، وما أن دنت من وعاء اللبجى الممتلئ حتى رفعت عنه الغاية المثقوبة المتصلة بقمة النخلة، ووضعت وعاء اللبجى فوق الطبق الخوصى المسطح، ثم عادت تهبط النخلة، وما أن حطت على الأرضْ حتى حملت الوعاء، فدنت منها حنين وهى تشب على الوعاء لتنظر ما فيه، وحين ذلك لم يسعها إلا أن تهمس فى غبطة:

ـ يا الله ... لبجى رائع حقًا ... إن رائحته فائحة ...

وهنا هتفت غادة فى مرح وهى تسرع ناحية الجماعة المتجمعة حول النار وقد فاحت رائحة الشواء:

ـ أى نعم... أى نعم... إن رئيس الحكومة نفسه ليس لديه لبجى مثله ...

ولم يسع حنين بالطبع إلا أن تؤمن:

ـ بالطبع يا غادة ... بالطبع ... إن رئيس الحكومة نفسه لا يملك مثله ... لا ولا يملك عنترًا أيضًا يمكن أن يوقف نمو البنات...

وأقبلت الفتاتان نحو الجماعة المحتفية، فإذا بالعم يقلب سفافيد الشواء وقد التمعت عيناه على وهج النار، وما أن شاهد غادة تقبل بوعاء اللبجى حتى هتف وهو يقف ممسكًا بقطعة لحم سفدها فى السفود:

ـ أقبلى أيتها الخمر المنعشة ...

وأسرعت إليه غادة وسلمته الوعاء باسمةً ضاحكة وقد هزها سرور العم جمال، ووضع العم الوعاء على الأرض بجوار النار هاتفًا:

ـ إلىَّ يا غادة ... إلىَّ بكأس... بأى كأس ...

وأقبلت غادة من الداخل بالكأس جالبة معه مرجونها المسطح وعليه ألوان الطعام، وناولت الكأس للعم، ذلك الذى تناوله مغتبطًا، وجلس على الرمال أمام الموقد داعيًا الجميع، وما هى إلا هنيهة حتى كانوا يجلسون فى شبه دائرة وقد أسالت لعابهم رائحة الشواء الدسم. ...

جلست غادة إلى جوار حنين متربعتين معجبتين بالعم الكريم الذى راح يجرع كئوس اللبجى كأسًا إثر كأس، وهو يتناول قطع اللحم المشوى اللذيذ، ولم يفته خلال ذلك أن يجود بقطع منها لحنين التى كانت تهتف بين لحظة وأخرى وقد امتلأ فوها باللحم بطريقة لم يكن لها بها عهد من قبل:

ـ شكرًا لك يا سيدى ... سوف تتخرج أختى نوال فى كلية الحقوق ....، ولسوف تهبنا نقودًا، ويمكنك أن تعرف بالطبع بكم أكلت لحمًا دسمًا، ويمكنك أن تضيف المبلغ إلى الثلاثة جنيهات الدين علينا ...

وهنا هتفت غادة وهى تقضم قطعة من اللحم:

ـ لابد أنك أكلت بمبلغ نصف جنيه ...

ـ إذًا فلقد صارت ديوننا ثلاثة جنيهات ونصف ... أعطنى يا سيدى قطعة أخرى...

وهنا هتفت غادة وهى تناولها قطعة أعطاها لها عمها من أجل حنين:

ـ حسنًا ... إليك هذه القطعة، وبذلك تصير ديونك أربعة جنيهات إلا ربعا ..

فهمست حنين وهى تدفع بقطعة كبيرة بين شدقيها المكتظين:

ـ لا بأس ... حقيقة إن ديونى سوف تزيد ... ولكن أختى نوال فى الطريق ... إنها بكلية

الحقوق ...

فهتف العم مقهقهًا وقد بدأت الخمر تلعب برأسه:

ـ حسنًا يا حنين ... إليك تلك القطعة الكبيرة ... إنها لأبيك ... أتسمعين؟؟..

وهنا نهضت غادة إلى الكوخ واستجلبت قطعة من الورق، وغلفت قطعة اللحم ثم عادت فجلست إلى جوار الصغيرة وناولتها اللفافة قائلة:

ـ وهاك هذه القطعة أيضًا ... إنها لأبيك ... وبذلك يصير المبلغ أربع جنيهات وربعًا... لقد ازدادت ديونك... لسوف تغضب أختك نوال جراء تلك الديون الكثيرة...

وفجأة: قام العم من جلسته وبين يديه الكأس ممتلئة بالخمر، وراح يجرعها فى بطء وهو يترنح مقهقهًا، ثم راح يبتعد عن حلقة الآكلين، ليسير متخبطًا بين المقابر المهجورة والعيون تنظر إليه فى هلع واندهاش وقد تبينوا أن الخمر قد لعبت برأسه بطريقة لم تكن متوقعة...

تاه العم فى الأخابيل وهو يمسك بكأسه فى يد وقطعة كبيرة من اللحم فى اليد الأخرى، وراح يهتف مترنحًا متارجحًا مهتزًا:

ـ يا لها من وليمة حقًا... هه... لقد جدنا اليوم على الأبناء ... لست عبدًا يا آمون... بل أنا العبد... أتسمع يا آمون؟؟.. إننى أنا العبد ولست أنت... إننى عبد لنزواتى... ليست لديك نزوات يا آمون... هه... إننى عبد نزواتى... رغباتى... شهواتى... رغبات جامحة عجيبة يا آمون... عجيبة ولا قبل لك بها يا آمون... إننى سعيد بصداقتك يا آمون... خير لك أن تموت يا آمون وأن تتبدد من ذلك الخضم الأرضى الرهيب، ما الذى زج بك فى ذلك الوجود يا آمون؟؟.. إذ، جانز.. خسئ جانز يا آمون... تصور أيها الصديق آمون لقد كنت موظفًا حكوميًا فى بلد غريب أمضيت بها ثمانى سنوات... تصور أن أحدًا من الأصدقاء لم يراسلنى فى الأعياد أو المناسبات... تصور يا آمون.:. حتى الذين كنت أراسلهم لم يكونوا ليحركوا ساكنا... تصور يا آمون... ولكن... تخيل يا آمون... لقد وصلتنى فى عام تال خمسون رسالة من الإسكندرية والقاهرة... هل تتصور ذلك يا آمون؟؟.. ولكن كيف تصلنى كل تلك الرسائل التى أدهشت جميع العاملين معى بما تحتويه من مناظر رائعة للأزاهير والطيور... كيف كيف يا آمون أن يحدث ويراسلنى خمسون مراسلاً؟؟... إننى أشكرهم وأحييهم وأبجلهم وأعظمهم وأجلهم جميعًا يا آمون... أتعلم لماذا؟؟.. ذلك لأنهم أقاموا برأسى ورفعوها بين الزملاء..

وهنا هتف آمون كيما يخفف من أحزان صديقه بعد أن قام من مقامه متجهًا إليه وقد جلس الآخرون مبهورين:

ـ حقا ... إنهم خمسون مراسلاً من النبلاء بلا شك..

وهنا قهقه العم جمال هاتفًا وهو يخفق الأرض بشدة:

ـ كلا .. كلا إننى أنا النبيل فحسب يا آمون ... إننى أنبل من الخمسين مراسلاً يا آمون ... ويجب أن تسألنى لماذا يا صديقى؟؟..

ـ لماذا؟؟ لماذا يا صديقى؟؟..

فخفق العم الأرض تحت نعليه بعد أن حدق إلى وجهه ولحيته فى مرآة قبر أم غادة:

ـ ذلك... ذلك لأننى الذى أرسلت كل هذه الخطابات إلى نفسى يا آمون... أنا الذى أرسلتها إلى نفسى وبأسماء أناس مختلفين بل وبصيغ وعبارات مختلفة.... ولتضف إلى علمك يا آمون أننى قد اخترت أسماء... هه ... أسماء أعدائى الألداء يا آمون... أعدائى يا آمون...

ثم قهقه العم عاليًا وهتف وقد انتفشت لحيته:

ـ والآن... أجبنى أيها الصديق... أجبنى... من منا النبيل أنا أم الخمسين مراسلاً؟؟.. خبرنى يا آمون؟؟..

ـ بالطبع أنت يا صديقى...

فعاد العم يهتف وهو يتمرغ فوق الرمال أمام قبر أم بهاء المُنتحل:

ـ أنا ... أنا أنبل ممن يا آمون؟؟..

ـ أنت انبل من الخمسين مراسلاً يا صديقى...

وهنا همست حنين لغادة التى تجلس إلى جوارها أمام نار الشواء وقد جلس بهاء قبالتهما:

ـ العم جمال قد أرسل إلى نفسه خمسين رسالة حتى يرفع برأسه بين الزملاء؟؟... يالله... حقًا حقًا... إن رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه أن يفعل مثل ذلك...

وهنا همست لها غادة وهى تتميز غيظًا متابعة تصرفات العم على ميعدة دون أن تشيح بوجهها ناحية الصغيرة حنين:

ـ قلت لك ألف مرة ألا تقلدينى... أنا وحدى التى أقولها... إنك مدينة لنا بأربعة جنيهات وربع جنيه...

وتراجع العم نحو النخلة بسادة ليحتضن جذعهما المياس هامسًا وهو يكاد يتهالك إلى الأرض حيث لم يكن من المتسنى أن يسمعه غير آمون وحده:

ـ لقد كانت غزالة رائعة حقًا يا صديقى آمون... لقد كانت ذات جمال وفتنة لا يمكن

مقاومتها... حميقة إنها ... ها ها... حقيقة إنها آكلة ناسها، ولكن يا له من جمال صارخ... أتعلم لماذا حضرت إلى واحة سيوة يا آمون؟؟... ذلك لأن أمى مدفونة هاهنا... لقد دفناها ها هنا بعد وفاة أبى بالإسكندرية... إن معظم أهلها مدفونون هنا يا آمون... تصورا!.. تصور أنه لم يبق على قيد الحياة غيرى وحدى، ومن أجل ذلك جئت هنا... لائذًا فارًا إليها... إليها يا آمون... إننى أزور هذا القبر بين حين وحين، ومن بعدى فلقد ضمنت أن بهاء سوف يتولى بنفسه تلك الزيارة على أنها أمه... إن أمى "روح" كانت زهرة عطرة حقًا فى صباها... علمتنى كل شىء... علمتنى الاعتماد على النفس... علمتنى الكفاح... الكفاح يا آمون... علمتنى كيف أتجلد وأصبر... علمتنى كيف أغنى، كيف أذاكر، كيف أرسم، كيف أكتب، كيف أقاتل، كيف أرقص، كيف أمرح، كيف أفرح، كيف أفخر بنفسى، كيف أحب أجود الأطعمة، كيف أهوى الجمال، كيف أعشق اللغة الدارجة وأقربها إلى نفسى، علمتنى كيف أحب القصص وكيف أتريض، علمتنى كيف أترحم على الموتى... ومع ذلك: فلم تكن تحمل غير الشهادة التحضيرية...

وأمسك عن الكلام بعد أن تجشأ بشدة ثم قال هامسًا وهو يُقبل واجهة أحد القبور:

ـ إننى ع م بهاء وغادة يا آمون... ألست كذلك؟؟..

ـ ما فى ذلك من شك يا صديقى...

فقال العم مترنحًا:

ـ وأحسب أننى عاق بما فيه الكفاية... ولكن لا بأس... ربما ستنفجر الكرة الأرضية بسبب بركان داخلى يا آمون... ربما ذلك.. هل سيكتب لك أن تشاهد ذلك المشهد معنا يا آمون؟؟... هل سيمكنك أن تشاهد نفسك وقد امتطيت صهوة جمرة ملتهبة آتية من الأعماق لتصهرك متبددًا فى الفضاء؟؟... ها ها... إن ممتلكات غادة سوف تتلاشى... يا للخسارة إذًا... ها ها... يا للخسارة... إننا نعيش فوق ظهر جنى قد خلق من مارج من نار يا آمون... ولكن ترى لماذا هذه الغضبة المفاجئة يا آمون؟؟.. هل هى رغبة أكيدة من الله كيما يدمر كل شىء قد صنعه فوق الأرض؟؟.. هل تراه يود تقويضها وتفتيتها ليعيد صياغتها من جديد فى قالب أفضل؟؟.. ربما يا آمون... ولكن هل سيفلح البشر حقًا فى الإفلات بجلودهم من قبل وقوع الكارثة؟؟.. هل يمكن ذلك وكما تخيل العقل الجبار المسمى بالإمبراطور الذى تدعى أمريكا أنها كانت تمتلكه.

وهنا همس بهاء وهو فى مكانه أمام النار مغضبًا مستاء مما صار إليه حال العم جمال من سكر رغم أنه لم يكن يسمع شيئًا:

ـ أنتِ السبب يا غادة... "دائمًا" تتنزين إلى الشر... إنك شريرة... لولا خمرك لما غاب وعى العم على ذلك النحو المؤسف...

فهمست غادة وقد احمر خداها من الوهج ومن الاستياء الذى بدأ يتبدى فوق قسماتها:

ـ لقد أمرنى بذلك... ما حيلتى إذًا؟؟... إنها رغبة العم، ورغبته من المحتم أن تجاب...

ثم أردفت فى ميوعة:

ـ ومع ذلك فإن سكره من شأنه أن يبعث فى نفسه البهجة، وإلا لما كان قد رغب هو فى ذلك.. والحق أقول إننى تواقة إلى الاحتساء منه، ولكننى لم أفعل...

واغمضت عينيها فى لوم ثم عادت تقول ممسكة بإحدى جدائل شعرها:

ـ كثيرا ما يحلو لىَّ أن أجرب كل شىء ولو مرة واحدة... الخمر أو السجائر التى أرى البعض يدخنونها وأنا مارة فى الطريق....

وأردفت:

ـ وعندما تتزوج يا بهاء سوف يمكننى أن أعد لك شيئًا غير قليل من اللبجى... إن ذلك بمقدورى طالما أن لدىَّ نخلاتى...

وهنا همست حنين وهى تريح ذراعها البضة على حجر غادة:

ـ حقًا يا بهاء.. يمكنك أن تتزوج من غادة لأنها صرحت لنفسها بأن تكبر فهى تملك نفقات الزواج، أما أنا فسوف لا أكبر حتى لا يتكبد أبى وسيم نفقات زواجى.. إنه لا يكاد يملك قوت يومه...

وترنح العم وسقط فوق الأرض وسرعان ما مضمضت عيناه وغاب فى سبات عميق، وقد أقبل الكلب صافى نحوه وهنا همس بهاء وقد دمعت عيناه دون أن يحدث نفسه بالنهوض من مقامه:

ـ ألا تبًا لك يا غادة... أنت السبب فى ذلك البلاء... أهجت على العم ذكرياته الأليمة لتتخسه... لقدعكرت عليه صفو رحلته إلينا ووليمته التى أولها لنا...

وقربت غادة خصلات شعرها الذهبية من شعر حنين الفاحم السواد، وقالت فى عدم اكتراث بما يعترض به بهاء :

ـ إن عمنا رجل عظيم.... إن جسده جميل رائع خلاب ق ى... يحق لعمى أن يضع جسده عاريًا فى متحف للجمال بالرغم من وجود ثمة ما يخجل... والآن... هل يمكنك أن تقارن بين شعرى وشعر حنين؟؟..

وهنا لاحت للفتى فرصة سانحة كثغرة فتحتها على نفسها ومن الفور أجاب مخفيًا ضحكة ماكرة:

ـ بالقطع الشعر الأسود أكثر جمالاً.. إنه ليل جويل كحيل ...

وهنا شعرت حنين رغم صغرها بحرج الموقف فأسرعت تهمس مجاملة لدائنتها:

ـ كلا يا بهاء... إن شعرها ذهبى جميل وددت لو كان لىَّ مثله يلتمع فى ضياء الشمس... ولكن لا بأس، فإننى لن أكبر أبدًا... إن ابنة رئيس الحكومة نفسها لا تملك مثله...

وهنا ولأول مرة أعلنت غادة عن تصريحها باستخدام تلك العبارة الخاصة وذلك بقولها:

ـ حقًا ... أصبت يا حنين.. والآن.. هيا يا حنين لتشاهدى وجهك وشعرك الجميل بعد أن صففته لكى.. هيا لتشاهدى نفسك فى عين أمى...

ونهضت الفتاتان وأسرعتا إلى حيث قبر الأم وراحت غادة تحدق إلى شعرها الذهبى، ثم تركت المرآة لحنين كيما تنظر وتحدق إلى وجهها الصبوح وعينيها الخضراوين اللتين ورثتهما عن مورث الصفات المغبون..

قر الوقت وتحرك العم، وراح يحدق فيما حوله، ولقد بهره أن يشاهد كلاً من آمون والكلب صافى جالسين عند قدميه، فقعد متربعًا وأوسع لهما فى الابتسام، ثم رمى ببصره إلى حيث يجلس بهاء منفردًا أمام باب الكوخ وإلى غادة وحنين الجالستين أمام قبر الأم ذى المرآة وإلى بغله الذى يرعى الأعشاب طليقا، وفى النهاية قام فى نشاط ظاهر هاتفًا بآمون:

ـ والآن ... لقد حان وقت العمل يا آمون.. إنه عمل له صبغة تاريخية فنية، ومن يعلم.. هيا...

ثم هتف مخاطبًا الجميع:

ـ هيا... هيا يا شباب... علينا جميعًا بالتجمع من حول الحجر الكبير... علينا أن ننقله إلى مكان وسطى... إنه ثقيل، وعلى الأكتاف أن تتراص لنقله... لا بأس... لا تخافوا... سوف يتعاون معنا المتشرد... هيا يا غادة... إلىَّ بحبلين غليظين من حبالك الليفية.. سنربط بهما الحجر الكبير ليجره البغل معنا... هيا.....

وعلى الفور هرولت غادة إلى الكوخ وغابت لحظات ظهرت بعدها وبين يديها لفتين من الحبال سلمتها للعم فعمد إلى بغله وأقبل متجهًا إلى الحجر الأبيض الكبير وبتعاون الجميع صار الحجر مشدودًا إلى البغل بطريقة فنية رائعة، وما زال العم يحثه ويهمزه ليجر الثقل على الأرض حتى كان أخيرًا فى بقعة وسطية قد أظلتها شجرة زيتون وارفة الظلال، فحل الحبال،

وجلس الجميع فوق المقابر المحيطة للاستراحة، ومن بعد : عمد آمون إلى أزاميله ومطارقه، وبعد مزيد من القياسات الماهرة نطق آمون:

ـ حسنًا... هذه القطعة الطرفية من الحجر سوف تزيد عن المطلوب... سأقوم بقطعها الآن، ومن بعد ذلك سوف أشرع فى عمل تماثيل بهاء وغادة وصافى والصبى الذى لا يرغب فى شراء البلح...

وبعد طرقات بارعة خبيرة ترنحت القطعة الزائدة ساقطة إلى الأرض تحت أقدام الكتلة الكبرى التى بدت مربعة الشكل، وما أن حدث ذلك حتى أسرعت حنين الواقفة ترقب فى استغراب، والتقطت القطعة الحجرية منتهزة هذه النهزة هاتفة بآمون:

ـ ساكون مدينة لك بالشكر لو صنعت لىَّ طفلاً من هذا الحجر الصغير الأبيض الجميل... سيكون طفلاً أبيض... إن أختى نوال ستعود بعد التخرج فى كلية الحقوق، ويمكن لها أن تعطيك مقابل صنع ذلك الطفل الأبيض... سوف تتخرج فى كلية الحقوق يا آمون... يقول أبى وسيم إنها سوف تترافع له فى قضية حتى تعتمد له الشركة التى فُصل منها: إعانة شهرية لمساعدته بالإضافة إلى معاشه الصغير، ذلك لأنه لم يكن قد أمن على حياته أو على صفاته الوراثية التى كان يورثها لنا... إنه لم يورثنا من متاع الدنيا شيئًا غير صفاته الوراثية الحميدة فحسب... ألا تستجيب لى يا آمون؟؟...

وهنا هتفت غادة فى مكر:

ـ سوف تبتئس أختك نوال المحامية إذا ما عادت ووجدت عليك كل تلك الديون...

فردت حنين فى ضيق وهى تحمل كتلة الحجر كما لو كانت طفلاً رضيعًا:

ـ كلا... إن هناك المزيد من القضايا... هكذا يقول أبى وسيم... الناس كثيرون، والقضايا كثيرة، ولا ريب أنه سوف يواتيها رزق غزير كلما نجحت فى قضية... أبى وسيم يقول إنه كلما كان هناك مزيد من النساء فوق الأرض فلابد أن هناك مزيدًا من القضايا...

وهنا حسم العم الموضوع:

ـ حسنًا... لا بأس يا حنين، سوف يستجيب لك آمون، وذلك من بعد صنع التماثيل الكبيرة التى جئنا من أجلها...

وقال آمون فى سعادة وهو ينظر نظرة خاصة إلى الصغيرة:

ـ لا بأس... سأصنعه للصغيرة حتى تمضى به فربما يستقبها أبوها... وربما كان الأب جائعًا فتغيثه بقطعة اللحم المشوى... لن يستغرق منى الأمر أكثر من نصف ساعة...

وبما أن العم قد استحسن الفكرة: فإنه قال وهو لا يزال جالسًا فوق حافة قبر:

ـ حقًا... لك ذكاؤك يا آمون... والآن عليك به أيها الصديق العبقرى..

جلس آمون على حافة قبر متهدم مجاور، وأمسك بإزاميله، وجعل يعمل فى سرعة مذهلة جعلت عينا حنين الخضراوين تبرزان وهى تشاهد المسحوق الأبيض والقطع الحجرية الصغيرة تتناثر وتتهال وتتبعثر وتتطاير من أسفل الأزاميل والمطارق الفولاذية، ولم يزل آمون منكبًا على عمله السحرى الذى لابد وأن بعض الجن والعفاريت كانت تساعده عليه حتى صار بين يديه طفل رضيع جميل المحيا باسم الثغر قد جمع ساقيه وذراعيه فى سمت النائم، وهنا لم يسع حنين إلا أن تنهض من جلستها لتقف بين يدى آمون الذى أسرع يقدم لها بدوره طفلها، فهتفت فى سعادة لا تطاولها سعادة وهى تضم الطفل الجميل إلى صدرها:

ـ يا له من طفل جميل يا آمون.. إنه أبدع طفل رأته عيناى... ما أجمله وما أبدعه... إنه لا يأكل ولا يبكى... شكرًا لك يا آمون... إن أختى نوال سوف...

فقاطعها العم ضاحكًا:

ـ حسنًا .... يمكنك أن تنطلقى بطفلك الآن يا حنين حتى لا يستغيبك أبوكِ وسيم... سلامنا إليه... لا تبخلى عليه بقطعة اللحم الشهية... أخبريه أنها من طرف العم جمال الصياد.... خبريه بذلك...

استخفت الفرحة بحنين، فحملت الطفل غير مصدقة، وقد بدت لفافة اللحم وقد أتخمت جيب ثوبها، وحيت الجميع بإيماءات من رأسها بوصفها أما تحمل طفلاً رائعًا، وسارت تتهادى بين المقابر المهجورة فبدت كأم قصيرة للغاية رغم امتلاء جسدها كصفة وراثية حميدة جاد بها الأب المغبون...

ما أن ابتعدت حنين بطفلها عن المقابر؛ حتى كان آمون قد بدأ فى صنع أشباح التماثيل مبتدئًا ببهاء مراعيًا ترك قاعدة سميكة، ولما كانت غادة تفهم وتعى الموضوع المنتخب؛ فإنها تحرزت بالقدر الكافى من أن تعطى انطباعًا لبهاء يشير من بعيد أو قريب إلى أنها هى التى ابتكرت أو اختارت ذلك الموضوع،والأمر كذلك فلقد تسللت إلى بغل عمها فى غفلة من الجميع وامتطته وجعلت تسير به فى طرقات المقابر، وما لبثت أن استخرجت المنظار المقرب، وإذ هى تحدق به فى الاتجاه الذى اتخذته حنين سبيلاً إلى بيتها...؛ شاهدت الصغيرة تجد من بعيد، فأمتعها أن تعلق عليها البصر طويلاً، ولكنها تعجبت لأمرها وقد أبصرتها تنحرف إلى حيث جدار طينى قائم بمفرده فى مكان ظليل قد خيمت عليه شجرة الأقاقيا التى يتخذ العم جمال من ورقها قرظا لدبغ جلود الثعالب بعد سلخها... وبما إن غادة تتمتع بغريزة لا تقاوم وهى

حب الاستطلاع؛ فإنها لم تجد مفرًا من الاقتراب من ذلك الجدار الذى تقبع من خلفه الصغيرة حنين، فاستحثت ركوبتها بطريقتها الخاصة الساذجة، واقتربت غادة من الجدار الطينى البالغ من الارتفاع مترين، والذى تسلقت نحو قمته بعض الحرادين الرمادية والتى يقال عنها فى واحة سيوة إنها تذكر الله دائما فى حلقات كحلقات ذكر الدراويش..وحالما اقتربت من ذلك الجدار: توقفت فى هدوء مصيخة السمع، ومن الفور جاءها حديث الصغيرة إلى نفسها عجيبًا غريبًا مفصحًا عن مكنوناتها وقد علمت مسبقًا أنها لن تكبر أبدًا بفضل العم عنتر المتعنتر بالعنتر المنتر:

ـ ويك يا جمال... لست أعلم لماذا لا تكف عن الصراخ بالرغم من أننى قد أرضعتك أكثر من مرة... لقد أكلت لحما كثيرا اليوم ولذلك فلقد كان ثدياى وفيرا اللبن، ولا أحسب أننى سآكل لحمًا كثيرًا مثل هذا اليوم... لقد اخترت لك اسم "جمال" لأنه هو الذى وهبنى اللحم وشواه لىَّ... إنه لحم غزال رائع... من المتوجب أن تكبر وتصير مثله صيادًا بطلاً ماهرًا... ولكن فحسب عليك ألا تطلق لحيتك مثله لأنها ستظهرك بأنك أكبر سنا... أوه... لماذا تصرخ الآن يا جمال؟؟.. ألا تشبع أبدًا من الرضاع!!... يبدو أنك نهم للغاية... لابد أن أفطمك بعد شهرين... أحجى بىَّ أن أفعل ذلك طالما أنك كثير الصراخ... إننى لن آكل مثل أكلة اليوم الدسمة... سوف أدهن لك ثديى بعصارة الصبار وإنه لكثير فوق متون الأجداث المهجورة... دهنة واحدة ستقرفك نهائيًا... لقد انتبذت بك مكانًا قصيًا تحت جذع شجرة السنط... إننى أربيك كيما تعولنى، ويجب أن تفهم أننى لن أنجب بعدك لأن العم عنتر المنتر بالعنتر قد أوقف نموى عند هذا الحد... إذًا عليك أن تحتزم منذ الآن إعالتى... أواه... ولكن ماذا أفعل الآن؟؟... لو ذهبت بك إلى أبى وسيم: فلا ريب أنه سوف يسألنى من أين أتيت بك.. حسنًا... لابد أن أدفنك هنا تحت الجدار، وعند مرورى كل يوم سوف أقوم بإرضاعك، وكلما كبرت؛ فإننى سوف أوسع لك الحفرة...

وقامت حنين من جلستها أسفل الجدار المرتفع، وجعلت تحفر حفرة وارت فيها طفلها الحجرى الأبيض الجميل بعد أن أغدقت عليه بمزيد من القبلات والهدهدات حتى يكف عن صراخه، وعندما تم لها ذلك انطلقت فى الطريق متمتمة:

ـ لا ريب أن أبى وسيم قد استغيبنى، ولكن لا بأس.... فها هى حزمة الجرجير الرائعة وها هو اللحم المشوى اللذيذ ...

غرب نجم حنين، ولم تلبث غادة أن ترجلت متجهة إلى خلف الحائط وجعلت تحفر عند منتصفه، وأسرعت تخرج الطفل الحجرى "جمال" وحملته على صدرها، وانطلقت من فورها

على صهوة بغل العم، وعندما دنت من أول مقبرة متهدمة عمدت إلى وضع الطفل بداخل حفرته الوسطية، ثم غطته بمزيد من الرمال، وانطلقت إلى حيث الجماعة المنهمكة فى العمل الفنى الرائع الذى سيضفى مزيدًا من الجمال على تلك المقابر الموحشة...

ترجلت الفتاة عن المطية، وتركتها ترعى، واتجهت قُدمًا نحو الجماعة، ولقد كانت دهشتها لا توصف حينما شاهدت قطعة الحجر الضخمة وقد تحولت بسحر ساحر إلى ثلاثة أمساخ تحملها قاعدة واحدة استقرت على الأرض بين الحشائش والأعشاب والأزهار البرية الجد صغيرة والجد متباينة الألوان.. وكان آمون فى تلك الآونة قد بدا عليه التعب والإنهاك وقد أترب جسده كله وشعره بالمسحوق الجيرى المتطاير من تحت ضربات وطرقات واهتزازات أزاميله وهى تشحذ الصخر بمهارة فائقة بوصفه جانزيًا صقلت مهارته الفنية بمعامل القلعة التى نوطتها الحكومة صقل مواهب الجانزيين قبل بيعهم بسوقها... والحال كذلك؛ فلقد نهض العم من جلسته فوق المقبرة، وحيا كلا من بهاء وغادة، واتجه إلى بغله، وبقفزة نشطة كان فوق صهوته متنكبا قوسه وجعبة سهامه الزاخرة، وما أن قفز آمون راكبًا من خلفه حتى هتف العم:

ـ سأذهب بك يا آمون لتستحم فى عين جوبة قبيل العودة...

ثم أردف:

ـ والآن... إليكما تلك المفاجأة... سوف نسافر يوم الخميس القادم ليلاً إلى القاهرة حتى نقضى يوم الجمعة بأكمله هناك... سيسعدنا أن تكونا معنا فى تلك الرحلة الأسرة ولأول مرة... سنزور حديقة الحيوان والمتحف المصرى الفرعونى ومتحف حضارة القرن العشرين، وأخيرًا سوف نزور القلعة لتشاهد كيف يتعلم الجانزيون لصقل مواهبهم الموروثة، ولنشاهد كيف يباع اليافعون منهم بسوقها. سيكون معنا مزيد من الطعام حتى لا نتعرض لغلاء الأسعار... سوف تنتهى من صنع التماثيل فى يوم الثلاثاء القادم.. يمكنكما أن تحضرا إلينا فى أصيل يوم الخميس... لا ريب أننى سوف أشترى لك يا غادة كل ما يلزمك للزواج من فساتين وحلى ذهبية... لقد بعت الوفير من الجلود والفراء... هه... لقد خطبت ست فتيات وأعطيتهن ست شبكات... هه... ذهبية... هه... ومع ذلك فلم أحظ بزيجة واحدة يمكن لىّ أن أقرها لنفسى.... هه.... سوف أحضر لك كل ما تطلبين وتتوقين إليه يا غادة... هه... سأقوم أيضًا بدفع مهر العريس من جيبى... أليس العريس هو الذى يدفع المهر؟؟... حقيقة إننى عمه... ولكن.... ولكن من المتوجب أن أدفع له ا لمهر بالرغم من أننى عم عاق... لا يمكن أن يكون العقوق إلى حد عدم دفع المهر... إننى عم يا غادة... أليس كذلك؟؟.. سأبنى لك حجرتين أو حجرة

من الحجر الجيرى الأبيض... لقد كان اللبجى رائعًا يا غادة.. عليك بتعليق الوعاء من جديد فى علياء النخلة بسادة القليلة السعف والقليلة الإنتاج... إلى الملتقى أيها العروسين...

* * *

ـ انظر يا بهاء... لم أشاهد من قبل الجبال والتلال تجرى وتهرول... كنت أراها دائمًا ثابتة فى أماكنها... يا لها من إوزة بيضاء رائعة حقًا... من المتوجب عليك يا بهاء أن تتعلم طريقة قيادتها... يا لفخامة تلك المقاعد الإسفنجية... إنها مريحة مهتزة... حقيقة أنا التى كنت قد جلبت لها قطن العشار، ولكن: ها هو الإسفنج قد أثبت أنه أفضل من قطنى الذى جمعته... يالله... إننى ألمح غزالاً يشرئب برأسه من بين الصخور... ألا توقفون الإوزة البيضاء كيما نصيده؟؟... إنها نهزة لا يمكن تفويتها... ما هذا؟... إننى ألمح سلحفاة كبيرة ترعى على الأعشاب فى هدوء... إنها سلحفاة لم أشهد مثلها... يخيل إلىَّ أنه يمكننى امتطاءها... ألا يمكن لك يا عمى أن تهبط إليها للإمساك بها؟؟... إنها سهلة المنال ولن تهرب بسرعة... إنها بطيئة الحركة تمامًا... ما هذا أيضًا؟؟... إننى أشاهد الأزهار خلابة متباينة الألوان نامية عند سفح التل القريب منا والذى كدنا نتجاوزه... ألا ما أجمل غروب الشمس وقد تبعثرت الضياء فوق أسنام الجبال...

هكذا كان حال غادة خلال الرحلة التى بدأت فى أصيل يوم الخميس... لم يهدأ لها فم ولا جسد طوال الطريق، وقد جلس بهاء إلى جوارها من الخلف، بينما جلس العم إلى مقعد القيادة وبجواره آمون الذى جلس صامتًا يتطلع إلى الوجود فى دعة وسكينة...

انصرم الليل، وأقبلت ضياء الشمس صفوفًا لتميس بجدائلها فوق الأرض لتخلب العيون بحسن الأشياء، ومن بعيد: كانت قد أقبلت الإوزة البيضاء لتمضى فى طرقات القاهرة، ولأول مرة تدب على وجه الأرض دون العبارة التقليدية "باحث زراعى مرفوت" وعند باب المتحف الأثرى الفرعونى توقفت الإوزة البيضاء، فاقبل نحوها مهرولاً عامل كان يقف على مبعدة لينظفها، بيد أن غادة سارعت إليه هاتفة:

ـ كلا... إنها إوزتنا البيضاء... أنا التى سوف أنظفها... وابتعد الرجل فى قنوط ظاهر بعد أن ضاق بالفتاة المتشحة برداء سيوى أزرق يتألف من قطعتين، وحذاء أحمر لا يتفق مع ما تلبسه صاحبته خاصة وأنها تنتعله دونما جورب، وقد بدا ذلك الحذاء مفرط الاتساع لدرجة جعلته يفرقع ويطرقع ويقعقع كما لو كان قبقابًا خشبيًا...

وفى خفة الهررة: قفزة غادة إلى سطح العربة وفى يدها قطعة من فراء الغنم، وراحت تنظفها من الخارج، مزيلة ما تجمع عليها من أتربة، وفى نفس الوقت كان آمون يتعاون مع العم جمال وبهاء على نقل الطعام من صندوق العربة إلى مسطح نجيلى أسفل شجرة جكرندا قد فرشت النجيل ببساط أزرق من زهرها فى تلك الحديقة الخارجية المتاخمة لفناء المتحف، وما هى إلا دقائق حتى كان الجميع قد تحلقوا حول الطعام، وقد بدا العم سعيدًا وقد لفت زيه الفرائى الجد بدائى أنظار السائحين والمتنزهين...

كان الطعام يتألف من قطعة كبيرة من فخذ غزال مشوى، وعشرة أفخاذ من أفخاذ الأرانب البرية وبعضًا من ثمار الطماطم الطازجة، وحفنات من بلح الطقطق والبلح الغزالى وفوق كل ذلك: فلقد استأثر العم جمال بزجاجة بيرة كبيرة ضخمة رائعة تحمل ماركة "حور" كان قد ابتاعها من محل للبقالة بشارع الشهيد طيار أول سليم طاهر... انهمك الجميع فى التهام الطعام وقد سال لعابهم مستطيبين الغذاء المتنوع فيما خلا آمون الذى لم يكن يعرف للطعام مذاقًا بحكم تكوينه الوراثى...

أسرعت غادة ومن بعدها الجميع إلى صنبور المياه بالحديقة ليغسلوا أفواههم وأيديهم، وعندما تم لهم ذلك أعادوا باقى الأطعمة إلى مكانها بصندوق الإوزة البيضاء، وأسرعوا إلى بوابة المتحف، وبعدما دفعوا رسوم الدخول كانوا بين الآثار الفرعونية من تماثيل وتوابيت تنطق بالحياة وقد رصع كل تمثال بدرر من السائحين نسوة ورجالا وقد راحوا يتلمسون ويطالعون فيها الماضى البعيد...

اتجه الزائرون الأربعة يسارًا بقيادة العم جمال البدائى... كيما يطوفوا بالطابق السفلى فى اتجاه عقارب الساعة... ووقتما احتوتهم الآثار تملكتهم الحيرة وتجاذبتهم القطع الأثرية، فهذه تشدهم يمينًا، وتلك تنتزعهم يسارًا، لدرجة أن غادة نفسها قد لوحظ توقفها وسط البهو وهى تهم بالانحراف يمينًا ويسارًا فى آن الأمر الذى جعلها تتسمر فى مكانها كما لو كانت كوكبا لا يملك إلا أن يدور حول نفسه وقد تجاذبته قوى متساوية، ولما لاحظ العم عليها ذلك بفراسته التى لا تخطئ: فإنه ما لبث أن حسم ترددها بقوله بعد أن أوسع لها فى الابتسام:

ـ لا بأس... عليك باتباعى... لقد درست الآثار المصرية بمعهد الآثار الفرعونية... سأشرح لكم كل أثر على حدة... ولكن فقط علينا أن نسرع قدر مستطاعنا، لأننا بصدد زيارة متحف القرن العشرين، وحديقة الحيوان، وسوق القلعة الخاص بالجانزيين....

وتابعه الجميع على الأثر، بيد أن غادة كانت ألصقهم به، ولم يفتها هى وحدها أن تعلق على كل تعليق يتفوه به دون مراعاة لمن حولها من سائحين أو زائرين أو أثريين أو حراس...

عبر العم عدة آثار، ثم توقف أمام الرقم ١٣٦ وقال معلقًا:

ـ صورة ملونة لست إوزات ترعى... دقة تفوق المألوف وأمانة فى محاكاة الطبيعة...

ـ حقًا حقًا.... إن رئيس الحكومة نفسه ليس لديه مثلها...

وتقدم العم من الرقم "١٤٠" قائلاً:

ـ تمثال شيخ البلد الخشبى... العينان مطعمتان، وحدقتاهما من النحاس، والبياض من الكوارتز الشفاف، والقرنيتان من البللور...

ـ لكم يشبه وسيم والد حنين ووسام الكمال، يبدو أنه كان مورثًا للصفات الوراثية الحميدة هو الآخر... ما أوسمه يا عمى...

وانفلت العم إلى الرقم ١٤١ وحدق إليه قائلا:

ـ إنه الكاتب الفرعونى المتربع وعلى ركبته ملف منشور... إنه من الحجر الجيرى، وهو نفس الحجر الذى صنعنا منه تماثيلكما....

ـ ما أبدعه... لكم يشبه بهاء وهو يتربع فوق سريرى المصنوع من الجريد وقد انهمك فى استذكار وكتابة دروسه...

واتجه العم إلى الرقم ١٥٢ وهمس:

ـ إنه كاهن يخدم القرين "الكا"... إنه جاث مشتبك اليدين تقديسًا للكا...

ـ يا الله... حدق إليه جيدًا يا بهاء... إنه يقدس الكا... وأنت تعرفها بالطبع... إنه يقدسها... كان من المتوجب أن تحذو حذوه يا بهاء...

وما كاد العم يبرح مكانه من أمام التمثال حتى فوجئ بسائحة شقراء تسدد إليه عدستها المصورة وقد صار قريبًا من تمثال عار لشاب يحمل على كتفه الأيسر حقيبة وفى يده اليمنى نعلاً، وما إن سجلت له هذه الصورة بتلك الخلفية العجيبة: حتى انحنت له باسمه ثم مضت تتهادى بين الآثار متجهة إلى الطابق العلوى من المتحف، ولم يسع العم آنذاك إلا أن يعبث بلحيته مبتسمًا وقد وقف يحدق إلى التمثال الذى يحمل رقم ١٦٨، بعد أن كان يود لو تجاوزه، وفى تلك الأثناء كانت قد وقفت غادة إلى جواره وطفقت تخفى عينيها براحتيها لتعود فتحدق إلى التمثال من جديد بين لحظة وأخرى، وأخيرًا لم يسعها إلا أن تهمس:

ـ يا عمى... يبدو أن هناك ثمة ما يخجل فى ذلك التمثال...

ـ حسنا... هيا نغادره إلى غيره طالما أن الأمر كذلك...

وانسحبت غادة من خلف العم مع كلٍ من بهاء وآمون؛ بيد أنها كانت تلتفت إلى الخلف بين هنيهة وأخرى مسددة نظراتها إلى التمثال العجيب الذى تعرى دونما خجل أو وجل...

وتوقف العم أمام تمثال صغير يحمل رقم ١٧١ وقال:

ـ امرأة تطحن الحبوب...

ـ ما أشبهنى بتلك المرأة وأنا أطحن القمح على حجرى الرحى...

وأسرعت غادة تسبق عمهما إلى تمثال يحمل رقم ١٧٣ معلقة:

ـ إنه رجل يشوى إوزة على موقد... ما أشبهه بك يا عمى جمال.. إنك سليل الفراعنة حقًا يا عمى...

وانسحب العم إلى حيث تمثالين متجاورين يحملان رقم ٢٢٢ وقال وهو يتفرس فى ملامح وجهى التمثالين:

ـ الفراعنة يلونون الرجال باللون الأحمر، أما النساء فيلونون باللون الأصفر...

فهتفت غادة فى اعتراض:

ـ لم يكن من المتوجب ذلك... كان لابد من المساواة بينهما... إنه نزوع سيئ أن يميز الرجل عن المرأة...

ولم يكترث العم بتعليق غادة بوصفها "مدمنة" التقطها هو من فوق الأسفلت... ويمم شطر لوحة تحمل الرقم ٢٣٦ تمثل مشاجرة بين بحارة، وقرأ العم التعليق المدون ثم قال:

ـ إن أحد البحارة يهتف "افلق رأسه" ويهتف آخر "اقسم ظهره".

ـ أكانوا يرددون مثل ذلك!!..

واتجه العم إلى تمثال رقم ٢٨٠ وهو من الخشب للملك "حر" وقال مشيرًا إلى الرأس:

ـ إن الرأس تحمل الذراعين المرفوعتين وهذا يدل على أن ذلك الجسد يمثل القرين أو الجسد الثانى الذى يمكن أن تحل فيه الروح...

ـ أرأيت إليه يا بهاء؟؟... إنه القرين أو الجسد الثانى الذى ستحتله ال "با"... تذكر ذلك جيدًا عندما نعود إلى لعبة "الكا والبا"...

وأوسع العم الخطا نحو تمثال بديع من الرخام الأبيض للملك "جحوتى مس" الثالث الجاثى يقدم وعاءين وهمس:

ـ إنهما وعاءان كانا إما للماء أو للخمر...

فهمست غادة فى صوت غريب:

ـ بل ربما كان يقدم هذا الملك "جحوتى مس" شيئًا من اللبجى...

فابتلع العم ضحكة ماكرة كادت تفلت وهو يسرع نحو قطعة دراسية تحمل الرقم ٤٧٦ تمثل أنموذجا لإحدى بنات "إخن أتن"، وتمتم العم محدقًا:

ـ إنه وبالرغم من المبالغة فى حجم الجمجمة: فإن الأنموذج يبرز فنانًا فرعونيا له دراية بعلم التشريح...

فهتفت غادة وهى تبتعد عن التمثال لتحدق إليه عن بعد:

ـ يا له من يافوخ منبعج مفلطح، لو أنها كانت ابنة وسيم مورث الصفات الحميدة لما كانت لها تلك الرأس المزعجة... لو كنت رجلاً لم تزوجتها... أليس كذلك يا بهاء؟...

وهنا رد بهاء لأول مرة رغم خجله من عمه:

ـ كلا... بل كنت تزوجتها، لأنه يبدو على محياها أنها شديدة الذكاء ودمثة الأخلاق وكريمة الخصال...

وتوقف العم أمام لوحة كبيرة من الجرانيت تحمل رقم ٥٥٩:

ـ جاء فى النقش "لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر"... إنه النص الوحيد الفرعونى الذى ذكر فيه بنو إسرائيل...

وهنا همس بهاء فى انبهار:

ـ هل تراه قد عاصر خروج العبرانيين من مصر إذًا يا عمى؟؟..

فرد العم وهو يسدد خطاه نحو تمثال آخر:

ـ لست أدرى... التاريخ ضارب فى القدم، والحقائق قد اختبأت عنا بطريقة مريبة...

وتوقف عند تمثال رقم ٨٤٦ ووصفه بقوله:

ـ إنه من الجرانيت الأشهب... إنه رجل حبشى مشوه الخلقة...

فهتفت غادة وقد انفلت منها عقال لسانها مما جعل الحارس الواقف على مقربة يفطن لها:

ـ لكم يشبه العم عنتر المتمنتر بالعنتر المعنتر...

ولأول مرة سدد العم إليها نظرة نارية كيما تخفض صوتها، ثم يمم شطر صحيفة من البردى خالية من الكتابة تحمل رقم ٢٥٠٠ قائلاً:

- هكذا كان ورق الكتابة فى مصر.... لقد كان يصدر إلىَّ كل ما يحيط بها من أقاليم... إنه من لب السيقان الطويلة لنبات البردى...

وغادر العم هذا الأنموذج على وجه السرعة ليقف أمام نسخة من الأسرة الثانية والعشرين تحمل رقم ٢٥٠٥ تلك التى تحمل نصائح "آنى" لابنه "خنسو"، وردد العم الترجمة فى صوت عميق النبرات :

** احذر المرأة الأجنبية المجهولة فى بلدتها، لا توجه إليها لحاظك ولا تتزوج منها... إنها لجة شاسعة عميقة لا يعرف تيارها.

** يأتى الموت لينتزع الطفل من حجر أمه كما ينتزع الشيخ الهرم...

** بيت الله يدنسه الصخب...

** ادرس الأدب وضعه فى قلبك فيطيب كل ما تقول...

** لا تكن جالسًا إذا وقف أمامك من كان أكبر سنًا أو أرفع مقامًا...

** لا تجب رئيسًا وهو غاضب بل ابتعد عن طريقه، وإذا خاطبك شخص بألفاظ جارحة فخاطبه بكلام عذب...

وهنا همست غادة بعد أن نظرت إلى وجه عمها:

- احفظ يا بهاء هذه النصائح عن ظهر قلب... إنها تفيدك حتمًا فى حياتك المستقبلة رغم أنها قيلت لخنسو منذ آلاف السنين...

وتوقف العم أمام نص فرعونى يحمل الرقم ٢٥٠٦ معلقًا:

- إنه عقد زواج فرعونى وقع عليه ستة عشر شاهدًا وهذا نصه:

- لقد اتخذتك زوجة للأطفال الذين تلدينهم، سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفى لطعامك وشرابك كل عام، وإذا طردتك أعطيك خمسين قطعة من الفضة، وإذا اتخذت لك ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة...

فصاحت غادة وقد تبددت تحذيرات العم تمامًا من يافوخها:

- ستة عشر شخصًا كشهود على عقد زواج!!... يا لله!!.. ألم يكن يكفى اثنان!!!.. أسمعت يا بهاء؟؟.. من المتوجب عليك أن تضمن عقد زواجنا تعهدا بعدم اتخاذك ضرة لىَّ وإلا تعطينى خمسين جنيهًا... كلا بل مائة.. أنا لا أقبل..

وخشية الفضائح التى ستجلبها الفتاة على الركب انسحب العم جمال من مكانه دون أن يعمد إلى تصويب نظراته إليها، وتوقف عند نصوص بردية جنائزية تحمل الرقم ٢٥١٢ وقال شارحًا بعد أن قرأ اللافتة العربية:

ـ من بين تلك البرديات كتاب من العالم السفلى... إن هذا الكتاب الفرعونى والذى يوضع مع الموتى يصف سياحة إله الشمس ليلاً واختراق أقسام العالم السفلى الاثنى عشر ويصف العوالم التى تمر فيها الشمس كما يصور المخلوقات الغريبة التى تسكنها وحديثهم مع الشمس أثناء مرورها عليهم فى سفينتها....

وما كاد العم يفرغ من شرحه حتى كان بهاء قد أخذ عن آخره فبدا فاغر الفاه شارد العقل تائه الفكر جاحظ العينين، ولكنه لم يلبث أن فاءت إليه نفسه وقال فى شبه غيبوبة:

ـ لابد أنه كان من بين المصريين القدماء رواد فضاء يا عمى، إننى أكاد أجزم بذلك، أو كان بمقدروهم أن يتحدثوا عن كل ذلك فى عصور موغلة فى القدم!!...

وهنا انبرت غادة متدخلة حتى لا تترك لبهاء نهزة كهذه يتكلم ويعلق وحده:

ـ يبدو أنهم تحدثوا أيضًا عن المريخ والزهرة تلك التى تود أن تمتلك فيها أرضا تبنى عليها كوخًا وتنبت فيها نخلاً وزيتونًا كمثل التى أملكها فى الأغورمى...

ولم يأبه بهاء لكلامها وتعليقها، بل سبق الجميع إلى حيث الأنموذج رقم ٣٢٧٢ وتوقف عنده متريثًا، وأقبل عليه عمه الذى وقف أمام الأنموذج شارحًا:

ـ وهذا أنموذج لبيت فرعونى له سلم مائل يؤدى إلى سطحه، ويحوى غرفة واحدة وسقيفة محمولة على عمود..

فهتفت غادة فى بهجة بعد أن حملت حذاءها الأحمر:

ـ يا له من بيت صغير رائع يا عمى العظيم، وددت لو بنيت لنا بيت الزوجية على ذلك النمط الفرعونى الخلاب...

ـ حسنًا... لك ذلك يا غادة...

وعرج العم على مجموعة تماثيل صغيرة لنساء عاريات تحمل رقم ٣٣٦٧ وعندما علق بقوله إنها كانت توضع فى قبور البنات، وأن بعض هؤلاء النساء العاريات يحملن أطفالا يرضعنهن: همست غادة فى تخابث:

ـ يا لله.. ما أشبه كل امرأة منهن بحنين التى كانت ترضع طفلها جمال من خلف الجدار...

وتوجه العم إلى الرقم ٣٦٦٥ فبدت مكحلة من القاشانى الأزرق عليها اسم "آمون حتب" الثالث، ولم يسع غادة إلا أن تهتف:

ــ يا لها من مكحلة جميلة وددت لو كان لىَّ مثلها لأكتحل لبهاء يوم عرسى....

وألفت غادة نفسها تبحلق إلى تاج يحمل الرقم ٣٩٩٩ وهو مصنوع من الذهب وله وردات ومحلى بنوع من الثعابين يسمى "الصل" ومُطعم بالأحجار الكريمة، ومن الفور هتفت فى نشوة:

ــ بودى لو لبست التاج ولو لدقيقة واحدة حتى أريك يا بهاء أننى لست أقل حسنًا من الأميرات الفرعونيات....

ولما كان العم يرقب باهتمام بالغ انطباعات آمون عن تلك الآثار المصرية؛ فإنه كان قد لاحظ انفعالات واضحة على محياه طيلة الوقت الذى قضته الجماعة متنقلة بين تلك الأثريات، بيد أن العم شاء أيضًا أن يغتنم تلك الفرصة كيما يريه شيئًا يمكن أن يجمل إعجابه بترى وبترى، ومن ثم اتجه إلى مجموعة كان يعرفها حق المعرفة، لآلهة الفراعنة تحمل الأرقام من ٤٤١١ حتى ٤٤٩٣، وعندما دنا منها همس:

ــ الإله أوزير ... الإله من... الإلهة باستت... الإله بتاح... المعبودة تاورت .... الإله جحوتى ... الإله حب... الإله حت حر.. الإله حر... الإله رع... الإلهة ماعت... الإلهة موت... الإلهة نبت حت... الإلهة نت... انظر أخيرًا فى هذا الاتجاه... ها هو الإله "آمون" لقد كان معبود طيبة ثم صار بعد ذلك إله مصر بأثرها... إنه على شكل إنسان على رأسه قلنسوة تعلوها ريشتان مرتفعتان...

وهنا نطق آمون ولأول مرة:

ــ أهذا هو الإله الذى أسميتنى باسمه يا صديقى؟؟...

فأجاب العم بانفعال واضح:

ــ لقد كان إلهًا حقًا، ولكنه صار الآن عبدًا معروضًا بداخل متحف ينظر الناس إليه كدليل وبرهان على الوثنية... بيد أنها لم تكن وثنية... إنهم أول الموحدين بالله...

ــ وهل ترى أن هناك تشابهًا بينى وبينه يا صديقى؟؟..

ــ أى نعم يا آمون... إنه إله قد أذل...

ــ ولماذا تقطع بذلك يا صديقى؟؟..

ــ ذلك لأنك إله على الأقل فى موهبتك، إنك فنان أصيل مبتكر يا آمون... إنك تقد الصخر والحجر وتصنع تماثيل تنطق بالحياة، ومع ذلك فأنت مسخر لصنعها لنا

يا آمون...

ـ هب أننى قد صنعتها لنفسى يا صديقى... أيعد ذلك تسخيرًا من نفسى لنفسى؟؟..

ـ أوه... أجل...

ـ إذًا فالأمر واحد فى كلتا الحالتين يا صديقى...

وهنا لم يحر العم جمال جوابًا؛ بل اكتفى بنظرة معجمة سددها إلى وجه آمون، ومن بعدها هتف قائلاً:

ـ والآن ... ليس لدينا متسع من الوقت، علينا بمغادرة المتحف للتوجه إلى متحف حضارة القرن العشرين.. إنه بالطريق المجاور... هلموا بنا.

خرج العم واستقل العربة مع رفاقه، واتخذ سبيله إلى طريق مواز كتبت على لافتته: "شارع الحضارة"، وتوقفت العربة أمام المتحف ذى البوابة الضخمة الفولاذية الخضراء التى خطت على واجهتها بحروف معدنية "حضارة القرن العشرين".

دلف الركب الزائر بين الزائرين والسائحين القلائل الذين كان لا يمكن مقارنه عددهم بعدد المقبلين على المتحف الفرعونى واحتوتهم الحديقة الملحقة فجعلوا يجوبونها، وتقدم العم نحو قطعة أثرية معلقا وهو يقرأ ما جاء بلافتتها:

ـ إنه تربين مائى كان يستخدمه المصريون فى توليد الكهرباء من السد العالى بأسوان... إنه أثر طريف للغاية... أين ذلك الآن من حضارتنا التى تستخدم طاقة الاندماج النووى التى قضت حتى على استخدام طاقة الانشطار النووى التى استخدمت على نطاق واسع فى مستهل القرن الثانى والعشرين!!..

وخشية أن يتبدد مزيد من الوقت بداخل الحديقة: انسلخ العم بجماعته رأسًا إلى داخل المتحف الذى كان يخيم عليه الهدوء، حيث لم يكن هناك كثير من الوافدين ما خلا بعض شراذم من الزائرين الأفارقة، وثلاث من الهنود الحمر، ورجال من الملاويين من جزيرة سالومون الذين كانوا فى عهد ما من آكلة لحوم البشر، وبعض رجال ونساء غاية فى القصر من شعوب الإسكيمو فى قمصانهم المصنوعة من جلد الرنة فوق سراويل فضفاضة من القطن بدلاً من سراويل الفراء...

استعرضت الجماعة مجموعات مكتشفة من الإسطوانات التى كانت تسجل عليها الأغانى، ومجموعات من حلى النساء الذهبية الريفية والتى كان من بينها الأقراط "المخرطة" وعقود الكهرمان والخلاخيل الفضية، ويشمك النساء الكسندريات...

استعرضوا مجموعات رائعة من أردية النساء من جلابيب ريفية مطرزة بالترتر الملون، وملاءات اللف السكندرية والبراقع... ودلفوا إلى قاعة النقود فشاهدوا العملات الفضية والألومنيومية التى تحمل صور "أبو الهول" والأهرامات والسد العالى، وشاهدوا أيضًا العملات الورقية التى طبعت عليها من أعلى المساجد العريضة وطبعت عليها أسفل المعابد المصرية الفرعونية ذات الشهرة الخالدة...

بحيث إننا تخيلنا ورقة العملة النقدية أرضًا وتخيلنا المسجد مقامًا فوقها بالفعل، ومن أسفله مباشرة تخيلنا معبدًا فرعونيًا مبنيًا؛ فإن ذلك من شأنه أن يظهر لنا مصر كبيت رائع عجيب يمكن أن يكون بيتًا للتاريخ..

دخل الزائرون الأربعة قاعة الموسيقا وأجهزتها، فشاهدوا آلة العود والناى المصرى والربابة والدفوف والطبل البلدى المصنوع من الفخار النيلى وقد شدت عليه جلود معى البقر...

وعرجوا على قاعة الكتب والمخطوطات: فشاهدوا نسخًا متآكلة قد شاهت صفحاتها، وأصفرت صفحاتها فبدت أقدم من البرديات الفرعونية ذاتها، واستعرضوا فى الفاترينات الزجاجية كتاب "فى الأدب الجاهلى" وكتاب "مع المتنبى" وكتاب حديث الأربعاء" لطه حسين... واستعرضوا "أهل الكهف" و "أوديب ملكا" لتوفيق الحكيم.... رنوا إلى كتاب "النحو الوافى "بنسخه الأربعة الضخمة لعباس حسن....

هذا ولو لم ينسلخ العم بالزائرين واتجاهه بهم رأسًا إلى البوابة: لكان من الممكن أن يمضى بقية اليوم بداخل ذلك المتحف الأثرى الزاخر بتحفه النفيسة الزاخرة بالتراث الأدبى والعلمى والفنى....

غادر الركب متحف "القرن العشرين" ليتجه من فوره إلى حديقة الحيوان الواقعة من خلف منطقة الأهرامات بالجيزة...

كانت انطباعات غادة أشد ظهورًا وجلاء من انطباعات كل من بهاء وآمون، وكان تأثرها بكل ما رأته من حيوانات يشبه تمام الشبه تأثرها بالتراث الفرعونى...

لقد أدهشها أن تشاهد الفيلة وهى تركع أمام المتفرجين لقاء قروش، وخلبها أن تتابع الجابون النشيط وهو يقفز هنا وهناك محلقًا فى أرجاء قفصه الحديدى الكبير وقد بدا آخذًا بتلابيب الهواء فى كل اتجاه مطوحًا بذراعيه الطويلتين القويتين فى حركات بهلوانية تسخر من كل سرعة...

طاب لغادة أن تشاهد الغوريلا الضخمة وهى تدق على صدرها المدرع وقد عمد حارسها إلى إغضابها بإنقاص كميات الموز المقدمة إليها...

سرها أن تشاهد القردة الحبشية الإناث فى "جبلايتها" الصناعية وهى تمارس هواية التفتيش عن الحشرات التى تجوس فى أدغال معرفات الذكور....

جعلت غادة تستعرض كل حيوانات وطيور الحديقة وقد أخذت تمامًا ؛ فلم تكد تشعر بالعم وبهاء وآمون الذين كانوا يتابعون تصرفاتها وانطباعاتها على كثب منها...

استعرضت غادة الطواويس الذكور التى لا تكف عن استعراض ريشها الزاهى الألوان والبرقشات أمام الإناث العجفاء التى تبعث على الاكتئاب، ولقد لامت فى سرها الذكور على إسرافها ومبالغتها بتمتمات غير مسموعة:

ـ هه ... وهل تستحق إناثك كل ذلك حقًا!!...

استعرضت غادة السلاحف الفيلية العملاقة وودت لو امتطت ظهورها، واستعرضت حيوان البندا العملاق وخلبها أن تستمع إلى دب بنى وهو يردد الله... الله وهو يطرح بجسده كما يفعل الدراويش فى حلقات الذكر...

راحت تستمع إلى البلابل وتحدق إلى البوم والببغاوات الرمادية الإفريقية وطيور الحسون والكناريا والكروانات....

جعلت تتأمل النسور والعقبان والصقور، ثم عرجت لتحدق إلى ذئب فى قفصه مرددة فى انبهار:

ـ يا لله ... تكير...

ثم جعلت تحدج ثعلبًا فى قفصه متمتمة:

ـ أواه... منكر!...

راحت غادة تحجل بين منعطفات الحديقة وتركت جماعتها لتخطر عند بحيرات البجع مع صغاره وبين مستنقعات التماسيح النيلية الرابضة فى ظلال النخيل الملوكى الأبيض الجذوع... جعلت غادة تميس بجسدها فى كل اتجاه، وقد أحست بابتعادها عن جماعتها فاحتوتها أحواض زهر البانسيه والجودشا وحنك السبع والمنتور والأقاحى، وأبهجها أن تقطف زهرة بساقها الطويل من كل نوع منها... وما كادت تكون باقة: حتى ألفت نفسها وقد صارت وجها لوجه أمام تمثال رخامى أبيض عار لشاب جميل الطلعة رشيق الجسد قد وقف معتدل القامة باسم الثغر فوق قاعدته الرخامية غير مبال بما يخجل منه، فطفقت تتطلع إليه من قمة رأسه إلى إخمص قدميه واقتربت منه فى بطء لتقف عند القاعدة متمتة:

ـ لماذا تقف هكذا عاريًا يا بهاء!.. أتراك تقلد عمك!!.. حسنًا... لقد بدأت تكف عن خجلك منى إذًا... إننى أتخوف من أن يكون شعورك نحوى: هو شعور الأخ لأخته التى

نشأت معه بين القبور والنخيل وأشجار الزيتون... حسنًا... والآن، وطالما أنك غدوت لا تخجل منى فلا بأس من أن أقدم لك هذه الباقة من الزهر....

وفرقع الرجل بسوطه فى الهواء بعد أن أهوى به على ظهر أحدهم، ومن الفور ركع العبيد: العشرة عند أقدام الزائرين، وأمرهم جلادهم بالنهوض فنهضوا، وما إن فعلوا: حتى هتف الرجل:

ـ نحن آلهتكم، وأنتم عبيدنا وعبادنا... أليس كذلك؟؟..

فأجاب العبيد فى صوت واحد خفيض:

ـ بلى .. مولانا.

فقال الرجل مبتسما فى صرامة موجها حديثه للوافدين:

ـ مرحبًا أيها الزائرين... إن العبيد رهن إشارتكم وملك يمينكم... لقد تخرجت هذه الدفعة من ورش ومعامل القلعة... إنهم شباب يافع... لقد صقلت مواهبهم تماما بعد أن تم لنا فرزها تحت إشراف الحكومة... إليكم مثلا هذا الجانزى الذى يحمل وشم الرقم ٧٧٥ب فوق ذراعه... إن موهبته هى الغناء... نحن لم نشأ أن نسميهم حتى يتسنى ذلك لمن يشتريهم... والآن... أسمعهم صوتك أيها الجانزى...

وانحنى العبد الذى أشار إليه الرجل وهمس:

ـ أية أغنية تختار يا مولانا؟؟...

فلم يسع الجلاد إلا أن ينهال بالسوط على جلد الجانزى هاتفًا:

ـ أية أغنية لها من سمات البهجة ما يبعث السرور فى نفوس الآلهة من حولك...

وهنا انبرى العم قائلاً:

ـ حسنا ... يمكنك أن تغنى:

كـــــان اللــى كـــــان * كـــــلــــه بـــــأوان

وآدى المـــــكـــــان * فـــوق ضـــهـــر جـــان

وعـليـــــه نـعـــــيـش

اعـــمـل كـــبـــيـــر * مـنـصـب خـطـيـــر

لـفــــوك حـــريـر * ح يجـــيـك نكـيـــر

يقلبـــهـــا خـــيـش

ومن الفور همس العبد قائلاً:

ـ لك ذلك إلهى... حقيقة إننى لا أفهم بعض الكلمات مثل "تكير وجان وخيش" ولكن يبدو أن الموضوع تغلب عليه المأساوية الهزلية.... إن ذلك يناسبه مارش عسكرى ممزوج بلحن جنائزى متداخل مع نغمة عاطفية ضاحكة باكية صارخة...

وتريث الجانزى هنيهة، ثم بدأ يصدح بالكلمات التى كان قد حفظها بمجرد نطق العم بها كأمر قد يبدو غير متوقع...

أنصت السامعون إلى لحن العبد المغنى، ولقد كان صوته حقًا جديرًا بالسماع والإعجاب... لقد شنف الآذان من حوله بصوت عذب تدفق سياله وسلسبيله إلى النفوس المتألهة من حوله فعاد بها إلى حضيض من العبودية لتتنفس شذى الله الحق...

وعلى حين فجأة : فرقع الجلاد له بالسوط كيما يصمت وهو يعيد الشطر الثانية من البيت الثانى...

ومن الفور بدأ يستعرض موهبة جانزى آخر وقد كانت موهبة الرسم: فرسم لمعظم الوافدين وجوههم بتفاصيلها المتقنة على صفحات بيضاء بقلم من الرصاص قدمه له الجلاد، ولقد عمد هذا العبد إلى تحاشى الكثير من العيوب الخلقية بإيماز من الجلاد الذى كان يطمع بالطبع فى بيع مزيد من العبيد...

وعلى ذلك استعرض عبدًا آخر له موهبة الخط ثم عبدًا له موهبة الموسيقا ذلك الذى عزف على كمان قدمه الجلاد...

راحت المواهب تتالى وتتابع، وبيع فى تلك اللحظات الجانزى الموسيقى لسيدة ثرية كانت تقف على مقربة، ولقد دفعت ثمنًا له ألف جنيه قبضها الجلاد ودمغ لها عبدها أسفل إبطه بوشم أحمر مستخدمًا فى ذلك مجموعة من الإبر الخاصة وسلمها صك البيع...

وهنا أخطأت غادة خطأ ذريعًا كان من شأنه أن ينغص صفو الرحلة، بل وكان من شأنه أن يقتل سعادتهم وأدًا...

أجل فما كاد يتجمع عدد كبير من الزائرين حول مجموعة الجانزيين حتى هتفت غادة فى فخر:

ـ ولكن... لم نشاهد مطلقًا جانزيًا فى مثل شطارة آمون... إنه نحات بارع...

ولما كان العم لا يدرى العاقبة حتى تلك اللحظات، فإنه لم يجد فى تصريح غادة أية غضاضة أو أدنى خطر، بل على العكس: فلقد قابل ذلك التعليق بنوع من الزهو بما يملك، وعليه فلقد هتف وهو يتخلل شعر لحيته بأصابعه:

ـ حقاً، إنه نحات بارع...

لم يشعر العم جمال إلا والعيون تبحلق من حوله بطريقة مريبة حقًا، ولكنه لم يجزع من تلك العيون جزعه من الجلاد الواقف أمامه وقد علق بصره على آمون للحظات طويلة هتف بعدها بلهجة مريبة:

ـ أحقًا ذلك؟؟... يا لروعته إذًا... عليكم بانتظارى أيها السادة حتى أجلب حجرًا وأزاميل من المعمل لنرى كيف سيكون إبداع آمون...

وبرح الجلاد مكانه مسرعًا، ولم تمض أكثر من عشر دقائق: حتى أقبل الجلاد ومعه حجر أبيض مربع فى معية رجل مهيب مسن مصطحبًا ابنته التى كانت فى عمر غادة، وبيده مجموعة من الأزاميل والمطارق، وما إن دنا من الآلهة المتحلقة حول العبيد: حتى اخترقا زمرتها، وقدم الجلاد الحجر لآمون، بينما قدم له الرجل الأنيق المسن مجموعة الأزاميل والمطارق وما أن تم له ذلك حتى قدم نفسه للعم بوصفه صاحب العبد آمون:

ـ لى شرف استعراض موهبة عبدكم يا سيدى ... أنا محفوظ محفوظ محفوظ: مدير القلعة... لقد اهتممنا بموهبة عبدكم... أتعلم لماذا يا سيدى؟؟.. ذلك لأن موهبة النحت غدت نادرة الوجود منذ سنوات... إنه لأمر جد رائع وجد مدهش وجد قيم تلك الموهبة مازالت لها آثار بين الجانزبين... إن هذه الموهبة قد انقرضت بينهم وراثيًا، ولسنا نعلم سببًا لذلك، إنها لصدفة مدهشة يا سيدى...

وهنا همس آمون فى لهجة سامية بعد أن كرر انحناءه لكل من الجلاد والمدير.

ـ إن الحجر لا يكفى لأكثر من رأس أحد الآلهة فحسب، مع جزء من العنق...

وهنا انتهز الجلاد المسك بسوطه هذه النهزة وهتف فى مرح مفتعل:

ـ حسنا ... عليك بنحت رأس مدير القلعة...

وبين النظرات المعجبة، وبين نظرات الهلع والقنوط المتساقطة من العم وبهاء وغادة بين كل تلك النظرات: بدأ آمون العمل، فجعل يحدق إلى عجرات وقسمات وجه المدير مليًا، وانهال بأزاميله ومطارقه على الحجر المقدم، وتطاير غزير من المسحوق الجيرى لينكشف فى النهاية وجه الرجل الذى بدا كما لو كان مختبئًا فى تلك الكتلة الحجرية منذ زمن ثم أزيح عنه الستار فجأة وبسحر ساحر...

وما أن تألق رأس المدير على ذلك النحو المذهل من الجمال والأناقة والدقة حتى وكانت العيون قد أخذت تمامًا، بيد أن المدير والجلاد لم يمهلا الجميع، فلقد قال الجلاد بلهجة

خاصة مبهمة وهو يمسك آمون من ذراعه التى غطيت تمامًا بالمسحوق الجيرى:

ـ رائع... رائع يا آمون... والآن يمكنك أن تتوجه مع فخامة مدير القلعة إلى المعمل لبعض الوقت، ويمكننا أن نستعيرك هذا الوقت القصير لقضاء بعض المهام المعملية...

وهنا تقدم العم جمال من الجلاد وقد نفرت عروق ساعديه واحتقنت عضلاته بمزيد من الدماء الغضبى وهتف فى لوعة:

ـ ماذا تضمر إذًا أيها الجلاد؟!

فقال المدير الأنيق الذى كان شعره فى بياض الثلج بلهجة هادئة:

ـ هدئ من روعك يا سيدى... فحسب هى بعض المهام المعملية سيعود إليك بعدها.

ونظر العم حواليه، فشاهد غادة وقد اكفهر وجهها تمامًا فصار فى صفرة الموتى، وألفى بهاء وقد غدا تمثالاً قُد حديثًا من حجر صلد لا يتحرك....

وأسقط فى يد الجميع وهم يشاهدون الجلاد وهو ينسحب مع المدير وآمون بعيدًا بعيدًا نحو معامل وورش القلعة مجتازين فناء السوق الذى وقف فيه بقية الجلادين ومن معهم من عبيد قد التف حولهم مزيد من الزائرين....

غاب الجلاد لحظات كانت ما أثقلها على النفوس الملتاعة، ولكنه عاد بعدها فى غير معية آمون... وهنا أسرع إليه العم فى خطوات مزمجرة، وأمسك بتلابيبه هاتفا:

ـ ويحك أيها الجلاد النكرة الفر... أين ذهبت بآمون؟؟؟.. خبرنى وإلا دققت عنقك بلكمة واحدة... سأهشم يافوخك أيها الفر إن لم تخبرنى عن جلية الأمر؟...

وهنا قال الجلاد فى هدوء يبعث على الغيظ القاتل:

ـ حقيقة إنك بطل يا سيدى، ولكن ماذا تجديك تلك البطولة وتلك القوة أمام حراس القلعة؟؟.. ماذا تجديك أمام جلاديها مجتمعين؟؟.. إنه لا يمكننا حيال ذلك الأمر إلا أن نهديك جانزيًا آخر عوضًا عن آمون الذى ستحتفظ به القلعة بأمر من مديرها محفوظ محفوظ محفوظ،، ولقد وقع الاختيار بالفعل على العبد المغنى... إنه لك يا سيدى منذ الآن... ومن الممكن أن نشم اسمك أسفل إبطه...

وما إن نطق الجلاد بذلك: حتى كان العم يندفع إليه فى سرعة مطبقًا على رقبته، وفى لمح البصر كان قد اشتبك مع الرجل فى قتال مخيف كان يهتف خلاله بصوت رهيب:

– آلهة وعباد... آلهة وعباد... كلا بل: نخاسون وعبيد... نخاسون وعبيد...

انطرح الجلاد أرضًا وقد جثم فوقه العم جمال كما لو كان إنسانًا بدائيًا همجيًا: ولكن وبسحر ساحر طوح به بعيدًا، وما أن رفع رأسه من فوق الحشائش حتى فوجئ بعدد من،

السناكى المشروعة قد صوبت إليه من كل اتجاه، وما أن فاءت إليه نفسه لمح على ميمنته ضابطًا من ضباط الشرطة برتبة "مطارد" يوجه إليه سؤالاً مقتضبًا:

ـ والآن لا نحسبك سوف تعارض فى امتلاك العبد المغنى عوضًا عن آمون ... ما اسمك يا سيدى حتى نشمه على إبط العبد؟؟...

وهنا سمعت غادة وهى تهتف على مبعدة فى صوت ملتاع قد حشرجه البكاء

ـ اسمه البطل جمال عبد المجيب.... إنه عمنا العظيم، كيف لكم أن تطرحوه أرضًا وتسلبوه آمون!!... أواه يا آمون... وددت لو انتحرت من أجلك يا آمون... أنا المتسببة فى فقدانك يا آمون... واحسرتاه عليك يا آمون... تبًا لىَّ وللسانى يا آمون...

وهنا سمع صوت بهاء:

ـ هل اقتنعت الآن بأنك شريرة؟؟... إنك تنتزين إلى الشر دائمًا... بئس البنات أنت!...

وهنا قال الضابط:

ـ لا بأس... لا مجال للنواح : فإن ذلك سينقص من هيبة وأبهة الآلهة الآدميين فى نظر العباد... لا بأس ... انهض أيها السيد...

ثم هتف مناديًا:

ـ يا شعلة ...

ورد الجلاد:

ـ لبيك سيدى الضابط...

ـ عليك بوشم اسم هذا السيد على إبط العبد... هيا حتى أعد له صك البيع ليوقعه مدير القلعة ....

تسلم العم الحزين الدامع العينين صك البيع من الضابط وقد وقع عليه من المدير محفوظ محفوظ محفوظ واقتادهم مع جمع من الجلادين بداخل الفناء الرحيب فى طريقهم إلى بوابة القلعة، وما كادوا يتوسطون ذلك الفناء حتى رفع الكل وجوههم إلى السماء وقد شاهدوا عجبًا...

فلقد احمرت السماء إحمرارًا داميًا بعد أن كانت صافية الزرقة... احمرت السماء كما لو كان جمع ضخم من الجن قد أريقت دماؤهم فتشحطت صفحة السماء بتلك الدماء القانية...

علق الناس والعبيد أنظارهم على ذلك المشهد الرهيب العجيب الذى لم يشاهدوا له مثيلاً من قبل... وإنهم لكذلك إذا بهم يسمعون الناس يتكلمون ويتصايحون ويهتفون ويتجادلون ويضجون خارج الأسوار....

أصاخ الجميع السمع وقد زاغت أبصارهم وانحبست أنفاسهم:

ـ علامات الساعة .. دلائل الساعة ... يوم القيامة...

ـ انفجرت كل البراكين حول المحيط الهادى ...

ـ إنه بركان شيمبورازو، وبركان كونوباكسى، وبركان باريكوتين، وبركان بوبو كاتبيتل، وبركان: فوجيياما، وبركان مايون، وبركان تال، وبركان مونت لا منتجون، وبركان سانت هيلانة، وبركان كليمانجارو، وبراكين جزيرة أيسلند... لقد جاء ذلك فى صحيفة المساء ولم نكن لنصدق.. حمداً لله أنها ليست فى بلادنا...

ـ المساء ... اقرأ أخبار المساء.... المساء... أبو الهول... أبو الهول... النجوم... أخبار البراكين أقرأها فى المساء.... علامات القيامة اقرأها فى "أبو الهول"...

ـ السماء دامية قانية وكأنها بحيرة من الدم... إنه لهيب ينبعث من البراكين المحيطة بالمحيط الهادى....

ـ المساء .... المساء... أبو الهول ... "قربنا نشطب"....

ـ لا تقنطوا من رحمة الله... إن الله مع المسلمين ....

ـ مدد يا سيدنا محمد يا خاتم المرسلين...

ـ أنت شفعينا يا محمد يا نبى الله وحبيبه...

ـ المساء .... المساء... أبو الهول... اقرأ المساء... "شوية وح نشطب"... "الحق لك عدد قبل ما يخلص"...

ـ لله يا محسنين... لم أتناول طعامًا منذ طلعة الشمس... الحسنة لها عشر أمثالها... فرصة لدخول الجنة يا محسنين... ألا تزيد من رصيد حسناتك يا سيدى بالتصدق على مسكين؟؟...

ـ خذ ... لك هذا الصك باكمله..

ـ وذاك نصف صك...

ـ المساء ... المساء... أبو الهول... أخبار البراكين... اقرأ رأى الدين فى المساء...

- لله يا أسيادى... الجنة لكم يا محسنين....

- المساء ....

- عيل تائه يا أولاد الحلال...

- المساء .... أبو الهول.... النجوم...

- حسنة لله يا أهل الخير....

- لقد احمرت السماء أكثر من ذى قبل... ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ صدق الله العظيم... (سورة فصلت الآية ٥٢)

- المساء ... أبو الهول....

- الله أكبر.... الله أكبر ... حى على الصلاة... حى على الصلاة...

- البقاء لله... توفى إلى رحمة الله المعلم رجب مدكور الحانوتى بالحسين، والجنازة من أمام رحاب السيدة زينب الأثرى....

- المساء .... المساء....

- حسنة لله يا أهل الخير ....

- المساء ... أبو الهول ... "الحقلك عدد" اقرأ رأى الحكومة والدين والعلم....

- إننى لا أكاد أرى الشمس وهى تغرب... إن ذلك من علامات الساعة... أيها الناس: لقد قال الله فى كتابه الكريم:﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ صدق الله العظيم...

(سورة يونس : ٢٤)

- المساء ... المساء... رأى الدين فى المساء... رأى أكاديمية العلوم فى المساء.... أبو الهول .... أبو الهول... النجوم....

- أيها الناس، فليكف كل إنسان عن عمله وليتجه بقلبه وروحه إلى الله ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ صدق الله العظيم...(سورة الدخان : ٩)

- المساء .... المساء... اقرأ أخبار البراكين فى المساء... حلقة النار حول المحيط الهادى اقرأ أخبارها فى المساء....

ـ أيها الناس... فليناج كل منكم ربه، إنها علامات الساعة... لقد قال الله فى كتابه العزيز ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ صدق الله العظيم...

ـ عيل تائه يا أولاد الحلال...

ـ المساء .... المساء... "قربنا نشطب"....

ـ أيها الناس، ليتجه كل منكم إلى ربه فى تلك اللحظات... ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ صدق الله العظيم...

ـ المساء ... الحقلك عدد...

ـ أيها الناس ... كلا ... ثوبوا إلى رشدكم... لا تجزعوا... إنها مجرد ثورات عارمة للبراكين... إنها أبعد من أن تكون علامات الساعة... أين خروج المسيخ الدجال، أين نزول عيسى عليه السلام، أين خروج يأجوج ومأجوج، أين خروج الدابة، بل أين طلوع الشمس من مغربها؟

ـ المساء... المساء ... "الحقلك عدد" أخبار يوم القيامة وثورة البراكين اقرأها فى المساء ... المساء... المساء... أبو الهول.. النجوم...

ـ إن الأرض بسبيلها إلى الانفجار والتبدد...

ـ لقد أنذر العقل الإمبراطور الناس من قبل ....

ـ ماذا اتخذت حكومتنا لإنقاذنا؟؟...

ـ لا شيء حتى الآن، ويبدو أنهم لا يعتقدون ...

ـ المساء .... المساء....

ـ يقولون إن الدول الكبرى ستهب الصغرى الصواريخ اللازمة للنجاة....

ـ هه .... لم نر شيئًا من ذلك....

ـ إن الأمر لن يكون إقراضًا ... بل لابد أن تشترى الدول الصغرى تلك الصواريخ وإلا فلا مناص من ترك الدول الكبرى للصغرى كيما تواكب الانفجار المروع....

ـ بالطبع ... ذاك هو الذى سوف يحدث ....

ـ هه ... إنه إذاً قانون البقاء للأصلح...

ـ هه ... بل البقاء للأقوى...

ـ هه ... بل البقاء للأعلم..

ـ الذين لديهم علم من الكتاب ... إنهم قادرون على إحضار عرش بلقيس العتيد قبل أن يرتد طرف البشرية التى ستحتضر مع كوكبها الأرضى، وعرش بلقيس هنا ... هه ... هو الزهرة أو ... هه ... المريخ... هه أو هما معًا ...

ـ المساء .... المساء ... الحقلك عدد ...

ـ هل هناك صاروخ لدى أمريكا أو روسيا أو ألمانيا أو إنجلترا أو فرنسا أو الصين يتسع لحمل الكمية؟؟...

ـ لابد من إنقاذها بالحتم... بالحتم ... بالحتم ...

ـ المساء .... المساء... قربنا نشطب .....

ـ واحسرتاه عليك يا أبو الهول ... المساء .... المساء .... النجوم ...

ـ اين مكانك أيها المصرى فوق المريخ أو الزهرة؟؟..

ـ البقاء لله... توفى إلى رحمة الله المعلم رجب مدكور الحانوتى بالحسين والجنازة من أمام رحاب السيدة زينب الأثرى....

ـ لقد قالوا إن الإمبراطور قد تنبأ بأن الكرة الأرضية سوف تنفجر فى أواخر هذا العام... إذاً فلا تزال هناك شهور.

ـ المساء... المساء... رأى العلم اقرأه فى المساء... أبو الهول...

ـ ترى هل سيمكن نقل تحف الفراعنة معنا؟؟..

ـ عيل تائه يا أولاد الحلال...

ـ فرصة للحسنات يا أهل الخير... ضاعفوا من حسناتكم بقروش لو تبتغون الجنة....

ـ ماذا: لو وجدوا سكانا فوق كوكبى التهجير؟؟...

ـ المساء...

ـ قد يستقبلون أهل الأرض أروع استقبال...

ـ أبو الهول... المساء .... المساء...

ـ بل ربما تنشب الحرب بيننا وبينهم بوصفنا مستعمرين...

ـ المساء... اقرأ فى أبو الهول: رأى الدين ورأى العلم...

ـ لله يا محسنين...

ـ المساء....

ـ لله...

ـ أبو الهول...

ـ لله...

ـ عيل تائه...

ـ لله...

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون...

ـ لله ....

ـ المساء... النجوم... أبو الهول... المساء...

ما إن لفظ العم وصحبه خارج القلعة حتى استقلوا العربة، وما كاد العم يهم بالانطلاق بعربته حتى اعترضه بائع الصحف من النافذة مادًا له يده، بصحيفة المساء وصحيفة "أبو الهول" وصحيفة "النجوم" هاتفًا:

ـ اقرأ أيها المحترم: رأى الدين ورأى العلم ورأى العقول الإلكترونية ورأى الحكومة... كل ذلك فى المساء...

فتناول منه العم الجرائد الثلاث، ودفع صحكين ونصفًا ثمنًا لها - الصك أربعة قروش فى عام ٣٠٠٠م - وأسرع من فوره يمرق بعربته، وقد لاحت له الجماهير فى الشوارع وكأنها أشباح مريبة تكاد تتلاشى كلما بدت، وما أن سار فى طريق عمومى نشر صحيفة المساء وجعل يقرأ على الضوء الأحمر القرمزى الذى خضب الصحيفة...

طالع ما خط بالرسم العريض فى مستهل الجريدة المسائية هذه الأخبار:

* حلقة من النار حول المحيط الهادى...

* جبل من الجليد الطافى على حافة بحر "ويدل" بمنطقة القطب الجنوبى وفوقه جانزيان صغيران قتلتهما طيور الفلمار السفاحة، وبجوارهما عدد من البطاريق العملاقة الميتة نتيجة لانفجار الإمبراطور، وبين تلك الجثث وجدت مفكرة جيب صغيرة تحوى مذكرات العالم بيرسون الذى كان مشرفًا على العقل الإمبراطور بالقطب الجنوبى...

* علماء الفضاء يقولون: "الحديد أثمن من الذهب فى الوقت الحاضر، بل وإلى الأبد... "

وجاء بشأن الخبر الأول الصاعق هذا التعليق:

انفجر اليوم ما يزيد على ثلاثين بركانًا حول المحيط الهادى، بالإضافة إلى بركان كالمينجارو بإفريقيا وبراكين جزيرة أيسلند وبركان جزيرة سانت هيلانا التى غرقت عن آخرها واتخذت طريقها إلى أعماق المحيط، تلك الجزيرة البركانية النشأة التى كان قد نفى إليها نابليون بونابرت....

وبالنسبة للخبر الثانى : فلقد جاء تعليقه كما يلى:

تم العثور اليوم على جبل جليدى عائم فى منتصف المنطقة من المحيط الأطلنطى والتى يلتقى فيها ببحر ويدل الذى تطل عليه شبه جزيرة بالمر الواقعة بقارة القطب الجنوبى "إنتاركاتيكا" وفوق ذلك الجبل الجليدى عثر البحارة الأمريكيون على طفلين من الأطفال الجانزيين مقتولين وقد تسربلت وتشحطت الثلوج من حولهما بدمائهما الزرقاء، وبفحص الجروح المريعة التى جللت كل جزء من جسديهما: اتضح أن طائر الفلمار السفاح هو الذى قام بمهاجمتهما وقتلهما، وقد عثر معهما على أربعة بطاريق من النوع العملاق النادر الوجود والبالغ من الطول ١٧٠ سم والبالغ من الوزن ٧٥ كجم، ووجدت تلك البطاريق ملقاة إلى جوار الطفلين كأمر مستغرب حقا، ولكن الأعجب من ذلك كله: أنه قد تم العثور بين هذه الجثث على مفكرة صغيرة باسم العالم بيرسون الذى كانت الحكومة الأمريكية قد نوطته للإشراف على العقل الإمبراطور الذى كان قد انفجر وتبدد فوق ثلوج شبه جزيرة بالمر، وبالإطلاع على هذه المفكرة العجيبة : اتضح أنها تحتوى على بعض انطباعات العالم عن الحياة المفزعة التى كان يحياها بتلك المنطقة، ولقد بين فى صفحاتها الأولى أن القصد من إيفاده إلى تلك القارة بصفة شخصية، لم يكن مرجعه

أساسا إلى نبوغه وعبقريته فحسب، بل كان إلى جوار ذلك رغبة أكاديمية العلوم الأمريكية الأكيدة فى نفيه إلى تلك البقاع، ولقد أشار إلى أنه كان موضع غيرة من رئيس الأكاديمية، رغم ظهور الأخير بمظهر الصديق الوفى العطوف الذى يتبنى فكره ومواهبه وما يتسم به من عبقرية ونبوغ ، بيد أن رئيس الأكاديمية أوعز إلى الحكومة بنفسه كيما توافق على إيفاده إلى ذلك المنفى الجهنمى تحت قناع الإشراف على الإمبراطور، وكتب مبينا فى اعترافاته الخطيرة: أنه كان أحجى أن يقوم رئيس الأكاديمية بإيفاد شخص آخر غيره من الشباب حتى يمكن أن يقاوم الظروف المناخية الرهيبة التى من الممكن أن تقضى على رجل مثله قد قضى سنى عمره فى البحث والتأليف والابتكار، ولقد أضاف أن معظم الأبحاث التى أضيفت إلى رصيد أبحاث رئيس الأكاديمية كانت من أساسها أبحاثه

هو التى اغتصبت اغتصابًا... هذا ولقد أضاف قائلا: إن القارات قد انزلقت فى الألف سنة الأخيرة فوق بازلت قيعان المحيطات بسرعة لم تكن متوقعة من قبل مما أدى إلى مزيد من التجعدات والانكماشات فوق سطح اليابسة، تلك التى نجم عنها فوالق رهيبة وبراكين ثائرة وزلازل تجتاح البسيطة، وأشار إلى أن السبب الرئيسى لتلك الزحزحة العنيفة : هو تزايد أحجام الصفائح البركانية البالغة من السمك ٢٠٠ كم والتى تقذف بها السلسلة الفقرية الموجودة فى المحيط الأطلنطى والتى تمثلها جبال راسخة فى وسط المحيط تقذف بالحمم فى شكل صفائح تدفع القارات بعيدا عنها، مما أدى فى النهاية إلى اتساع المحيط الأطلنطى وضيق المحيط الهادى .... وقال إن الكائنات والبشرية فى سبيلها إلى مذبحة إبادة تشبه تمام الشبه مذبحة

القلعة التى دبرها محمد على باشا التركى للمماليك بعد دعوتهم للإحتفال بهم فى قلعة صلاح الدين بمصر، وفسر قوله العجيب بأن القارات الزاحفة المتزحزحة إلى وسط المحيط الهادى: ستتجمع أخيرًا بعد أن كانت كتلة واحد وهى "أم القارات" منذ ملايين السنين، ونحن نعلم أن حوض المحيط الهادى يمثل الهوة الهائلة التى نجمت عن انفصال كتلة القمر عن الأرض فى الزمن الغابر بسبب جاذبية الشمس بعد أن تكونت القشرة الأرضية الخارجية وهى الطبقة الجرانيتية، وتلك الهوة بالطبع ابتلعت كمية هائلة من الماء فكشفت عن جزء مقابل من اليابسة كان مغطى تماما بالماء ... ومتى ما اقتربت من نهاية رحلتها فإن حلقة النيران المحيطة بالمحيط الهادى والتى تتمثل فى البراكين الرهيبة القابعة والفاغرة الأفواه حوله لن تلبث هى والبراكين الأخرى المقابلة والتى تتوج الجزر المرجانية لن تلبث أن تنفجر لتطفح باللافا التى ستهلك كل شبر من مسطح اليابسة ، ومن بعد ذلك تغوص القارات متخذة طريقها إلى أعماق المحيط الذى ستنتابه حركة مد رهيبة بفعل جاذبية القمر الذى زادت كتلته بسبب مزيد من الغبار الكونى والنياز والشهب التى استقرت عليه بعد رحلتها عبر الفضاء وقد انفصلت من سدم مجاورة: على شكل مذنبات تجر أذيالها كتينات عملاقة تعربد فى الفضاء وقد أسكرتها طاقتها الجبارة .

وفى الصفحات الأخيرة الملوثة بالدماء الزرقاء والحمراء: استطرد مدونا أن : الإمبراطور كان فى الفترة الأخيرة قد أجزم بإنفجار الكرة الأرضية، معترضا بذلك على الاقتراح الذى نادى به: العلماء من قبيل، وهو أن الأرض فى طريقها إلى تغيير قشرتها وإهلاك كائناتها الحية، وقال مضيفا إنه يؤيد

العلمـــاء ولا: يؤيد الإمـــبـــراطور الذى كـــان قـــد أضـــمـــر له منذ بداية هذا العـــام: أن يســـأله عـددا من الأسـئلة الخطيـرة، بغض النظر عما تحمله من متاعب أو كوارث مـحـتـملة رياضـيًـا... وقـال إنه لا يعـــتـــرض على إمكان فناء الكائنات بما فيـهـا البـشـر على ذلك النحـو المؤسف لعـدة أسـبـاب... أولهـا: أن الكائنات قـد خلقت ليـفنى بعضـهـا البعض، وهذا يبدو جليا من فناء العـديد من الحـيـوانات بفـعل الإنسـان، ولعل أخـصـهـا: حـيـوان البندا العـمـلاق ذو الوجـه الضـاحك الذى يقـتـات بصـفـة خـاصـة على سيـقـان الخـيـزران الفـضـة...... وثانيـهـا: أن هذا النهج الغـريب لا يتنافى مع المنحنى الطبـيـعى الناقوسى الشكل دائما، فالكائنات قد وصلت بل تجـاوزات نقطة قـمـة الناقوس وذلك بعد ما أنجبت الإنسان فـتكاثر على ذلك النحـو الذى جـعله فى النهـاية يتـربع على عـرش الأرض ككائن طاغـيـة، ومن هنا كـان لزامًـا على المنحنى أن يتـدهور من جـديد ومن شـأن ذلك أن يدفع به إلى نقطة الصـفـر التى كـان قـد بدأ منهـا بالفـعل منذ مـولد الزمن، بل منذ مـولد مـا يشـيـر إلى الزمـان، وقـال أيضـا إن الطبـيـعـة قـادرة على إعـادة كل ذلك كـمـا بدأته تمامًـا، وقـال إن الطرز الجـديدة التى سـيـخلقـهـا الله لن تخـتلف كـثـيـرا عن مـثـيـلاتهـا الحـاليـة، اللهم إلا فى بعض التـصـمـيـمـات البـيـئـيـة، وذلك مـا دامت نفس ... الظروف الطبيعية واحدة من هواء وماء ويابسة وحرارة، ولكن أجمل ما فى الموضوع كله أنه قد ينشأ نوع إنسانى.

أكثر تفهمًا ووعيًا لإنسانيته وأكثر فـهـمـا لخالقه وبذلك وحده يمكنه أن يتـعـامل بصـورة أفـضل مع وجـود الله دونما طغـيـان ودونما غطرسـة، بل بمـزيد من الآدمـيـة وبمـزيد من الانبـهـار لقـدرة الخـالق ... العلمـاء فى جـمـيع الدول الكبـرى قد اتخـذوا تلك الأخبـار الأخيـرة مـأخذ الجـد، منذ أن زادت أحـداث البـراكين والـزلازل الـتـى أودت بمـزيـد مـن

وبالنسبة للخبر الثالث : فلقد علقت الجريدة عليه فى صفحتها الخامسة: قائلة أن :

ملايين البشر فى السنوات الأخيرة، وأن هناك اتصالات سرية بين الدول التى سيلقى على عاتقها المسئولية برمتها، كما أن هناك ما يشير إلى ما تتخذه تلك الدول من تكاتف: لصناعة مزيدا من الصواريخ الجبارة المختلفة الأشكال

والمختلفة فى أنواع الوقود المستخدم لتوصيل الكائنات الأرضية إلى الكوكبين المتسنيين، ولقد بات جليًا أن الحديد الذى لا يصدأ: سيصير من الآن فصاعدًا فى مستوى أرفع من الذهب الذى تربع على عرش المعادن ردحًا طويلاً من الزمن ....

وبعدما انتهى العم من قراءة تلك التفاصيل العجيبة، وبعد أن تطلع إلى صورة الجبل الجليدى العائم وفوقه الطفلان العجيبان والبطاريق المقتولة والمفكرة الملوثة بالدماء الزرقاء والحمراء... بعدما تم له ذلك وبقلب لاهث: أوقف عربته أمام محل للمصوغات والحلى، فاشترى "صيغة" لغادة، وعرج على محل للملابس والأحذية، فانتقى لها ولبهاء ما يلزمهما للعرس، وعندما احتل الجميع أماكنهم بالعربة حتى هتف:

- والآن أيها الجانزى الرعديد... بماذا أسميك؟؟... بماذا أسميك؟؟... حسنًا.... ليكن اسمك "باستت"... هه... إنها ربة الحب والموسيقا والغناء لدى الفراعنة... أسمعت؟؟...

فرد العبد ونظرات الخوف تتساقط من بين عينيه:

- اسمى "باستت" يا مولاى... باستت.... هدئ من روعك يا مولاى... لا تغضب... سأشنف أذنيك بصوتى العذب.... لا ريب أنك حزين من أجل آمون ناحت التماثيل، ولكن لا بأس يا مولاى... سأشدو فأطربك دائمًا...

وهنا أهوى العم بكفه على وجه باستت صارخًا:

- وماذا يجدينى الغناء؟؟... إن صوتى عذب أنا الآخر... إننى أطرب نفسى بنفسى....

فقال باستت مرتعدًا:

- سأشدو لك يا مولاى فى ظلمة الليل، سأشدو لك فى الصباح المبكر... ستستقبل يومك بأجمل نغم وأعذب لحن... عند الطعام: سأشدو لك حتى تفرغ منه... خلال عملك:

سوف أطريك بكل ما يبهجك وما عليك إلا أن تأمر... سأطريك وسأشدو لك فى كل آونة...

ـ أوه... أوه... لقد عدت إلى نفس النغمة المؤسفة أيها الإنسان الرهيب... عليك ألا تردد كلمة إله، وإلا أدميت جسدك بالسوط.. لقد.. علموك ذلك بين جدران القلعة... عليك أن تقلع عن ذلك و إلا ألهبت جسدك...

ـ سمعًا وطاعة يا ....

ـ يا صديقى... قلها دائمًا... والآن... هيا اسمعنا صوتك... عليك أن تغنى لىَّ يوم تقوم الساعة...

غنى باستت وشدى وصدح وردد أزجال العم فسره منه ذلك طوال الرحلة...

أما عن غادة: فلقد لاذت بالصمت منكمشة على نفسها بجوار النافذة مبتعدة عن بهاء الجالس إلى جوارها، بيد أنها راحت تستمع إلى غناء باستت، فخيل إليها أنها تستمع إلى رجع صدى صوت آمون وقد وقع فى قبضة من لا يرحمه، مما جعل نفسها تنزف دمًا سربل روحها الشقية...

قام الليل متثائبًا متمطيًا بعد أن أيقظه أخوه النهار: ليحل مكانه، ولم يجد الليل مندوحة من الرقاد فوق عالم آخر بوصفه كائنًا خمولاً، ومع خيوط الفجر: كانت قد أقبلت الأوزة البيضاء نحو بلدة الأغورمى بواحة سيوة...

عرجت العربة إلى حيث المقابر المهجورة، فغادرها بهاء وغادة التى حملت ملابس وحلى العرس، ثم انطلقت الأوزة البيضاء مقلة العم وباستت المغنى إلى حيث بيت السلطان بجبل الدكرور، الذى ظل فى حراسة كلاً من منكر ونكير اليافعين طيلة ليلة ويوم بأكملها...

أسرع بهاء من فوره إلى الكوخ،، فاستقبله الكلب صافى الذى كان رابضا عنده، وما كاد أن دنا من سريره: حتى تهالك فوقه متعبًا منهكًا مكدودًا...

أما غادة فلقد دخلت من خلفه وألقت بملابسها وصرة حليها فوق سريرها، ثم خرجت متجهة إلى التماثيل الجميلة التى تمثلها وهى تبيع البلح لأحد الصبية وفوق رأسها مرجون ممتلئ وقد وقف من خلفها بهاء فى قنوط ظاهر، ولقد فتنها أن تشاهد العصافير تطير وتغرد من حول التماثيل التى كانت ذكرى لا تنسى: "لآمون"....

واتجهت غادة إلى حيث قبر أمها وجعلت تحدق إلى وجهها فى عين الأم العجيبة وجعلت تتمتم:

ـ عمت صباحا يا أماه... لقد جئت إليك بخبر جديد... أجل... إنه سوف يفرحك بلا ريب يا أماه... لقداستجاب العم جمال أخيرًا واشترى ملابس العرس والحلى من جيبه بعد أن كان يمانع فى ذلك... لقد حلت عقدته أخيرًا....

وانفلتت من أمام القبر، وراحت تحدق إلى سعف رشيدة الرشيدة متمتمة:

ـ أوه... ما أخبارك أنت الأخرى يا رشيدة؟؟ـ أواه إن سعفتك الوسطى تشير كالسهم إلى السماءـ ما معنى ذلك؟؟ـ سعفاتك الجانبية لا تتحركـ ما معنى ذلك؟؟ السعفة المدلاة السفلى تشير من أسفل إلى أعلىـ ما معنى ذلك؟! لماذا تحدثينى بتلك الألغاز المبهمة؟! أنا لم أعهد فيك ذلك مطلقاـ لقد بدأت تكتنزين الأسرار والأخبار لنفسكـ لا بأسـ أنا لا أقوى على ترجمة كلامك فى هذا الصباح، ربما كان ذلك لأنى مجهدةـ سأذهب الآن للنومـ عمت صباحًا يا رشيدةـ عمت صباحًا...

وعرجت غادة على التو إلى حظيرتها: فاطمأنت على خرافها وعنزاتها ودواجنها، ثم اتجهت إلى كوخها، وما أن ولجته: حتى شاهدت بهاء وقد انطرح فوق سريره ووجهه إلى أعلى فى تعب ملحوظ، فهمست له وهى تجمع أثوابها الجديدة وحليها لتضعها فى صندوقها الخشبى:

ـ والآنـ يبدو أنك متعب تمامًا يا بهاءـ لا بأسـ سأقص عليك قصة ألفتها وأنا جالسة بالأوزة البيضاء فى رحلة العودة الحزينةـ

وهنا لم يسع بهاء إلا أن يزفر متأففًا:

ـ أوهـ دعينى أنام يا غادةـ لا متسع لسماع حكاياتكـ إنها ورغم سذاجتها تتجسم لىَّ فى المنام على شكل عفاريت وغيلان يقضون مضجعى ويزعجونهـ

فابتسمت غادة وقالت هامسة:

ـ إنها حكاية طريفةـ ستتوق إلى سماعها، وإذا لم يرق لك منها جزء فإنه من الممكن أن أعدله لكـ

ـ كلا... لا يجب على القاص أن يعدل شيئًا أو أن يظهر ذلك للآخرين... إن ذلك يضعف القصة فى نظرهم... يجب عليه الا يغير شيئًا مهما كانت الظروف....

وإزاء هذا الاعتراض الأخير، جلست غادة متربعة فوق سريرها، وقالت وهى تتدثر بالغطاء التيلى:

ـ لا بأس ... عليك إذًا أن تسألنى بين الفقرة والفقرة قائلاً: وبعد؟؟...

وامسكت غادة قليلاً عن الحديث ثم انشأت:

ـ كان ما كان، فى سالف الأزمان، يا بهاء يا كريم.... كانت هناك غولة ساحرة تدعى "سخمة"، تسكن الجبابين البعيدة فى صحراء قاحلة، وكانت هذه الغولة أجمل الغولات حتى أن الأخريات كن يغرن منها على أزواجهن...

ـ هه... هه ... لقد بدأنا الخزعبلات... وبعد؟؟...؟؟

ـ أواه ها ها.... طالما أنك سألت: وبعد، وبعد؟؟ فلابد أننى قد جذبت: انتباهك... حسنًا وبعد ذلك أحبت هذه الغولة آدميًا جميلاً وليس غولاً من مثل جنسها....

ـ هه... وبعد؟؟..

ـ ولما كان هو آدميًا وهى غولة ساحرة، فإنه كان من المحتم أن يخاف منها ويفرعنها خشية أن تأكله... ولذلك فلقد عمدت إلى خطفه إلى .... أوه... إلى ماذا يا غادة؟؟... إلى ماذا يا غادة؟؟..

ـ هه.... هه هذه نقطة ضعف فى قصتك الجهنمية...

ـ كلا .... لقد عمدت هذه الغولة الجميلة الساحرة إلى اختطاف الفتى الآدمى والهرب به إلى كوخها، وحبسته فى ذلك الكوخ كى لا يهرب أبدًا، وفى المساء كانت تأتى إليه وتضمه إلى صدرها فى عطف، وتقبله فى شغف، وتتحسس بدنه الجميل الأبيض الناصع: معجبة بنعومته التى لا تتسنى لها... كانت تتأمل كل جزء من جسده ثم تعود فتقبله فى شغف واشتهاء، وكان فى معظم الأحوال يستسلم لها فى رعب منقطع النظير... كانت تعمد إلى نزع ملابسه جميعها، ثم تتأمل ذراعيه وصدره البديع ثم بطنه المستديرة وساقيه الجميلتين وقدميه الرشيقتين...

ـ هه.... لقد زادت الأخابيل والخزعبلات، وأظننى لن أستطيع النوم فى هذا النهار... هه... وبعد؟؟...

ـ وبعد ذلك كانت تستلقى كيما يتأمل هو جسدها البدين المغطى تمامًا بالشعر القبيح، وكيما يرنو إلى وجهها المخيف...

ـ أواه يا غادة... ستكدرين صفو نومى بتلك الطريقة... وبعد؟؟...

ـ وعندما لاحظت أنه يخافها ولا يقربها أو يقبلها كما هى تشتهى: فإنها... فإنها...

ـ هه.... فإنها ماذا؟؟... هذه نقطة ضعف أخرى.. لن تستطيعى أن تكملى شيئا بعد

ذلك... أحجى بك أن تنسى تلك القصة...

ـ أوه... كلا... فلقد عمدت الغولة بعد ذلك إلى سخط الشاب الآدمى إلى: طفل...

ـ هه... طفل؟؟... لماذا؟؟... هه ....

ـ ذلك حتى لا يأتلف بغيرها...

ـ هه... هذه نقطة ضعف جديدة فى قصتك الجديدة... أتعلمين لماذا؟؟... ذلك لأن الطفل سرعان ما ينمو ثم يأتلف بغيرها...

ـ أوه ... لقد تبادر إليها ذلك بالفعل... لقد حدثتها نفسها بذلك فعلاً... وبوصفها ساحرة: فإنها عمدت إلى سحر ذلك الطفل إلى: طفل حجرى....

ـ حجرى؟؟...

ـ أجل... ثم عمدت إلى دفن ذلك الطفل الحجرى فى أحد المقابر...

ـ أحد المقابر؟؟... لماذا؟؟... هذه نقطة ضعف أخرى...

ـ لقد دفنته حتى تأكل أولاً كل بنات جنسها: حتى لا يقع بصره على واحدة منهن...

ـ هه ... وبعد؟؟... وبعد؟؟...

ـ وبعد ذلك، فإنها سوف تعمد إلى استخراج الطفل الحجرى من القبر، ثم تفك سحره فيتحول إلى طفل آدمى، ثم تفك سحره فيتحول إلى شاب جميل لتهنأ به وحدها فى كوخها فتقبله وتحتضنه لأنه لن يحدث نفسه بأن ينظر أو يلتفت إلى غيرها أبدًا...

ـ أوه يا غادة... حسنًا.... يا لها من قصة إذًا... سوف أنام الآن، وما عليك إلا أن توقظينى على وجه السرعة حتى تنقذينى من ... هه... من الغولة فى ذلك الكابوس الذى سوف أصرخ وأتقافز منه...

وعلى الأثر راح بهاء فى سبات عميق، فأغلقت غادة باب الكوخ، واستلقت على فراشها، ومن الفور: عمدت فى حلمها إلى ارتقاء نخلتها رشيدة الرشيدة بواسطة حزامها الليفى الوحيد ومعها منظار العم، وقد امتد طولها فى هذه المرة ليطاول الكواكب الزهر، ثم هبطت مسافة لتتطلع إلى القمر محاولة سبر أسراره، ولكنها لم تلبث أن استيقظت على صوت خافت على باب الكوخ، ومن الفور سقطت من علياء النخلة، ولكن الله سلم: فلقد جاءت السقطة فوق الفراش الوثير، فتشهدت على نفسها ثم نهضت لتفتح للطارق بعد أن ألقت بنظرة إلى بهاء

الذى يغط فى نومه، ولشد ما كان عجبها حينما وجدت حنين تقف دامعة العينين عند الباب...

خرجت غادة من الكوخ، وأغلقت الباب، وفى صمت سلمت على حنين واقتادتها من يدها بعد أن تبين لها أن الوقت ظهيرة، فنأت بها بين المقابر: وأجلستها إلى جوارها فوق حافة قبر مهجور وسألتها:

ـ والآن: ما خطبك يا حنين!! إنك حزينة دامعة...

وهنا همست حنين متطلعة إلى عود جرجير نام بجوار قبرٍ متهدم مجاور:

ـ لقد حدث أمر محزن حقًا يا غادة... لقد سرق طفلى جمال...

ـ أواه... سرق طفلك؟؟... أهكذا تفقدينه بتلك السرعة؟؟... إن آمون قد سرق هو الآخر، ومن ثم لا يمكن لأحد أن يصنع لك مثله يا حنين... ما العمل إذًا؟؟... يا لحظك التعس؟؟...

ـ لا بأس يا أختاه.... لقد بكيت من أجل الطفل جمال كثيرًا... عليك إذًا أن تطلبى من العم عنتر أن يجعلنى أكبر وأنمو حتى يمكننى أن أنجب طفلاً يعولنى فيما بعد... إن أختى نوال سوف تتخرج فى كلية الحقوق..ويمكنها أن تعيننى على ذلك...

فنظرت إليها غادة فى استياء بالغ ثم قامت من مقامها قائلة:

ـ حسنًا طالما أنك ترغبين فى ذلك... إنك الجانية على نفسك... إن أختك نوال سوف تنزعج من ديونك ومن طلبك نقودًا لزواجك عندما تكبرين... طيب... سنذهب الآن إلى العم عنتر...

واتجهت غادة قدمًا إلى حيث قبر العم عنتر، وعندما دنت منه عمدت إلى الركوع أمامه، بينما وقفت حنين إلى جوارها لا تهمس ولا تتحرك ولا ترمش ولا تتثاءب ولا تنش، وهمست غادة:

ـ عنتر يا عنتر يا متعنتر بالعنتر المعنتر... غادة تحدثك من خلال عالمك... غادة تطلب منك أن تجعل حنين ابنة مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون... أن تجعلها تبدأ فى النمو بعد أن كانت قد توقفت، لأن ابنها قد سُرق منها، وهى تود الزواج حتى تنجب طفلاً يعولها فيما بعد عوضًا عن ولدها المفقود....

ووضعت غادة أذنها على جدار القبر لحظة ثم هتفت:

ـ أبشرى يا حنين... لقد استجاب العم عنتر الحبشى الزنجى لك... سوف تكبرين...

ستكبرين يا حنين...

وهنا تهلل وجه الصغيرة بشرًا، وأسرعت تقطف عيدان الجرجير النامية هنا وهناك مترنمة فى سرور

شوف الندى لما يلألأ فوق الأغصان
شوف الصباح لما يشقشق يصحى النعسان
من بدرى بيقوم من نومه
يلاقى وردة بتمايل فوق الشجرة
يلاقى غادة ومين طايل أجمل شقرة
ودغرى يغرق فى غرامه

ثم همست وهى تسير إلى جوار غادة حاملة عيدان الجرجير :

- إنها أغنية ألفها لك أبى وسيم... إنه لا يملك شيئا يهديه لك... لقد حفظها لىَّ رغم مرضه وكلفنى بأن أرددها لك عندما أقابلك كهدية منه اعترافًا بكرمك...

ومن الفور أسرعت غادة حاجلة على قدميها إلى الكوخ، وعادت بعد لحظات وهى تحمل كيسًا صغيرًا من الخوص الملون مملتئًا، وقدمته للصغيرة هامسة:

- حسنا... إن أباكِ رجل رائع حقًا... لقد أسعدتنى وأبهجتنى أغنيته... إليك إذًا ذلك البلح، إنه من النوع الغزالى والطقطق ألذ أنواع البلح... والآن... إلى اللقاء يا حنين... سلامى إلى والدك... سأشكره دائمًا على تلك الأغنية...

وسلمت غادة على حنين التى طبعت على خدها قبلة مخلصة، وانطلقت بكيس البلح وعيدان الجرجير، وعندما ابتعدت عن القبور المهجورة: راحت تناجى نفسها:

- شكرا لك يا غادة لأنك وهبتينى هذا البلح... شكرًا لك يا أختى نوال لأنك سوف تتخرجين وتتكفلين بأمر زواجى... وددت إذًا لو بعثت إليك بهذا البلح كيما تأكليه أنت وزميلاتك أثناء المذاكرة... وددت ذلك ... أوه... ولكن لا بأس... سأعرج الآن على أختى وسام الكمال كيما أبيعه لها...

وأسرعت الفتاة فى أسمالها عدوًا، وعندما دنت لاهثة من بوابة الڤيلا المغلقة: هتفت:

- يا وسام الكمال.. يا وسام الكمال... أنا حنين.. لا تجزعى... أنا لم أحضر إليك

لأتسول لوالدنا .. فحسب فحسب: إنه كيس جميل من الخوص الملون مملوء ببلح الطقطق والبلح الغزالى... إنها كمية تملأ المنطال.... إنها تساوى عشرة قروش فحسب يا وسام الكمال.. لقد أصابت والدك وسيم حمى الملاريا يا وسام الكمال... إنه يرتعد فى البيت... لم أحضر إليك لأتسول... فحسب فحسب إنه...

وفجأة انفتحت البوابة ليطل منها الزوج الرياضى الملاكم، ومن الفور تطلع إلى الفتاة ثم قال فى صوت أجش:

ـ هه ... من أين تيت بهذا البلح؟؟...

فقالت حنين فى اضطراب:

ـ إنه من بلح نخيل المقابر المهجورة من عند غادة وبهاء... إنه لذيذ... فحسب....

وهنا قاطعها الرجل وهو يهم بإغلاق البوابة من خلفه:

ـ هه... إليك عنا إذًا... إنه يرتوى من دماء الموتى...

الفصـل الخامس

أغرب استعراض على مر الدهور:

وهم ومحال ومحض خيال...

ويوصف الخيال: كائنًا يدب ويتنفس فى عالم اللامعقول... بوصفه كذلك: فلقد هبط ذلك الكائن الخرافى من عالمه المجهول، ونحى الكاتب جانبًا، ثم بدأ هو يكتب ذلك الفصل بذاته...

اجل... سوف تعلق بذلك حتمًا على هذا الفصل إذا ما تمت لك قراءته...

ولكن مهلا قارئى الكريم: أتراك إذًا تجد أو تتلمس خطاً فاصلاً حقيقيًا وليس وهميا بين الحقيقة والخيال؟؟... لا أحسبك يا سيدى ستجيب بالإيجاب... وما دام الأمر كذلك فإننا نكون قد التقينا ولا فاصل بينى وبينك...

لقد بدأ ذلك الاستعراض المستغرب فى يوم ٢٠٠٠/٧/١٢م ولقد استمر تسعة أيام كاملة وذلك حتى يتم لكل خلق الله مشاهدته، ولقد ضربت خيام لا حصر لها على طول الضفة الغربية لقناة السويس، وذلك لاستقبال ذلك الاستعراض الذى يعد أغرب استعراض على مر الدهور، ولعل سبب الاختيار كان مرجعه بالدرجة الأولى إلى الموقع الاستراتيجى لمصر، ولأهمية قناة السويس الدولية لوقوعها بين نصفى الكرة الأرضية الشمالى والجنوبى...

وجاءت مهمة الأقمار الثلاثة المعلقة: تلك التى تبدو للناظرين كما لو كانت لا تدور، وما هى بذلك، لأن سرعة دوارنها حول الأرض تساوى سرعة دوران الأرض حول نفسها....

جاءت مهمة تلك الأقمار الثلاثة التى أمكن لها أن تعطى قارات الأرض كلها بإذاعة موحدة وأن تتحقق الاتصال التليفزيونى بدون كابلات...

جاءت مهمتها للإرسال التليفزيونى ونقل تعليق المذيع اليابانى الناطق بالإنجليزية، ذلك الذى كان ينتقل بطائرة هيلكوبتر فردية لا تتسع إلا لفرد واحد، وهى لا تزيد عن مقعد وثير جلدى مكشوف تمامًا بدون مقصورة، وفوقه مروحة هوائية رأسية...

كان المذيع اليابانى الذى اختارته هيئة الأمم المتحدة يجوب مناطق العرض الواقعة على الضفة الشرقية للقناة مباشرة وهى الشريط الساحلى من سيناء، كان يطير كالعصفور الفرد من مكان إلى آخر على طول ذلك الشريط الساحلى بين زرافات الناس نساء ورجالاً وأطفالاً وشيوخًا: أولئك الذين توافدوا إلى مكان الاستعراض العجيب من كل ربوع الأرض... كان يطير بطائرته الفردية العجيبة التى رصعها وزينها له الزائرون بالزهور والورود تعظيمًا لقدره وإجلالاً لمهمته....

حقيقة إنه كن ينطق بالإنجليزية، ولكن فى الوقت ذاته: كانت العقول الإلكترونية فى الأقمار الثلاثة المهيمنة على الإرسال إلى الكرة الأرضية: كانت تعمد على الفور إلى الترجمة الفورية إلى لغات العالم كيما ترسل إلى البلاد بلغاتها التى تتفهمها.. وتعيها...

اختيرت للاستعراض: شبه جزيرة سيناء: اختيارًا دوليًا أشرفت عليه هيئة الأمم المتحدة، تلك شبه الجزيرة التى عانت من الحروب ما عانته على مر العصور، ولكنها عاشت رغدًا وابتسمت لها الحياة من جديد بعد إمحال...

كانت هناك خمسة أنفاق هائلة تحت مياه قناة السويس، تلك الأنفاق التى كانت على وجه التحديد تتمثل فى: نفق اللواء/ أحمد حمدى عند منطقة الشط، ولقد خصص لعبور السيارات والعربات، ونفق القنطرة: ولقد خصص لعبور قطارات السكك الحديدية، ونفق الإسماعيلية: ولقد خصص لعبور مياه النيل إلى سيناء عن طريق أنبوبة ضخمة هائلة، ونفق الدفرسوار: وقد خصص هذا أيضًا للمياه، ونفق الشلوفة وقد خصص للسكك الحديدية. إن قناة السويس البالغة من الطول ١٦٢,٥كم إذا ما استعرضناها من الجنوب عند نهاية خليج السويس متجهين شمالاً إلى حيث البحر الأبيض: لمررنا على المناطق التالية: بور توفيق ـ الشلوفة ـ جنيفة ـ تفريعة كبريت ـ الدفرسوار ـ طوسوم ـ الإسماعيلية ـ الفردان ـ البلاح ـ القنطرة ـ الكاب ـ التينة ـ رأس العش...

على امتداد تلك المناطق وعلى الضفة الشرقية: ضربت خيامًا لا حصر لها تتبدى لا نهائية العدد لإيواء البشر الذين جاءوا ليشهدوا الاستعراض الغريب على متن الطائرات الأسرع من الصوت...

أما على الضفة الشرقية فى سيناء: فلقد امتد طريق طويل بمحاذاة القناة، وعلى الجانب الملاصق لها مباشرة: اصطفت النجوم المستعرضة وقد فصلت بينها فواصل من الحوائط الزجاجية الشفافة، وتلك النجوم يمكن إجمالها فيما يلى:

أولاً: منطقة المهجرين إلى كوكب الزهرة:

مكان العرض	المعـــروض
من بور توفيق إلى الشلوفة	حيوانات مناخ حار
من الشلوفة إلى جنيفة	جانزيون
من جنيفة إلى كبريت	نبات مناخ حار
من كبريت إلى الدفرسوار	تراث بشرى
من الدفرسوار إلى طوسوم	أسلحة قديمة وحديثة
من طوسوم إلى الإسماعيلية	أجهزة ومعدات

ثانيًا: منطقة المهجرين إلى كوكب المريخ: (الكوكب الأحمر):

مكان العرض	المعـــروض
من الإسماعيلية إلى الفردان	حيوانات مناخ بارد ومعتدل
من الفردان إلى البلاح	جانزيون
من البلاح إلى القنطرة	نبات مناخ بارد ومعتدل
من القنطرة إلى الكاب	تراث بشرى
من الكاب إلى التينة	أسلحة قديمة وحديثة
من التينة إلى رأس العش	أجهزة ومعدات

أما عن الطريق فلقد غطى أديمه بالزهور وأوراق الشجر، وازدانت جوانبه بأصص ضخمة للزهور والورود والأراكيد التى نقلت إلى المكان بطائرات الهيلكوبتر الضخمة، ولقد بدت أعلام كل الدول خفاقة على طول القناة...

وإذا ما تجاوزنا ذلك الطريق المسمى "بطريق البشر" والذى أطلق عليه فيما بعد "طريق الحساب".... إذا ما تجاوزنا ذلك الطريق متجهين إلى داخل سيناء: لراعنا أن نشاهد قريتين عظيمتين تتربعان على مساحتين مربعتين شاسعتين، وحول كل من القريتين اللتين لم تكونا قد شغلتا بإنسان واحد بعد... حول كل منهما بنى سور من الأحجار البيضاء الجيرية ارتفاعه سبعة أمتار، وكانت لكل من القريتين بوابة واحدة تطل على طريق البشر، وكانت البوابة الأولى على النمط الآشورى وقد جثم عندها وعلى جانبيها أسدين فولاذيان من الأساد الآشورية الفاغرة الأفواه... أما بوابة القرية الثانية فلقد زينت بنقوش فرعونية خلابة أبرزها زهرة اللوتس المصرية وقد ربض على جانبيها أسدين من الأساد المصرية المطبَقة الأفواه كنمط فرعونى تقليدى...

وبين القرية الأولى الجنوبية المبتدئة فى محاذاة بورتوفيق حتى الإسماعيلية، والقرية الشمالية الممتدة فى محاذاة الإسماعيلية حتى رأس العش... بين هاتين القريتين الضخمتين: كان هناك طريق مسفلت عريض: "ما بين المريخ والزهرة" ولقد أطلق عليه فيما بعد على سبيل السخرية والتهكم " بين أهل الجنة والنار"..

كانت القريتان العجيبتان مقفرتين تمامًا من ساكنيها خلال وقت الاستعراض العجيب الذى أشرنا إليه... كانت القرية الأولى الجنوبية قد أعدت لكل البشر الذين سوف يهاجرون إلى كوكب الزهرة، ولقد أطلق على تلك القرية على سبيل التهكم "أهل النار" ولم يكن ذلك إلا لعلم الناس مسبقًا أن ذلك: الكوكب يكتنفه المناخ الحار بوصفه كوكبًا قريبًا من وأكثر قربًا لها من الأرض، والقرية الثانية كانت قد خُصصت للبشر الذين سوف يهاجرون إلى كوكب المريخ، ولقد أطلق عليها على سبيل السخرية "أهل الجنة" ولعل ذلك كان بسبب ما عرف عن كوكب المريخ من مناخ معتدل يكتنفه شىء من البرودة المحتملة لبعده عن نجم الشمس بدرجه أكبر من بعد الأرض عنها...

كانت كل من تلك القريتين: تنقسم على نفسها من الداخل بواسطة سور مرتفع: إلى قسمين: قسم للرجال، وقسم للنساء: بحيث كان القسم المعد للرجال فى قرية الزهرة يجاوره قسم النساء من قرية المريخ، وقسم النساء من قرية الزهرة يجاوره قسم الرجال من قرية المريخ ...

كان كل قسم من تلك الأقسام يتألف من عمائر ضخمة قد بنيت فى صفوف طولية يفصل بينها طرقات ضيقة مزدانة بصنوف الزهر فى أحواض ضيقة قد جملت بأفاريز من أحجار سيناء البهيجة الألوان، وكانت كل عمارة من تلك تتألف من خمسين طابقًا، فصار لها علو شاهق غريب ولم تكن تلك الطوابق مقسمة إلى شقق، بل كانت مقسمة إلى حجرات متلاصقة يفتح كل منها على ممر طويل، وكانت كل حجرة تحمل رقمًا خاصا مسلسلا، وكان بكل حجرة عشرة أسرة معدنية متجاورة، وقد ألحق بكل ممر دورة للمياه وحجرة طبية ومخزن للأطعمة....

كانت هاتان القريتان قد بنيتا تحت إشراف وبنفقات هيئة الأمم المتحدة التى كان لها كيان يعتد به، كيف لا وقد كانت لها ميزانية ضخمة مستقاة من كل شعوب الأرض كافة، ولسوف يزداد إعجابك بهيئة الأمم المتحدة إذا علمت أنها قد بنت كل ذلك فى شهر واحد، جالبة كل المعدات والمواد اللازمة بواسطة البوارج العملاقة وطائرات الهليوكوبتر... هذا هو الوصف العمومى الذى يمكن لنا أن نصفه غير عامدين إلى مزيد من التفاصيل التى يمكن أن تثقل كاهل قارئنا الكريم...

كانت قد أقبلت السفن الحاويات الضخمة والتى تتسع لأكثر من ألف حاوية، تلك الحاويات التى هى صناديق معدنية كبيرة لاحتواء المعروضات... أقبلت هذه السفن إلى قناة السويس، وقد جندت من كل دول العالم كيما تنقل الأشياء المستعرضة... ورست تلك السفن الهائلة الأحجام على طول القناة وربطت بشمعات الرباط إلى الشاطئ على امتداد القناة من جنوبها إلى شمالها: تلك الشمعات التى كان يربو عددها على ثلاثة آلاف شمعة على أبعاد ما بين ٧٥ مترا، و٢٠٠ مترا، وقد بدت على أبعاد قدرها عشرة كيلومترات: مراكز إشارة لمراقبة تلك السفن، بالإضافة إلى الشمندورات غير المضيئة البالغة من العدد مائتين، بالإضافة إلى الشمندورات المضيئة والتى كان عددها يبلغ مائتين وتسعين شمندورة، ولا يفوتنا ذكر عمق القناة الذى كان وقتها سبعة وستين قدمًا...

وأقبلت طائرات الهليوكويتر الضخمة لتلقى برسالات وردية اللون معبقة بالأريج فوق رءوس البشر الذين جاءوا لمشاهدة الاستعراض المجيب... فهذه رسالة يتلقفها من الهواء رجل من الهنود الحمر جاء فيها:

هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS



شروط الدعوة إلى أغرب استعراض على مر الدهور:

أن تكون إنسانًا فحسب.....

أخى الإنسان:

أنت أخى سواء كنت أوروبيا أو إفريقيا أو أمريكياً أو آسيويًا أو إستراليًا.... إنسانيتك هى بطاقة الدعوة بينى وبينك....

إننى أسمعك فأجدك تتكلم بلغة ما... إذاً فأنت إنسان مثلى... ألا يكفى ذلك عربونًا للأخوة؟؟...

إننى محتاج إليك وأنت محتاج إلىَّ يوم نلتقى على كوكب آخر....

إننى أجلك وأحبك لأنك انحدرت من نفس الأرض... مثلى....

المنظمة الدولية لمكافحة الحروب

وتلك رسالة تلتقطها سيدة زنجية بدينة كانت تطوف بطريق الاستعراض "طريق البشر"... لقد التقطتها من فوق الأرض من بين الزهور المتناثرة بعد أن أخفقت فى التقاطها من الهواء فور قذفها من الطائرة:

هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS

رسالة منى كإنسان لأخيه الإنسان:

ابعثها إليك وأنا أحس بأن قلبك لا ينبض بالحياة إلا من أجلى، وأن قلبى لا ينبض بالحياة إلا من أجلك....

إننا على موعد معًا يا أخى فى كوكب آخر....

هل ستكون إنسانيتك تاجًا يتوج أعمالك هناك؟؟ ؟؟؟ ؟؟ ؟...

لكأنى بأعمالك ستكون كذلك،،،

سكرتير عام الأمم المتحدة

روالـد

كانت طائرات الهليوكوبتر الفائقة الحجم تشاهد بين الحين والحين مقبلة نحو المخيمات على الضفة الغربية للقناة قاذفة إليها بالونات مملوءة بغاز الهليوم بوصفه رمادًا للأيدروجين، وقد طبع عليها شعار هيئة الأمم المتحدة وهو غصنى الزيتون اللذين يحيطان بالكرة الأرضية رمزًا للسلام العالمى... كانت هذه البالونات تحمل صررًا من أكياس النايلون تحتوى بدورها على وجبة غذائية كاملة تتألف من: دجاجة مشوية مكسوة بالبطاطس المقلية فى كيس خاص، وثلاث تفاحات أمريكية، وعلبة صغيرة من البيرة ماركة "نانوك" وهو الاسم الذى يطلقه شعب الإسكيمو على الدب القطبى، ورغيفين طازجين مغلفين، وقطعتين من الشيكولاتة، وعلبة ذات غلاف جذاب بها الآيس كريم المشكك بالفواكه المجففة من زبيب وكريز وشليك، وزهرتين من زهور القرنفل... كل هذه المحتويات كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربية فوق الكيس الخارجى، وبالإضافة إلى ما كتب عن محتويات صرة الغذاء: كتبت عبارة باللغة الهيروغليفية المصرية دفع بها إلى الأسفل، وتقول: نأسف لشعب الماالاويين من جزيرة سالومون لعدم وجود لحوم بشرية لدينا، حيث إنه لا ينبغى للإنسان أن يأكل لحم أخيه الإنسان...

بيد أن بعض تلك الصرر الهابطة من السماء: كانت تحوى الضفادع المشوية والجراد المقلى: وذلك للتغطية على أمزجة الفرنسيين فى طعامهم،... وقد احتوت بعض الصرر الغذائية أيضًا على جذور درنية غريبة وخنافس مشوية سمينة من أنواع مستقرية وبيض سلاحف: وذلك للتغطية على أمزجة الأفارقة، والبعض الآخر على قطع من صدور وأفخاذ عجول البحر وقطع من دهنها المقلى وزهرات من شقائق النعمان وذلك للتغطية على أمزجة أهل الإسكيمو... هذا بالإضافة إلى أكياس تحتوى على سرطانات البحر المسلوقة والمغمورة

فى الأرز، وذيول التماسيح الأمريكية المشوية، وأفخاذ الحمير المقلية بالمسلى، وإلى غير ذلك من صنوف الطعام المتعددة، وكل ذلك لم يكن مرجعه وكما ذكرنا: إلا لإرضاء كل أمزجة شعوب الأرض فيما يفضلون من أطعمة...

أقبلت العربات والتاكسيات الطائرة بالآلاف لتحط عصى ترحالها على مقربة من تلك المخيمات العديدة التى يتوافد لاجئوها إلى مكان الاستعراض بسيناء عن طريق الأنفاق الثلاثة الممتدة أسفل قناة السويس دون اللجوء إلى استعمال المراكب أو الذهبيات عبر القناة ، ذلك لأنها كانت مشغولة بالسفن الضخمة التى أتت بنجوم الاستعراض الغريب من كل أنحاء العالم بعد انتخابها علميا انتخابا دقيقا....

كنت ترى: الأمريكيين والفرنسيين والإنجليز والروس والبولنديين...

ومن بعيد أقبلت الأوزة البيضاء تتهادى، ولكنها كانت قد خلع عليها رداء عجيب فى ذلك اليوم التاريخى... أجل... فلقد كان العم قد عمد إلى إلصاق كافة أعلام دول العالم الورقية عليها، ومن ثم فإنها قد غطت كل "شبر وفتر" من مسطحها....

ما إن توقفت الأوزة البيضاء بين الآلاف المؤلفة من العربات: حتى هبط منها كل من العم وياستت المغنى وبهاء وغادة التى لبست فستانا أحمر من فساتين عرسها الذى بدأ يقترب، وانتعلت حذاءها الأحمر المعهود، وكان غريبًا حقًا أن تهبط من خلف الجميع: حنين التى كان قد عمد العم إلى اصطحابها معهم بعد استئذان أبيها وسيم، ولكن أعجب ما فى الأمر: أن الفتاة كانت ترتدى ثوب غادة السيوى الأزرق المعهود والذى يتألف من قطعتين: رلتين باليتين، ولكن الثوب على كل حال كان أفضل حالاً من أسمال الفتاة البالية الممزقة، بيد أن ذلك الثوب الأفضل كان فضفاضًا للغاية على جسدها، فبدا طويلاً خاويًا إلا من رأس صغيرة جميلة مطلة من داخله، لدرجة أن الكفين والقدمين العاريتين لم يكن ليبدو لهما من أثر، مما أضفى مزيدًا من السذاجة والخيبة على الفتاة التى بدأت تكبر بسرعة غير معهودة، وإننى قارئى الكريم لست أجزم على وجه اليقين بأهداف غادة: إلا أننى أحتمل ومصر على احتمالى أن غادة هى التى عمدت إلى هزل منظر الفتاة الوافدة فى ركابهم إلى أغرب استعراض على مر الدهور...

وقف ركبنا بجوار عربته الأوزة البيضاء، وتطلع الجميع إلى الخلق ساكنى المخيمات الزرقاء اللون وقد خفق فوق كل منها بند الدولة المنتمية إليها، فبدت كرنفالاً عجيبًا من ألوان الأعلام لكافة شعوب الأرض دانيها وقاصيها، وارتفعت الرءوس لتشاهد طائرات الهليوكوبتر وهى تقذف وجبات الغذاء وقد كان الوقت ظهيرة، وكادت غادة تهرول لتلتقط كيسًا هابطًا على مبعدة، إلا أن العم أمرها فى الوقت المناسب قائلا فى غلظة:

ـ أجننت إذًا؟؟... ألم أقرأ عليكم ما جاء فى الصحف بخصوص الاستعراض؟؟... إن من "إتكييت" ذلك الاستعراض أن يظل المرء فى مكانه حتى يأتيه كيس الغذاء من فوقه دون أن يعمد إلى الجرى والرمح هنا وهناك وهنالك، وإلا انقلب الاستعراض إلى سوق من الغوغاء... كما أن ذلك سيظهر البشر أمام بعضهم البعض كما لو كانوا جموعا من الذئاب الجائعة الهائمة... يجب أن تظهر الإنسانية فى أجمل وأكمل وأنبل وأبهى صورها فى خلال أغرب استعراض على مر الدهور...

ورضخت غادة، وطأطأت بوجهها إلى الأرض بجانب بهاء الذى كان يرقب الأحداث فى هدوء عجيب وخيال خصيب وانبهار لا يطاوله انبهار..

وفجأة حطت بالونة أمام الركب: فأسرع بهاء يلتقطها، وهنا قال له العم:

ـ والآن.. اقرأ لنا أولاً ما جاء فوق غلافها الخارجى..

وقرأ بهاء النص العربى مرددًا:

- «خنفساء بيضاء مشوية سمينة» من خنافس جذوع نخيل الأمزون.
- «براعم نخيل البندو» كرنبة النخيل..
- سلحفاة صغيرة مطهية بإلقائها فى النار وهى حية ..
- أمشاط عسل نحل برى مليئة بيرقات طعمها فى مطعم البندق الأخضر..

وهنا هتفت غادة:

ـ يا للحظ العاثر... إننا لم نحضر معنا طعامًا أو بلحًا من سيوة... لقد جعنا تماما....

وهمست حنين وهى تحرك ذراعيها المتلاشيين بداخل ثوب غادة:

ـ إنها أشياء مقززة يا أختاه....

وهنا ضحك العم جمال ثم دار ببصره بين أفراد الشعوب، وعلى كثب منه وقع بصره على قزم وقزمتين من هنود قبيلة "الجواياكوى" الأمزونية عراة تمامًا فبدا شعر آباطهم وعوراتهم كثيفًا أسود يكاد يكون عورة فوق عورة، وحلقت شعور رءوسهم بطريقة مستديرة جعلتهم أقرب إلى أشكال الأطفال... هذا ولقد كان بين أيديهم صرة غذاء قد أمسك بها القزم فى معية الازدراء ومن الفور همس العم لحنين قائلاً:

ـ والآن.... إنك يا حنين ماهرة فى الترويج للأشياء لبيعها... حسنًا... عليك إذًا بحمل هذه الصرة والتوجه بها إلى هؤلاء الأقزام لاستبدالها بما معهم... هيا يا ملكة الحسن والجمال... عليك بحسن المقايضة...

وهنا همست حنين متلعثمة:

ـ ولكن أيها العم... إن هناك ثمة ما يخجل فى الزنجى والزنجيتين....

ـ لا عليك.... إنهم لا يحسبون لذلك حسابًا يذكر... هيا إليهم إذًا....

وأمسكت حنين بالصرة بكميها، وفرت إلى الزنوج فى استحياء، وعندما مثلت بين أيديهم: ابتدرتهم وقد التفتوا إليها ضاحكين:

ـ سيدى... سيدتى... إننى لم أحضر لأتسول منكم لجماعتنا... فحسب إنها... خنافس... إنها خنافس ماذا يا حنين؟؟... خنافس ماذا يا حنين؟؟... يجب أن ابحث عن صفة ممتازة... أوه... أجل... فحسب إنها خنافس مشوية سمينة ممتازة، وكرنبات نخيل، وسلحفاة لذيذة ألقى بها فى النار وهى حية....

لم يحفل الزنجى والزنجيتان بما قالته الصغيرة: بل عكف القزم على قراءة ما كتب على الصرة، وما إن فرغ من القراءة: حتى قهقه عاليًا، ثم ربت على ظهرى زوجتيه، وقدم صرته لحنين تلك التى استخفت بها الفرحة، وأسرعت بدورها تهرول فى ثوبها المضحك المبتذل إلى جماعتها الواقفة ترقب فى دهشة...

وما أن مثلت الصغيرة بين أيديهم حتى تلقف منها العم صرة الغذاء وطفق يقرأ ما عليها:

- «قطع من صدور وأفخاذ فقمة مشوية..
- «زهور شقائق النعمان»...

قرأ العم ذلك فماد إليه امتعاضه، وهمست حنين:

ـ إننى جائعة، والطعام مقزز.... أين أنت يا أختى نوال؟؟... لو كنت قد تخرجت فى كلية الحقوق جامعة....

ـ لا بأس .... لا تيئسى إذًا... انظرى هناك... انظرى إلى حيث أشير... إنهم رجل وثلاث من نساء الإسكيمو... أسرعى إليهم... إنه غذاؤهم ولسوف يرحبون به... عليك بحسن المقايضة...

وانطلقت الصغيرة متعثرة فى ذيل ثوبها اللعين الذى كان لا يكف عن الاستهزاء بها وإظهارها بمظهر الخيبة، وحالمًا دنت من ثلتهم هتفت فى سذاجة:

ـ يا سادة يا إسكيمو... أقسم لكم إننى لم أحضر كيما أتسول لجماعتنا... فحسب فحسب: إنها قطع من أفخاذ وصدور الـ... أوه... ما الاسم يا حنين؟؟... ماذا كان اسم الحيوان يا حنين؟؟... لقد خانتنى ذاكرتى... يبدو أننى متعبة للغاية...

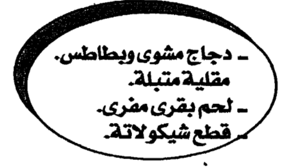
ولم يترك لها رجل الإسكيمو مندوحة من الوقت، بل أسرع يلتقط منها الصرة، وقرأ ما عليها: ومن الفور ضحك، فأبان عن أسنان دقيقة فى بياض ثلوج التندرا، ولقد تعجبت حنين من انقفال عينى الرجل كلما قهقه عاليًا، وأخيرًا تمت المقايضة الطريفة، وأعطاها الصرة التى معه، فانطلقت بها لا تلوى إلى العم وصحبه، فقرأ بهاء محتويات الصرة، وسرعان ما همس فى اشمئزاز:

- ثلاث ضفادع مسلوقة بالبهار.
- جراد مقلى «الوزن الصافى نصف كيلو جرام».
- أربع شطائر من فطيرة «جوز الطيب».
- أربع زهرات قرنفل.

فهمست غادة فى اشمئزاز:

ـ إننى أكاد أتقيأ... كيف يقذفون الناس بالضفادع والجراد؟؟...

وما كادت الفتاة تتم اعتراضها: حتى شاهدوا ثلاث صرر تحوم فوقهم هابطة من السماء على إثر مرور طائرة هليوكبتر، وبعدما حطت هذه الصرر الثلاث فوق الأرض بينهم حتى التقطها العم وبهاء وراحا يقرءان ما عليها، ولشد ما كانت فرحتهم جميعا أن وجدوها تحتوى على:



فجلسوا على الرمال، وافترشوا أكياس الصرر، وتحلقوا حول الغذاء، وقد ابتسمت معداتهم وامتلأت أشداقهم....

طوفان من البشر يروحون ويجيئون، ورغم كل ذلك الخلق، فلا تكاد تسمع غير همهمات متفرقة...

ولسنا نعلم على وجه التحقيق سببًا لتلك الظاهرة اللهم إلا إذا تخيلنا أن مرجعها: هو هيبة الشعوب لبعضها البعض، أو محاولة ظهور كل شعب منهم بمظهر أسمى وأفضل من الآخر، أو تداخل النساء مع الرجال كان من شأنه أن يضفى على الخلق ذلك المظهر الذى بحق كان يبعث على الفخر بالبشرية...

بيد أن ما ذكرناه: لا يمكن أن نجزم بكونه هو الحقيقة، وإلا كان ذلك رجما بالغيب لما كان يعتمل فى النفوس وقتذاك....

وتناثرت من السماء منشورات مختلف ألوانها: فذاك أخضر وهذا وردى وذاك قرمزى، فتلقفت غادة منشورا أحمر خلبها بلونه وقدمته لبهاء ليقرأ ما جاء فيه:



هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS

أخى فى الإنسانية: نحو المجموعة الشمسية الرابعة وبنفس رسميات كواكبنا :

هيئة الأمم المتحدة الأرضية تهنئ منذ الآن سدس اسطق الحارة الاستوائية وغيرها إذ سيتم تهجيرهم إلى كوكب ملائم المناخ... إنه كوكب "الزهرة" ٤ .

ومن أجل ذلك نسوق لهم بعض المعلومات التى تهمهم عن كوكبهم الميمون الطالع:

- المسافة التى ستقطعها السفينة من مدار الأرض إلى الزهرة ٤ «١٦٠» مليون كم.
- المناخ شديد الحرارة للقرب من الشمس، فيما خلا القطبين، ولكن ثبت أنه لن يكون أقسى من مناخ خط الاستواء الأرضى إلا بقدر ضئيل...
- حجم الزهرة ووزنها يساوى تقريبًا مثيلتها الأرض...
- الغلاف الجوى للزهرة أكبر كثافة من غلاف الأرض...
- تستغرق الرحلة إلى هذا الكوكب مدة ٤٠٠ يومًا بواسطة سفن الفضاء الشراعية ذات الأشرعة المصنوعة من رقائق الألومنيوم، وهذه السفن ستسير بقوة دفع رياح ضوء الشمس ونسيمها، وهذه المدة على اعتبار أن تسارع ضوء الشمس ٢مم/ث٢ عند مدار الأرض...

وإنا لنرجو لكم ريحًا شمسية ضوئية مواتية نحو مجموعة شمسية أكثر ملاءمة

حكمة: عند العاصفة يفزع إلى أى مرفأ...

Any Port In A Storm　　　سكرتير عام الأمم المتحدة

وتلقفت حنين ورقة زرقاء أسرعت بها للعم جمال ليقرأ ما جاء بها:

هيئة الأمم المتحدة **UNITED NATIONS**

أخى فى الإنسانية: نحو المجموعة الشمسية الرابعة وبنفس مسميات كواكبنا

هيئة الأمم المتحدة الأرضية تهنئ منذ الآن سكان المناطق المعتدلة والباردة، إذ سيتم ترحيلهم إلى كوكب ملائم المناخ... إنه كوكب المريخ ٤ ... ولذلك فإننا نسوق إليهم بعض المعلومات التى تهمهم:

- المسافة التى ستقطعها السفن إلى المريخ ٢٤٦ مليون كم.
- المناخ بارد ومعتدل...
- المجال المغناطيسى أقل من مجال الأرض عشر مرات...
- بعد المريخ فى المجموعة الشمسية: توجد مجموعة الكويكبات التى عددها ٦٠٠٠ كويكب، وهذه كانت تمثل كتلة واحدة لكوكب كبير قد تفتت بسبب اضطراباته الداخلية كما سيحدث للكرة الأرضية تمامًا فى نهاية هذا العام (٣٠٠٠م) كما أخبرنا بذلك العقل الإمبراطور الذى انفجر فى حدث عارض مبهم...
- تستغرق الرحلة إلى هذا الكوكب مدة ٥٥٨ يومًا بواسطة سفن الفضاء الشراعية ذات الأشرعة المصنوعة من رقائق الألومنيوم وهى أشرعة تسير بقوة دفع ضوء الشمس ريحًا ونسيمًا، وهذه المدة على اعتبار أن تسارع ضوء الشمس ٢مم/ ث٢ عند مدار الأرض..

وإنا لنرجو لكم ريحًا شمسية مواتية...

حكمة: عند العاصفة يفزع إلى أى مرفأ

Any Port In A Storm سكرتير عام الأمم المتحدة

وتلقف بهاء منشورًا ورديًا قد جاء فيه:



هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS

أخى فى الإنسانية:

عند مداخل الأنفاق السفلية بقناة السويس، وبعد انتهاء أغرب استعراض على مر الدهور: بأسبوعين: سيتم فرز البشر إلى سكان مناطق حارة، وسكان مناطق باردة ومعتدلة توطئة لإهداء كل رجل وامرأة وطفل حلة زرقاء من الحرير المطاط، عليها شعار هيئة الأمم المتحدة: تمييزًا للمهجرين الذين سيكون لهم امتيازات شتى من بينها ركوب سبل المواصلات بالمجان وتناول الطعام بالمطاعم الحكومية بلا مقابل، وكذا ارتياد السينما والمسرح والمعارض والمتاحف وحدائق الحيوان، وكذلك توطئة لإيواء المهجرين إلى الكوكبين: كلاً إلى قريته المشيدة بسيناء، وذلك بعد منح الجميع إجازة خمسين يوما كاملة بعدها سيتم العزل، كما سيتم أيضًا صرف حلل فضاء جديدة بدلاً من الأولى التى ستسحب من الجميع...

حكمة: عند العاصفة يفزع إلى أى مرفأ

Any Port In A Storm سكرتير عام الأمم المتحدة

وتلقف العم من الهواء منشورًا أصفر جاء فيه:



هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS

أخى فى الإنسانية:

ستعمد هيئة الأمم إلى ترك ثلث سكان الكرة الأرضية رجالاً ونساء: وذلك للتغطية على الاحتمال الذى تحتمله بعض العقول الإلكترونية: وهو الاحتمال القائل بأن الكرة الأرضية لن تتفجر بل ستتغير قشرتها فحسب، وكذلك للتغطية على ميول غير الراغبين فى مغادرة الأرض إلى المجموعة الشمسية المختارة.

إن العلماء ورثة الأنبياء...

حكمة: عند العاصفة يفزع إلى أى مرفأ

Any Port In A Storm سكرتير عام الأمم المتحدة



هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS

أخى فى الإنسانية:

تجزم العقول الإلكترونية من الأنماط العظمى: أن هناك بعض الثغرات فى برنامج عزل المهجرين، وثغرات أخرى فيما يختص بالذين سيماتعون فى هجر الأرض، بيد أن تلك العقول تعلن عن إخفاقها فى تدارس تلك الثغرات، بتأكيدها أن العقل الإمبراطور الذى انفجر: هو العقل الأوحد الذى كان كفيلا بإماطة اللثام عن تلك الثغرات المتوقعة فى برنامج التهجير، لتلافى نتائجها التى ربما ستكون وخيمة...

أدع معى إذًا يا أخى الإنسان: أن تمر تلك الثغرات على خير وسلام

حكمة: عند العاصفة يفزع إلى أى مرفأ

سكرتير عام الأمم المتحدة **Any Port In A Storm**

واخيراً تلقفت حنين منشورًا أخضر جاء فيه:



هيئة الأمم المتحدة UNITED NATIONS

أخى فى الإنسانية:

ستتم تغذية المهجرين إلى كل من الكوكبين (المريخ ٤ والزهرة ٤) على طحلب الكلوريللا ويمكن أن يضاف إليه كائنات البلانكوتين الدقيقة، ونحن نجمل لك هنا أهم ما يمكنك معرفته عن هذا الفطر.

- الكلوريللا طحلب أخضر يعيش فى المياه العذبة..
- يمكنه استخدام الضوء الشمسى والكهربائى فى التمثيل الغذائى.. يمثل ٥٠ ٪ من الطاقة الضوئية..
- يحتوى على : دهون ـ كربوايدرت ـ فيتامينات: أ ، ب١، ب ٢، ب ٦ ، ب١٢، ج، د ، ك ، وغيرها ...
- ينتج غاز الأكسجين اللازم للتنفس بسفن الفضاء ...
- يقدم كغذاء فى الصور : حساء ـ شرائح لحم ـ فطير ـ حلوى ـ مشروبات.

ونحن نرجو لكم غذاءً هنيئًا وصحة موفورة

حكمة: عند العاصفة يفزع إلى أى مرفأ

سكرتير عام الأمم المتحدة **Any Port In A Storm**

وانتقل ركبنا أخيرًا إلى حيث طريق الاستعراض العظيم، عبر أحد الأنفاق، وسرعان ما تاه الجميع في خضم البشر ما بين مكتسين وعراة...

وإذ أشعر قارئي الكريم بأنني سأكون أقل نبوغًا وعبقرية في التعليق على ذلك الاستعراض: فإنني أفسح المجال للمعلق الياباني "هيتو" ذو الطائرة الهليوكبتر الصغيرة التي لا تزيد عن مقعد عار تمامًا بلا مقصورة، كيف لا: وهو ذلك المذيع الذي انتدبته هيئة الأمم المتحدة لذلك الغرض، فلا ريب أنه أبلغ منى بيانًا وتبيانًا وأصقل موهبة وأعذب عرضًا وأطول باعًا في الأساليب البلاغية المنتقاة وأكثر إلمامًا بكائنات الأرض: حيوانًا ونباتًا:

- أخي الإنسان... أخي يا أخي... أقولها متلعثمًا... أقولها حييًا عييًا خجلاً وجلا، ذلك لأنني أعلم كم خاضت البشرية حروبًا دامية ضد نفسها... البشر ضد البشر... الشعوب ضد الشعوب.. الرجال ضد الرجال... الجند ضد الجند... ولكنني هأنذا أنقل إليك أغرب استعراض على مر الدهور... إنني أقدمه إليك بوصفك إنسانًا مثلي، تنطق مثلي، انحدرت من أمنا الأرض مثلي، إذًا فأنا وأنت سواء...

سيدتي، سيدي... هأنتم تشاهدون حيوانات المناطق الحارة التي سيتم نقلها مع البشر إلى كوكب الزهرة... ستوضع كل تلك الحيوانات وكذا بذور النباتات والكثير من النبت في سفينة واحدة قد أطلق عليها "سفينة نوح" ولكن مع فارق قد لا يبدو جوهريا بين السفينتين ، إذ أن الحيوانات التي تشاهدونها والتي انتخبت من أجل التهجير بعد أن ثبت خلوها من الأمراض وأنها بحالة صحية ممتازة... هذه الحيوانات المختارة والمستنسخة: جميعها من الإناث... ولعلكم تتساءلون... أين الذكور؟؟.. وقد يطرح السائل هذا السؤال وهو يشهق ويزفر جاحظ العينين وقد أصابه الجزع على تلك الذكور... ولكن فلتهدأ بالاً يا سيدي المتسائل، فإننا قد استعضنا عن الذكور بسوائلها الإخصابية التي حفظت جيدًا في أنابيب تسيطر عليها العقول الإلكترونية...

ورغم ذلك فإننا قد احتفظنا بذكور بعض الحيوانات، وعلى رأسها ذكور الغوريلا وذكور الأسود والفيلة الإفريقية، ولعل ذلك مرجعه إلى بعض الترتيبات السرية التي تحتفظ بها وكالة الفضاء بالأمم المتحدة لنفسها... وقد يثير ذلك النهج المبهم في تهجير الحيوانات: مزيدًا من الفزع بالنسبة للرجال... إذ قد يظن البعض أننا بسبيلنا إلى ترك الرجال وتهجير النساء... ولكن، لتهدأ بالاً يا أخي... ذلك لأن العكس هو الصحيح تمامًا، لأن تلك الرحلة الخطرة قد اعتبرتها هيئة الأمم المتحدة نوعا مقدسا من الحروب التي من المتوجب أن يخوضها الرجال دون النساء، وقد اقترحت بعض العقول الإلكترونية الألمانية المتطرفة من نمط هتلر ١٥٠٠م اقترحت هذه العقول المتطرفة أن يكون الفوج الأول من الرجال: حتى يمهدوا السبيل للنساء،

ومن بعد ذلك تهبط السفن التى حملتهم لجلب النساء لتقلع إلى كواكب مجموعة شمسية أخرى مواتية ؛ ولكن لما كان ذلك ينطوى على قدرغير ضئيل من الخطر، فلقد طرحت اقتراحات هتلر ١٥٠٠م جانبًا وأهملت ، ولما كانت العقول الإلكترونية الجبارة فى الوقت الراهن: تعمل مستقلة بعد تخلصها نهائيًا من سطوة الإمبراطور، فإن هيئة الأمم المتحدة: لجأت إلى الأخذ برأى الأغلبية الساحقة منها فيما يخص كل أمر من الأمور...

أنتم تشاهدون معى الآن أيها السادة: حيوان خلد الماء: أو منقار البط الاسترالى... لقد وضع على رأس قائمة حيوانات المناطق الحارة، ولعل ذلك لغرابته التى تقترب من حد الخيال، كحيوان لا ندرى ما هو؟؟... إن له فراء قطيفيًا أحمر وله عينان وأذنان يغلقان عند الغوص فى الماء ، وله منقار مستفرب بداخله خيشومان كالأسماك، وقدماه الأماميتان مكففتان بوترات جلدية عريضة، والأرجل مزودة بمخالب قوية، والذكر - وهو غير موجود ضمن قائمة التهجير - له شوكتان سامتان على قاعدتى القدمين الخلفيتين... وجدير بالذكر أن غذاء هذا الحيوان هو ديدان الأرض: وسرطانات الماء... وصفوة القول: إن هذا الحيوان يكاد يكون هجينا بين عقرب وحيوان ثديى وطائر وسمكة وزاحف، وهذا ما يدعونا إلى تخيل أن هذا الحيوان غير موجود فى الطبيعة رغم وجوده السافر الساخر، وإننى أعد هذا الحيوان أيها الإخوة حيوانًا فلسفيًا..

أيها السادة... هاأنتم الآن ترون خمسين ذكرًا من ذكور الغوريلا الضخمة وقد عزلت بفواصل من الزجاج الغليظ عن خمسين أنثى...

لعلكم تشاهدون معى: آلة معدنية على شكل ببغاء: أمام كل قسم من أقسام الحيوانات، صممت فى سمت هزلى للإجابة عن أسئلة الرواد فيما يخص كل قسم من الحيوانات، وليس على من يود الاستفسار عن شىء منها: إلا أن يقرب فاه من الببغاء بما لا يزيد عن ٤٠سم من خلف الحبال الممدودة حول الأقسام، ثم يوجه السؤال، ومن الفور سيتلقى الإجابة عليه، تلك الإجابة التى ستكون بالطبع لاذعة تسخر من السائل نفسه، ولكن لا تدهش يا سيدى من ذلك : فإن تصميم تلك الببغاوات إنجليزى الصنع... ومن طراز "برنارد شو"...

والآن... ترانى أيها الأحباء أشاهد امرأة أمريكية تلبس "شورتًا ساخنًا" يكشف عن أفخاذ ممتلئة للغاية ويبرز إليتين ضخمتين، كما تتمتع الفاتنة بصدر ناهد للغاية... إننى ألمحها من بين البشر تقترب من ببغاء من تلك، وقد حملت بين يديها: آلة فيديو فى حجم الكف، إنها توشك أن تتحدث الآن إلى الببغاء... لماذا لا نسترق السمع إذًا؟؟.. إنه أمر لا غبار عليه يا سيدى ويا سيدتى أن نفعل... أجل... فإن ذلك من شأنه أن يساعدنى على شرح مهمة الببغاء الطريفة...

وضغط المذيع اليابانى على زر المروحة العمودية، وانطلق من فوره فى لمح البصر كالعصفور ليحط على قيد خطوة من الحسناء الأمريكية بعد أن أفسح له الرواد مكانًا للهبوط...

وهنا سمعت الحسناء تطرح سؤالا:

- هه... قل لى أيها البيغاء المرح: إننى لم أشاهد تمساحًا واحدًا من التماسيح الإفريقية أو الآسيوية؟؟... أليس التمساح حيوانا ممتازًا جديرًا بأن يكون له مكان فى سفينة نوح؟؟.. إننى زوجة الممثل الأمريكى "ريتشارد استراجل" الذى يؤدى أدوار طرزان الخالدة ؛ أم أن هيئة الأمم قد ارتأت إلغاء هذا الدور من قائمة الأدوار السينمائية الممتعة؟؟... ألن يسر الناس فوق المريخ أو الزهرة أن يشاهدوا زوجى وهو يصارع التماسيح فى الأنهار ويتغلب عليها بخنجره؟؟...

ففاجأها البيغاء المعدنى من الفور فى صوت حاد رفيع:

- لا تجزعى سيدتى... الأمم المتحدة ليست بسبيلها إلى إلغاء دور زوجك طرزان.. كلا... بل إنها قد زودت نفس سفينة نوح بمزيد من التماسيح المصنوعة من اللدائن، كتلك التى يصارعها زوجك... ولكن هذه التماسيح حاليًا مفرغة من الهواء... من الهواء، وما إن تحط السفينة على ظهر الكوكب: حتى نشرع بدورنا فى ملئها... بالهواء... هاها... بالهواء... يا سيدتى: بالهواء... بالهواء...

وانسحبت الحسناء بآلة تصويرها من أمام البيغاء لاذع اللهجة، بيد أنها فوجئت بالمذيع اليابانى من خلفها، فأوسعت له فى الابتسام وحيته ثم تهادت بين خضم البشر ليبتلعها بكتله المتراصة...

وعاد المذيع إلى إرساله:

- ها هو الأسد الإفريقى.. خمسون أسدًا وخمسون لبؤة... ما أجمل أن تنتشر تلك الرفاق الأرضية فوق كل من المريخ والزهرة...

لعلكم تشاهدون معى الآن: النعامة الإفريقية.... إنها أكبر طائر فى العالم... إنها طائر لا يطير ويجرى فى دوائر ولا يعرف الخط المستقيم.... إن الذكر أب مخلص فهو الذى يرقد على البيض...

إن الحيوانات هنا لم يراع فى عرضها: التدرج العائلى أو الفصيلى أو النوعى... كلا... إنه منهاج خاص بالفضاء، ولا يمكن لىَّ أن أدعى معرفة تفاصيل ذلك...

إنكم تشاهدون معى الآن طائر الكيوى... إنه طائر عجيب من نيوزيلندا... إن بيضة الطائر تساوى ربع حجمه... تصوروا!!

ها هى طيور القصورى... إنها تشبه النعامة ولها خوذة صلبة فوق الرأس... ليس لك يا سيدى أن تقلل من شأنها.. إن هذا الطائر فى وسعه قتل إنسان...

أرأيت إلى ذلك الكنغر يا سيدى؟؟... إنه حيوان كيسى استرالى تعودت أن تراه بحدائق الحيوان...

هذه هى دببة كوالا الطريفة... إنها تشبه لعبة ـ وتتغذى على أوراق الكافور... ها هو شيطان تسمانيا... إنه حيوان كيسى ولكن كيسه يفتح إلى أسفل وليس إلى أعلى كما هو شأن الكنغر...

انظر معى إلى آكل النمل ذى اللسان اللزج... إن هذا اللسان طوله ٣٠سم ويصطاد به النمل من جحوره العميقة...

ها هى سلحفاة جالا باجوس العملاقة... إنها تزن ٢٢٢ كجم، وقد تعمر خمسمائة سنة...

ها هو السمك رامى السهام... إنه يوجه سهامًا من الفقاعات الهوائية إلى الفراش الطائر ليسقطه فى الماء...

انظر معى... ها هو طائر اللقلق الأبيض... إنه رحالة ماهر ما بين إفريقيا وأوروبا... انظر إلى ما أنجبت أمنا الأرض من حيوان: لتخلبنا بجميل إبداعها.....

ها هى طيور الحسون والكناريا....

ها هو الببغاء الرمادى الإفريقى... إنه متحدث لبق نابغة... ها هو يمام الصخر... إنه يبنى عشه فوق الصخور، وهو أصل كل الحمائم...

كل منا يعرف نحل العسل، وهذه هى خمس خلايا من النحل الكرنيولى الأسود، إنه وديع لا يؤذى... لقد انتخب من أجل أخلاقياته رغم أنه أقل نشاطًا فى جمع الرحيق من الأنواع الأخرى...

لعلك تلاحظ معى يا أخى أننا لن نحمل معنا أى نوع من أنواع الثعابين، ولعل ذلك مرجعه إلى أننا قد بيتنا النية لترك: الفيران تواكب انفجار الأرض المروع مع جحافل البعوض والذباب والصراصير والهموش والعقارب والأفاعى.

انظر إلى ذلك التيتل الأيلاند العملاق... إنه أكبر التياتل حجمًا...

ها هو الغزال جرانت... إنه غزال كبير رشيق القرون...

ها هى سمكة التونة وسمكة أبو سيف... لقد أتينا بأسماك صغيرة لها لتعيش فى ذلك الحوض المصنوع من اللدائن الشفافة المكيفة..

يا أخى... هذه مجموعة رائعة من دجاج: الرد أيلاند الأحمر... البلايموث روك... اللجهورن... الساسكس... البراهما....

ها هى مختارات من الطيور المهاجرة سيمتعنا أن نشاهدها تتنقل من مكان إلى مكان فوق مريخنا أو زهرتنا وكأنها تقوم بهجرات كبرى فوق وداخل الكوكب الواحد..

ها هو خطاف البحر... اللقلق... البلشون... السمان... الزرزور... العندليب.... البط البرى.... عصفور الجنة....... الأوز الكندى....

أوه ... مرحبًا بصديقنا العزيز... إنه حمال الأسية... الحمار... لقد اخترنا لك من أنواعه: حمار سردينيا الجد قصير، وحمار كيانج الأحمر... أنه يستطيع المعيشة فى أعالى جبال التبت... هذا هو الحمار الوحشى المخطط الإفريقى "الزيرا"... إن صوته يشبه تمام الشبه صوت طائر البطريق، إن هيئة الأمم لترجوها أن تكف عن نهيقها هناك حتى لا ينزعج سكان الكوكبين إن كان هناك سكان... انظر إلى تلك السمكة... إنها السمكة الشافطة للطين، من مدغشقر... لست أدرى ما سر ارتيادها الفضاء معنا!!. ولكن يبدو أن لعلماء الحيوان مغاليقهم التى تخصهم والتى تبدو لنا غير منطقية. ويكفى أنهم رفضوا استنساخ البشر إلا الموتى من العلماء.

انظر إلى ذلك العقعق الأخضر... إنه أجمل أنواع الغربان وهو من هيمالايا... والآن... يبدو أننا قد وقعنا فى مأزق حرج... إننا نقبل على منطقة القردة التى عادة ما نجد فيها شيئًا من الماضى السحيق ينتمى إلينا على وجه من الوجوه... ها هو: قرد عنكبوت أسود... ساكى ذو شعر... قرد سنجاب... دروكولى...ساكى ذو لحية... مرحبا بك أيتها الزرافة الوديعة.... ها هو الجمل ذو السنامين... انظر إلى هذا الحوض المائى... ها هى السلحفاة الخضراء المائية تقبع بداخله، ولعلك قد ذقت بيضها اللذيذ فى يوم ما، ولعلك ستذوقه ضمن الأغذية التى توزعها هيئة الأمم خلال الاستعراض...

والآن: هلم لترحب معى بتلك التى ترضعنا اللبن دائمًا كل صباح كما لو كنا أطفالاً لها... إنها البقرة... لقد اخترنا لك العديد منها... الفريزيان... الجرنوسى... الإيرشير... الردبول...

ما قولك فى أنه من المتوجب عليك أن تشكر لوكالة الفضاء بهيئة الأمم المتحدة ذلك الصنيع؟؟.. لقد جلبت لك كل ما تشتهى من البط والأوز... أوز عراقى أسود الرقبة... أوز أبيض... أوز رمادى الأرجل... خضارى... البليول... الشهرمان الأحمر... بطة كارولينا... الإسكوتر... الشرشير...

والآن: لا يسعنا إلا أن نرحب بقولنا: أهلاً... مرحبًا بالأصدقاء الأوفياء... أجل... يجب علينا ذلك ونحن نقبل على مجموعة الكلاب المنتخبة: كلب بوكسر.. إنه ممتاز لحراسة ممتلكاتك المقبلة فوق "المريخ٤ والزهرة٤"، الكلب السلوقى: إنه أسرع الكلاب قاطبة ويمكنه أن يتفوق على كلاب كوكبى التهجير إذا تخيلنا وجودها... عشرون كلبة من سلالة نيوفوندلاند... إنها سباحة ماهرة وكذلك فلها قدرة فائقة على إنقاذ الأشخاص... عشر كلبات من النوع المالطى... إنها جميلة خلابة المنظر... كلاب برجا ماسك... إنها أصلح كلاب لحراسة الماشية والأغنام...

والآن ها نحن نتقهقر من جديد لنعود إلى مزيد من الليمورات... ليمور الهند الشرقية: إن عيناه واسعتان للغاية وهو من سومطرة... إندرى: إنه حيوان اجتماعى وهو أكبر الليمورات.. ها نحن نعود إلى مجموعة أخرى من القردة: الأورانج أوتان.. إنه أندر القردة من جزيرة سومطرة... بابون... لانجور... الجابون... الماندريل الحبشى... الشمبانزى..ولعل زوجة طرزان ستشكر لوكالة الفضاء ذلك الصنيع باستجلاب هذا النوع من القردة الطريفة... سيسعدك معى أن تشاهد تلك الدجاجات التى ستصعد معنا عبر الفضاء... الحجل... دجاج غينيا... الديك الرومى: إنه يكثر بالمكسيك...

حان الوقت الآن كيما يحييك حيوان ظريف للغاية... إنه الفيل... هذان فيلان إفريقيان كبيران، وهذان هنديان صغيران... إنها ترفع خراطيمها للتحية... الفيل أيها الأخوة حيوان ينام بطريقة المناوبة، فعلى كل فيلين أن يتناوبا الحراسة أثناء النوم، ولا يمكن للفيل أن ينام إلا إذا كان هناك فيل آخر يحرسه...

نحن الآن نستعرض البومًا أو الأسد الأمريكى، والببر... لقد انتخبناها رغم ضراوتها وخطورتها على الإنسان والحيوان ويبدو أنها لن تطلق للعيش فى الغابات، وربما بيت استخدامها فى السيرك فحسب... ربما...

ها نحن أولاً نقف أمام صنوف الأغنام التى ستصعد معنا... نعجة لتكولين... غنم دورست.. غنم صفلك... غنم ميرينو...

وتلك هى صنوف الماعز: نرويجى... ليبى... فرنسى... بلجيكى... أناضولى... مالطى.. ماعز أريتريا... كشمير.

وبعد فاصل الماعز الزجاجى هأنت ترى معى: الخنزير الصينى والخنزير البولندى...

****

واستراح المذيع اليابانى الفصيح البيان، وحط بطائرته على مقربة من مجموعة الغوريلا، وبدأ يتناول وجبته التى كان قد التقطها من السماء وكانت تتألف من: أرز وسرطانات بحرية

لذيذة شهية، وقطع من الشيكولاتة، وقطع كبيرة من الأيس كريم، وعلبة بيرة منعشة ماركة "تانونك.

تناول اليابانى طعامه بجوار خيمته، ثم نهض وغسل يديه بمياه صنبور له حوض مرمرى على جانب من طريق البشر، وعلى الأثر عاد ليستأنف استعراضه من جديد...

وإذ تم للمذيع استعراض حيوانات المناطق الحارة قاطبة المزمع تهجيرها: اتجه إلى حظيرة الجانزيين الذين ما إن شاهدوه حتى خروا ركعًا، وأوسعوه مزيدًا من الانحناءات المبجلة، وبدوره أنشأ يعلق:

- إنهم نتاج جانز الألمانى أيها الإخوة... إنهم نتاج خطأ ذريع أيها الإنسان... إنه خطأ لن يغتفره الرب لأنه تجديد للرق، وتجسيد لرغبة استرقاق الإنسان لابن جلدته، ولكن حسبى هنا ذكر ما ردده العالم الألمانى جانز قبيل موته:

– حقيقة إن ما أقدمت عليه وهو صنع وتخليق ذلك الإنسان: قد يجعلنى أخلد إنسان فى نار جهنم، ولكننى قبلما يقذفوا بىَّ فى أتون النار سوف أدافع عن نفسى بقولى إن: جبلة الاسترقاق هى جبلة فطرية، فأردت أن امتصها من بنى البشر، لقد أوجدت متنفسًا لتلك الجبلة الفطرية كيما تمارس نفسها فى إنسان صناعى بدلاً من الإنسان ذاته... أليس ذلك الدفاع إذاً يجعلنى جدير بمقصورة صغيرة مرصعة بالورد والأزاهير ولها جدار من الزجاج الذى لا يسخن وقد وضعت تلك المقصورة فى وسط لهيب جهنم؟؟...

وانتقل المذيع إلى قسم النبات، فقام بشرح مستفيض لكل بذور النبات التى لا يدركها حصر، وقام باستعراض النباتات الخاصة بالمناطق الحارة التى لا تتكاثر إلا خضريًا، وقال إنه لا مناص من نقلها كنباتات...

وعندما تم له اجتياز كل منطقة النباتات: كانت الشمس بوصفها شقراء السماء: قد جمعت جدائل شعرها الذهبية وعقصتها من خلف جيدها فى شكل كعكة مستديرة، متخذة سبيل العودة من رحلتها اليومية، فاختتم المذيع تعليقاته: بالدعاء لكل بنى البشر فى ربوع الأرض، متمنيًا لهم أحلامًا سعيدة بهيجة، ناصحا أن يشحذ السود وسكان المناطق الحارة: أحلامهم بحيث يكون مسرحها الزهرة ٤ وأن يشحذ البيض والصفر أحلامهم بحيث يكون مسرحها المريخ ٤ ... لعلهم جميعا وبتلك الأحلام الأثيرية يستطيعون سبق سفن الفضاء الشراعية التى يسيرها ضوء الشمس...

وانفلج اليوم الثانى:

فاستعرض المذيع التليفزيونى التراث الآدمى الذى سينقل، وهو التراث الفرعونى بعد أن تم جمع متفرقاته من شتى المتاحف بدول العالم بما فيها متحف القاهرة..

لقد تألق آنذاك تمثال الكاتب المصرى المتربع والذى كان بمتحف اللوفر، ورأس الملكة "تى" المصنوع من الأبانوس، ولقد كان مودعًا بمتحف برلين بألمانيا، وتمثال الإلهة "سخمت" الذى أبرز نجاح المثال المصرى فى التوفيق بين جسم المرأة وجسم اللبؤة لدرجة أن الناظر إلى التمثال يجد نفسه وقد نسى تمامًا اختلاف طبيعة الكائنين، وتألق التمثال النصفى لـ "نفرتيتى" الذى كان بمتحف برلين... لقد بلغ هذا التمثال أوجًا وشأوًا فى الكمال مما جعل له جاذبية فريدة، إذ أن المثال استطاع أن يبرز رقة مفرطة وأنوثة فياضة... وتألق قناع توت عنخ آمون الذى كان بالمتحف المصرى كآية فى الدقة والجمال الفرعونى الأصيل... وتألق تمثال صغير للفرعون رمسيس يمثله وهو يقدم قربانًا ويزحف تكتية عن فرط خشوعه... وبالإضافة إلى الحضارة المصرية القديمة: استعرض المذيع الحضارة السومرية بالعراق: التى كان أبرزها رأس بقرة قرناء من اللازورد...

ومر على الحضارة الآشورية التى كان أبرزها تمثال الملك "آشور نصر"....

وانتقل إلى الحضارة العبرية التى بين أن أهم ما أنجبته هو التوراة...

وتلاها بالحضارة الآرمية التى كان أبرزها تمثال الملك "برركاب" الجالس على عرش من الأبانوس والعاج والذهب مقام فوق عمد من خشب الأرز لها رءوس ثيران...

وانتقل إلى الحضارة الفينيقية التى كان أبرزها مركبًا صغيرًا من الخشب ذا مجاديف موزعة على عدة طوابق، وميزانا للجواهر، وأساور من الذهب وخلاخيل من الفضة...

واستعرض الحضارة الفارسية: التى كان أبرزها تمثال "قورش" الأول المجنح، ولوحة ذهبية بالخط المسمارى الفارسى، وأخرى فضية، وقطعا من النقود المعدنية من عهد "دارا الأول"، وتمثالا لنبى الفرس "زردشت"....

هذا: وبعدما استعرض حضارة الإغريق التى كان أبرزها رأس الإسكندر الأكبر، وبعد استعراض الحضارة الأترورية التى كان من أبرزها جنديين صغيرين معدنيين ممسكين بحربتين ودرعين... بعد أن استعرض كل ذلك كان قد انصرم اليوم الثانى بأكمله....

وهل اليوم الثالث: ليبدأ الاستعراض فى منطقة الأسلحة...

وأنشأ اليابانى "هيتو" يقول:

- لعل الأسلحة تمثل نوعًا من أنواع التراث الآدمى، خاصة وأن ما سنستعرضه: لا يضم فحسب أسلحتنا الحديثة الشديدة التطور: بل أيضًا يضم إلى جانب ذلك نماذج من

أسلحة الماضى السحيق بالإضافة إلى ما يتسلح به البشر البدائيون والذين يعيشون على حالتهم من البدائية حتى وقتنا هذا.... أنتم تشاهدون وفوق تلك المناضد المصفوفة والمكسوة بالمخمل الأخضر: نماذج من سهام قدماء المصريين والآشوريين وزنوج إفريقيا وسكان استراليا البدائيين... وها هى أيضًا أقواسهم المديدة ويليها الحراب الطويلة من كل الطرز... تلك هى العصاة المرتدة التى يقذف بها الاسترالى فترتد إليه بعد أن تتخذ دورتها.. ها هو درع صنديد من دروع قدماء المصريين، وها هو درع من طراز عربى وآخر إسبانى ورابع آشورى وخامس همجى زنجى...

طاف المذيع بكافة الأسلحة البدائية والضارية فى القدم، ثم انتقل إلى زمام الأسلحة الحديثة: فاستعرض المسدسات بكافة أنواعها، ثم البنادق اعتبارا من بارودة القراصنة إلى القناصات ذات: التلسكوبات المقربة، واستعرض الرشاشات القصيرة والمتوسطة والثقيلة، تحدث معلقًا على القنابل اليدوية الدفاعية والهجومية ثم المدافع المتوسطة الحجم، قائلاً إنه لن يتسنى حمل الثقيلة منها إلى كوكبى التهجير بالرغم من احتمال أهميتها القصوى..

وعاد فاستعرض أنواع الدبابات الخفيفة التى تستكشف ليلاً بالأشعة تحت الحمراء...

وانتهى اليابانى الشاب النابغة "هيتو" من زمام الأسلحة : وكانت الشمس قد ملت صبغة شعرها وجدائلها الذهبية، فجعلت تصبغها بصبغة سوداء أتت بها من صباغ الفضاء، وما إن تمت لها عملية الصبغ: حتى غرق الكون فى الديجور... وهل اليوم الرابع: ضاريا صفحا عما سبقه من أيام...

وراح المذيع يتابع تقديم أغرب استعراض على مر الدهور... جعل يسعى وينتقل بطائرته الهليوكبتر الصغيرة الطريفة التى يمكن لها أن تحقق حلما كان قد راود "عباس بن فرناس" منذ فجر عصر الطيران المبكر...

استعرض اليابانى مع المشاهدين فى تليفزيونات العالم بأثره: كل المعدات والأجهزة المزمع ترحيلها وتهجيرها مع مهجرى الأرض...

كان من دواعى الفخر: عرض الثلاجات التى تعمل بمفاعلات نووية صغيرة لا تتطلب شيئا من الوقود أو الكهرباء، السخانات، وأجهزة طب الأسنان، والمراوح، والمكاوى بأنواعها، والكشافات الليلية ذاتية الإضاءة، والساعات البديعة، وأدوات الكتابة من أرفع الطرز، وماكينات الحلاقة التى لا يلزم تغيير شفراتها، وماكينات الحياكة، وماكينات غزل الصوف إلى بلوفرات دون أن يلزم حياكة الأكمام بخيوط قطنية سهلة التهتك بين الحين والآخر، والمكانس الكهربائية، وأدوات اللحام وكاميرات التصوير التليفزيونية والمادية والسينمائية، ومسجلات الصوت، والمذياع، وأجهزة التليفون، وأوانى الطهى ذات الصفارات، وأدوات الطعام المذهلة الدقة...

راح يستعرض ويستعرض حتى كل متنه، فنظرت إليه الشمس من عليائها نظرة عطف وشفقة، ولكى تعطيه قسطه من الراحة: أدارت وجهها فى اتجاه آخر كيما يتذرع بالظلام لينام فى خيمته المضروبة على جانب من طريق الاستعراض وقد وقفت طائرته الخاصة على بابه لتلبى النداء...

وفى اليوم الخامس: أقبلت المشرفة العامة على الاستعراض:ألا وهى الشمس...

اقبلت كيما تتابع إشرافها بمزيد من الأشعة لتبدد الظلمة من حول المستعرضين ومن حول ما يستعرض من نفائس كوكب الأرض....

إن هذه الشمس تحيط علمًا بكل شىء... تحيط علمًا بماهية كل الكواكب التى نوطها الله بها لإنارتها وبث الدفء فيها ودفع الظلام عنها، تلك الشمس كانت تمارس وظيفتها دون أن تحيد عنها، إلا أنه كان من المستغرب حقًا أن تظهر لها وظيفة جديدة تبدو غريبة بل تعد من الخيال المحال... إنها وظيفة دفع أو زق أشرعة السفن الفضائية الشراعية فى اتجاه الكواكب وذلك بواسطة فوتونات أشعتها... حقا... يا لها من وظيفة مستغربة لأشعة الشمس: أن تدفع سفينة أمامها وعلى متنها عُشرة بليون من البشر، وليس على الربابنة إلا أن يحسنوا توجيه القلاع اغتنامًا لريح شمسية مواتية وتجنب عاصفة ضوئية هوجاء قد تدفع بالسفينة إلى كوكب غير مقصود غامض...

كان اليابانى "هيتو" فى صباح ذلك اليوم قد تلقى عن طريق الهاتف المرفق بمقعده: إشارة تليفونية حملها إليه أحد الأقمار الصناعية الثلاثة المعلقة، وكانت هذه الإشارة قد أتت له رأسًا من هيئة الأمم المتحدة بنيويورك، ومفادها: أن اثنين من المذيعين، أحدهما أمريكى ويدعى "وارنر" والثانى فرنسى ويدعى "جوزيف" فى طريقهما إليه، وسيفدان فى ذلك اليوم بوصفهما مذيعين احتياطيين يمكن لهما أن ينوبا عنه عند تعبه أو إرهاقه... ولقد بدا على اليابانى المذيع شىء من التوجس والضيق على إثر تلك الإشارة، إلا أنه لم يشأ أن يعكر صفو مشاهديه على الشاشة الصغيرة فراح يكلل وجهه بضحكات وابتسامات بشوش، ولكنه ما كاد يبدأ فى استعراض حيوانات المناطق الباردة والمعتدلة: حتى شاهد رجلين فى زى مذيعى الأمم المتحدة الرسمى والذى يتألف من بنطال وسترة أبيضين، وعلى صدر السترة شعار هيئة الأمم المتحدة المنقوش باللون الأزرق...

وعندما دنيا منه: سلم عليهما، وقد تم التعارف دون أن يبدى شعوره نحوهما، ذلك لأن كل المشاهد كانت تصور تلقائيًا من خلال عدسات مركبة فوق مقعد الطائرة الصغيرة الهليوكبتر . والتى تنقل بدورها كل ما تصوره أولاً بأول إلى الأقمار الصناعية، بل تفاعل مع المذيعين الوافدين كما لو كانا اثنين من رواد الاستعراض، وتجاوز عن ذكور الغوريلا والأسود والفيلة

الإفريقية بوصفها حيوانات مناطق حارة: بُيت وضعها فى سفينتى نوح لأغراض مبهمة...

وما كاد المذيع هيتو يبدأ فى التعليق: حتى قاطعه الأمريكى وارنر بقوله:

ـ هل يمكننى معاونتك أو الحلول محلك ابتغاء إراحتك من عناء العمل؟؟... فالحق يقال إنك قد تعبت كثيرًا....

وهنا رد هيتو وهو ييمم شطر الدب الأبيض القطبى:

ـ أوه... كلا... اليابانيون لا يتعبون بسرعة... يبدو أنكما متعبين من السفر... لقد حضرتما توًا من نيويورك ولا ريب أن ذلك من شأنه أن يرهقكما تمامًا.... يمكنكما الاستراحة بخيمتى حتى يتم ضرب خيمتيكما...

فقال الفرنسى جوزيف:

ـ هل نفهم من ذلك أنك ستقوم بالعمل كعرض مستمر؟؟... لقد جئنا لك يا سيدى للمساعدة... إننا مذيعان احتياطيان... لقد أرسلنا سكرتير عام الأمم...

وبأدب ووداعة وبمزيد من الهدوء رد هيتو وقد دنا بطائرته الجد صغيرة من قفص الدب الأبيض الفولاذى المكيف بواسطة جهاز معلق بالسقف:

ـ يجدر بكما عدم تخيل تنحيتى عن عملى الذى بدأته بجدارة منقطعة النظير... لقد تعود: المشاهدون علىَّ تمامًا... لا يمكنكما تنحيتى عن عملى بأى شكل حتى لو كانت تلك التنحية بطريقة سلبية وديعة تمامًا كما تفعلان الآن....

وما كاد المذيمان يسمعان منه ذلك: حتى نظرا إلى بعضهما البعض نظرات ذات معنى، وأسرعا من فور ذلك بالابتعاد، بيد أن جوزيف رد بقوله:

ـ حسنا... لك ذلك يا سيد هيتو... هيا بنا يا وارنر كيما نستريح بالتاكسى الطائر الذى حضرنا به من المطار الدولى بالقاهرة...

انطلق المذيمان الاحتياطيان، وما كادا يبتعدان: حتى شيعهما اليابانى بنظرة خاصة ظهرت جلية على شاشات التليفزيون، ثم طفق يشرح:

ـ ها هو "تانوك" أيها السادة والسيدات... إنه الاسم الذى يطلقه الإسكيمو على الدب القطبى... إنه ملك الشمال بلا منافس، ورغم أنه يزن ألف رطل: إلا أنه سباح ماهر، وقد يسبح خمسة أميال متعقبًا فقمة.

وما كاد يصل إلى هذا الحد من الشرح: حتى جاء رنين تليفونه المعلق على جانب من مقعده الوثير، فعمد إلى رفع السماعة للتخاطب، وما كادت السماعة تقبل أذنه حتى سمع المتحدث إليه يقول:

ـ هنا نيويورك... هيئة الأمم المتحدة... روالد...

ـ هالو... مرحبًا سيدى السكرتير العام...

ـ حسنًا يا هيتو... لقد أديت مهمتك على أكمل وجه... لقدأبلغنى بذلك الآن: المذيمان اللذان قد أرسلتهما إليك كاحتياطيين...

ـ أوه... لقد أتيا إلىَّ إذاً "بأسافينهم"... لقد شحذا إسفينًا رائعًا ووجهاه ضدى من هنا...

ـ مهلاً يا سيد هيتو.... قلت لك إنهما احتياطيين، ولم يحضرا إلا لمساعدتك ومد يد العون إليك خلال عملك المرهق...

ـ اسمعنى إذاً أيها الرئيس روالد... نحن اليابانيين ليس بوسعنا أن نتعب أو نتراجع عن عمل نيط بنا كى يثب إليه غيرنا... إنها طريقتكم الخاصة لإقصائى... إقصائى...

ـ أوه... لا يجب التفكير فى مثل ذلك يا سيد هيتو... إنه تفكير لا يتفق مع أعمال هيئة الأمم المتحدة الإنسانية الطابع... إننا نشيع روح التضامن فى سائر الشعوب... هذه رسالة مقدسة لا يجب أن نحيد عنها... لقد منحتك فى العام الماضى درجة مذيع تليفزيونى "ممتاز"... هل نسيت؟؟... لقد بعثت إليك يومها "وكيل" هيئة الأمم المتحدة كى يهنئك بذلك....

ـ أوه... لقدمنحتنى حقًا درجة امتياز يا سيدى الرئيس، بعد أن كان الرئيس السابق لك لا يمنحنى غير درجة جيد جداً حتى العام قبل الماضى رغم كل ما كنت أبذله من جهود... أجل... لقد كان يمنحنى ٩٠٪ بالتقرير السرى... وفى العام الماضى عمدت إلى "شعلقتى" على الامتياز بدرجة واحدة بمنحى ٩١٪ رغم ما بذلته من أعمال خارقة... إنه امتياز أعجف "متشعلق" يا سيادة السكرتير العام، ولم يكن مرجع ذلك بطبيعة الحال إلا لكونى مغتربا من اليابان... أليس كذلك يا سيد روالد؟؟...

ـ مهلاً أيها اليابانى... حقيقة إننى قد منحتك نسبة ٩١٪ ولكن ...

ـ أجل يا سيد روالد... لقد منحتنى هذه الدرجة لأن الامتياز فى العام الماضى لم يكن ليصرف بناء عليه مكافآت مادية، أما هذا العام فيبدو أن هناك مزيدا من المكافآت نظير المجهودات غير العادية، ومن أجل ذلك فإنه من المبيت إقصائى عن الامتياز بحذف هذه الدرجة حتى لا أتحصل على هذه المكافآت...

ـ أيها اليابانى: إنك بذلك تحملنى فعلاً على مثل ذلك الإجراء المجحف لك ولمجهوداتك المعترف بها...

ـ حسنًا.. هكذا تتبلج الحقيقة إذاً... ولكن لتعلم يا سيد روالد أن هذا العام هو عامنا الأخير فوق الكرة الأرضية...

ـ أوه... ولكننا ستكون معًا على كوكب واحد أيها اليابانى، وبالتالى فإن الأمر سيظل كما هو كما تعلم وتعى...

ـ إذاً فإنك تجزم بنجاح الهجرة يا سيد روالد... حسنًا... إنه تفاؤل محمود منك على أى حال... إن وكيل الهيئة يعلم قدر كفاءتى ويقدرنى حق قدرى، ويبدو أنك مصمم على خذلانى دونما سبب بالرغم من أنك صديقى.. طيب... إننى أفضل أن أكون صيادًا للوحوش البرية فوق المريخ بدلاً من كونى مذيعًا تليفزيونيًا مغبونًا مسفهًا....

ـ أيها اليابانى: إنك تدفعنى الآن إلى إدراج اسمك من جديد بين أسماء المذيعين الجدد تحت التدريب، وأنت تعلم أن هذه طريقتى فى العقاب دائما...

ـ كيف تعمد إلى ذلك والهيئة بأثرها تعلم تمامًا أننى مذيع تليفزيونى عالمى منذ عشر سنوات؟؟؟...

ـ أنت تعلم أن ذلك بوسعى، فلا رقيب علىَّ كما تعلم...

ـ حسنا... إنك إذا ما فعلت ذلك فوق المريخ فلا ريب أننى...

ـ سأضعك فى أول قائمة الذين تحت التدريب أيها السيد اليابانى.

ـ حسنا... لا بأس... ومن فورى سوف أعمد وأمام وكلاء الهيئة جميعهم إلى...

ـ وسأعمد إلى جعل الذى يدربك على الإذاعة مذيعًا آخر أقل منك فى الأقدمية بعامين على الأقل...

ـ حسنًا... هل تذكر يا سيدى قنبلة هيروشيما الذرية التى فجرتها أمريكا على اليابان؟؟... إنك إذاً تفجر قنبلة هيروشيما جديدة فوق أم رأسى... لا بأس... قلت لك إننى سوف أعمد وأمام وكلاء الهيئة بأثرهم إلى شطب اسمى عدة مرات بالقلم الأحمر بطريقة غير لائقة، ولسوف أعمد إلىَّ التوقيع أمام ذلك الشطب حتى يتم عقابى عن طريق محقق قانونى يفد إلىَّ فوق المريخ يا سيد روالد، وإننى على علم اليقين أن ذلك المحقق القانونى سوف يكون منصفًا للغاية...

وما إن أتم جملته حتى شاهد المذيعين يقتربان، وعندما مثلا بين يديه ابتدره الفرنسى:

ـ لقد سمعناك تليفزيونيًا تصف شورت زوجة طرزان بأنه شورت ساخن، وإن ذلك لا يليق بك: كمذيع عالمى...

وبما أن السكرتير العام قد سمع ذلك الحديث عن طريق الهاتف فإنه قد هتف قائلا عبر الأقمار الصناعية المعلقة:

ـ أسمعت أيها اليابانى؟؟... لم يكن من المتوجب ذلك...

ـ ليس ذلك بخطأ يذكر، كما أنه يعتبر نقد محمود، إذ أنه كان من المتوجب على تلك الأمريكية أن تأتى لمشاهدة أغرب استعراض على مر الدهور بزى لا ينطوى على محفزات جنسية ستبدو منتقدة للجميع، وإننى أترجم شعور المشاهد التليفزيونى فى كل أنحاء الأرض التى سوف تتفجر إلى كويكبات عديدة قد يربو عددها على أكثر من ألفى كويكب كما حدث لأحد الكواكب التى تزاملنا فى مجموعتنا الشمسية... إن المراة لاعصم منها: ذلك لأنهم فطروا على ذلك...

وما أن انتهى اليابانى من احتجاجه: حتى كان الأمريكى وارنر يبتدره: وقد لاح ركب العم جمال آت يجد من بعيد بعد أن تم له مشاهدة كل ما سيحمل إلى الزهرة :

ـ اترك الطائرة وما عليها من أجهزة إرسال تليفزيونى وتليفونى وإذاعى... عليك بذلك فلقد آن لمهمتك أن تنتهى، وإننا نفيد بأنه: وبعد الإطلاع على لائحة الجزاءات العالمية وعلى القانون رقم ٦١ عقوبات: فإنه قد وجه إليك إنذار فى القرار ١٥٦ لعام ٢٠٠٠ ميلادية، وستوقع عليه بالعلم حالمًا تصل إلى نيويورك...

وما كاد الأمريكى يتم حديثه: حتى كان اليابانى يقفز قفزة مرعبة مفاجئة عن مقعد الطائرة الجاثمة فوق الأرض، وفى لمح البصر أطار سترته عن جسده وانطلقت منه زعقة شيطانية وهو يقفز عاليًا فى الهواء مسددًا قبضته إلى الأمام فيما يشبه السيف المشروع، وهنا كانت قد اقتربت كل من غادة وحنين، وبكل جرأة من الطائرة العجيبة مما جعلهما فى مجال التصوير والتسجيل الإذاعى دون أن تشعرا، وذلك بعد انسلاخهما دونما وعى: عن كل من العم وبهاء وباسنت، وما كادت حنين تلمح اليابانى يقفز قفزته الشيطانية: حتى هتفت: فانتقل هتافها إلى كل أرجاء العالم فبدت كمعلق غريب على تلك الأحداث الرهيبة:

ـ أواه.. يا لها من قفزة مرعبة... إن رئيس الحكومة نفسه لا يستطيع أن يقفز مثلها...

وتهدل شعر اليابانى على رأسه فى كل اتجاه فى ثورة عارمة، فهتفت حنين عاليا وقد وقفت غادة إلى جوارها تتلمظ غيظًا:

ـ أواه... لقد تهدل شعر البطل فى كل اتجاه... إن رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه أن يهدل شعره على تلك الصورة...

ويما أن المذيعين الوافدين قد بث فى قلبيهما الرعب إلى الحد الكافى: فلقد انسحبا بدورهما وعيناهما تقدحان الشرر، وهنا لم يسع اليابانى إلا أن يبتسم فى إعجاب بالنفس، وما لبث أن فوجئ بحنين تسرع إليه بسترته البيضاء الحاملة لشعار هيئة الأمم المتحدة، فتناولها منها وأوسع لها فى الابتسام وطبع على جبهتها قبلة حانية، وهنا لم تشأ حنين إلا أن تهتف فى حماس وخيبة وقد تهدل كماها فأخفيا كفيها تمامًا دون أن تفطن مطلقًا إلى أن حديثها وحركاتها قد انتقلت عبر الأقمار إلى كل أنحاء العالم:

ـ يا سيدى البطل... إننى حنين ابنة وسيم مورث الصفات الوراثية الحميدة... إنه لم يورثنا أنا وأخواتى إلا صفاته الوراثية الحميدة فحسب... إن أختى نوال طالبة بكلية الحقوق جامعة القاهرة، ولسوف تتخرج بإذن الله، ومن ثم فإنها سوف تدفع ديونى التى تراكمت علىَّ... إننى مدينة يا سيدى لكل من بهاء وغادة بثمن زوج الحمسون، وكذلك فإننى مدينة بثمن قطع اللحم، إن أختى نوال سوف تتولى امر زواجى لأن ابى فقير ومعدم ولا يجد قوت يومه... لقد ضربه زوج أختى وسام الكمال الملاكم: فتناثرت صفاته الوراثية، ويومها لم يسعنى إلا أن أجمع له كل صفاته الوراثية فى حجر ثوبى كيما يعيدها إلى مواضعها من جسده... إنها أجزاء صناعية يا سيدى... ليتك تضربه... إن أختى نوال...

وهنا فوجئت حنين بالعم يصرخ على بعد:

ـ أجننت يا حنين؟؟...

وثابت حنين إلى رشدها فانسحبت هى وغادة وقد أخجلهما ذلك التصرف التلقائى غير الواعى لدرجة أنهما قد اتهمتا نفسيهما بالخبل...

وما كاد اليابانى ينظم هندامه ويجلس من جديد على مقعد الطائرة ليشرع فى استئناف الشرح حتى أتاه رنين التليفون من جديد:

ـ هنا نيويورك... الأمم المتحدة... روالد... حسنًا أيها اليابانى... لقد شاهدنا كل شىء... يمكنك أن تقوم بالعمل فى بقية الاستعراض... ولكن لتعلم أنك مهما تفانيت فى العمل فلن تنال درجة الامتياز هذا العام، لأنك تناسيت أن التقرير السرى يتضمن عددًا من العناصر من بينها طاعة الرؤساء واحترامهم وتنفيذ أوامرهم حتى تسير عجلة العمل... إن المواظبة والاجتهاد لا يمثلان إلا عنصرين فحسب من عناصر التقرير السرى أيها اليابانى... لقد أسأت إلى نفسك بسبب تصرفك... لقد كان من الممكن أن تنتخب فى يوم ما كسكرتيرًا عامًا للأمم المتحدة... لقد كنت أتنبأ لك بذلك تقديرًا لنبوغك، ولكن يبدو أنك تحب الاستقلال فى العمل بطريقة رهيبة أيها اليابانى...

ـ لقد أرغمتونى على ذلك... لقد دافعت عن عملى بطريقتى الخاصة بوصفى حائزًا على حزام الكاراتيه منذ خمسة أعوام، ولولا وظيفتى كمذيع تابع لهيئة الأمم: لكنت أحد أبطال العالم فى هذه الرياضة التى تبدو همجية عنيفة، إلا أنها أفضل شىء يتسلح به الفرد ضد الجماعة المعتدية...

ـ لن تحصل على الامتياز هذا العام...

ـ لكن... إنه امتياز أعجف "متشعلق" على نسبة مئوية واحدة فوق التسعين... إن لهذا مدلوله يا سيد روالد... ومدلوله أنك غير مقتنع بىّ تمامًا يا سيدى السكرتير العام... هل تتذكر يا سيدى قنبلة هيروشيما التى فجرتها أمريكا على اليابان فى زمن سحيق؟؟... لقد أودت بالزرع والضرع والبشر وأسماك الـ...

ـ أواه... لا تتذكر آثام البشرية أيها اليابانى... لقد آن للجراح أن تلتئم .... نحن بصدد الصعود إلى كواكب أخرى، وهذا يتضمن اتحاد الشعوب كشعب واحد وأمة واحدة... هذا هو مؤدى الفائدة الرائعة الخطيرة التى ستنجم عن هذه الهجرة الكبرى...

ـ ولكنها كانت حرب إبادة يا سيد روالد... ألا تعى ذلك بوصفك نرويجيًا؟؟....

ـ أواه... قلت لك أنه أحجى بك ألا تتذكر ذلك...

ـ حسنًا... سأتذكر ذلك دائمًا رغم كل شىء... لسوف يشرفنى حقًا أن أطالب بالهجرة إلى كوكب الزهرة بدلا من كوكب المريخ.. حقيقة أنه كوكب شديد الحرارة: ولكنه خير من كوكبكم المعتدل والبارد المناخ... وهناك سوف أعمد إلى تأليف كتاب باسمى وسيكون عنوانه: "أغرب استعراض على مر الدهور" وذلك بوصفى المذيع الأوحد... الأوحد... الأوحد الذى أشرف على تقديم الاستعراض...

ـ حسنًا... إليك ذلك النبأ الآن... لقد بيتت لك هيئة الأمم أمرًا ما خلال عملية التهجير الكبرى بوصفك رجلاً قد عرضت مشهدًا تليفزيونيًا رهيبًا بإتيانك بعض حركات الكاراتيه، تلك الحركات التى من شأنها أن تشحذ ما أردنا قتله فى نفوس البشر من أجل غرس جبلات أخرى مؤداها التسامح والحب والطمأنينة والتآخى والاتحاد...

ـ لا بأس... وما هو ذلك الأمر المبيت يا سيدى النرويجى؟؟...

ـ سوف تعلم ذلك فى حينه... والآن هلم إلى عملك حتى لا تكون سببًا مباشرًا فى فشل أغرب استعراض على مر الدهور...

لم يكترث اليابانى كثيرًا بتهديد الإشارة، بل لقد وضع السماعة، وبدأ يتابع استعراضه، فاقترب من قفص الدب الأبيض القطبى "نانوك" الذى كان هو الآخر يتابع تلك الأحداث التى مرت أمام عينيه...

● سيدتى... سيدى المشاهد... أليس من ذكاء نانوك أن يعرف أن مقدم أنفه هو الجزء الأسود الوحيد فى بدنه الناصع البياض؟؟... أليس من العبقرية والذكاء أن يعمد إلى تغطية أنفه بكفه البيضاء أثناء نومه: حتى لا تفطن إلى وجوده الحيوانات الأخرى؟؟... إن نانوك يحب العزلة، ولا يحب اصطحاب الإناث إلا فى فترة الإخصاب الوجيزة، ويبدو أن هذا النابغة قد بلغت به الغيرة إلى الحد الذى جعله يأنف من الوقوع فى شراك حب إحداهن، ومن ثم يظل طوال عمره مكهربًا منغصًا بوظيفة الدفاع عنها أو الغيرة عليها من دب آخر قد يفوقه قوة فيمتليها أمامه منتهكًا بذلك حرمته... إنه ينظر إلى تلك المسألة نظرة أكثر تفلسفًا ولكانى به يقول:

ـ هه... سأكون ساذجًا حقًا أن أغار عليها... أنا مصدر القوة والجنس... أنا الجمال والحسن بعينه... إنها ليست إلا وعاء يخلب لبك برائحته الكريهة... هه... لقد حطمت ذكور وذكور وذكور رائعة قوية فتية تخجل العين من التطلع إليها، وذلك فداء أنثى عفنة... لو تسنى لتلك الذكور أن تعى الحقيقة العارمة لكان لها أن تفاخر بذكورتها الخلابة الرائعة بدلا من أن تذهب ضحية شىء جد ساذج نتن...

والآن... ها هو الثعلب القطبى الفضى... إنه يتعقب الدب القطبى من بعيد كيما يقتات على فضلات الطعام المتخلفة عنه...

● أنتم تشاهدون معى الآن ذئب الشمال الأصفر المحمر.. إنه حيوان سيئ السمعة حقًا فى جميع البقاع... إن بمقدوره أن يختطف كلبًا سمينًا من كلاب الهسكى التى تجر زحافات الجليد ليأكله رغم أن تلك الكلاب ضرب من ضروب الذئاب وتعوى مثلها...

● هاهو ثور المسك الذى يعيش فى أقصى الشمال والذى قارب على الانقراض... إن هذا الثور بمقدوره أن يقاوم الحرارة المرتفعة والمنخفضة على السواء، وهو يتخذ وسيلة دفاعية ضد الذئاب تتسم بروح الجماعة، فهذه الثيران تتجمع على شكل دائرة تقف أقواها بخارجها متكاتفة مطأطئة الرءوس ولعل ضربة واحدة من قرونها توهمك بأن الذئب يمكن له أن يطير عاليًا ليهبط إلى الأرض وقد انفجرت معيه ومعدته....

● ها هو الأرنب الذى يسكن المنطقة المتجمدة الشمالية... إنه يتصف بالسرعة الخاطفة... لعلك تتوق معىً إلى مشاهدة ذلك اللامنج الصغير الجميل الفراء... إن صيده أمر متعذر... إليك حيوان الكاريبو... إنه يعيش فى قطعان، والذكور مثل الإناث: لها نفس القرون الشديدة التشعب والتى تتساقط كل عام...

● هأنت ترى معى تجمعًا من رجال ونساء وأولاد الإسكيمو عند منطقتها، ذلك لأن هذا الحيوان يمثل عنصرا مهمًا فى معاشهم، فمن وبره تصنع أكياس النوم والأغطية

والأحذية، ومن جلده تصنع مقاود الكلاب والخيام والقوارب، ومن عضلاته تصنع الخيوط والحبال والكرابيج، ومن عظامه وقرونه تصنع السهام والإبر، ومن نخاعه يتخذ الوقود...

- قارئى الكريم -

لقد توالت الأيام الباقية من الاستعراض، وكر وفر اليابانى وصال وجال فى ميدانه بجدارة فائقة لا يمكن أن تتسنى لمذيع مهما كانت خبرته ومهما بلغه من شأو سامق: فى المعرفة والبلاغة وبذخ فى العرض...

شرح حضارة الأزوتيك والأنكاس، وحضارة الفاكينج وحضارة السكسون، وحضارة الإغريق...

وأخيرًا غربت شمس أغرب استعراض على مر الدهور فى نهاية اليوم التاسع، معلنة عن انمضاء تسعة أيام قضاها العم وصحبه معتصمين بعربتهم الأوزة البيضاء: بحيث كان ينام كل من بهاء وغادة وحنين بداخلها، بينما كان ينام العم وياسنت بخارجها بعد مد غطاء صوفى ما بين الرمال وباب العربة فيما يشبه الخيمة...

انصرمت الأيام، وتبددت كنفايات للزمن لتتآكل فى "مكمرة" التاريخ الذى لا يحتوى على غير النفايات... انقضى أغرب استعراض على مر الدهور كيما يستعد سكان الأرض لأحداث جديدة... فها هى الأمم المتحدة كانت قد أعدت البوارج الضخمة المرابطة فى مياه قناة السويس لحمل نجوم الاستعراض إلى أمريكا حيث قواعد إطلاق الصواريخ التى ستودعها سفن الفضاء الشراعية الضخمة التى تم تركيبها وجمعها فى الفضاء عن طريق خدمات المحطات الفضائية الثابتة هناك...

وها هى أيضًا تلك الهيئة العالمية: تستعد لفرز البشر إلى سكان مناطق حارة، وسكان مناطق معتدلة وباردة، لترحيل القسم الأول إلى الزهرة، والقسم الثانى إلى المريخ ....

لقد انتهى الاستعراض حقيقة، ولكن بالرغم من ذلك: فلقد تزايدت وفود القادمين من كل دول العالم إلى الأراضى المصرية المعدة للمخيمات فى كل من سيناء خلف القريتين والضفة الشرقية للقناة، ولم يكن ذلك إلا استعدادا لعملية الفرز التى كانت ستجرى على كل بنى البشر لتستوعبهم من بعد ذلك قريتى التهجير، تلك التى سيعزل بها المهجرون توطئة لنقلهم من بعد ذلك بواسطة البوارج الضخمة إلى قواعد الإطلاق بأمريكا الشمالية...

كانت الجموع والجموع تتوافد وتتوافد على المكان بواسطة الطائرات والعربات والقطارات ومناطيد "زبلن" البالغة من الطول ثلاثمائة متر التى تعمل بالمحركات النووية القادرة على حمل

خمسمائة مسافر، ومائتى فرد كطاقم لها: كافلة لهؤلاء الركاب مزيدًا من الرفاهية التى كانت تتجلى فى قاعات الطعام والصالونات والحجرات الخاصة، وفوق هذا وذاك فإنه كان بوسعها أن تظل معلقة فى الهواء دون أن تهبط إلى مطارات كما هو شأن الطائرات...

ولكن بالرغم من كل ذلك: فلقد كانت هناك عربة واحدة صغيرة مغطاة تمامًا بكل أعلام الدول... كانت هذه العربة قد اتخذت طريقًا مغايرًا لكل اتجاهات العربات والقطارات والتاكسيات الطائرة ومناطيد زبلن الجبارة...

وإذ هى تسير بسرعة متوسطة: انطلقت نحوها رصاصة مجهولة استقرت فى كبود العربة وقد كانت موجهة إلى قائد تلك السيارة، وما إن أحس ذلك القائد القرائى الملبس بتلك الرصاصة الطائشة: حتى ارتعد فى مكانه، ولكنه تمالك فازاد من سرعة العربة إلى أقصى الحدود الممكنة...

أجل ... أجل... أجل

فلقد كانت هذه العربة العجيبة تتخذ طريق العودة....

طريق العودة إلى الكهف...

طريق العودة: إلى مهجور القبور....

الفصل السادس

"هيــاج الدهمــاء"

لم تكن القبور وحدها هى المهجورة، بل أيضًا كانت المنازل والخيام والطرقات... مهجور القبور ومهجور المساكن ومهجور الطرق، والكلب صافى الشجاع...

كانت تلك المهجورات هى التى استقبلت ركبنا العجيب بالترحاب فى بلدة الأغورمى بواحة سيوة... فما إن هبط الركب بعد العودة فى وقت الظهيرة عند قبور الأغورمى المهجورة وقد مروا بواحة سيوة: حتى راعهم أن لا أحد بالبلدة...

كانت البلدة خاوية خاوية... لقد هجرها ساكنوها، أو لعلها هى التى لفظتهم... لقد هجرها أهلوها جميعًا حاملين معهم ما خف حمله...

لا شاب ولا شيخ ولا امرأة ولا طفل...

والأمر كذلك: فلقد انطلقت غادة إلى كوخها وجلبت منه كمية من بلح الطقطق والغزالى: ملأت بها جيب ثوبها الجديد، كما أنها لم يفتها أن تحمل معها حزام صعود النخيل الليفى معلقة بقولها:

ـ سأتمكن به من مشاهدة من قد يوجد من الناس على بعد كبير...

وعلى الأثر تنكب العم قوسه وسهامه بعد التقاطها من صندوق العربة، وحمل منظاره المقرب على صدره، وانطلق يفتش فى كل مكان ومن خلفه بهاء وغادة وحنين وياسمت وقد انعقدت ألسنتهم جميعًا وتقافزت قلوبهم وتخاذلت مفاصلهم وارتعدت أوصالهم وشهقت أنفاسهم ولهثت أرواحهم... طاف العم جمال بكل بيت وزعق بداخله:

ـ ألا من أحد هنا؟؟....

ولكن ما من مجيب، غير صدى صوته فى البيوت المتسعة...

انطلق العم يجرى هنا وهناك وقد بدا رجلاً بدائيًا يلبس الفراء وكأنما الإنسان الأول قد بعث إلى الحياة من جديد: ليشهد اندثار حضارة تبيد نفسها بنفسها لتخلف إنسانًا بدائيًا يكتسى بالفراء ويسكن الكهوف ويعيش على صيد سهامه وقوسه...

هرول العم هنا وهناك وهنالك دون أن يحفل بجماعته أو يتحدث إليها... أجل: لقد اعتراه ذهول عجيب فما عاد يحفل أو يعى أحدًا وهو يمرق هنا وهناك، وبالرغم من أن صافى ظل مرابطًا عند القبور المهجورة لحراسة العربة والمال والعتاد والخراف والشجر والنخل: فإن صوته كان يأتى من بعيد مقعقعًا فى عراء قد خلا من البشر....

دنا العم جمال من سور المدرسة: وقفز صاعدًا فوقه، وراح يجيل الطرف خلال منظاره المقرب وهو مرتعد اللحية، ولكنه ألفاها مهجورة تمامًا لا ترمش فيها عين ولا يدق لها ناقوس... لا أنفاس ولا ضجيج ولا صخب...

وهنا زعق فى خبل من عل وقد شده له صحبه الواقفون أسفل السور:

- لا طلبة؟؟... لا مدرسين؟؟... لا ناظر؟؟.. لا سعاة؟؟... لقد لذتم بالفرار إذاً إلى... هه.... المريخ والزهرة قبل أن تنفجر الكرة الأرضية فى نهاية هذا العام؟؟...

ولقد كان أمرًا محيرًا حقًا أن يثب العم جمال إلى فناء المدرسة بردائه البدائى وقوسه وسهامه ليتقدم بداخله فى خطوات سريعة خبلاء متعثرة متجهًا إلى الناقوس المعلق على جدار البناء، ولم يسع أفراد الركب إلا أن يتسوروا السور لمراقبة العم الذى لابد وأنه قد فقد صوابه، وسرعان ما سمعوا الناقوس يدق بشدة والعم يهتف هتافًا يثير الرعب:

- تجمعوا أيها الطلبة... أقبلوا أيها المدرسون... ها هو ناقوس المدرسة يدق... إلا تستجيبون؟؟... لا بأس... أنا فراش المدرسة... أين أنتم إذاً؟؟... أليست المدرسة محرابًا للعلم؟؟... أقبل يا بهاء... لماذا تهجر مدرستك إذاً؟؟... هل تحذو حذو الآخرين؟؟.. إننى عمك، ولابد أن تطيع أمرى، حقيقة أن طاعتك لأبيك كانت ستكون أشد من طاعتك لىَّ، ومع ذلك فإننى عمك ومن المتوجب أن تطيعنى...

والتفت بهاء إلى غادة، وحملقت غادة إلى بهاء، ولما كانت الفتاة على درجة كبيرة من التهور وأسرع استجابة للأخابيل ، فلقد سارعت إلى باب المدرسة المفتوح ودلفت إلى الفناء، ولم يسع بهاء وياسنت وحنين إلا أن يحذوا حذوها، وما إن صارت الجماعة قرب منتصف الفناء: حتى هتف العم وهو لا يزال يقف أسفل ناقوس المدرسة على بعد:

- والآن.. اصطفوا أيها الطلبة.. شكلوا صفًا أيها النجباء...

وشكل الثلاثة صفًا فيما بينهم وقفت حنين فى نهايته مراعية للأطوال وقد تخبلت ذراعاها فى كميها الجد طويلين...

لم يلبث أن دار همس فى الصف وقد اغتنموا فرصة بعدهم عن العم العجيب:

حنين : العم جمال يقرع الجرس كما لو كان فراش المدرسة...

غادة : وسيشرح لنا الدروس كما لو كان أستاذها ...

بهاء : بل سيتصرف كما لو كان ناظرها...

باستت : هل يمكننى أن أغنى له حتى أطفئ لهيب ما يموج به صدره؟؟..

بهاء : إياك أن تفعلها، فما علينا إلا أن نستجيب لأوامر العم... إن العم لا يود مغادرة الأرض مع المهاجرين، ولا يسعنا إلا أن نأتمر بأمره... يجب أن نواكب الانفجار...

غادة : هل... هل يمكن لىَّ الصعود إلى المريخ وتركهم هنا حتى أمتلك لكم أرضًا هناك؟؟..

بهاء : هه... وهل يمكن لك أن تتركى ممتلكاتك؟؟.. العتيدة؟؟... تريدين أن تكون لك أملاك على الأرض والمريخ معًا؟؟... هه... يا للمصيبة!!!..

غادة : إن ممتلكاتى سوف تتبدد هنا يا بهاء....

وأقبل العم نحو الصف الرباعى العجيب، وما إن دنا منه حتى بدأ يروح ويجىء فى سمت أستاذ بدائى غريب غير منطقى الهندام قد لفظته حضارة عظيمة من خلف ظهرها ثم بدأ يتكلم:

ـ صفا... انتباه... صفا... انتباه... لا أحد يستجيب غيرك يا بهاء... لا بأس... هنا... هنا تلقيت تعليمى الأولى منذ زمن بعيد... فى مثل ذلك الصف وقفت يومًا كطالب رث الهندام... تصوروا... لقد ضاع منى الحذاء فى أحد الأيام وكنت قد وضعته فوق كومين من الرمال وأنا ألعب كرة القدم مع بعض الرفاق، وتصوروا أننى قد حضرت إلى المدرسة دون حذاء؟؟.. وتصوروا أننى أفلحت فى تغطية قدمى ببنطالى الطويل ولم يفطن إلى ذلك الطلبة أو الأساتذة؟؟.. كم جئت وأنا طالب صغير أيها الرفاق لدرجة أنه يخيل إلىَّ أن كل الطفيليات التى تقبع فى أمعائى كانت تلعن حظها... قد نالت منى عصى الأساتذة السنوسية، ولكم ضربنى الصبية وبطشوا بىَّ... كانت لىَّ كل يوم علقة ساخنة من مجموعة منهم...

وهنا اغرورقت عينا غادة بالدموع لآلام العم جمال، وعلى الأثر هتفت وقد راعها أن كلاً من بهاء وحنين يبكيان مثلها:

ـ يا عمنا العظيم، والأمر كذلك: فلتسمح لى بالاعتراف بأننى لست طالبة فى هذه المدرسة... إن أنا إلا بائعة بلح متجولة حقيرة، ولا أملك إلا أن أبيع البلح لطلبة المدرسة، سأثب الآن إلى السور كيما أبيع البلح...

ولم تحفل غادة بهتافات العم وهتاف بهاء وحنين ويأست لإثنائها عما تعتزم، بل لقد تركت الحزام الليفى لحنين: ويممت شطر السور فى سرعة بالغة وقد تقاطر دمعها ليمطر الأرض بوابله، واعتلته ثم استخرجت من جيبها حفنة من البلح، ومدت بها يدها إلى الأمام فى سمت التى تبيع البلح، هاتفة بأعلى ما واتاها من صوت:

- أيها الطالب... أيها الصبى الكريم... أيها الصبى الكريم ... أقبل... إنه ألذ بلح فى الأغورمى...إن حفنتى تملأ المتطال.. إنه بلح الطقطق والبلح الغزالى... أقبل يا أخى؛ ففى إقبالك قروش، وفى إقبالة القروش إقبالة ليوم عرسى من بهاء.. كلا... كلا إنه لا يشرب من دماء الموتى كما يدعى الناس... إنه بلح رائع يشرب من ماء عين جوبة... إنها عين كليوباترا الأثرية الشهيرة... إنها العين الحمئة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم... أقبل أيها الصبى... أقبل... إن حفنتى بقرش واحد...

واستخرج العم جاحظ العينين قرشًا من حزامه، وأعطاه لحنين قائلاً وهو يحك على لحيته فى جزع:

- إليها... هيا اشترى لنا تلك الحفنة من البلح الشهى يا حنين...

والتقطت الفتاة القرش وانطلقت منسحبة من الصف العجيب، وجعلت تعدو متعثرة فى ثوبها الطويل إلى أن دنت من السور فصارت أسفل غادة، ورفعت يدها إلى أعلى ما تستطيع وقد التمع القرش بين أصابعها، ثم جعلت تهتف دامعة العينين:

- هأنذا اشترى منك يا غادة حفنة البلح.... إليك ثمنه يا غادة... إن أختى نوال ستتخرج فى كلية الحقوق جامعة القاهرة وسوف تعطينى قروشًا عديدة لأشترى منك المزيد..

وما إن شاهدت غادة القرش الملتمع بين أصابع الفتاة التى شبت على قدميها: حتى جحظت عيناها وتساقطت دموعها فى فرحة لا تدانيها فرحة، وسرعان ما مدت أصابعها متشجنة وانحنت بشدة فوق السور لتتقابل أصابعها مع أصابع حنين التى أعطتها القرش: ثم أمسكت بذيل ثوبها الأزرق الجد طويل، ومدت حجرها والتقطت فيه البلح الذى قذفت غادة به إليها من أعلى السور...

جعلت غادة تحدق بشدة إلى القرش الملتمع بين أصابعها ثم راحت تقبله وتقبله وتقبله وتقيمه إلى جبهتها تباعًا.. محدقة إلى كل مكان متمتمة بكلام: عجيب عجيب، غريب غريب،أوسعته أخبيلاً وأخبيلاً، ولكن سرعان ما اعتراها دوار مبهم، فلم تشعر إلا والدنيا تدور بها وتدور كما لو كانت تركب سفينة فضاء تدور حول الأرض ولم تلبث أن سقطت من عليائها خارج المدرسة فوق حرير الرمال وقد غابت تمامًا عن وعيها ووجودها....

وبما أن العم قد صعق تمامًا مما يشاهده: فلقد أسرع يجرى والجميع من خلفه، وسرعان

ما تسور السور، وساعد حنين على ذلك، تلك التى كانت تمسك بحزام غادة الليفى ولم يلبث الجميع أن صاروا عند رأس غادة...

كانت الفتاة ممددة فوق الرمال الناعمة كما لو كانت غادة من السماء قد هبطت على التو وقد قذفتها سفينة فضاء بلا رفق دون مراعاة لجاذبية الأرض...

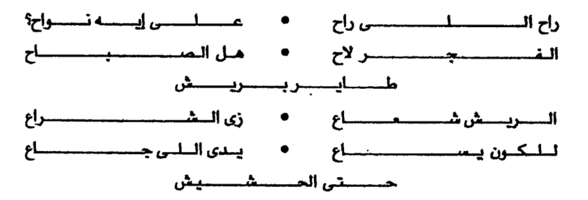
كانت أصابع كفها مطبقة تمامًا على القرش، وحاول العم أن يفتح كفها فلم يستطع... لقد تمسكت بقرشها الذى باعت به بلحها كأقصى ما يكون التمسك....

كانت جميلة فى ثوبها وحذائها الأحمر: مفرط الاتساع على قدمها المفرط الصغر... كانت جدائل شعرها الذهبية أجمل من جدائل الشمس ذاتها....

وهمس العم لبهاء وقد تهدل شعر رأسه فى كل اتجاه وانتفشت لحيته:

ـ الآن... لقد باعت لك زوجتك البلح... لقد نجحت أخيرا فى بيع حفنة منه رغم أنه يشرب من دماء الموتى... إذاً ما عليك إلا أن تحملها بين ذراعيك... يجب أن تقوى على ذلك فهى زوجة المستقبل... هيا يا فتى لتتبين فيك زوجتك القدرة على حملها بين ذراعيك إذا ما أصابها مكروه...

وتقدم بهاء فى وجل، وحمل غادة بين ذراعيه، فمست أطراف جدائلها رمال السهل... وجد الركب فى الطريق المقفر من كل بشرى، ففدوا أشباحًا مريبة تفشى بلدة غير موجودة إلا فى عرف أوهام الزمن... وما لبثت الأشباح الخمسة أن دنت من عين جوية، وتقدم العم من ماء العين واغترف بقبضتيه غرفتين من الماء الهلاهل وأقبل بها على غادة التى طرحها بهاء الحزين على ذهب الرمال، واحتذى الجميع حذو العم، فراحوا يغترفون من مياه العين بقبضاتهم لتنسكب على وجه غادة وشعرها، وبعد لحظات: أفاقت الفتاة من إغماءتها وراحت تتلفت حولها لتقف على جلية الأمر، فألفت العم واقفًا أمامها، بينما ركع كل من بهاء وحنين عند رأسها، وجلس باستت متربعًا عند قدميها، وعندما تبين باستت أنها قد أفاقت تمامًا: أنشد بصوته العذب:



راح اللى راح • على إيه نواح؟

الفجر لاح • هل الصباح

طاير بريش

الريش شعاع • زى الشراع

للكون يشاع • يدى اللى جاع

حتى الحشيش

وأقبل بهاء على غادة يبتسم لها ويواسيها، بينما دست حنين يديها بين نهدى الفتاة واستخرجت المشط الأثرى الفرعونى وجعلت تمشط الشعر الذهبى المبتل مصففة له فى شكل ذيل حصان، ثم جذبت من ذيل ثوبها الجد طويل شريطًا مشابهًا للشريط الذى اقتطعته غادة فى يوم تعارفهما.... وسرعان ما كان الشريط الأزرق معقودًا حول الشعر الذهبى...

وحدق العم إلى "أمته" الصغيرة لحظات طويلة، وأخيرًا قال وهو يغمر وجهه ولحيته بماء العين:

ـ حسنًا ... حسنًا يا أمتى الصغيرة... لا تجزعوا أبدًا، فلو أنكم قد تساقطتم جميعا وأصابكم الإغماء: لحملتكم فوق ظهرى وبين ذراعى... إننى قوى على ذلك... إننى قادر على ذلك ولا ريب... ها ها...

وأسرعت حنين تقدم المشط الفرعونى الأثرى للعم جمال، فأمسك به وراح يمشط شعره، الذى بدت بين خصلاته بعض شعرات بيضاء تلوح وتهدد وتتوعد تلك القوة العارمة البادية... صفف العم شعره وفرقه جانبًا، وتعطف على لحيته ومشطها هى الأخرى، ثم تمطى بجسده فى الهواء وهتف قائلاً:

ـ أين أنت يا آكلة ناسها؟؟... أين أنت يا غزالة؟؟... لعلك تلوذين الآن فرارًا إلى المريخ أو الزهرة... طيب... أحجى بك أن تهاجرى إلى المريخ ... أنا شخصيا لن ألوذ بالفرار... يجب علىّ أن أواكب الانفجار المروع بثبات ورباطة جأش... لابد لأمتى الصغيرة أن تحذو حذوى.. ربما يتفتت كوكب الأرض إلى كويكبات عديدة، ولابد أن هذه الكويكبات ستظل متجاذبة إلى بعضها... حقيقة قد يحدث ذلك، ولكننى سأمكث كى أواكب هذا الحدث الفريد. أية متعة تلك حينما يرى الإنسان الأرض التى كان يعيش عليها تدمر عن آخرها وينفضح جوفها المستغلق الفهم؟؟... سأظل ها هنا مع: جحافل الذباب والبعوض والعقارب والذئاب والضباع وبنات آوى والجرذان واليرابيع التى سيتركها ويخلفها البشر من خلف ظهورهم... سأظل ها هنا مع السمندل وجيوش التماسيح التى يزخر بها نهر السوياط ونهر الغزال وعطبرة ونهر الكفو... سأظل تحت حراسة كل من منكر ونكير، ولا ريب أن صداقتنا صارت فى أوجها، وبالتالى فإننى أضمن عدم استخدامهما المرزبة ضدى للإطاحة بىَّ إلى أسفل سافلين... سأظل هنا مع الصعلوك المتشرد... ومع صافى الشجاع... مع أوزتى البيضاء الرائعة الصديقة التى كدت أموت تحتها فى يوم من الأيام لولا نجدة منكر ونكير الصغيرين... سأظل فى صحبة قوسى وسهامى أنتكبها لأقتنص حيوان الصحراء... قد يخلف الله الظنون.. قد يخلف ظن الإمبراطور الذى تدمر فى ظروف مبهمة غامضة مجهولة... قد يخلف إرادة البراكين: والزلازل وتمرد

القمر... قد تخلف تلك الظنون إذا ما أراد الله ذلك... أما إذا كان الله هو الذى أراد حقيقة ذاك الدمار: فإننى ساعتها سأقول "على الدنيا السلام"....

إننى إذاً آدم الذى يلبس الفراء وينتكب قوسه وسهامه، وها هى جنتى، أما حواء آكلة ناسها فلقد لفظها الله من جنته التى كانت قد أخرجتنى منها بأكلنا من "شجرة الجنس" وقد تكشفت لها سوآتها، وبعد أن أنجبت لىَّ: بهاء وغادة وحنين... إننى إذًا الآدمى الذى خلفته حضارة عريقة دمرت نفسها بنفسها... يا للبلاء إذاً... حضارة عريقة تخلف إنسانًا همجيًا بدائيًا له قوة تتناسب مع إنسان العصر الحجرى الأول: ويعيش على الصيد ويسكن الكهوف... لابد أن ذلك ما حدث لحضارات أخرى سبقت وخلفت من وراء ظهرها آدمًا مماثلاً لى تمامًا... إذًا فهى قصة أزلية لا تتغير... كل حضارة تنمو وتزدهر حتى تبلغ نقطة الأوج على منحناها الطبيعى، ومن بعد نقطة الأوج تبدأ فى التدهور والانحدار والانهدار والاضمحلال من جديد: شأنها فى ذلك شأن كل شىء... شأن الشمس التى تشرق فى الصباح ثم تصل إلى أوج السماء فى الظهيرة ثم تبدأ فى الاضمحلال حتى تموت نهائيًا وقت الغروب.... شأن الإنسان الذى يزدهر منذ الطفولة إلى أن يبلغ الذروة وقت الشباب ثم يبدأ فى الاضمحلال وقت الشيخوخة إلى أن يموت وينتهى يوم يضم رفاته قبر من القبور... يالىَّ من إنسان بدائى همجى متفلسف مثقف.....

ما كاد العم يجود بآخر كلمة حتى شاهد حنين وقد شرعت فى البكاء فأقبل نحوها وجثا أمامها متسائلاً:

ـ ماذا أصابك يا حنين؟؟...

ـ أواه يا عمى... إننى جزعة على أبى وسيم... ترى أين أنت يا أبتاه؟؟... إننى أخاف أن يتوه بين زحام الناس الذين ذهب معهم... كان لابد لىَّ من أن أكون معه حتى أعثر عليه كلما ضل الطريق...

وهنا حك العم على لحيته وقال وهو ينهض واقفًا:

ـ لا بأس يا حنين ... لا تبتئسى أبدًا... سوف نعمد الآن إلى البحث عن والدك فى بيتكم، وبعد ذلك سوف نجد فى البحث عن عابد الصديق الذى أدعو الله ألا أجده فى غرفة اجتماع الإسكندر الأكبر المقدونى بكهنة آمون... إنه لمما يثلج صدرى أن يكون قد اتخذ سبيله إلى عملية الفرز كيما يهاجر مع المهجرين... ولو أننى وجدته فى مكانه: فإنها ستكون أول مرة أقابله فيها منذ زمن جد طويل... يا لها من ظروف وملابسات عجيبة حقًا يمكن أن تحتم ذلك اللقاء....

وهنا هتفت حنين:

- لقد باع أبى بيته منذ شهور مضت، وذلك ليرسل نقودًا إلى أختى نوال لإعانتها على الدراسة بكلية الحقوق جامعة القاهرة، ونحن نقيم فى كوخ يشبه كوخ بهاء وغادة... هيا بنا إليه أيها العم العظيم....

ومن الفور رحلت الجماعة عن المكان، وراحوا يخترقون الحوارى والأزقة، تلك التى لم يكن ليشاهد فيها غير بعض العنزات الرامحة هنا وهناك، أو بعض الكلاب الجادة فى إثر بعض الإناث على شكل شلل أو شراذم أو ثلاث من الذكور تلاحق كلبة واحدة، أو بعض القطط صاعدة هابطة فوق الأسوار، أو دجاجات نافرة من عتبة بيت إلى عتبة بيت آخر، أو جموعًا من الحمير الطليقة التى راحت ترتع فى شكل قطعان قد تشكلت جميعها من حمير الأهالى التى نمت بينها عرى الصداقة فور انتهاء قصة أن هذا الحمار ملك فلان، وأن تلك الحمارة ملك عمران... ولكن أعجب ما فى أمر تلك الحمير المتجولة بين الأزقة والدروب: أنها لم تكن لتقيم وزنًا للإناث الطليقة، فما عادت تنهق ذكورها على إناثها أو ترسل آذانها إلى الأمام لمجرد رؤيتها، وكأنما ترفض أن يكون للحرمان بديلاً يحرض أو يلهف على الإناث...

هذه هى النظرية التى خرج بها الحمير العباقرة على مجتمعهم بمجرد رحيل ذويهم، ولقد أثبتت بتلك النظرية أنها حمير بالفعل..

رأى الركب وهم يجتازون الطرقات المقفرة من طارقيها: أن أعدادا هائلة من الغربان النوحية قد حطت عليها، وأن مزيدًا من عصافير "الجنة" قد بدأت تحوم حول المنازل فى سرعات خاطفة، ولكن الأعجب من ذلك أنهم لمحوا: نمسًا يمرق مسرعًا من بيت ليختبئ فى الحشائش المتكاثفة وبين شدقيه شىء ما... كما أدهشهم وهم يمرون فى زقازق مجاور: أن يشاهدوا ثعلبًا رماديًا يمرق من بيت طينى مفتوح الباب وفى فمه بطة كبيرة سوداء قد ربطت ساقها بخرقة حمراء كعلامة، كما أمكن للعم وبالاستعانة بمنظاره المقرب أن يلمح أحد أبناء عرس وهو يختفى بكتكوت أصفر داخل جحر فى جدار بيت مهدم... والأمر كذلك فإن العم لم يسعه إلا أن يملق مشدوهًا: وهو يمط لحيته بين أصابعه:

- هه... نخرج من ذلك بأن: الثعلب وابن عرس والنمس هى أكثر الحيوانات جرأة وتربصًا واغتنامًا للفرص، بل وترقبًا لهجرة البشر الذين ينغصون عليها حياتها ويلجئونها جحورها... ولكن من الذى أخبرها بانتواء الناس لتلك "الهجرة الكبرى"؟؟...

وما إن أتم كلامه حتى لمح على مقربة منه قطًا قد ضيق الخناق على فأر كبير فى حجم الأرنب الصغير، ووقف له بالمرصاد وسط الطريق، بيد أنه سرعان ما لمح كلبًا نحيلاً يقبل من بعيد ليقف وجهًا لوجه أمام القط الذى حدب ظهره وكشر عن أنيابه، فاغتنم الفأر الفرصة

ليمرق أسفل أقرب باب بيت مغلق....

وبما إن الوصول إلى كوخ الأب وسيم مورث الصفات الوراثية المغبون: يتطلب المرور على المقابر المهجورة مرة أخرى، فلقد اتجه الركب إليها من جديد، وراحت الأقدام تنهب الأرض، مما جعل غادة تعمد إلى حمل حذائها الأحمر المراوغ مع حزامها الليفى، فى الوقت الذى راحت فيه قدما حنين العاريتان توسعان الأرض لثما وتقبيلا متعثرة فى ثوب غادة الطويل الذى يجرجر على الأرض لدرجة جعله يجمع كميات كبيرة من الشبيط الشائك وريش الطيور والمزيد من الأتربة...

وعندما صار الركب على بعد ثلاثمائة متر من المقابر المهجورة: لاحت لغادة سعفات نخيلها من بعيد وهى تلوح، فراحت تستمع إلى حديثها الذى تعيه جيداً، ومن الفور هتفت بالعم:

ـ نخلاتى تولول يا عمى العظيم....

وهنا توقف العم عن السير، ورفع المنظار المقرب إلى عينيه: فرأى مشهداً لم يكن ليتوهم أن يشهده... أجل لقد شاهد عجبًا وعجبًا وعجبًا...

شاهد المقابر المهجورة وقد تحولت إلى مسرح أغرب من المحال، وأعجب من الخيال...

لقد فرت أبقار البلدة لسبب ما من بعد هجرة سكانها، واتجهت إلى أرض القبور المهجور فزعة هارية وفى ركابها عدد ضخم من الحمير والجمال لا يمكن عده، وأعداد لا حصر لها من النعاج والخراف والماعز، وبين أرجل وسيقان كل هذه الحيوانات: ظهرت أعداد لا حصر لها من الدجاج والديكة والبط والأوز والديوك الرومية، وكانت خراف وماعز ودجاجات غادة بالقطع بين كل تلك الأعداد الهائلة من الحيوانات والدواجن...

وتقدم الركب عدة أمتار، ثم دقق العم النظر خلال منظاره بعد ارتكازه على الأرض بركبته: فشاهد عدداً ضخمًا من كلاب البلدة لا يدركه حصر قد طوق كل هذه القطعان وقد اعتلى بعضها المقابر المهجورة بينما ظهر الكلب صافى الأسود العملاق وقد اعتلى سقف الأوزة البيضاء التى كانت تقف على الطريق أمام مدخل المقابر...

مد العم جمال المنظار المقرب إلى أقصى مداه فشاهد أعجب مما رأى...

أجل... لقد شاهد فريقًا من الذئاب يحاول أن يطوق القطيع لدفعه إلى الهرب خارج نطاق المقابر المهجورة فى اتجاه الصحراء البلقع... بيد أن فريق الكلاب قد وقف لها بالمرصاد...

راحت الكلاب تكشر عن أنيابها فى وحشية وتنبح وتنبح مستغيثة بجموع أخرى من كلاب البلدة تلك التى تكون مشغولة ببعض الإناث إبان تلك الساعات الرهيبة الحالكة... وهنا هتف العم وقلبه يتواثب خلف ضلوعه كسجين يدق على قضبان زنزانته:

- لست أدرى... لست أدرى ما الذى أخبر تلك الذئاب بأن البشر فى سبيلهم إلى هجر الأرض؟؟.. إنه لأمر يبعث على الجنون؟؟..

وبما إن حنين وغادة: قد طفح بهما الكيل واستبد بهما حب الاستطلاع، فقد أسرعت الأخيرة نحو إحدى نخلتين مذكرتين قويتين كانتا قد نمتا متجاورتين، وطفقت ترتقيها فى عجلة، وراحت ترقب ما يجرى على بعد من أحداث...

والأمر كذلك فلقد احتارت حنين فيما تصنع، ولكنها اهتدت إلى طريقة مبتكرة كيما تطفئ لهيب ما يغلى فى رأسها من حب للاستطلاع... أجل... فلقد أسرعت تخلع ثوب غادة الطويل لتبدو بردائها الرث القديم المرتق الذى كانت تلبسه أسفله، ثم عقدت قطعتى الثوب، وأقبلت على النخلة المجاورة لغادة، وعقدت كمى الثوب حول جذعها وجذع النخلة، وراحت ترتقيها فى بطء وحذر إلى أن صارت على ارتفاع مماثل لارتفاع غادة، ومن ثم طفقت تحدق من هناك....

هذا بينما وقف كل من بهاء وياسمت متجاورين من خلف العم الذى راح يحدق بمنظاره فى حيرة وقلق.

لم يجترئ أحد على فتح فاه للتعليق على ما يشاهد... لقد اعترى الجميع وجوم مخيف، بيد أن الأمر قد تبدل فور ارتقاء الفتاتين للنخلتين المتجاورتين، إذ إنهما ما لبثتا أن جعلتا تهتفان محدثتين ضوضاء لم تكن متوقعة فى تلك الأوقات العصيبة:

غادة : أواه.... إننى أرى الجمال قد لاذت فرارًا إلى صرة وكبد حلقة قطعان الحيوان... إن الأبقار والكباش هى التى تقف الآن على محيط دائرة الحيوانات... لقد شرعت قرونها فى مواجهة الذئاب وقد تراصت متجاورة متلاصقة..

حنين : حقًا حقًا.. إن رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه أن يوجه قرونه هكذا نحو الذئاب المفترسة...

غادة : يا الله.. إن الحمير أيضًا تشترك مع الأبقار فى الدفاع عن القطيع.. إن الأبقار توجه إلى الذئاب رءوسها وقرونها بينما توجه الحمير إليها ذيولها، إنها تستعد للرفس بقوائمها الخلفية..

حنين : حقًا حقًا.. إنه تخطيط رائع من كل من الحمير والأبقار والكباش.. إن رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه ذلك..

غادة : واوياه الـ.. إننى أشاهد بعض الديوك قد وقفت فوق ظهور الأبقار وعلى متون بعض القبور المهجورة متحفزة لنقر الذئاب دفاعًا عن الدجاج الذى لاذ بالفرار إلى الداخل..

حنين : حقًا حقًا ... إن الديوك شجاعة.. إنها تدافع عن الدجاج.. إن رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه أن يصنع ما تصنع الآن..

غادة: ويحي الله.. إنني أرى الكلاب وقد اصطفت من حول قطعان الحيوانات.. إنني ألمح كلبًا فوق كل قبر، وفي مواجهة كل كلب: ذئب مكشر عن أنيابه في وحشية.. إن كلاب البلدة تقف في شجاعة وقوة وبأس من حول دائرة قطيع الحيوانات... إنها مكشرة عن أنيابها فاغرة أفواهها، عيونها تقدح بالشرر، بيد أن المعركة لم تنشب بعد..

حنين : حقًا حقًا.. يا لها من كلاب شجاعة استطاعت أن توقف الذئاب عند حدودها والتي لا يجب عليها أن تتعداها حتى لا تفترس الحمير والأبقار والجمال والنعاج والدواجن.. إن رئيس الحكومة نفسه لا يستطيع أن يفعل مثلها..

غادة : ويحي ويحي ويحي الله.. لقد وقف الكلب صافي الشجاع الأسود فوق عربتنا الأوزة البيضاء في مواجهة ذئب كبير يقف على الأرض أمامه يكشر عن أنيابه الشرسة تحفزًا للمعركة..

العم : أوه.. الكلب صافي الشجاع.. الكلب صافي الأسود القوي.. يبدو أن كلاب البلدة قد اتخذته زعيمًا لها وذلك لقوته البادية، ولقد فهمت الذئاب ذلك أيضًا، ولذلك فلقد وجهت إليه من فورها: أقواها.. إنه ملك الذئاب المهاجمة والآن: فإن الموقف لن يلبث أن يتفجر.. فبمجرد أن يبدأ صافي بوصفه ملكًا على الكلاب: بمجرد أن يبدأ في مهاجمة ملك الذئاب واثبًا إليه من أعلى العربة: حتى تبدأ المعركة والتلاحم وتمسى المعركة سجالاً ... إن الوطيس لن يلبث أن يشتعل فيختلط الحابل بالنابل.. إنها لحرب أية حرب..

حنين : أجل أجل أجل.. إنها لحرب أية حرب الله.. إن صافي يقف الآن في مواجهة ملك الذئاب.. حسنًا.. رائع يا صافي.. اصمد تمامًا يا صافي الشجاع .. اصمد تمامًا يا صافي الشجاع.. لا تخف ولا تتقهقر يا صافي الشجاع.. إن رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه أن يصنع ذلك..

طفق العم يحدق من جديد خلال منظاره الذي راح يطوف ويخترق التجمعات الحيوانية أطراف النزاع وبينما ذلك راح يتمتم معلقًا بصوت مسموع:

ــ الأفواه مفغورة.. الأنياب مشروعة.. الأرجل متحفزة.. الظهور متقوسة.. الشعور متصلبة متوترة.. الآذان مرسلة إلى الأمام.. العيون جاحظة.. أرجل الحمير الخلفية مستعدة للرفس.. القرون ممدودة إلى الأمام فوق رءوس مطأطئة.. ها هو ديك يؤذن فوق أحد القبور:

ـ الله أكبر... حى على القتال...

وابتلع العم لعابه ثم استطرد:

ـ هأنذا أركز نظرى عليك يا صافى... يالك من فتى شجاع... ها هو صافى يدور برأسه مستعرضًا جنده الواقفة متواثبة مستعدة للقتال وقد اتخذت القبور ربوات لها لتكون فى مواقع أفضل من خصومها الذئاب الواقفة على الأرض، ويبدو أن الكلاب والذئاب قد اختارت الخط الذى يقع عليه تمثالى بهاء وغادة كخط فاصل بينهما... إنه خط الهدنة المؤقتة...

إن صافى يطمئن إلى أن كل جندى قد التزم مكانه فى المعركة... حقًا.... إنك قائد رائع يا صافى الشجاع... لم أكن أحسبك فتى القوة على ذلك النحو المدهش... أنا الذى دربتك على كل شىء يا صافى... إذاً فعليك ألا تخذلنى أبدًا يا صافى العجيب... الآن: ها هو صافى يقف عمودى السيقان فى رشاقة يحسد عليها.. ها هو ينفخ عضلات صدره بطريقة تبعث الرعب فى قلب ملك الذئاب... لك ذلك حقًا يا صافى.. إن لك أرشق جسد فى الأغورمى بأثرها.. لقد وجدناك جروًا صغيرًا قابعًا فى حجرة الاجتماع الشهيرة بين الإسكندر الأكبر وكهنة آمون... لقد ربت على جسدك الغض يومها وقبلتك فى فمك ووضعت أصابعى بين أسنانك اللبنية ولكنك لم تشأ أن تعضنى : ففهمت أنك ترحب بصداقتى، لقد فهمت أنك سوف تكون وفيًا حقًا، ويومها ألقيت بك بقوة فوق الرمال فتبينت أنك قد تحملت ذلك: ففهمت أنك ستكون أقوى مما يمكن أن أتصور... لقد أهديتك لبهاء وغادة.. والآن... من المتوجب عليك ألا تخيب ظنى فيك يا صافى الفتى... عليك وحدك الآن يتوقف خط سير المعركة من كر وفر... يجب أن تثبت لجندك أنك جدير بقيادتها... وإن لك منى مكافأة سخية إذا ما أجدت قيادة جندك يا صافى الشجاع... إنك عملاق قوى أسود حريرى الفراء... إنك سهم سددته بقوسى إلى ملك الذئاب... عليك بالصمود يا صافى... يا الله؟. ماذا أرى؟؟... إن صافى يدير وجهه نحو جنوده قائلاً:

ـ عليك بالصمود تمامًا... عليك بالصمود تمامًا واللعنة على من يتقهقر. اللعنة على من يتقهقر... اللعنة على من يتقهقر... رباه؟؟... ماذا أرى؟؟.. إن هناك فريق من الضباع وبنات آوى تبدو على بعد كبير من القبور المهجورة... إنها تنتظر مخلفات تلك الحرب... إنها تتطلع إلى مزيد من الفضلات التى ستتخلف عن الذئاب...

وهنا استبد بغادة الحماس فهتفت بصوت جهورى مزلزل ملوحة بيدها من أعلى النخلة وقد ارتقتها حتى دنت من سعفاتها، بحيث بدت على ارتفاع يفوق الذى وصلت إليه حنين:

ـ اصمد تمامًا يا صافى... اللعنة على من يتقهقر...

وهتفت حنين ملوحة بيديها:

ـ اصمد تمامًا... اصمد تمامًا أيها الجبار أمام ملك الذئاب.... واللعنة على من يتقهقر، اللعنة على من يتقهقر.. اللعنة على من يتقهقر...

وفاجأ صافى: ملك الذئاب بأن اندفع كالسهم مارقًا إليه من فوق الأوزة البيضاء، بيد أن ملك الذئاب كان قد استعد لتلك الحركة المفاجئة، فسرعان ما وجه أنيابه إلى عنقه فى الوقت الذى بدأت فيه الملحمة الكبرى بين الكلاب والذئاب...

وهنا هتف العم وعيناه تكاد تخترق عدسات منظاره:

ـ يا لها من خطة نجسة حقًا كان قد بيتها ملك الذئاب لصافى... لقد أطبق الوغد بأنيابه على عنقه... إن صافى أمسى فى ورطة... جنود صافى يستميتون فى الدفاع... الحمير ترفس بمؤخراتها بطريقة مبتكرة كعرض مستمر... القرون تطيح بعيدًا ببعض الذئاب...

وهنا هتفت غادة فى جزع وقد تهاطلت دموعها:

ـ اصمد تمامًا يا صافى، اللعنة على من يتقهقر... اللعنة على من يتقهقر...

وهنا مرق من بين صفوف الحمير: ثور هائج له قرنان مشرعان للأمام، وانقض بقرنيه متجها نحو ملك الذئاب الذى كان قد اعتلى صافى وجثم فوقه، وكانت للمفاجأة وقعها على ملك الذئاب، فلقد أخلى سبيل عنق صافى وهو يتحاشى قرنى الثور المهتاج، فانتهز صافى تلك النهزة السانحة وأغمد أنيابه فى وحشية لا تتسنى إلا للفهود، وبينما تتبثق الدماء من رقبة ملك الذئاب: أسرعت مجموعة من الديكة ذات أعراف طويلة قد صارت حمراء قانية... أسرعت تلك المجموعة تناوش ملك الذئاب أمام عينيه متواثبة نحوه، ناقرة له ما بين عينيه، ونجح أحدها فتقره فى بؤبؤ إحدى عينيه فانسل خارجًا من محجره، وهنا اجترأت بعض الدجاجات فتسللت من بين سيقان الحمير الرافسة بطريقة مستمرة سواء كان هناك هجوم عليها أو لم يكن هناك هجوم... وراحت تلك الدجاجات تقرقر وتقرقر فى ابتهاج بديوكها الفتية الأمر الذى أزكى فى الأخيرة روح الشباب والذكورة، فطفق أحدها يؤذن:

ـ الله أكبر... حى على القتال...

وراحت بعضها تتهال على ملك الذئاب الراقد بين براثن صافى الذى أثخنه عضًا لدرجة أن أسنانه الهمجية الشرسة الطاغية الحادة المتوحشة : قد توغلت فى لحم الذئب حتى استقرت عند عظامه ... وهنا هتفت غادة فى غبطة:

ـ اصمد تمامًا يا صافى... ستأوى معنا منذ اليوم داخل الكوخ... اصمد تمامًا واللعنة على من يتقهقر...

وهتفت حنين فى ضيق:

ـ تبًا لىَّ... ليتنى كنت قد أعطيته قطع لحم الغزال التى أكلتها... لو أننى فعلت وأكلها لنفعته فى تلك المعركة المرعبة... تبًا لىَّ إذاً... اصمد يا صافى... سنغدق عليك جميعًا باللحم... إن أختى نوال...

وهنا هتف العم وهو يكاد يحطم منظاره بأن يدس كل رأسه ويافوخه بداخله:

ـ ويحى ... ويحى... إن بعض الكلاب الرعديدة تنسحب من المعركة رغم كل ذلك؟؟... اصمدى أيتها الرعديدة... اللعنة على من يتقهقر....

ثم عاد يهتف فى احتداد بعد سكتة قصيرة:

ـ رباه... ماذا أرى؟؟... ها هو ذئب رعديد متوحش يهاجم صافى من الخلف... ألا يكفى أنه قد انتصر أخيراً على ملك الذئاب؟؟... إذاً فإن هذا الذئب سيغدو ملكًا على الذئاب إذا تغلب على صافى... سوف يكون ملكًا على حساب صافى... أجل... سوف يكون كذلك بالحتم... ولكن: كيف لنا أن نترك له تلك النهزة؟؟... إن الذى حفز هذا الذئب على مهاجمة صافى هى تلك الكلاب التى انسحبت من فوق متون القبور متخلية عن أماكنها لتكتسب الذئاب مساحات جديدة من الأرض لتتقهقر من خلفها الحيوانات والدواجن والكلاب على السواء... ها هى بعض الحمير تنهق فى جزع وقنوط... لاجدوى من ذلك النهيق... رباه... إن أحد الذئاب قد تمكن من بقر بطن إحدى النعاج... إنه يجرها فى اتجاه الذئاب مستعرضًا بها: كفريسة وغنيمة حرب فى وقت واحد حتى يبمث ويبث مزيدًا من الذعر فى قلوب الكلاب الصامدة، ولكى يوهم بأن المعركة أوشكت على الانتهاء فى غير صالح الكلاب، وفى صالح الذئاب... يا للمهزلة... يا للسخرية... إن بعض الحمير تتدخل فى جانب من المعركة.. إنها تقتحم متجهة نحو نطاق الذئاب: بيد أنها تتقدم: بمؤاخراتها ولا تتقدم برءوسها... إنها ترفس عديدًا من الرفسات ثم تتقدم... لا بأس... إنه تدخل محمود... النجدة ثم النجدة... إن بعض ذكور الماعز والديكة تمتطى ظهور تلك الحمير: الرافسة...

وهنا هتفت حنين وقد انغرست أصابع قدميها فى ألياف جذع النخلة دون أن تشعر:

ـ حسنًا... رائع... اصمدى أيتها الحمير.. الـ... النابغة... الشجاعة...

وتابع العم:

ـ لا بأس... لا بأس من ذلك النهج الذى طلعت به الحمير على المعركة، ذلك لأن أجنابها الضعيفة تحميها الكلاب... يا للهول.. ما هذا؟؟.. ها هو سهم مضاد من إناث الأبقار القرناء تندفع فى اتجاه الذئاب وقد حمت جوانبها بعض الثيران الشرسة، وفى ركاب كل ذلك ألمح بعض الماعز تناوش وتشاغب بوثباتها هنا وهناك وقد لاذت الصغار بأثداء وضروع أمهاتها وقد شعرت بالخوف العارم.... حسناً... وما هذا أيضاً؟؟.. ها هو جمل يطأ بخفه جسد ذئب ليقف فوقه بكل ثقله والذئب يئن من تحته، ها هو الجمل يفسح المجال لكلب من الكلاب لينقض على الذئب الذى كان قد وطأه بخفه... لقد توغلت أنياب الكلب الأبيض فى جسم الذئب الذى رقد رقدته الأخيرة.. ولكن... رباه... ما هذا الذى أراه؟؟... إن ملك الذئاب يحاول أن يرفع رأسه من فوق الرمال فى محاولة يائسة للعودة إلى القتال ضد صافى... ولكن... رباه... ها هى مرآة قبر أم غادة تسدد إلى عينه حزمة قوية من الأشعة لتغشى عينه...إنه يبعد عينه فى ألم مبرح عن طريق حزمة الأشعة التى تسددها المرآة فى مثابرة مدهشة...

وهنا هتفت غادة فى فرحة مقرونة بالدموع:

ـ سددى يا أماه مزيداً من الأشعة... سددى يا أمى المزيد منها حتى تغشى بصر ملك الذئاب.

وهتفت حنين:

ـ يا لها من مرآة شجاعة حقاً...

فهتفت غادة معترضة على حنين وهى تبكى مر البكاء:

ـ إنها ليست مرآة... إنها عين أمى... إنها عين أمى... إنها تصدر إشعاعا يسحر ملك الذئاب ويغشى عينه...

فصححت حنين:

ـ بل سددى أيتها العين المزيد والمزيد من الأشعة حتى لا يرى ملك الذئاب: صافى الشجاع... إن رئيس الحكومة نفسه لا يملك عيناً مثلك يا أم غادة...

وهتف العم فى ضيق وتبرم وجزع:

ـ ويحى .... ويحى... ويحى.... ها هو ذئب آخر ينضم إلى الذئب الذى هاجم صافى... كيف يتأتى لهما ذلك؟؟... ما هذا الطغيان؟؟.. اثنان على واحد قد تم له قهر ملك

الذئاب؟؟... هذا ظلم... إذاً والأمر كذلك فلابد من تدخل العنصر البشرى لصالح صافى... بالحتم... بالحتم... لابد من ذلك قبل أن يهلك صافى تمامًا... لو هلك: لدب الذعر فى بقية فريق الكلاب المدافع... لابد من تدخل العنصر البشرى....

وما كاد العم يلفظ قولته الأخيرة المستفرية: حتى كان يفجؤ أمته الصغيرة بعدوه السريع فى اتجاه المقابر المهجورة حيث المعركة دائرة....

انطلق العم جمال يجرى ويجرى وكأنه صاروخ غير منطقى السرعة... انطلق العم وقد تطايرت الرمال من تحت نعليه وقد أدهشتها تلك السرعة التى لم يكن من المتوهم أن يتمتع بها... انطلق العم فى غير معية الوعى وغير ما اكتراث وفى غير ما خوف أو جزع... انطلق العم كرمح أطلقته يد همجية.. انطلق العم يقتدى صافى الشجاع... انطلق العم الذى بدأ الشيب يتخيط فى رأسه متوعدًا قوته البادية...

وإذ صار العم على مرمى حجر من الذئبين المتربصين لصافى الذى وقف حائرًا بينهما وعلى مقربة من رأس ملك الذئاب الراقد فوق الأرض وقد تشحط فى دمائه.. إذ صار العم على مرمى حجر من الذئبين: فإنه وفى أسرع من ومض البرق جذب سهمًا من جعبته ليستقر فوق وتر قوسه، وفى سرعة تفوق سرعة الصوت: انطلق السهم المتوحش الشرس لينفرس فى جسد الذئب الأول ثم ليخترقه إلى الذئب المجاور له ليحط عصا الترحال هناك...

وهنا هتفت حنين وهى لما تزال فوق النخلة إلى جوار غادة:

ـ سهم العم جمال قد انفرس فى كلا الذئبين... فى كلا الذئبين.

وهتفت غادة وقد تطايرت جدائلها مع النسيم:

ـ الذئبان يعدوان معًا متجاورين... لقد جمع بينهما سهم واحد... السهم لا يمكن أن يبرح جسديهما إلا بالموت... انسحبا... انسحبا أيها المتوحشين...

وهتفت حنين:

ـ رئيس الحكومة نفسه لا يمكنه أن يفعل مثل ذلك...

وجذب العم سهمًا جديدًا استقر فوق وتر قوسه الإنجليزى المصنوع من الألياف الزجاجية الخارقة القوة، وما إن شاهد ذئبًا يقف فى مواجهة أحد الكلاب أسفل إحدى النخلات: حتى سدد إليه السهم، فمرق مروق الشهاب المذنب، ليستقر فى منتصف جسد الذئب الرعديد ليستقر فى النهاية بجذع النخلة رشيدة الرشيدة التى كانت هى النخلة المجاورة للذئب بمحض الصدفة....

وهنا هتفت غادة:

ـ لقد صلب العم الذئب الرعديد.. لقد صلبه فوق جذع النخلة رشيدة الرشيدة... ياللك من نخلة مخلصة يا رشيدة... إن رشيدة تلوح لنا بسعفاتها السفلية المدلاة... إنها تبشرنا بالخير... عليك به إذاً يا رشيدة... عليك بعرضه مصلوبًا هكذا كيما يكون عبرة لغيره من الذئاب... إن الذئب يعوى ويعوى ولا يستطيع فكاكًا من سهم العم... إن بسادة لا تملك الآن إلا أن تحمل وعاء اللبجى فحسب... لا وقت للخمر يا بسادة....

وأردفت غادة فى جزع وقد تشنجت قبضتها على حزام صعود النخيل بعد أن سددت نظرة إلى بهاء الذى وقف حائرًا بجوار باسنت على مقربة:

ـ ويحى... النجدة ثم النجدة.... إننى ألمح ذئبًا يمرق فى سرعة غاشمة فى اتجاه العم...

وما إن مرق ذلك الذئب الذى شاهدته غادة فى اتجاه العم: حتى كان صافى يسرع منقضًا فى اتجاهه.. وما إن دنا من ذنبه: حتى أطبق عليه فى استماتة فدائية، وما كاد الذئب يلوى عنقه فى اتجاهه ليعقره حتى فوجئ بسهم ينغرس فى جمجمته ليندس فى كلتا عينيه كالخزام، الأمر الذى جعل الذئب يعوى ويتلوى وقد فقد البصر، والأمر كذلك: فلقد انقض الكلب صافى عليه لينشب أنيابه الفاتكة فى عظام ترقوته وعنقه، فلم يتركه إلا جثة هامدة تلفظ أنفاسًا أخيرة... وهنا رمح إليه العم ليربت على ظهره ويمسح بعضًا من قطرات الدماء عنه هاتفًا هتافا مدويا وقد انتفشت لحيته الكثيفة وثار شعر رأسه الغزير الفاحم السواد: لدرجة جعلته يبدو فى شكل إنسان همجى وحشى شرس الطباع طاغية فى بربريته فبدت عضلات ساعديه فتية القوة منتفخة فى عنف وجبروت لا يتسنى إلا للعماليق:

ـ هيا... فلنترك هذا الذئب أيها الملك صافى... هيا إلى جنودك لتزكى فيها روح القتال... إن المعركة سجال يا صافى... كفاك يا صافى... هيا انطلق أيها القائد الفدائى إلى جنودك...

ومن الفور شب الملك صافى على فخذ مربيه الفولاذية ولثمها بلسانه فبللها بلعابه وانطلق كالسهم إلى ساحة القتال فى اللحظة التى لعق فيها العم الهمجى لعاب الكلب المتخلف عن قبلته فوق فخذه كيما يتسرب إلى معدته المتوحشة الهمجية...

وبما أن الملك صافى قد مضى إلى ساحة القتال فإن العم قد عمد إلى جثة الذئب ثم صرخ صرخة مرعبة حادة همجية وانحنى عليها وغمس راحتيه فى دمائه النازفة، ثم رسم على وجهه بأصابعه المسربلة بقانى الدماء ثلاثة خطوط من الدم فوق جبهته وأربعة خطوط فوق صدغه الأيمن وأربعة خطوط أخرى فوق صدغه الأيسر وغمس راحتيه فى مزيد من دماء

الذئب الحارة، ورسم دوائر همجية متداخلة فوق ثديه الأيمن، ودوائر مماثلة داخل بعضها فوق ثديه الأيسر، ثم رسم خطوطًا عرضية فوق ذراعيه، وانحنى أخيرًا فوق جثة الذئب وامتص شيئًا من الدماء فى فمه، ووقف معتدل القامة ثم صرخ صرخة حادة جهورية، ويعثر شعر رأسه فى كل اتجاه بأصابعه، وقهقه عاليًا لتبدو أسنانه وتجويف فمه وقد غرقت فى قرمزى الدماء فبدت وكأنها جمرات متوهجة ستندلع من بركان رهيب..

دوت قهقهات العم عاليًا عاليًا ليردد السحاب صداها فوق العراء، ومن فور ذلك انطلق نحو المعركة ليزيد العنصر الإنسانى الهمجى الحاسم....

وهنا همست غادة وهى تنتحب:

ـ لقد انقلب العم إلى وحش..

وهمست حنين:

ـ أرأيت إلى تلك الدوائر والخطوط الدموية التى رسمها فوق وجهه وذراعيه وصدره؟؟... لقد غدا إنسانًا وحشيًا يا أختاه...

وهنا صرخ بهاء الواقف إلى جوار باسنت:

ـ أبشرى يا غادة... ألا تلمحين الذئاب تعدو بعد أن اتجه العم إلى ساحة القتال صارخا فيها صرخاته المرعبة المتوعدة!! إن أسنانه تقطر دمًا... إنها دماء الذئاب...

وهنا حملقت غادة بعيدًا من عل وهتفت فى غبطة:

ـ الذئاب تولى هارية... الذئاب تولى هارية... لقد سبقتها الضباع وبنات آوى إلى ذلك... إنها تولى مدبرة نحو الجبال والصحراء... إنها تولى نحو الجبال وقد أخذت ذيولها فى أسنانها... لقد انتصر جمال العم البطل أخيرًا... لقد انتصر صافى فى المعركة...

وهتفت حنين:

ـ إننى ألمح فريق الكلاب يجد فى إثر الذئاب ويطاردها... إن كلاب البلدة تسرع فى إثرها... أسرعى أيتها الكلاب وطاردى العدو وأسكنيه كهوفه فى الصحراء والفيافى... أسرعى أيتها الجبابرة... إننى ألمح الملك صافى على رأس المطاردين...

ومن الفور هبطت غادة من عليائها وتبعتها حنين، وأسرع الجميع فى اتجاه المقابر المهجورة فمروا بجثة الذئب الذى فارق الحياة، وما إن دنوا من مسرح القتال حتى واجههم العم قائلاً فى خشونة تبعث على الرعدة:

ـ والآن: هيا يا بهاء... عليك بإحصاء الكلاب والذئاب الميتة... عليك أنت وباستت أن تجذبا الذئاب من كل مكان بين القبور من أذنابها، وكذلك فلتفعلا بالكلاب... اجعلا من الذئاب كومًا، ومن الكلاب المقتولة كومًا آخر.... أجل... سوف نحفر الآن قبرًا كبيرًا للكلاب المقتولة وسيكون ذلك القبر أمام التماثيل... سأخط لافتة على كتلة من الحجر الأبيض... سأغمس قلما من الغاب في دماء تلك الكلاب... ستكون اللافتة "جنود الملك صافي"... عليك يا بهاء باستجلاب قطعة غليظة من غاب المقابر... عليك يا باستت بانتخاب كتلة من الحجر الجيري الأبيض على أن يكون لها سطح أملس مشذب... إنها كثيرة وملقاة بين مهجور القبور... وأنت يا غادة: عليك باستجلاب حبل طويل... سنصلب كل ذئب فوق جذع نخلة... باستت سيقوم بربط كل ذئب فوق جذع نخلة من النخلات الثلاثين، ومن ثم سأعمد إلى تسديد سهم إليه لصلبه.. سنستخدم نفس الحبل مع كل الذئاب الميتة... هيا عليكم جميعًا أن تنشطوا للعمل... إن صافي لم يعد بعد من المطاردة الضارية...

وفي زهاء نصف ساعة كانت العشرة ذئاب المقتولة قد صلبت فوق النخلات: فريدة وميادة ومجيدة ومديدة وحميدة وسعيدة وتفريدة وسديدة وهويدة، ومرادة، وكذا كانت خمسة عشر كلبًا مقتولة قد قبرت في حفرة غائرة عند أقدام التماثيل؛ وقد كوم فوقها كوم من الرمال تسنمته كتلة من الحجر خط عليها بالخط الديواني "جنود الملك صافي"... بيد أنه وعلى مقربة من تلك المقبرة الجماعية: بدت جرة فخارية صغيرة مملوءة بدماء الذئاب المقتولة... أجل... لقد كانت أوامر العم قد قضت بجمع تلك الدماء في هذه الجرة....

استراح العم قليلاً فوق كوم الرمال الذي يتربع فوق المقبرة الجديدة، ونهض متجهًا إلى النعجة التي بقر الذئب بطنها والتي كان قد ذبحها، وجعل يسلخها في سرعة عجيبة بخنجره، وأوقدت غادة نارًا، واستخرجت السفافيد من صندوق العربة، وشرع الجميع في تناول الشواء الذي كان سيكون طعامًا سائغًا للذئاب... واستراح الجميع في ظلال النخيل، بيد أن العم هتف فجأة:

ـ والآن... لك يا غادة أن تأتي بوعاء اللبجي من فوق بسادة... إنه سيكون رائعًا... أريد أن أشرب نخب الانتصار الآن... هيا يا غادة....

وهنا أجفلت غادة وأشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر باكية في حرقة، فلم يسع العم إلا أن يأمرها:

ـ أصدرت لك أمرًا أيتها الفتاة... ألا تستجيبين لأمري أيتها "المفعوصة"؟!...

وأسقط فى يد غادة ولم تجد مندوحة من الامتثال لأمر العم الخارق للعادة، ويممت شطر بسادة مخترقة تجمعات الماشية والأغنام والحمير ممسكة بحزامها الليفى، ومن خلفها حنين الجزعة، وما هى إلا لحظات حتى كانت غادة قد عادت بوعاء اللبجى لتقدمه إلى العم، وما كادت تفعل: حتى شاهد الجميع الملك صافى يقترب من بعيد على رأس جنوده من كلاب البلدة تلك التى كان يربو عددها على أربعين كلبًا من الذكور القوية، فعلق الجميع عليها البصر وهى تقترب، وما إن دنا الملك صافى: من العم حتى كان يحتويه بالأحضان وقد تراقصت لحيته المنتفشة مع نسمات الهواء:

ـ أوه... أوه... أوه ... مرحبًا بالملك صافى الصنديد... ها هى جنودك البواسل التى قتلت فى ساحة القتال.. أقمنا لها مقبرة رائعة... وها هى أعداؤك قد صلبت فوق جذوع النخيل... هل تود انتصارًا أروع من ذلك؟؟... أوه... أرنى جراح رقبتك؟؟... أواه تبًا لك يا ملك الذئاب... إننى أشاهد جرحين غائرين أسفل الرقبة... إنهما من آثار نشوب نابى الذئب فى جسدك... لا بأس أيها الملك صافى، فلن تلبث أن تلتئم تلك الجراح...

وهنا كانت قد أقبلت غادة على العم بجرة الماء كيما يغتسل وجهه وجسده من خطوط ودوائر الدماء، بيد أنه هتف:

ـ كلا... ليس الآن يا غادة...

وفى تلك الأثناء كانت كلاب القرية قد ربضت على جانب غير بعيد من القوم وبالقرب من الماشية، وجعل كل منها يلعق دماء جراحه، فأقبلت غادة وحنين عليها جميعًا تداعبها وتواسيها وتربت على ظهورها متفحصتين لجراحها.... لقد كان جميع الجنود والحق يقال: فى غاية من الإنهاك، لدرجة أن الأربعين كلبًا سرعان ما نامت فى ظلال النخيل والزيتون..

ومن بعيد لاحت أنثى كبيرة مكتنزة بالشحم واللحم ذات فراء أبيض ناصع وذات أثداء مدلاة ضخمة متوردة، ومن خلف تلك الكلبة، بدت خمسة ذكور تجد فى إثرها وهى ماضية تقترب من القبور المهجورة... وهنا قام العم من فوره، ليستقبل الكلبة الضخمة السمينة الطويلة الهلوك، وسرعان ما ابتسم: فانفرجت لحيته وظهرت أسنانه الحمراء الدامية، وهتف بالكلبة وقد اقتربت منهم:

ـ أوه ... يا لك من أنثى لعوب إذاً... لقد استحوذت على هذه الشلة من الذكور خلال المعركة... لها حق فى ذلك لأنك أنثى وأية أنثى... إن لك قوامًا بديعًا وأردافًا ممتلئة وأثداء مكتنزة... ولكن ما كان أحوجنا بتلك الذكور الخمسة خلال المعركة الرهيبة التى دارت فى غفلة منك أنت وصحبك... حسنا.... لا بأس...

وهتف بغادة:

ـ إليّ يا غـادة بحبل طويل ووتد خشبى من الكوخ... إليّ بالسوط من العربة...

وأذعنت غادة للعم الثائر، وسرعـان مـا كان بين يديه كلاً من الحبل والوتد والسوط، وهنا قال فى هدوء:

ـ هلمى إلى أيتها الأنثى الرائعة....

وأقبلت الكلبة نحو العم وهى تبصبص بذنبها السميك، وكان هو قد صنع خية من الحبل، وسرعـان مـا طوق رقبتها بها بحيث لا يمكن لها أن تفلت، ثم دق الوتد الخشبى فى الأرض بعد أن ربط به طرف الحبل، وأمسك بالسوط لينهال به على الأنثى هاتفًا:

ـ والآن... إننى أنهـال عليك بذلك السـوط... أتعلمـين لماذا؟؟... ذلك حـتى ترضـخى من الفـور للملك صـافى... أنت أنثاه اليوم... هل تفهمـين؟؟... إنك أنثاه اليوم... ستظلين مربوطة له هـا هنا على الدوام... لن يتطاول أحد عليك من "الشلة" أيتها الكلبة الهلامية الجسد... أتعلمين لماذا أيتها الحسناء؟؟... ذلك لأن صـافى هو ملك الأغورمى... لقد حقق نصرًا حربيًا لا ولن ينسى على ملك الذئاب...

جعلت الكلبة تئن وتصرخ، وتتقلب على الأرض رافعة خلفيتها فى ميوعة وكأنما تقول:

ـ وهل ترانى أيها الفاضل تمنعت عليه؟؟..

وهنا أسرعت غادة إلى العم لتنقذ الكلبة:

ـ كفاك يا عمى... إنها حيوان برىء يا عمى الشجاع.. اتركها وستكون أنثى صافى اليوم.. لا تجزع يا عمى... إنك مهتاج ومتذمر... دعها وستلد لنا جراء... إن الذئبات ستلد فى الجبال مـزيدًا من الذئاب الشرسة... ألا تدع الكلبة لتلد هى الأخرى لنا المزيد حتى تزيد من قواتنا؟؟..

وهنا كف العم عن الضرب قائلاً فى سذاجة صبيانية لا يستحق عليها إلا الصلب عاليًا فوق جذع النخلة رشيدة الرشيدة:

ـ حـسنًا إذا كـان الأمـر كـذلك... على أن تكون تلك الجـراء من الملك صـافى... من الملك صافى.. قلت لكم ذلك...

ضحكت غادة وقد أسعدها أن تقصى العم عن ضرب الكلبة التى رقدت فى إعياء وقد منيت بعلقة لم تكن فى خيالهـا، فى الوقت الذى أسـرعت "الشلة" المكونة من الخمسـة ذكور، وولت هارية عن مسرح الأحداث وقد فطنت إلى أنه لا مجال لها فى تلك المعمعة وقد تصدى لها الملك صافى والعم الثائر....

وبعد هنيهة تقدم العم من جرة دماء الذئاب، وأقامها نحو فمه، وراح يجرع منها حتى سالت على شدقيه، فلم يسع حنين إلا أن تشهق قائلة:

ـ كفاك أيها العم... ستمرض من تلك الدماء...

ووضع العم الجرة على الأرض، وأسرع إلى وعاء الليجي، وراح يجرع منه لحظات حتى كان قد غاب عن وعيه تمامًا فى سكر شديد، بيد أنه هتف قائلاً:

ـ اشربى أيتها النخلات من دماء الذئاب المصلوبة فوق جذوعك بوصفك نخلات تشرب من دماء الموتى... والآن: عليكم بالابتعاد جميعًا عن الملك صافى.... عليكم بالابتعاد أيها المتصنتون... ما لكم ومال الملك صافى؟؟... إننى أسألكم؟؟.. لماذا تتلصصون عليه أيها الجبناء؟؟.. إنكم أنانيون ولا تحبون ولا تودون إلا متعتكم فحسب... هه... أليس كذلك؟؟... هيا... هيا إليها يا صافى... إنها أنثى لعوب، وأنت أيتها الكلبة الرائعة... عليك به أنت الأخرى... ولكن عليك ألا تنهكى قواه لأنه مطالب بتلك القوة لدحر الذئاب... أوه... كلا... بل عليك أن تذهبى بكل قوته... أنهكى قوته تمامًا أيتها الكلبة... أنهكى قواه تمامًا... أتعلمين لماذا؟؟... ذلك لأننى سوف أغدق عليه منذ الآن باللحم... فليخل الجميع المكان لصافى... قلت لكم ذلك... لا تسترقوا السمع والنظر... هيا ابتعدى يا غادة فإن هناك ثمة ما يخجل... ها ها... إنها الحرب... الحرب... إنها من الغاز الطبيعية.. القوة ضد القوة، والأنثى للفائزين... ها ها... إنها الهمجية... إنه داء همجى... همجى أيها الرعاع... إياكم وقذف صافى بالحجارة... لكم شاهدت الناس يفعلون مع الكلاب وهى تتسافد... لكم شاهدتهم يفعلون ذلك.... أليس هذا دليلاً على الأنانية والوحشية والنجاسة والخسة؟؟.... ما لهم والكلاب إذاً؟؟... هه... هه... ألا فلتفرنقعوا يا أهل الضلال... ألا فلتفرنقعوا يا أهل الظلم... إنه شىء جميل خلقه الخالق... فلماذا تتمردون عليه؟؟... لماذا تحيكون وتديرون المشاكل المخجلة ضده؟؟؟... إنه منهاج الخالق فى خلقه أيها الجبناء الكفرة... ابتعدوا أيها المارقون عن نظام الله وإبداعه وسنته فى خلقه... موتوا بغيظكم أيها الطغاة... حقت عليكم اللعنة أيها المتمردون.... حقت عليكم اللعنة جميعًا.... عندما كنت أخطب إحداهن: كان إخوانها الذكور وأقاربها الذين يربو عددهم على العشرين شابًا: كانوا يتقافزون تباعًا نحو الحجرة التى أجلس فيها أنا والهانم الخطيبة... لماذا؟؟.... لأنهم يغارون منى عليها... لماذا ؟؟؟... لست أدرى لماذا؟؟... لماذا وأنا سأصير زوجًا لها؟؟... لست أدرى لماذا؟؟... لماذا؟؟... هه... لست أدرى لماذا؟؟.... إنه داء قذف الكلاب بالحجارة... ها ها ... لماذا؟؟.. لست أدرى لماذا؟؟...

وفجأة خلع العم رداءه الفرائى وألقى به على الرمال وجعل يقهقه عاليًا، وارتمى فوق الرمال وراح يتمرغ بجسده عليها زاحفًا تارة ومتقلبًا تارة، ونادى على باستت فجأة هاتفًا:

- أيها العندليب الشجى باستت، يا من خلفت آمون المغتصب... أقبل علىَّ يا باستت... أقبل كيما تلحن تلك الكلمات... عليك أن تشدو يا باستت:

فين إنتــــو فين يا أهل البلد؟ ســــيــبــتـــونا ليـــه ؟؟

فــين إنــت فــين يــا أم الــولــد تــبــكــى عــلــيـــــــه ؟؟

تهـــاجـــرى ليـــه وإحنا هنا؟

مش كنت تيـــجـى تودعى؟ قــلــبــك حــــــــديــد

فين هيـــه ودنك تســـمـــعى؟ يــا أم الــولــيـــــــد

الــشــكــوى نــشــكــى لــربــنــا

ســيــبــتك صــحــيح من كــام سنة ســـيـــبت الجـــمـــال

لموتــنــا جـــــايــة مــنــشــنــة بــنــت الحــــــلال

عــشـــرة رجـــال من قـــبلنا

التقط باستت هذه الكلمات المبهمة وسرعان ما سجلها ذهنه التلقائى الموسيقى الطابع ومن ثم طفق ينشدها وقد جلس عند رأس العم الذى راح يستمع فى انتشاء، وغاب العم عن وعيه تمامًا وراح فى سبات عميق استيقظ بعده ليجد أن باستت قد ألبسه رداءه الفرائى فأوسع له فى الابتسام، وقامت غادة التى كانت تجلس على مبعدة محدثة حنين فيما إذا كانت تتقن حلب البقر، فتجيبها حنين بالنفى بيد أنه من الممكن تعلم ذلك مستقبلاً...

قامت الفتاة وحملت جرة الماء إلى العم فغسل وجهه وجسده بعد إلحاح، فأزال ما عليه من خطوط ودوائر دموية ومن الفور حمل قوسه وسهامه المتبقية فى جعبتها الأسطوانية الجلدية ومنظاره المقرب، ونفض خفه ذا السيور من الرمال، وانطلق مع ركبه بعد أن هتف:

- هيا بنا لنخلى المكان للملك صافى مع تلك الأنثى الهلوك... هيا بنا نرحل للبحث عن الأب وسيم مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون...

قطع الجميع شوطاً بعيدًا من المشوار الذى بدا طويلاً وما إن لاح الكوخ القابع بجوار بعض الصخور دون أن يجاوره منزل واحد: حتى سبقت حنين الركب إليه ودلفت داخلة، فألفته مهجورًا وقد انقلبت أمامه "زلعة" ماء فارغة وبجوارها حفنات من رماد الحطب، فارتدت إلى جماعتها دامعة العينين هاتفة فى جزع:

ـ أبى وسيم غير موجود بالكوخ... الكوخ مهجور تمامًا ولا شىء بداخله غير بعض الخنافس الكريهة....

توقف العم وصحبه ولم يشأ أحدهم أن يلج الكوخ، وصمت العم لحظات قال بعدها:

ـ لا بأس... لا تخافى... سنذهب إلى فيلا أختك وسام الكمال...

وانطلقوا عبر الطريق: تحطهم رمال وتحملهم آكام وتهوى بهم منخفضات حتى دنوا أخيرا من الفيلا الفخمة ذات البوابة الفولاذية الخضراء، وهنا هتفت حنين وقد اقتربت من البوابة المغلقة:

ـ يا أبى وسيم... يا أبى وسيم.. هل تراك هنا؟؟... أرجو أن تكون هنا يا أبى... إننى جزعة عليك يا أبى... إن الشمس فى طريقها إلى الغروب يا أبى ويجب أن نعثر عليك...

ولقد كان أمرًا يدعوا إلى الدهشة والعجب أن تنفتح البوابة فى بطء: ليظهر على عتبتها الأب وسيم فى جلباب أبيض حريرى وخف من الفراء الثمين، وما أن شاهدته ابنته حتى أسرعت إليه وعيناها تقطر دمعًا: فاحتواها الأب فى حضنه هاتفًا فى فرحة عارمة:

ـ ابنتى.... ابنتى الأثيرة... وافرحتاه يا حنين... لقد أتىً بك العم أخيرًا....

وأقبل على العم يحتضنه ويقبله، وسلم على: بهاء وغادة وباسنت، ودعًا الجميع إلى الداخل متخذا صفة صاحب البيت:

ـ لعلكم توافقون جميعًا على مشاهدة حديقة الفيلا الغناء... إنها ثمرة تنسيق ابنتى وسام الكمال.. إنها فاتنة وتحب كل جميل.. انظروا... يا لها من أزاهير خلابة... أنا لا أحفظ شيئًا من أسمائها، ولكن لا يسعنى إلا وصفها جميعًا بالجمال... ما قولك يا حنين؟؟.. إنك تحبين الورد الأحمر... ها هى باقات منها تحيى قدومك من فوق الشجر... إنك تحبين القرنفل... ها هو يرحب بك فى أحواضه ويتمنى أن تقطفه أصابعك... والآن هيا بنا إلى الداخل لتشاهدوا حجرات ابنتى... الفيلا تتكون من ست حجرات مؤثثة بالأثاث المستورد... إن زوج ابنتى مدرس للتربية البدنية وملاكم محترف، كما أنه قد ورث مؤخرًا عشرة أفدنة بها نخيل فى واحة سيوة... إن أباه من أعيان السنوسية بالواحة، وكان جده قديمًا حاكمًا عليها...

وبعد أن تم لحنين قطف وردة حمراء ذات ساق طويلة: دلف الجميع إلى الداخل عن طريق الدرج المكون من عشر سلمات من الرخام على جوانبها عدد من الإصص الكبيرة وقد تهدلت خضرتها الوفيرة، وعبر الجميع فيراندا كبيرة على محيطها بدت ثلاثة أعمدة مجزعة بالألوان، ودخلوا ردهة البيت، فراعتهم بأثاثها المخملى وطاف بهم الرجل المزهو مستعرضًا:

ـ ها هى ذى حجرة المكتب ... انظروا إلى قفص الحسون المعلق عند النافذة ؟؟.. إنه شجى الصوت .... انظروا إلى المكتب المخملى الغطاء ... ها هى مكتبة زاخرة بكل ألوان المعارف .... تعالوا معًى إلى حجرة الطعام .... انظروا ... يا لها من منضدة ضخمة الأرجل .... إن أرجلها صنعت على شكل الأسود ... هلموا .... هيا إلى حجرة الاستضافة .... أقبلوا .... تفضلوا ... هيا اجلسوا كيما أقدم لكم مشروبات الضيافة .... إنها مقاعد مخملية زرقاء رائعة فرنسية الصنع .... إن الستائر من الحرير الهندى الخالص .... ها هى الطواويس المنقوشة عليها تشهد أنها من صادر الهند ...

جلس الجميع على المقاعد ، وانتخب العم مقعداً عريضاً فأراح جسده عليه مطوحا ذراعيه وساقيه إلى أقصى اليمين وأقصى اليسار وقد دفع برأسه بشدة إلى الخلف ....

انسحب مورث الصفات الذى بدا وسيمًا قسيمًا حليق الذقن نظيف الهندام بطريقة لم تعهد عليه من قبل، وفتح الثلاجة ذاتية التشغيل بحجرة الطعام، واستخرج قطعاً من الأيس كريم المشكك بالتين والشليك ، ووضعها فى أطباق من الزجاج الإيطالى أتى بها من دولاب الصينى ، وقدمها للضيوف مع ملاعق من فضة براقة ، ثم عاد فأشعل موقد الكيروسين العتيق الطراز وأعد أكواباً من الشاى الفاخر حيا بها الضيوف ، وعندما تم له ذلك جلس إلى جوار ابنته حنين وجعل يقبلها عديداً من المرات هاشًا وباشًا، وقال فجأة وقد تغيرت لهجته :

– ما قولك الآن يا حنين ؟؟.. أليس هذا البيت أفضل من كوخنا الحقير ؟؟..

فهمست حنين وهى تضع كفها فوق كف غادة الجالسة إلى جوارها :

ـ بالطبع يا أبى.... والأن : هيا إذاً أعط غادة الثلاث جنيهات ثمن الحسون، وكذلك أعطها جنيهاً وربعاً نظير قطع اللحم ... لابد أن معك نقوداً كثيرة ....

وهنا لم يسع الأب إلا أن يلبى نداء ابنته ، فلقد قام إلى حجرة المكتب ، وأتى منها بأربعة جنيهات وربع وقدمها لابنته :

ـ قدمى لغادة ما اقترضتيه منها يا ابنتى مع مزيد من الشكر والعرفان ....

وأسرعت حنين تلف ساق وردتها الحمراء بالجنيهات لتقدمها إلى غادة :

ـ شكراً لك يا غادة .... إننا نرد لك نقودك يا أختاه مع شديد الامتنان لما صنعته لنا أيام كان أبى فقيراً ..... لن ننسى لك ذلك يا غادة أبداً ....

وهنا التقطت غادة الوردة الحمراء وما عليها من الجنيهات ، وأسرعت بها إلى العم الذى لم يع ما يدور حوله لأنه كان قد تاه فى خضم من الذكريات المؤلمة والتصورات المقبضة ، وما

كادت تقف الفتاة أمامه وبين أصابعها الجنيهات والوردة حتى أمسك بها وراح يمزقها :

ـ إنك حشرة دنيئة يا غادة !!... وليكن فى وعيك أن النقود لم يعد لها شأن على وجه الأرض ... من ذا الذى سنشترى منه أو نبيع له أيتها الحمقاء الجشعة !! أرأيت إذاً إلى تلك الذئاب التى كنا نحاربها ؟؟.. إنها أقل منك شراسة ... إنك شريرة تماماً ... أى والله...

وكيما يخفف الأب وسيم من حدة الموقف قال وهو ينهض :

ـ والآن ... هيا يا حنين إلى حجرة نوم أختك وسام الكمال كيما ترى غادة أدوات تجميلها وأثوابها ...... سنتمكن فيما بعد من تصغير بعض الفساتين لتناسب قدك....

ونهضت حنين فى مرح وأخذت غادة من يدها وقد لاحظت عليها المزيد من الوجوم والاجفال، وإن هى إلا هنيهة حتى كانتا داخل حجرة النوم البديعة الأثاث المخميلة الستائر الوردية الجدران..

اتجهت حنين من فورها إلى مقعد "التسريحة" الحريرى الوردى الكساء ، وجلست عليه بأسمالها وراحت تحدق إلى وجهها فى المرآة القلبية الشكل دون أن تدعو غادة إلى الجلوس ، ومدت يدها بعد أن قربت المقعد ، وراحت تلتقط أدوات التجميل واحدة إثر الأخرى فى إعجاب بما كانت تمتلكه أختها وسام الكمال من أدوات الجمال ، ثم طفقت تحدث غادة :

ـ أرأيت إلى تلك الزجاجات البديعة ؟؟.. إنها طلاء الأظافر الوردى .. هل تظنين أن ابنة رئيس الحكومة لديها مثلها ؟؟..

ـ محال...

ـ وهذه هى زجاجة عطر كبيرة ذات مضخة ونافورة .... إليك منها نفثة .... بل نفثتين هل تتوهمين أنه ابنه رئيس الحكومة تملك مثلها؟؟

ـ مطلقاً.... يا لها من رائحة تفوح رائحة ... إنها رائحة ذات رائحة....

ـ هاك أيضاً قلم أحمر الشفاه ... إنه قرمزى قاتم ...... هل يمكن لابنة رئيس الحكومة أن تحوز مثله ؟؟..

ـ ليس من المعتقد ذلك يا حنين يا ابنة مورث الصفات الحميدة ....

ـ أرأيت إلى علبة البودرة هذه ؟؟.. إن بودرتها حريرية الملمس ... هيا اشبعى وجنتيك بها ، وأظنك لا تعتقدين معى أن ابنة رئيس الحكومة نفسها تملك مثلها؟؟..

ـ أوه ... إنها ممتازة عبقة ... بالقطع لا يمكن لأحد امتلاك مثلها ... اسمعى ... لدى فكرة طالما أن الأمر كذلك ... يمكنك أن تدسى هذه الأدوات فى جيبك حتى نذهب بها

معنا.... أم تراك تودين المكوث ها هنا مع أبيك وسيم ؟؟...

وما كادت الفتاتان تنتهيان إلى ذلك حتى سمعتا أصوات الرجال من حجرة الاستضافة فأصاختا السمع :

ـ زوج ابنتى هو الذى نوطنى بذلك البيت يا سيد جمال .....

ـ قلت لك ألف مرة إنه من الخطورة بمكان أن تمكث أنت وابنتك ها هنا ...

ـ ما الخطورة إذاً يا سيدى البطل المثقف ؟؟.. إنه بإمكانك أن تشرفنا أنت الأخر فتظل معنا .... فى البيت متسع لذلك... إنها فيلا مكيفة تماماً .....

ـ إذاً فأنت لا تعلم ما وجه الخطورة ...... إننى أنذرك، ولابد أن تعدل عن المكوث ها هنا.. حقيقة إن البيت مكيف ، ولكن هذا لا ينفى خطورة الموقف، وإذا أردت أن تتحقق من ذلك فما عليك إلا أن تشاهد آثر "الرصاصة" التى انطلقت إلى سيارتى وأنا أقودها عائداً من الواحة........

ـ لابد أنك تفسرها إذاً على نحو ما ؟؟...

ـ أجل يا سيد وسيم ... إنه أمر مفزع أن تتخيله .... لقد قدحت زناد الفكر طوال الطريق لتفسير تلك الرصاصة التى طاشت عن رأسى بمحض الحظ . إن هنا ثمة مشاكل مرعبة سوف تحدث خلال حركة التهجير الكبرى إلى الكوكبين.. إن زوج ابنتك من الأنانية والوحشية بحيث سولت له نفسه تركك ها هنا .... إنه لم يكن يبقى مصلحتك مطلقاً بل يقصد دمارك مع الكرة الأرضية ليتخلص منك ومن ابنتك كمتسولين حقيرين تطرقان بابه دائماً طمعاً فى حسنة .... كما أنه لابد وأن يكون مستاء منك لكونك حماه وهو ابن الأكابر ، ولولا فتنة ابنتك وسام الكمال الطاغية لما سولت له نفسه أن يناسبك ...... هذه هى الحقيقة برمتها يا سيد وسيم يا مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون ....

وهنا همست غادة لحنين :

ـ أسمعت ؟؟... من المرجح انكما لن تمكثا هنا .... عليك إذاً بدس المزيد من أدوات ومواد التجميل فى جيوبك ....

وعاد العم يستأنف حديثه :

ـ والأن ... لنعد إلى موضوع الرصاصة الطائشة وتحليل ماهيتها ...... قلت إن هناك أحداثاً مريرة سوف تحدث .... إن فئة من المهجرين من المحتم أن تظن الظنون فى غير

المهجرين والذين سيكونون على وجه الأرض مخافة أن تخيب ظنون العلماء وظنون الإمبراطور، فلا تنفجر الكرة الأرضية .... وبما أن المهجرين من الأرض لا يضمنون تماماً مصائرهم عبر الفضاء لجهلهم التام بما يخبئه من ويلات ومفاجآت لم يستعد البشر لها رغم التقدم العلمى الهائل .... بما أن ذلك فلابد أن فئة من المهجرين سوف تنظر إلى هذا الثلث الذى سيبقى على الأرض نظرة أناس يطردون أناساً آخرين لتصفو لهم الأرض وما عليها ....

ـ أيمكن للرصاصة الطائشة أن تعطيك كل ذلك المفهوم ياسيد جمال ؟؟..

ـ أنت وشأنك إن لم تعتقد ذلك ... إن الذى أطلق الرصاصة اعتبرنى من الثلث غير المهجر طالما أننى أتخذ طريق العودة ....

ـ لا بأس .... ربما ذلك .... والآن .... ما خطتك لنا طالما أن الأمر كذلك؟؟..

ـ حسناً .... لقد بدأنا نتفاهم ويعى كل منا الآخر ..... من المحتم أن نختفى تماماً....

ـ نختفى تماماً!!..

ـ أجل يا سيد وسيم ... لابد أن نختفى تماماً حتى نسمع بأنفسنا عن طريق مذياعى الصغير بالكهف : أن البشر المهجرين قد صعدوا إلى السماء تنفيذا لبرنامج هذه "الهجرة الكبرى" ... وقبل عودتنا إلى الكهف لابد أن نعرج على صديقى وزميلى عابد فى حجرة الاجتماع الشهيرة، وما عليك إلا أن تقرضنا كشافاً كبيراً ومزيداً من أحجار البطارية الجافة لأننا سنسير بالأنفاق تحت الأرضية عند العودة ... لابد أن نعرج على الصديق عابد... لإن قلبى يحدثنى بأنه لم يغادر مكانه.... إن كهفى بعيداً تماماً عن العمران، وهذا ما يجعله فى حصانة تامة من المعتدين ... ضد هياج الدهماء.... كفانا دهماء الذئاب .... لابد أن نكون بمنأى عن دهماء البشر ... ليس من اللازم أن نحمل نقوداً .... يمكنك فحسب حمل شىء من الملابس والغذاء......

وما إن أتم العم كلامه حتى خرج وسيم الأب متجهاً إلى حجرة نوم ابنته وسام الكمال ، وحيا الفتاتين المجتمعتين أمام المرآة ، وهتف بابنته وهو يتجه إلى دولاب الملابس:

ـ هيا يا حنين .... عليك بانتقاء ثوب من ثياب أختك لتلبسيه الآن كيفما اتفق.. ليس هنا من سيسخر من طوله أو نوعه.. هيا حتى أعد لنفسى أنا الآخر مجموعة من جلابيب وبناطيل وسترات زوج أختك ، وكذلك بعضاً من أحذيته...

وبما أن غادة كانت فى أشد اللهفة لرؤية ما يمكن أن يحتويه دولاب زوجة متمدينة فإنها أسرعت مع حنين وفتحتا الدولاب بعد أن خرج الأب متجهاً إلى حجرة أخرى ...

ومن بين الفساتين المعلقة وقع بصر غادة على ثوب العرس الأبيض المصنوع من الركامة والمخرمات الفرنسية والذى تناثرت فوق صدره مزيد من الزهور الفضية ، وفى سرعة مدت غادة يدها نحوه لتخرجه من بين الثياب قائلة وقد ارتسمت على محياها ابتسامة مشرقة تحولت إلى ضحكة عذبة :

ـ ليس عليك إلا ارتداء هذا الثوب يا حنين .... إنه ثوب عرس فاتن حقاً ...

فقالت حنين وقد اتسعت حدقتاها من الدهشة :

ـ أوه ... لكنه طويل متجرجر!! .... لابد أنه سوف يجمع المزيد من الشبيط وريش العصافير وأنا أمر به عبر الطريق ...

ـ كلا ... يمكنك أن تحملى طرفه على كتفك خلال الطريق ....

وساعدت غادة الفتاة على خلع ملابسها الخارجية والداخلية وعندما صارت عارية تماماً : همست غادة وهى تفتح درج الملابس الداخلية الخلابة :

ـ إن نهديك لا زالا صغيرين ... ولكن لن يلبثا أن يصيرا مثلى لأنك أنت التى طلبت ذلك من العم عنتر المتعنتر ... أنت الجانية على نفسك ... والآن هيا البسى ملابس أختك الداخلية الحريرية ...انها مطاطة للغاية وعلى أشكال وألوان.... اسمعى عليك بارتداء هذا السروال الأزرق .... أوه .. كلا ...... البسى الأسود....هه.... لا.... بل عليك بارتداء الأحمر .... أوه ....أتبغين نصيحة ؟؟.. عليك بارتداء الأسود والأزرق والأحمر فوق بعضها ، واجعلى الأحمر فوق الجميع .كذلك فلتفعلى مع القمصان الداخلية ...ستبدين سمينة أكثر وأكثر ...

ـ أواه ليس من المتوجب ذلك يا غادة ..

وبعدما ارتدت حنين كل تلك الملابس الداخلية : ألبستها غادة ثوب العرس الأبيض، ومن فور ذلك أسرعت الفتاة تنظر تبحلق إلى نفسها فى المرآة ، فخلبها منظرها كعروس صغيرة ، وبما أن غادة لاحظت انبساط الفتاة : فلقد عمدت إلى قلم أحمر الشفاه القرمزى وصوبته إلى شفتى حنين هامسة :

ـ لابد وأن يكتمل المنظر ...سأطلى لك شفتيك ...

ـ ليس من المتوجب ذلك يا غادة !!

ورغم ذلك الاعتراض عكفت غادة على طلاء الشفتين ثم عمدت إلى الوجنتين بمزيد من البودرة الوردية ، ونفثت على وجهها وصدرها وجسدها مزيدا من العطر بواسطة المضخة التى

لذ: لها أن تراها وهى تنفث العطر ليتضوع فى المكان ، ولم تقنع غادة بكل ذلك بل راحت تمر بفرشاة طلاء الأظافر على أظافر الفتاة وقد انتخبت لها اللون القرمزى ، ثم أسرعت تدس كل أدوات الزينة فى جيوب حنين بما فى ذلك المشط الأسود الألمانى الصنع ...

ما كادت تنتهى الفتاتان من كل ذلك حتى فوجئتا بالعم يقف على باب الحجرة ليسدد مزيدًا من النظرات النفاذة إلى غادة ، وذلك بعد أن ابتلع ابتسامة ماكرة فى صعوبة بالغة :

- ما هذا الذى صنعتيه بالفتاة أيتها المفعوصة ؟؟ آه لو كنت أعلم أنك كذلك أيتها المفعوصة !!

وترك العم باب الغرفة فى الوقت الذى أجفلت فيه غادة وأطرقت إلى الأرض برأسها ، بيد أنها قالت فى خبث:

- والآن ... عليك أيضا بالحذاء الأبيض .. سيكون واسعًا حقًا ... ولكن لا بأس ... يمكن حمله فى الطريق مثلى، يجب أن يكتمل المنظر... إنك الآن عروس فاتنة خضراء العينين بيضاء البشرة فاحمة الشعر ، ولا ينقص إلا أن تترعرعى، ولقد أخذت التصريح بذلك بالفعل من العم عنتر ...

وفى تلك الأثناء، كان الأب وسيم مورث الصفقات قد كدس فى حقيبتين كبيرتين للملابس الرياضية ذات حمالتين طويلتين: كل ما يستطيع حمله من ثياب وأحذية وأدوات تهمه، وترمسين مملوءين بالماء وبراد للشاى من الحديد الذى لا يصدأ، وعدد من الأكواب الكرستال الفرنسى، ومزيد من أكياس الشاى الهندى الفاخر والسكر وموقد " اسبرتو " وزجاجة للكحول، وعشر زجاجات بيرة استخرجها على التو من الثلاجة ذاتية التشغيل وتعمل بطاقة الاندماج الذرى ..

واخيرًا : حمل باسنت على ظهره ثلاث مراتب عريضة قد طواها عدة طيات وربطها بأكثر من حبل من حبال الصوف الزجاجى المرن ...

ومن ثم أصدر العم جمال أمره بالتحرك لمغادرة الفيلا، ودس الأب المغبون مفاتيحها، وانطلقوا عبر الطريق فى الاتجاه إلى هيكل آمون حيث يبدأ النفق الطويل الذى يؤدى إلى حجرة الاجتماع الشهيرة وجبل الموتى وبيت السلطان بجبل الدكرور ...

سارت أمتنا الصغيرة داخل النفق الطويل : تحت الأرضى على هدى الكشاف الذى يمسكه العم ، وطفق باسنت يغنى لهم طوال الطريق حتى يذهب عنهم الكدر والخوف والتفكير فيما يختزنه لهم المستقبل من مفاجآت والآم ...

ورويدا رويدا بدأت الأرض ترتفع بهم: فقادتهم إلى الدرج الصاعد إلى غرفة الاجتماع الشهيرة، فطفقوا يرتقونه فى حذر بقيادة العم الذى وجد ما كان قد حسبه وحزره فى نفسه

... أجل ... أجل لقد وجد عابد الصديق يغط فى نومه فوق حشوته البالية، وقد بدت خمسة عشرة قلة مملوءة فوق النافذة الأثرية الطويلة الفرعونية من خلفه...

توسط الجميع الحجرة : وطفقوا ينظرون إلى عابد الذى نمت لحيته تمامًا فيما يشبه لحيه العم جمال .

كان عابد نائمًا بحلته العتيقة التى انحنى عليها الزمان بكلكله ففقدت شبحًا لحلة ، أما عن لونها فلقد أغدقت عليها البقع الدهنية بمزيد من الدوائر فى شتى الأركان والجوانب، بيد أن أعجب ما فى الأمر أنه لم يكن هناك ثمة تمزق فى قماشها ...

دار العم بالحجرة المتسعة الأرجاء ، فهاله أن يجد كميات كبيرة من الأغذية قد امتلأت بها عشر مراجين من الخوص الملون، وكانت تلك الأغذية ما بين دجاج مشوى ولحم محمر وبلح وبيض مسلوق وخبز مقدد وغير مقدد وجبن قريش طازج وجبن قديم وفطير مشلتت مكدس فى مراجين بأكملها .من ذا الذى جاد بكل ذلك الزاد !! إن العم لا يدرى ... لقد حار الجميع فى تفسير تلك الظاهرة العجيبة المستغربة !!

وعندما كان العم يدور ببصره حول أرجاء المكان: إذ به يبصر شبحًا مريبًا يمرق من أمام باب الغرفة الأثرية الشاهق الطول، ومن الفور أسرع إلى الباب، وطفق يحلق ؛ وعند ذلك صعق فى مكانه.. أجل ... فلقد شاهد أربعة ذئاب ضخمه تقف على بعد كبير من الحجرة عند أول الدرج الصخرى الذى يقود إلى سفح الهضبة، فأيقن أن الذى كان قد مرق هو أحد تلك الذئاب الشرسة وقد تربصت للسيد الفاضل عابد دون أن يدرى أو يفطن لذلك... وعلى أثر ما شاهده العم: أسرع نحو عابد يوقظه: وفتح الرجل عينيه وأبصر صديقه جمال: فوقف على حشوته وهو يترنح غير مصدق لعينيه، وعانق صديقه القديم ، وتلاقت اللحيتان فتشابكت الشعرات وتخلل بعضها البعض فى عناق طويل... فى الوقت الذى جادت فيه العيون بمزيد من الدموع، ولم يسع العم إلا أن يهمس قائلاً :

ـ لقد جئتك يا زميلى وصديقى وأخى .. هناك عند المرتقى أربعة ذئاب كانت تحوم حول المكان بغية مباغتتك وأنت نائم!! .. حمدًا لله أننا جئنا فى الوقت المناسب !!

وأردف العم موجهًا كلامه للجميع :

ـ لقد خطر لىَّ خاطر فى تلك اللحظات أيها الرفاق .. لابد أن نعرج على نقطة الحدود قبل أن تغيب الشمس..إن الوقت أصيل .. لابد أن نتقهقر عائدين من جديد إلى هيكل

آمون، أتعلمون لماذا؟؟ لأننا فى حاجة ماسة إلى مزيد من السلاح .. قوسى وسهامى لن تكفى لما قد يباغتنا من مشاكل.. إننى أعلم ذلك يقينًا.. إن رصيدنا من الجنس المتعادل، الجانزى واحد هو باستت ... لا بد لنا جميعًا من أسلحة ولابد أنها وفيرة بنقطة الحدود. والآن هيا إليها جميعًا ...

وتقهقر الركب الحائر مؤتمرا بأوامر العم بوصفه قائدًا مسئولاً عن تلك الأمة الصغيرة.

تجاوز الركب النفق، ومن هيكل آمون يمموا شطر المقابر المهجورة ، وارتقى الجميع الأوزة البيضاء بعد أن انطرحت المراتب الثلاث فوق " كبودها " ، وقبل أن يمرق العم بالعربة: سدد منظاره إلى أرض المقابر المهجورة، ومن فوره هتف :

– رائع .. رائع عليك به إذاً أيتها الكلبة السمينة الهلامية.. انهكى قواه تمامًا.. لا تتركيه .. لا بد من أبناء للملك صافى.. هاها... إن أروع ما فى الأمر أن الكلاب الأربعين لا زالت تلعق جراحها أسفل النخيل وقد وقفت المواشى ترعى فى حراستها .. حسنًا ... لن نخاف عليك أيتها الماشية من بعد ذلك ...

مرقت العربة فى اتجاه نقطة الحدود، وعندما صارت أمامها هبط العم ودلف داخلا من بابها المفتوح ومن خلفه الجميع ....

كانت كل الأبواب مفتوحة، وبعد أن أطل العم برأسه على حجرة الضابط "المطارد" أول الخاوية إلا من مكتب صغير، اتجه رأساً إلى حجرة "السلاحليك" فأدهشه أن يجد عددًا كبيرًا من البنادق على حاملها الخشبى، وأن يجد فى وسط الحجرة مدفعًا رشاشًا متوسطًا : من النوع المستخدم ضد مهربى المخدرات على ربوات الحدود وقد انتصب على "سبيته"، وأدهشه أن يجد عددا كبيرا من صناديق الذخيرة الحية وأشرطتها مرصوصة بجوار الجدران بعضها فوق بعض، وعند ذلك لم يتمهل ، بل أصدر أمره لمجموعته: بأن يحملوا البنادق وصناديق الذخيرة إلى الأوزة البيضاء ، بينما كلف نفسه بحمل المدفع الرشاش المتوسط، فنفذ الجميع الأمر بما فيهم حنين التى كانت مخبلة تمامًا فى ثوب العرس الأبيض الطويل، ولقد كان منظرها غريبا وهى تحمل على كتفيها بندقيتين وقد أترعت شفتاها بأحمر الشفاه ، وبدت أظافرها القابضة على قنطرة "التتك" وقد التمع فوقها طلاء الأظافر الأحمر، ولم يكن يسعها والحال كذلك إلا أن تتمتم:

– آه !! لم أكن أحسب أن البنادق ثقيلة على ذلك النحو !!

وإن تم تكديس البنادق والمدفع الرشاش وصناديق الذخيرة بأعلى كبود العربة وبصندوقه الخلفى حتى : انطلق العم بسيارته التى أوصلتهم إلى كهف بيت السلطان بجبل الدكرور وقد ظهرت الشمس قرصًا ضخمًا أحمر بدأ يختبىء من خلف الجبال والغرود والتلال ...

وهبط العم ومن خلفه الجميع، وأمسك كل منهم عددًا من البنادق ، بينما حمل العم المدفع بسبيته الطويلة، وتجد يصعدون الدرج، ليضعوا ما بأيديهم فوق الرمال، فى الوقت الذى كانت فيه حنين صاعدة ذلك المرتقى الرملى المشاكس الذى جعلت قدماها تتوصان فيه وهى تحمل بندقيتين : كمشاركة فعالة لجماعتها، الأمر الذى جعلها تبدو كعروس شرسة لا تملك لعريسها إلا أن تزف إليه وهى مدججة بالسلاح ..

جعل العم يتطلع إلى مجموعة تماثيل النسوة العاريات الراكعات المبتهلات عند باب الكهف هنيهة، ولكنه سرعان ما أصابه الهلع والذعر حينما تطلع إلى من كل جحرى منكر ونكير اليافعين ...

أجل .. لقد شاهد أنهما وقد تحولا إلى هيكلين عظميين يطوق رقبة كل منهما طوق تدلى من سلسلة فولاذية: ولكى يحيط العم بجلية الأمر: انقض داخلاً إلى حجرة بغله المتشرد فى أقصى الكهف مسلطًا ضوء الكشاف على ظلامها، وهنا ازداد رعبه: من هول ما رأى !!

أجل.. لقد وجد أن المتشرد قد تحول إلى هيكل عظمى ضخم بفعل الذئاب، وقد تشحطت جدران الحجرة من حوله بالدماء الجافة: مما يدل على أن المعركة كانت منذ أيام عدة ...

اهتاج العم وانقض متجهًا نحو الهيكل العظمى، وأمسك بالقفص الصدرى بين يديه، ولبسه فوق فرائه فاحتوى صدره، وأمسك بإحدى اللوحين العظميين فى قبضته وخرج على جماعته وكأنه شيطان شرس من قاطنى الفيافى، وما أن صار أمامهم وقد ارتعبوا فى وقفتهم: هتف هتافًا مدويًا :

ـ ألم أقل لكم ؟؟ لقد أكلت الذئاب بغلى الصعلوك !! .ألم أخبركم من قبل أننا بصدد أهوال وأهوال !!.ولكن لا بأس ..هأنذا أتسلح بالقفص الصدرى كدرع يقينى هجمات الذئاب.. إن بغلى الحبيب لم يمت بعد .هذا هو أحد اللوحين العظميين : سأشج به رءوس مزيد من الذئاب والضباع لو سولت لها نفسها بأن تباغتنى بكهفى ...

وهنا هتفت حنين العروس التى كانت لا تزال إحدى البندقيتين وقد التمع أحمر الشفاه على شفتيها متوهجًا على ضوء الشفق الأحمر:

ـ كلنا معك أيها العم العظيم... إنك بطل قوى.. ولن نخاف أبدًا ونحن معك ...

فنظر إليها العم برهات وضحك لمنظرها العجيب ، ثم تجهم فى شراسة وهو ينظر إلى القفص الصدرى الذى طوق صدره بأكملة واحتواه، ولم يلبث أن استدار إلى الخلف دالفًا إلى حجرته الخاصة الفرعونية، وألقى بنظرة على سريره المصنوع من السعف وما عليه من فراء ، وسدد مزيدا من النظرات إلى مجموعة كتبه التى تتربع فوقها قصته الفرعونية ذات الغلاف البنى السميك والتى كان قد ألفها منذ عهد بعيد: وبحنق الغاضب: انقض على قصته وانتزعها

من فوق الكتب: وخرج بها على أمته الصغير: فشاهد باسنت يجد فوق المرتقى حاملا مراتب الأب وسيم، وشاهد الأب وسيم وهو يشعل موقده الصغير: وقد جلست إلى جواره حنين العروس الصغيرة التى أغرقت شفتيها وأظافرها باللون الأحمر الصارخ، فحدق إليها مليًا وهى تضع على أطراف ثوبها أكواب الشاى الكريستال الفرنسية، فهمس قائلا بلهجه خاصه تنم عما يعتمل فى نفسه من انفعالات وتذمر .

ـ ماذا تفعل أيها الأخ وسيم !!

فاجاب مورث الصفاتا بإبتسامة مشرقة وهو يضع براد الشاى على الموقد الصغير:

ـ أعد أكوابا من الشاى الرائع أيها البطل ...

وفى هياج وتذمر لا يمكن وصفه تقدم العم من الدرج الرملى وقد بدأت الشمس تجرجر بقايا أشعتها من خلفها، وقذف قصته : فجعلت تنزلق فوق الرمال، بيد أنها توقفت عند منتصف الدرج عند موضع بعض الأقدام الغائرة، ومن فور ذلك راح العم يرغى ويزبد:

ـ إليك عنِّى أيتها القصة .. فلتأكلك الذئاب ..هه.. لقد ألفتها عن الفراعنة وكنت وقتها طالبًا بمعهد الآثار المصرية القديمة، وذلك بعد نيل البكالوريس بعدة أعوام وبعد تسريحى ...

وبما أن العم قد لفظ ونفض ما فى جعبته من تذمر حيال قصته القابعة فى ظلمات كهفه الأثير بيت السلطان: فإنه تقاعس جالسًا على مقربة من بداية قمة الدرج فدلى قدميه وألقى بجسده فوق الرمال يضع لحظات جعل يرقب فيها السحب وهى تمر فى هجرات كبرى، بيد أنه وعندما أقام رأسه من جديد وألقى ببصره نحو قصته الغارقة فى الرمال فوجئ بالجروين منكر ونكير وقد انشقت الأرض عنهما، وراحا يجذبان القصة الفرعونية الثقيلة فوق الرمال صاعدين بها فوق الدرج، وقد احتالا عليها من كل جانب ...

وإ ذا ما تم للصغيرين منكر ونكير وبمزيد من المكر والدهاء رفع القصة الفرعونية إلى أعلى الدرج المتبسط : انتبذا مكانًا قصيًا عن الجماعة المأخوذة بما يفعلان ، وجلسا متجاورين ، وفتح منكر الغلاف ، وبدأ نكير من الفور فى المطالعة لا ورقة ورقة ؛ بل رزمة رزمة ، ويبدو أن القصة قد راقت لهما فلقد طفقا يطالعان ما بين رزمة رزمة وورقة ورقة ... والأمر كذلك فلقد ارتأى العم أن يلتزم حدود الكياسة حتى لا يعكر صفو قارئيه الجهبذين : فاستلقى على الرمال على بعد يرقبهما كما يفعل الباقون ، وذلك بعد أن خلع القفص الصدرى ووضعه بجواره على الرمال .... وأقبلت حنين عليه ترفل فى ثوبها الأبيض الطويل كملاك حط على التو من السماء ، وناولته كوب شاى ؛ وانسحبت من الفور فى أدب إلى أبيها مورث الصفات

الذى عكف على صب المزيد من أكواب الشاى العطرى الرائحة، وجعل العم يرتشف الشاى المفتخر باسم الثغر منتفش اللحية فى ابتهاج ظاهر، بيد أنه قام فى هدوء وبين أصابعه كوب الشاى الطويل ذو الكعب السميك ويمم شطر الصغيرين منكر ونكير اللذين لم يحفلا بقدومه أو بتهيباه ، بل ثابرا على تقليب الصفحات، ويبدو أن منكر ونكير قد تأففا من شرب العم للشاى بطريقة الشفط المسموع، فلقد قلبا الضفة الخلفية للغلاف المقوى فأغلقا الكتاب، ويبدو أن العم قد لاحظ عليهما ذلك التبرم من شخصه الموقر، فلقد تركهما يطالعان فى مكانهما على ضوء القمر، واتجه إلى كل من عابد ووسيم الجالسين يتهامسان أمام باب الكهف فوق الرمال الحريرية، وكانت آخر الكلمات التى سمعها من عابد الصديق وقد بدا فى حلة جديدة من حلل زوج ابنة وسيم الملاكم :

– ولكن عليك أن تقسم لىَّ يا سيدى إننى لم أعتد على ممتلكاتك.. إننى لا أحب الاعتداء مطلقًا.. أنا لم أعتد على ما تملك بارتدائى هذه الحلة ..

وبعد أن تم حديثهما: اتفقوا جميعًا على أن يتناوبوا الحراسة ، ولما كانت المناوبة تبدأ بالعم جمال: فلقد جلس عند أول المرتقى، وجعل ينظر فى هدوء إلى كل من غادة وحنين الراقدتين متجاورتين وقد احتضنت كل منهما الأخرى فوق إحدى مراتب الأب وسيم المطروحة فوق الرمال، وطفق يحدق إلى الأب وسيم وعابد وبهاء النائمين متجاورين فوق مرتبتين متجاورتين أمام باب الكهف..وراح يستمع فى شبه غيبوبة إلى شدو باسنت الذى لم يشأ أن ينام وصديقه جمال فى مناوبته.هذا ولم يبخل القمر المشرق من خلف الجبال ..لقد أرسل مزيدا من أشعته الفضية ليطالع الصغيران منكر ونكير على ضوئها قصته الفرعونية حتى الصباح ...

* * *

«الرصاصة الطائشة» ...

لقد استطعت قارئى الكريم أن تقف حتى الآن على مجرد تفسيرات تخص العم وحده ...

والآن ولكى تعلم ما إ ذا كان العم محقًا فيما ذهب إليه: أم أنه قد جانبه الصواب.. لكى تتبين ذلك فإنه من المحتم أن ننتقل معًا إلى منطقة القناة : حيث أغرب استعراض على مر الدهور، وحيث توجد قريتا المهجرين المعدتان لاحتواء البشر بعد فرزهم ، وحيث توجد المخيمات لاستقبال كل سكان الكرة الأرضية الباقين على قيد الحياة من بعد أهوال الزلازل والبراكين والحروب والأوبئة وشتى أنواع التناحر البشرى ، بالإضافة إلى الموت الطبيعى الذى يتتابهم حسب المنحنى الطبيعى للأعمار ...

لقد راعت الأمم المتحدة إجراء حكيمًا حقًا : ولا يمكن لنا أن نصفه إلا بذلك مع مزيد من التقدير ومزيد من الاعتراف بعبقرية المهيمنين من العلماء

أجل... فإن ... الأمم المتحدة لم تعمد إلى الفرز المباشر ما بين بشر سيهاجرون...إلى الزهرة وبشر سيهاجرون إلى المريخ .. كلا ... بل لقد عمدت إلى فرز البشر أولا : إلى مهجرين وغير مهجرين ، وذلك كان أوفق حل ارتأته لتلافى أى صراع يحتمل أن يدب بين القريتين ، خاصة وأنه كان هناك ترتيب خاص يقضى بترحيل بعض من البيض والصفر إلى الزهرة ، وكان من بين هؤلاء على وجه المثال لا الحصر : المذيع الياباني المارق عن الأصول المرعية والذى اعتبرته الأمم المتحدة كذلك ...

وأيضًا فلقد كان من المبيت تهجير بعض السود إلى المريخ .. لقد وجدت الهيئة العالمية أن هذا الإجراء غير مناف بالمرة لمقتضى الحال، كما أنه لا يمكنني أن أقطع بالرأى الشخصى الذى يخصنى وحدى كمؤرخ لتلك الأحداث، لا يمكنني أن أقطع بأن تلك الترحيلات الشاذة لم تكن إلا بسبب الانتقام أو القصاص من أولئك المغضوب عليهم ... كلا لا يمكننى أن أقطع بذلك على وجه التأكيد، وإننى أستدل على ضعف نظريتى - قارئى الكريم - بأن هناك عدد غير قليل من العلماء والرياضيين الأكابر ونجوم السينما من البيض: قد أدرجوا فى قائمة كوكب الزهرة مرتفع الحرارة ، وآخرون من أمثالهم السود: قد أدرجوا فى قائمة كوكب المريخ البارد ...

وإذ انتهت الأمم المتحدة من مهمة الفرز العجيبة : فإنها عمدت إلى فتح باب القريتين على مصراعيهما حيث قواعد الصواريخ التى ستنقل كل البشر إلى سفن الفضاء الشراعية والتى تشرف عليها محطات الفضاء الثابتة من أمثال محطة " الغنامة " ومحطة "القارة المفقودة" ومحطة "ماركونى" وغيرها من مشاهير المحطات الفضائية التى تباشر خدماتها الدائمة والتى كان من المبيت لها أن تهجر تمامًا بعد أن يتم التهجير ....

وعند باب كل من القريتين: تم صرف حلة زرقاء على صدرها شعار الأمم المتحدة وشعار كوكب المريخ دائرة حمراء حولها دائرتان صغيرتان يمثلان القمرين "فوبوس وديموس" أو شعار كوكب الزهرة دائرة فضية لامعة، وعلى ذلك النحو تم صرف حلة لكل ذكر وأنثى سواء من الشيوخ أو الرجال أو النساء أو الأطفال ...

أمضى كل البشر المزمع تهجيرهم فى كل من القريتين أسبوعًا كاملاً على نفقة الأمم المتحدة التى أمدتهم بكل أنواع الأغذية والمرفهات دون أن تبخل بشىء .. كيف لا : وهى تعلم أنه من المتوجب غمر البشر بكل ما يشتهون قبيل هلاك الأرض المحقق ...أجل.. فلم يكن هناك مدعاة للبخل أو التقشف أو مراعاة للاقتصاد فى الاستهلاك على أى نحو ...ولقد كان أروع أمر يمكن أن يذكر أو يشار إليه خلال ذلك الأسبوع : أنه كان من المسموح به تزاور أهل القريتين ، فيرتاد السود قرية المريخ ليشاهدوا معالمها والصور الفوتوغرافية الكبيرة الملونة

المعلقة على الجدران فى الردهات والغرف والممرات : تلك التى تعطى مزيدًا من المعلومات عن الكوكب المرتاد: علمًا بأن تلك الصور كانت ضمن المنجزات الرائعة التى أتت بها الأقمار الصناعية.. وأيضًا تسنى للبيض والصفر : ارتياد قرية الزهرة للتجوال بها ومشاهدة المجسمات الرائعة المعروضة فى أفنيتها، والتى تعرض كواكب المجموعة الشمسية وأبعادها فى الفضاء وقد أشرقت عليها شمس ترسل بمزيد من الأشعة، ولقد انبهر الناس: لمشاهدة الكويكبات المتجاذبة إلى بعضها والتى يربو عددها على ١٦٠٠كويكب ؛ تلك التى كانت تمثل كوكبًا واحدًا انفجر بسبب اضطراباته الداخلية...

انمضى الأسبوع فى خير وسلام ومحبة وإخلاص وود وإخاء؛ مما طمأن الأمم المتحدة تماما، بل لقد علق ذلك معلقوها فى نشراتهم الإخبارية اليومية بقولهم :

ـ لم يسبق أن شاهدنا البشر على ذلك الجانب الروحى الملهم ...

انمضى الأسبوع : وخرج الناس فى إجازة طويلة أخيرة قوامها خمسون يومًا يمكثهم فيها أن يودعوا الأرض وما عليها ومن عليها من بشر يمثل ثلث التعداد الباقى، أولئك الذين كان من بينهم : الأصحاء غير الراغبين فى مجابهة أهوال الفضاء ، والمرضى الذين يخشى عليهم من السفر، والشيوخ المتزمتون والرجميون الذين ينظرون إلى عملية التهجير الكبرى كنوع من الإبادة البشرية الجماعية ... حقًا ... لقد كان الثلث المتبقى من البشر نسوة ورجالاً يمثل أعجب ثلث يمكن أن يشعل إلى آلاف من الحالات الخاصة المبكية والمضحكة ... ولكن يجب أن نبين هنا أن ذلك الثلث كان موجودًا بالفعل على الأرض المحيطة بالقريتين العجيبتين بسيناء. باستثناء العم جمال وصحبه وأمثالهم إن كان لهم أمثال. ... أجل ... بيد أنها كانت هى الطامة الكبرى !!!

فبمجرد خروج أهل المريخ والزهرة للاستيلاء على تلك الإجازة المسموح بها: بمجرد خروجهم من القريتين أضرمت نيران النكبة البشعة الشنعاء ...

ففى خلال الأسبوع الذى أقامه البشر المهجرون بالقريتين : تم فى الخفاء نسج التكتلات الرهيبة المتطرفة المبادئ أطلقت على نفسها عموما " الدهماء" ولعل ذلك كان اعترافًا منهم بانحطاط مراميهم وأهدافهم ...

واستطاع قادة "هؤلاء الدهماء" الذين هم أشبه بتلك الذئاب التى داهمت العم وصحبه. استطاع قادتهم أن يهمسوا فى آذان تابعيهم بشعارات ومبادئ شتى تمت كتابتها فى منشورات:



- كيف نطرد ويبقى آخرون؟؟.. لسنا سذجًا ..
- سندمرهم قبل أن تدمرهم الأرض بإنفجارها ... لو حدث..
- ماذا لو عدنا من المريخ والزهرة بعد أعوام طوال محفوفة بالمخاطر: ووجدنا الأرض مترعة بالرجال؟؟ يومها سيقتلونا حتى لا نكون عبئًا عليهم...
- لا بأس من ترك النساء...
- اقتلوا الذكور رجالاً وشيوخًا وأطفالاً حتى لا يبذر بذور من سيحاربونا فيما بعد العودة إذا كتب لها أن تحدث...
- إما أن يهاجر الجميع، وإما أن يبقى الجميع ...
- لن يضحك الصعاليك على شواربنا...
- بعد أعوام سيعتبرنا أهل الأرض المتكاثرون : أعداء لهم هابطين من السماء..
- إذا هبطنا عائدين لأسباب لا نعلمها فى الوقت الراهن، ووجدنا نساء فحسب: فإن ذلك سيكون من يمن الطالع ..
- أبيدوا الذكور، وبعد سنوات ستنقرض النساء بطبيعة الحال...
- مهلاً مهلاً أيها الثلث الباقى.... سنداهمكم حتى لا تتكاثروا فتعوضوا المفقودين.
- أمن الإنسانية أن نرتاد الفضاء المترامى وتجلسون أنتم ونسوتكم وأولادكم وقد خلت لكم الأرض؟؟.. قد لا تنفجر الأرض... فتكون نحن الذين انفجرنا وذهبنا فى خبر كان ...
- هياج الدهماء لإبادة رجال الثلث المتبقى أفضل من هياج البراكين لإبادتهم... ستبيدهم بالرصاص، وهو أفضل من اللافا البركانية ...
- هل من الرحمة ترك أناس لتبيدهم البراكين العاتية.؟؟

ما كاد ينمضى الأسبوع وتبدأ الإجازة: حتى اندلع هياج الدهماء ... أجل .. لقد انقضوا انقضاض الصقر على فريسته؛ فراحوا يطلقون الرصاص على كل رجل لا يرتدى حلة الفضاء الزرقاء، أعملوا الخناجر والمدى والسيوف .. استخدموا كل ما وقع تحت طائلتهم من أسلحة.. داهموا كل رجل وامرأة وأطفالهما فى خيمتهم ...

راحوا يحصدون الأرواح فى جبروت وقسوة ....

كان الرجل من الدهماء ينقض على الرجل من غير المهجرين ، حتى إذا ما تركه جثة هامدة تشحطت فى دمائها: كان يضحك ويبتسم ملء شدقيه لزوجته التى كانت ترقد إلى جواره بالخيمة، ومن فور قهقهاته الشيطانية يهتف :

ـ هه... أروى ظمأك أيتها الزوجة الهلوك!! إذاً حقت عليك لعنة الدهماء ... إليك هذا الخنجر... إنه هدية رائعة لجنينك الجميل المتوقع... ويتركها الرجل الملثم ويمضى بعد أن يكون قد أغمد خنجرا فى بطنها ...

لم يكتف الدهماء بمجازرهم حول القريتين، بل جندوا بعض الطائرات لتحلق فوق كل مكان يشتبه أن يكون به رجل على قيد الحياة ....

وفى أصيل ذات يوم من الأيام الخمسين : كان العم مستلقيًا فوق مجموعة تماثيل النسوة العاريات الراجيات المتزلقات، وقد التمع صدره المدهون بزيت الزيتون السيوى، لقد عمد إلى تلك الراحة وذلك الاسترخاء: بعد أن كدح هو وجماعته طيلة ذلك اليوم فحفروا حفرة عميقة ذات مزلقان آوت إليها الأوزة البيضاء، ثم مدوا ثلاثة أغطية صوفية فوق الحفرة، ودعمت حوافها بالأحجار ثم نثروا أخيرًا على تلك الأغطية قبضات من الرمال للتمويه ...

كان يجلس على مقربة من باب الكهف أعلى الدرج الرملى فى تلك الأثناء: كل من عابد ووسيم وبهاء، وعلى بعد منهم : جلست غادة وحنين وبجوار كل منهما بندقية، وكانتا منهمكتين فى حديث طويل يدور حول كيفية تقصير طول ثوب الزفاف الأبيض دون أن يتلف، علمًا بأن الفتاتين كانتا على جهل تام بأبسط أصول الحياكة والتفصيل، وبذلك يكون الثوب الرائع الثمين قد وقع فريسة لمداهمتين ساذجتين ...

هذا ... بينما بدا كل من منكر ونكير عند بوابة الكهف الأثرى وقد راحا يداعبان ويتخللان فقرات القفص الصدرى الذى كان يخص الصعلوك ، ولقد كان ذلك القفص من القوة بحيث صمد لهزرهما ..

وفجأة : سمع العم أزيزًا من بعيد، فاعتدل جالسًا فوق نهود النسوة وأفخاذهن المكتظة وجعل يرقب طائرة هليوكبتر تقبل من بعيد، ومن الفور همس لجماعته وهو يسرع إلى الداخل :

ـ الآن ... إننى أتوقع شرًا ... لا خير اليوم بعد ما سمعناه فى الإذاعة .لعل الدهماء جاءوا لإبادتنا .إنهم يبثون عيونهم فى كل مكان..حمدًا لله أنك معنا يا وسيم ..هلموا جميعا إلى داخل الكهف ... حمدًا لله أننا قد محونا آثار أقدامنا من فوق رمال الدرج ....

تدافع الجميع بداخل حجرات الكهف الأثرى المظلم : متجنبين المدفع المنتصب فوق سبيته فى ظلام المدخل : وهمس العم وهو على عتبة الباب :

ـ والآن... لن يدافع عنا فى تلك اللحظات الحرجة : غير الصغيرين منكر ونكير: فى أيديهما نجاتنا من هلاك قد يكون محققًا.. سوف ينقذانا بألاعيبهما الصبيانية... لقد آن وقت خدماتكما أيها الصغيرات منكر ونكير.. لقد.. أنقذنى أبواكما فى يوم العاصفة الرملية الماحقة ، واليوم ستنقذانا من الدهماء حقيقة أننى أملك مدفعًا رائعًا بعيد المدى يمكننى أن أدمر به الطائرة، ولكن سيكون ذلك حمقًا لا يغتفر، إذ أن اتصالا لاسلكيا منهم بحلفائهم كفيل بدك جبل الدكرور فى دقائق معدودات ...

وما إن أتم همسه: حتى كان يقذف بالقفص الصدرى الضخم فوق الدر ج الرملى ليتدحرج عليه، ومن ثم نظر إليه الصغيران منكر ونكير الصغيران اللذان كانا يقبعان بداخله، وبمزيد من القفط والنط والشقلبة والقفز عاليًا والانزلاق :اندفع الصغيران نحو الدرج، وما أن دنيا من القفص الصدرى الذى انغرست فقراته فى الرمال ليتوقف عن الدحرجة عند الثلث الأول من المرتقى: وما أن دنيا منه: حتى طفقا يتخللانه ويمتطيانه تارة ويقبعان بداخله تارة، ثم يتجاذبانه تاره أخرى ....

وأقبلت الطائرة الهليوكبتر الضخمة المريبة ، واقتربت من الجبل : وجعلت تحوم حوله فى شكل دائرة متسعة، ومن الفور، دار حوار بين قائد الطائرة وتابعه :

ـ إنهما جروان صغيران ..

ـ حقًا.. جر و ذئب وجر وثعلب.

ـ إنهما يلهوان بقفص صدرى غاية فى الضخامة .. لابد أنه كان يخص بقرة أو جملا أو حمارا على أقل تقدير ،

لا بد أن الذئاب والثعالب هنا شرسة للغاية ....

ـ أجل ... بالطبع... و ها هى الجراء تلهو بمخلفات الوليمة ...

ـ ولكن كيف لأولياء أمريهما أن يتركاهما يلعبان معا وهما من جنسين مختلفين !!

ـ هه .. إن هذا أمر يخص ـ وعلى حد تعبيرك ـ أولياء الأمور وحدهم ...

ـ استدر إلى الخلف يا ديفيد... لقد انتهت مهمتنا فى تلك المنطقة بأثرها.. لا رجال على الإطلاق ..لن يبقى على وجه الأرض غير النساء ...

ـ لا بأس .. ولكن ورغم ذلك ... فلسوف أدور دورتين كاملتين حول الجبل قبل أن احلق عائدًا ...

وما كادت الطائرة تستدير لتقوم بدورتها الأولى : حتى حدث أمر مروع ... لقد لمح العم جمال جماعة ضخمة من الذئاب تحوم حول الدرج الرملى الذى يقود إلى الكهف، وقد كانت قابعة خلف التلال والقرود المحيطة .. وعلى الأثر هتف العم فى حنق :

ـ سحقًا لك أيتها الذئاب المداهمة الشرسة.. ألم يكن فى وسعك أن تصبرى قليلاً حتى تغادرنا تلك الطائرة الرهيبة !! سحقًا لتلك الوحوش المتعطشة للدماء !!

ثُم أردف وقد زاغ بصره :

ـ أسرعوا جميعًا إلى السلاح ... يا عابد: أنت مدخر ..إياك أن تتكاسل ... إنه ليس اعتداء. لو خذلتنا فى هذه المرة : فإننى سوف أطيح بك لتأكلك الذئاب !!! لابد أن تساعدنا يا غادة... لقد تدربتما بما فيه الكفاية على حمل السلاح ...عمروا البنادق .. يا بهاء... ياوسيم... يا باسنت... انبطحوا متجاورين لإطلاق النار من الكهف .. سآمركم فى اللحظة المناسبة.. أما أنا فلا بد لىَّ من إطلاق النار على الطائرة أولاً: لأنها ستكشف من الفور عن وجود بشر هنا بمجرد إطلاقكم النار.. سأتولى المدفع الرشاش السريع الطلقات.. والآن .. استعدوا جميعًا وانتبهوا...

دارت الطائرة دورتها حول الجبل، وما كادت تعود إلى البقعة التى بدأت منها أمام الكهف : حتى انطلقت دفعات سريعة من الرصاص مصوبة إلى المروحة الرئيسية والمروحة المضادة للازدواج.وفى نفس الوقت صرخ العم :

ـ أطلقوا النار على الذئاب ...

وانطلقت رصاصات ورصاصات فى الوقت الذى لاذ فيه الصغيران بجحرهما الصناعى ...

تهاوت الطائرة المداهمة من عليائها وقد طارت مروحتاها ، فى الوقت الذى كانت فيه الذئاب تثابر على شن غارتها المفاجئة التى أتت فى وقت عصيب.

وهنا كان قد نجح ذئب كبير فى الاقتحام، بعد أن صعد الدرج ، ونجحت حنين فى الضغط على الزناد لتمرق من بندقيتها عدة رصاصات وهى مغمضة العينين وقد رقدت على بطنها فى ثوب الزفاف الأبيض الطويل، ولما لم تنل الرصاصات من الذئب الضخم : فإنه قد اندفع منقضاً على الكهف، وهنا انسحب العم من أمام المدفع وانحنى فى سرعة البرق على عظمة

لوح البغل المجاور، وانقض به على الذئب مسدداً ضربته ليصيب الرأس، ولكن الذئب تحاشى الضربة فى اللحظة المناسبة، فجاءت فى كتفه، فهوى بشده، ولكنه واصل اندفاعه إلى الداخل، بيد أنه فوجئ بسهم يستقر فى صدره، فترنح عند قاعدة المدفع وقد انبجست دماؤه عند قدمى العم ...

وانقض العم على مدفعه هاتفاً وهو يحدق إلى الطائرة التى استقرت عند سفح الجبل محطمة :

ـ ما الذى ألجأك إلى السهم والقوس يا بهاء ؟؟.. لماذا لم تطلق بندقيتك على الذئب؟؟..

فرد بهاء فى الوقت الذى شرع فيه العم فى إطلاق رصاص مدفعه على الذئاب الصاعدة فوق الدرج :

ـ إن صديقنا عابد متقاعس تماماً عن عملية التذخير .... لقد نفدت طلقاتى فى تلك اللحظات أيها العم ....

وما إن قضى العم جمال على خمسة ذئاب كانت تصعد: حتى ترك المدفع واتجه نحو عابد القابع بجوار أحد صناديق الذخيرة ، وانقض عليه يجرجره من يديه وجسده ، وخرج به وعندما صار عند قمة المرتقى الرملى : دفعه بشدة عاتية وهو يهتف فى حنق :

ـ إذاً وطالما أنك تعتبر دفاعنا عن أنفسنا اعتداء : فإنه لا مناص من أن تذهب إلى الذئاب كيما تتخذ منك وليمة ... هيا ...

وتدحرج عابد من عنف الدفعة، واستقر أخيراً كتلة منبوذة عند سفح الجبل ...

وفى تلك اللحظات تقدم منه فى حذر أربعة ذئاب ولكنها ما كادت تتقدم بضع خطوات حتى واتاها العم بأربع طلقات صرعتها لتوها فى الوقت الذى جعل فيه يقهقه :

ـ ها ها ... هأنت يا عابد وجهًا لوجه أمام الذئاب بمفردك .... ها ها .... ستنهشك الذئاب يا عابد، وأما بقاياك فلسوف توغل فيها الضباع ...

وهنا هتف عابد من أسفل التل وقد غاصت قدماه فى الرمال وتخبلت ذراعاه فى سترة الحلة الفضفاضة الجديدة :

ـ ولكن ... ولكن ... شكراً لك يا صديقى ... لقد أطلقت الرصاص على أربعة منها ....

فقال العم وهو يحكم قبضته على المدفع المنتصب وقد التصقت لحيته بالشريط المدلى على الأرض :

ـ إننى أقولها صريحة لك يا عابد ... من المتوجب الا تشكرنى ،لأننى سوف أتركك لذئب آخر ... ها ها .. سينهشك يا عابد ... سينشب أنيابه فى عنقك وترقوتك يا عابد ... ها ها ... ستجيس دماؤك يا عابد بين شدقيه المتوحشين..

وهنا انتفض عابد فى وقفته وقد هاشت لحيته وتناثر شعر رأسه فى كل اتجاه وهتف :

ـ النجدة... النجدة يا صديقى .. أتتركنى وحيداً فريداً أمام ذلك الذئب !!.. أتقبع فى كهفك بعيداً عنى وتتركنى طعاماً للذئاب ؟؟.. النجدة ثم النجدة يازميلى ... إن ... إن ... إن الذئب أوشك أن ينقض... يا لله .. لم أرى مشهدًا مثل ذلك من قبل .. يا لله : لقد احمرت عينا الذئب ... يا لله ... لقد وقف شعر رأسه ... النجدة ثم النجدة ...

وهنا قهقه العم عاليًا وهتف وقد أطبق على قوسه بشدة وجبروت مسددًا سهماً محكم التصويب من خلال ظلام الكهف :

ـ ها ها .. أنت وهذا الذئب وجهاً لوجه ... من الذى جعلك تأتى إلى هذا المكان ؟؟.. لقد نصحتك من قبل ولم تنتصح .... اسمع : هل تفضل أن يأكلك هذا الذئب ، أم تراك تواقًا إلى ذئب أخر ؟؟ .. أنت ورغبتك ... الذئاب هنا كثيرة . وأنا لها بالمرصاد بمدفعى وبنادقى وسهامى .. ما رأيك فى هذا الذئب الأسمر الجميل الذى أمامك ؟؟.. إنه ذئب رائع يا عابد ... عليك أن تختار الذئب الذى سوف يأكلك ...

وفجأة وثب الذئب وثبة عالية يريد عنق عابد الذى وقف مصلوبًا بيد أنه وفى نفس اللحظة : استقر سهم فى حلقوم ذلك الذئب فترنح جثة تتلوى وتتواثب تحت قدمى عابد المرتعد الفرائص ولكنه سمع العم يهتف :

ـ هه ... لم يرق لىَّ أن يأكلك هذا الذئب يا صديقى عابد ... إنه ذئب غير داهية... لا بأس ... البقية تأتى يا عابد ... البقية تأتى يا عابد...

وهنا همست حنين وقد غرقت البندقية بين يديها بالدموع :

ـ دعه يصعد إلينا أيها العم البطل ... دعه يصعد إلينا فهو رجل طيب...

وهنا اتجه العم فى حنق إلى حنين تاركاً مدفعه ، وحملها قسرًا عنها فى غلظة والأب وسيم يصرخ من خلال الظلام بجوار بهاء.وفجأة دفع العم الفتاه فوق الدرج لتنزلق فوقه ببندقيتها ، وهتف وهو يتجه من جديد إلى المدفع :

ـ من المتوجب أن تدافعى عنه عند السفح طالما أنك تتعاطفين معه ...

وصرخ الأب وسيم مورث الصفات الحميدة :

ـ كيف لك أن تفعلها مع حنين ؟؟ ... أيمكن لها تتحمل ذلك أيها ...أيها...

وهنا قال العم فى شراسه :

ـ ليس لك أن تتمرد ... وإلا ...

ـ وإلا مـاذا ياسـيـد جـمـال؟.. لم أكن أتوقع أنك على هذه الدرجـة من الفلظة والقـسـوة والشراسة ابنتى... أواه ابنتى حنين ... حبيبتى ... لقد أورثتها عينين خضـراوين وشعراً أسود حريريًا وبشرة بيضاء وأسناناً دقيقة وقدمين رشيقتين ...

كانت حنين فى هذا الوقت قد استطاعت أن تقف على قدميها اللتين قد غاصتا تماماً فى الرمـال ، وفى تلك اللحظات لمحت ذئباً يتقـدم منهـا ومن عـابد ، وهنا هـتـفت وهى تسـدد بندقيتها بطريقة ساذجة :

ـ إياك أن تقـتـرب .... النجـدة أيهـا العـم جـمـال ... النجـدة.... سـأضـربك بالرصـاص لو اقـتـربت أيها الوحش ... النجده ثم النجده أيها العم ... سـأقـتلك من الفور لو حـاولت التهامى أو التهام الصديق عابد ... الذئب قد اقترب بشدة أيها العم العظيم ...

وهنا قهقه العم عالياً وهو يحكم بصره على نشنكا إحدى البنادق:

ـ هـه ... أليـست بين يديك بندقـيـة مـحشـوة بالرصـاص ؟؟ .. لماذا تسـتنجـدين إذاً؟؟ .. اضربى «فى المليان» أيتها العروس التى تلبس ثوب الزفاف وتدهن شـفتيها بأحمر الشفاه المتوهج . هيا أرينا أظافرك المطلية باللون الأحمر وهى تضغط على التتك... هيا...

وأغمضت العروس ذات الرداء الأبيض الطويل المتجرجر ... أغمضت عينيها وهى تضغط على الزناد لتنبثق رصـاصـاتهـا العشـر مسـتقـرة فى بطن وصـدر الذئب دونما تصـويب وعندمـا فتحت حنين عينيها ووجـدت الذئب وقد رقد على الأرض جـثة هـامـدة : وهتفت فى فـرحـة ينتابها الجزع والخوف والقنوط وقد استدارت فى اتجاه العم :

ـ ابشـر أيها العم البطل ... لقـد انتصرت على الذئب الذى كاد يلتهم صديقنا عـابد. أبشر أيها العم البطل ..

ـ وهنا هتف العم من خلال ظلام الكهف :

ـ حسنًا... رائعة أيتها العروس.. بطلة .. إنه انتصـار جديد عظيم دفعت بك إليه ... والأن ... انظرى خلفك .. هاهما ذئبان آخران لا مثيل لبشاعتهما ... إنهمـا جائعان ولولا ذلك الجوع لما جازفا بتلك المغامرة ....

وهنا اسـتدارت حنين لتجد الوحشين يقـبـلان عليهـا وعلى عـابد فى ثبـات وحذر وتربص فجعلت تصرخ وتولول بعد أنَ ضغطت على الزناد أكثر من مرة.

ـ البندقية فارغة .. فارغة أيها العم ..

ولم يتمالك الأب أكثر من ذلك ، فقد أسرع يخرج من الكهف ، وجعل يعدو فى اتجاه السفح ببندقيته صارخاً فى حنق وهو دامع العينين :

ـ فلتأكلنى الذئاب مع ابنتى ... لتأكلنى الذئاب إذاً...

وما كاد يفعل ذلك حتى تبعه بهاء وغادة ، ولم يبق إلا باستت ... وهنا لم يسع العم إلا أن يزأر :

ـ جيش من الخونة ... لقد تمرد جيشى الصعلوك ... جيش من الخونة الصعاليك.... أتتمردون على قائدكم الهمجى أيها الخونة.!! لن تجدوا لكم قائداً غيرى أيها الصعاليك الخونة ...أتجترئون !! أتتمرد يا بهاء على عمك!! لو كنت أباك لما تمردت علىَّ ... ولكنك تعلم جيداً أننى لست إلا عمًا فحسب... معك ولك حق يا بهاء فى ذلك التمرد والعصيان.

كان بهاء والأب وسيم فى تلك الأثناء قد صرعا الذئبين رميًا بالرصاص ... وعلى الأثر هتف العم من أعلى وقد انتقل بمدفعه فوق قمة المرتقى الرملى ، وجعل يراقب مسرح الأحداث بمنظاره :

ـ لا بأس .. لا بأس... لقد انقضى الخطب ومر بسلام ... لقدانتصرنا اليوم على ما يزيد من الدهماء الآدميين والذئاب .. لا بأس يا جيشى الحبيب ... أوه ... لابد أننى متوحش حقا ....

وانحنى العم على جثة الذئب المجاورة عند عتيبة الباب الأثرى الفرعونى وجعل يمتص الدماء من رقبته حتى تسربل شدقاه وأسنانه ، ثم رسم دوائر دموية فوق صدره وخطوطاً فوق وجهه وذراعيه وجبهته، ثم طفق يزأر زئيراً جعل العيون تجحظ أسفل الجبل ، ودلف إلى داخل الكهف ثم خرج وقد تنكب قوسه وجعبة سهامه التى ملأها بالسهام من حجرته الخاصه ، وجعل يهبط الدرج ، واقترب من جيشه المتمرد، وراح يحدق إليهم جميعاً بنظرات غير مفهومة الطابع أو المعنى، ثم غادرهم متجهاً حيث ترقد الطائرة على بعد ، وعندما دنا منها انحنى ليلج مقصورة القيادة بعد أن تفحص بقية الأجزاء التى أصابتها رصاصاته من كل اتجاه ، وأخرج ثلاث جثث وضعها متجاورة ثم راح يكوم فوقها مزيداً من الرمال بجوار الطائرة ، وولج الطائرة من جديد ، وغاب لحظات طويلة مختفياً عن عيون جيشه الذى كان يرقبه عن كثب ، ولكنه عاد فظهر لهم من جديد وقد انتفشت لحيته واعتلت وجهه ابتسامة ... أجل .... فلقد كان يحتوى بين ذراعيه ما لا يقل عن عشرين زجاجة من زجاجات الخمر المعتق ...

أقبل العم نحو الجبل بغنيمته الميمونه ، ولم يحفل بجماعته الواقفة عند السفح، وطفق يرتقى الدرج الرملى متجهاً إلى الكهف ، وما إن صار أمام جحر متكر الصناعى المواجه لجحر نكير حتى جلس أمامه ، وألقى بقوسه وجبعته فوق الرمال، وطوق رقبته بالطوق الحديدى بعد أن فتحه على أوسع مداه ، وجذب جانباً السلسلة التى انغمد طرفها فى الأرض الصخرية ، ثم جلس متكئاً بظهره على الجحر الطفلى ، بعد أن وضع الزجاجات الرائعة إلى جواره ، وجعل يستعرضها واحدة واحدة ، موجهاً حديثه إلى جيشه الواقف يرقبه عند السفح :

- هاها ... رائعة ... بسامة ... انظروا ... إنها زجاجة براندى من ماركة "برج إيفيل" ، وها هى زجاجة ويسكى من ماركة "العقاب الذهبى" ... وها هى زجاجة جن ... إنها وارد أمريكا...

وبعد أن استعرضها جميعاً ، استأنف يقول ممددًا ساقيه :

- حسناً ... والآن يالها من ذخيرة إذاً ... إنها أشد فتكاً من رصاص المدافع... إنها أشد من حمأة المعارك التى خضناها ... أيها أنتخب إذاً لأشرب نخب انتصارنا على الدهماء المهاجمين ؟؟.. حسناً .. إنها الزجاجة الأولى ... هاها ... "برج إيفيل"... ساصعد الآن برج إيفيل العتيد ، ومن هناك سوف أرتقى السماء ... ها ها ....

وفتح العم الزجاجة ورفعها نحو شفتيه ، فأحدثت السلسلة الفولانية صليلاً من خلف عنقه وما زال يجرع الجرعة تلو الجرعة حتى كان فى سكر شديد فطفق يتحدث :

- هاها ... ذئاب وذئاب وضباع ... يا لها من ملحمة ... صافى الملك ... فليحيا الملك صافى ... أنهكى قواه أيتها الكلبة الملعونة ... عليك أن تذهب يا بهاء كل يوم بالغذاء والماء إلى زوجة صافى .... كلا .... افعلى ذلك بدلاً منه يا غاده ... أغرقوها بالخبز... سأصيد لها كل يوم يربوعاً .... حقيقية أننى قد ربطتك أيتها الحسناء له ، ولكن بوسعك أنت الأخرى أن تربطيه ... تصوروا... لقد كان أبى يربطنى من ساقى بالحديقة بحبل طويلٍ يربطه بصنبور المياه ، وكان علىَّ وقتذاك أن أروى نباتات الحديقة الصغيرة... هاها.. تصوروا ؟؟ .. وكان لىَّ صديق يدعى سمير ، وكان سمير هذا يأتى ويطرق باب الحديقة ويحملق من الخارج فيجدنى مربوطاً .. تصوروا !! لقد كان يحزن من أجلى دائماً ولكن .... هاها ... لقد كان يجلس هو من خارج الباب، وأجلس أنا من الداخل، وقد التصق ظهرانا دون أن ندرى... هاها.... كان يحب قصصى الصغيرة التى أؤلفها وأنا ما زلت فى السنة الأولى التحضيرية التالية للإجبارية، لقد كان يكافئنى عليها بحفنة من البلح الأخضر الزغلول "الرامخ" ....هاها .... لكنه كان يثب هارباً

عندما يلمح أبى مقبلاً من بعيد بعد أن يكون قد أنذرنى بذلك .. إننى الآن اتطلع من فوق برج ايفيل ... إننى أشاهد سفن الفضاء الشراعية تسيرها أشعة الشمس .... هاها ... النجدة ثم النجدة ... أشاهد أحدهم يلوح لىَّ بقبعته وقد أطل من أحد النوافذ ... مع السلامة..رحلة موفقة ... ولكن من تراك أيها السيد الصاعد إلى السماء؟؟... هه ... أوه ... إنه محفوظ محفوظ محفوظ مدير القلعة ... إذهب إذاً ... عليك اللعنة ... وعدك الله بشهاب مارق ... أين آمون أيها المغتصب ؟؟.. أوه ... لقد حلقت السفينة بعيداً ... أشعر أننى ضعيف .... ضعيف .... أريد أن أنام... عظامى تؤلمنى .. عضلاتى متيبسة .. حلقومى جاف .. أريد أن أنام ... أوه... فلتحرسنى يا عابد ... فلتحمنى يا صديقى ويا زميلى الحبيب من الذئاب كما حميتك من قبل ... ساغفو وعليك المناوبة ... أوه كلا ... يا لىَّ من وغد... أأركن إلى عابد لحمايتى من الذئاب ؟؟... هه .. يا لى من ساذج حقًا!! ... يا لى من مخرف ... كلا ... إننى يقظ ... هأنذا يقظ تماماً ... يقظ تماما.. كيف لعابد أن يحمينى ؟؟.. علىّ أن أحمى نفسى بنفسى ... أنا يقظ ... يققظ تماماً شديد اليقظة .. شديد اليقظة ولن يغمض لىَّ جفن ...

ونام العم شديد اليقظة .... نام وغرق فى سباته وترنحت رأسه المصفدة بالأغلال فوق جدار الجحر الصغير وارتمى بجسده محتضنًا ذخيرته التى عثر عليها بداخل الطائرة التى أصعدته فوق قمة برج إيفيل بفرنسا....

وفوق الرمال الناعمة الذهبية ... طوح بفخذيه وساقيه الفولاذيتين اللتين قد تسلقت فوقهما سيور صندله المتضافرة . فكان منظره يمزق نياط القلب...

الفصـل السابع

لعنـــة آمـــون

" كل رجل منا لا بد أن يختفى تمامًا"

كانت هذه هى توصيات العم الصارمة والتى كان لا مناص من تنفيذها إن كان الجميع يرغبون فى البقاء أحياء أثناء عملية التهجير الكبرى لكوكبى التهجير فى مجموعة شمسية أخرى ....

والأمر كذلك : فلم يكن هناك مفر من استخدام الفتاتين لقضاء الحاجات والتنقل لجلب ما يلزم من متاع وغذاء وماء ....

وفى صباح يوم من الأيام التالية للأحداث التى ذكرنا : كان على غادة وبرفقة حنين أن تذهبا إلى القبور المهجورة عبر النفق الطويل ، وذلك لاستجلاب أحد الكباش ولحلب لبن بعض الأبقار فى إناء فخارى والعودة بعد الاطمئنان على صافى وجيشه الباسل وزوجته الحسناء ...

تسلمت غادة هذه المهمة، وأمسكت بكشاف الأب وسيم وقد بدت حول معصمها ساعة باندا ضخمة، واصطحبت حنين ذات الرداء الأبيض، وطفقت الفتاتان تسيران على هدى ضياء الكشاف، وعبر النفق الأثرى دار حوار هامس ...

همست حنين :

ـ أشاهدتنى وأنا أرمى الذئب بالرصاص يا غادة !!

ـ أجل ...

ـ هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك مثلى !!

ـ أوه... مطلقًا .. مطلقًا ....

وإزاء ذلك الإطراء همست حنين :

ـ كم ساعتك الآن ؟؟

ولما كانت غادة لا تعرف مطلقا تحديد الوقت بالساعة ؛ فإنها عمدت إلى إيهام الفتاة بأنها تعرف ذلك تمامًا؛ ومن ثم نظرت إلى ساعتها الضخمة وصوبت إليها أشعة الكشافـهوقالت :

ـ أواه... الساعة الآن الثانية عشر إلا نصفًا وربعًا ...

ـ أواه إنك محظوظة يا غادة لأنك تتقنين تحديد الوقت بالساعة ..إنها ساعة فريدة جميلة ... لابد أنها كانت تخص الطيار نفسه ...

ـ أجل.. إننى محظوظة.. لقد وجدتها رغم أنك كنت معى داخل حطام الطائرة...

ـ ليت لىَّ واحدة مثلها يا أختاه !!

ـ أواه... أحقًا ترغبين !!

ـ بالطبع يا غادة ...

ـ حسنًا ... سنخالف تعليمات العم قليلاً؛ وسوف نذهب إلى جبل الموتى المصبرين وسوف نعمد إلى لعبة " الكا والبا "... وفى هذه الحالة سوف تكونين " الكا " أى الجسد القرين ؛ ولكن ينبغى لذلك أن ألبس ثوبك الأبيض الخلاب... سوف أهبك ساعتى طيلة المدة التى سوف أرتدى فيها ثوبك البديع... من المتواجب على الروح أن تلبس رداء أبيض عندما تُجِّد فى البحث عن جسدها الخاص بها .... هيه !! مارأيك ؟؟

ـ أوه... إنها متعة أية متعة أن ألعب معك هذه اللعبة اتفقنا ...

ـ حسنًا... سوف نذهب أولا لاستجلاب أحد الكباش كيما ينحره العم جمال لغذائنا، وبعدما نحلب بعض الأبقار سنتجه رأسًا إلى جبل الموتى عن طريق النفق تحت الأرضى ... إننى أعرف الطريق جيدًا..

وسارت الفتاتان وكانت حنين لا تفتأ بين دقيقة وأخرى: تسأل غادة عن الوقت، وكانت هذه الأخيره لا تكسل عن رفع الساعة إلى عينيها مصوبه الكشاف بطريقة تنطوى على شىء غير قليل من المفاخرة والمباهاة بما تمتلك...

طوت أقدام الفتاتين الدهليز الأثرى المعتم الطويل، وعند آخره صعدتا الدرج المؤدى إلى هيكل آمون، ومن عنده اتخذتا طريقهما إلى القبور المهجورة ..

وعلى مقربة منها استقبلهما الملك صافى: بأن أسرع إليهما نحوهما متقافزًا، فأقبلت عليه غادة تحييه وتقبله وتتخلل فراءه بأناملها، ولكنها قالت هامسة وهى تتحسس ضلوعه :

ـ أوه... جنودك الأربعون يرقدون أسفل النخيل دون أن تهر لمرآنا... أراك تبدو ضعيفًا أيها الملك صافى الشجاع !!.. ما هذا الذى أراه !! إننى أرى جوادًا أسود مسرجًا رائعًا يرعى

بين الحمير والجمال والأبقار !! من أين أتى هذا الجواد !! إننى لم أشاهده من قبل ... لا بأس.. ربما كان جوادًا من جياد أعيان البلدة وقد أتى متأخرا إلى هذا المكان وقد استشعر الخطر ... وامراه أيها الملك صافى! إنك ضعيف تمامًا.. ما الذى جرى يا صافى!! أيمكن ذلك يا صافى!! أوه إنك لا تجيب ... يبدو أنك خجل وجل يا صافى من الإجابة عن السؤال.. حسنًا... لا بأس... لا بد من استجوابها هى الأخرى .. من المتوجب أن أنصحها حتى لا يتغلب عليك ملك الذئاب إذا ما عنَّ له أن يأتى هاهنا مرة أخرى مُغيرًا بجيوشه الشرسة ..

ومضت غادة حاجلة على قدميها إلى حيث الكلبة المربوطة ، والكلب من خلفها يتواثب، فألفتها رابضة فى هدوء تلوك بعض العظام وقد فرغ من أمامها ماجور الماء الفخارى المسطح، فملأته من جرة الكوخ، ومن الفور جلست إلى جوار الكلبة تربت فى خفة على رقبتها هامسة :

ـ لماذا تبطشين بالملك صافى كل هذا البطش؟ ماذا لو هاجمنا ملك الذئاب الجديد!! ما قولك فى ذلك أيتها الكلبه الرائعة الحسن والصبا والجمال؟؟.. يجب أن تتعقلى ذلك الأمر جيدًا ...

وهنا وكأنما تعى الكلبة كلام غادة : ازورت بعنقها إلى الخلف أغمضت عينًا وفتحت عينا ثم استأنفت طعامها ...

وهنا خطر لغادة خاطر وصفته فى نفسها بالحكمة؛ فهمست به لحنين الجالسة على مقربة وهى تحدق إلى المواشى والحمير والأغنام والماعز والدواجن الدارجة هنا وهناك تحت حماية الملك صافى وجنده ...

ـ من المتوجب أن أفك وثاق هذه الكلبة يا حنين !!

ـ كلا.. لا تفعلى .. ليس من المتوجب ذلك ياغادة.. إن هذه الكلبة زوجة الملك صافى ...

ـ هه... يالك من ساذجه حقًا... بل يالك من شيطانة!! كيف توافقين أنت الأخرى على ذلك !! هل من اللائق أن تربط الزوجات!! إن هذا يتنافى مع الذوق السليم.. حقيقة أن عقد الزواج الذى أسمع أنهم يعقدونه: من الممكن أعتبره حبلاً، غير أنه هذا حبل يطوق عنق الزوجين معًا.. ولا يطوق عنق الزوجه فحسب... ولكن فى هذه الحالة نجد أن العم قد طوق عنق الكلبة وحدها، فى الوقت الذى ترك فيه الملك صافى يصول ويجول دون ما رباط يقيده إلى تلك الكلبه... أليس ذلك غطرسة وصلفًا لا يطاق؟؟..

ـ مهلاً مهلاً يا غادة... حقيقة إن العم جمال قد ربط الكلبه، ولكن لا تنسى أن الكلب مربوط إلى تلك الأرض ولن يبرحها وبذلك يكون مربوطًا إلى الكلبة ...

وهنا نظرت غادة إلى الفتاة باستغراب واندهاش، إذ إنها لم تكن لتتوهم أن تأتى بمثل هذا الكلام ، ومن ثم قالت وهى تنهض :

- "أفوكاتو"... إنك تجيدين الدفاع وليس فى ذلك ما يدهش: فأنت أخت ...

- حقًا حقًا.. أنا أخت نوال الطالبة بكلية الحقوق جامعة القاهرة .. لسوف تتخرج حتمًا فى جامعة المريخ ، وسوف تدافع عن كل إنسان له حق مسلوب ضائع... لقد خطر لىَّ خاطر يوم أن شاهدنا المذيع اليابانى البطل.. لقد كدت أنصحه بأن يكتب لأختى عن قضيته التى تشاحن من أجلها حتى تدافع عن حقوقه.. لو نجحت أختى نوال فى تلك القضية المهمة لنالت من ذلك المذيع العالمى المزيد من النقود التى هى فى حاجة إليها حتى تقوم بنفقات زواجي؛ لأننى سوف أكبر بالحتم يا غادة إننا لن نمتلك فيلا أختى وسام الكمال لأنها ربما تعود إليها فى يوم ما، وأنا أعتقد يا غادة، ولعلك تعتقدين معى أنها لا يمكن أن تهبنى ولو حجرة واحدة لأتزوج فيها ...

اتجهت غادة رأسًا إلى كوخها الحبيب وقد نبذت فكرة فك وثاق الكلبة، وأتت بمترد فخارى ووضعته فوق رأسها بطريقة خليعة، وأتت بحبل متوسط الطول وذلك بعد أن غسلت يديها بالماء والصابون، وأقبلت على حنين الجالسة إلى جوار الكلبة وابتدرتها :

- هيا إذاً نحلب اللبن ... علينا بانتخاب بقرة حلوب....

وتخللت الفتاتان الماشية مطقستين، وهتفت حنين بعد هنيهة وقد وقفت إلى جوار بقرة يرضعها صغيرها :

- هذه البقرة... إن ضرتها ممتلئة تمامًا ...

واستقر "الوعاء الفخارى" أسفل ضرع البقرة، وجثت غادة محاذرة خلفيتى البقرة وأبعدت الصغير الرضيع وطفقت تحلب بطريقة جد ساذجة، ولقد فتنها أن تشاهد شخب اللبن اثر كل غمزة ضرع مارقة إلى وسط الوعاء، ولما لاحظت حنين سرورها: أرادت أن تجرب ، ولكن غادة منعتها بقولها :

- كلا... إن يديك غير نظيفتين ...

وما زالت غادة تحلب حتى امتلأ ثلث الوعاء، وعند ذلك قالت وهى تنهض :

- لا بأس يجب أن نترك شيئًا من الحليب للصغير فى ضرع أمه... علينا ببقرة أخرى ...

تم لغادة حلب ثلاث بقرات؛ فامتلأ الوعاء وظهر على سطح اللبن مزيد من الرغاوى القشدية الطازجة، فعهدت بالوعاء إلى حنين التى حملته على رأسها بين القبور والماشية فبدا منظرها جد هازل فى ثوب العرس الطويل الفضفاض...

وبعدما انتخبت غادة كبشًا: ربطته بالحبل ، ثم أسرعت تجرى وهو يجرى من خلفها وقد بدا بقرنين ضخمين ملتويين إلى الخلف ، واتجهت الفتاتان نحو هيكل آمون وهبطتا الدرج الذى يقود إلى النفق تحت الأرضى المظلم ، بعد أن حذرت غادة حنين بقولها :

ـ عليك بالنظر أمامك دائمًا ... لو انقلب منك اللبن فإنه سوف يضيع مجهودنا بأكمله، ولا ريب أننى سوف أخبر عمى بذلك، وبالطبع سيغضب من ذلك ... إنه من المتوجب على الرجال أن يختفوا عن الأنظار فى الوقت الحاضر، ولا ضير من أن تظهر النساء والفتيات ... تصورى!

إذاً فإننا نقوم على معاش الرجال ...نكد عليهم .. أتسمعين !!

وبما أن غادة قد اتخذت النفق المؤدى إلى جبل الدكرور: فإنهما لم تلبثا أن صعدتا درجًا صغيرًا صخريًا على هدى ضوء الكشاف، وما عتمتا أن صارتا بداخل دهليز طويل يؤدى إلى عدد من الحجرات والأبهاء الواسعة، فعرجت غادة على إحداها قائلة :

ـ هل تعتقدين فى أشباح الظلام يا حنين ؟؟

فقالت حنين وقد ارتعدت فرائصها بمجرد ذكر كلمة أشباح :

ـ أجل يا غادة... إن هذه الأنفاق لا يمكن لأحد ارتيادها أبدا .. إن الأهالى يعلمون إنها مسكونة بالجن والعفاريت والشياطين والأبالسة وأبو رجل مسلوخة وذى العين الواحدة. كيف تأتين بنا إلى هذا المكان ياغادة؟؟ لم يكن من المتوجب ذلك !! إن جسدى يرتعد...

وهنا نفخت غادة وزفرت قائلة وهى تتجه من فورها إلى بهو طويل متسع :

ـ أجل من المتوجب أن ترتعدى حتمًا يا حنين ...إنك فى جبل الموتى ...

جحظت عينا حنين وارتعشت يداها وهى تقبض على وعاء اللبن الذى تحمله فوق رأسها :

ـ إنك تعمدين إلى إخافتى يا غادة !!!

ـ من المحتم ذلك .. هيا هيا الآن .. اخلعى عنك ثوب العرس الطويل الأبيض الجميل .. أنه يتناسب مع وقدى.. سوف أهبك ساعتى طيلة مدة ارتداء الثوب .. هيا يا حنين يا ابنة مورث الصفات الوراثية الحميدة المغبون يا قاتلة الذئاب ....

وأسقط فى يد الفتاة المرتعدة، ووضعت المترد الممتلىء فوق الأرض الصخرية وطفقت تخلع ثوبها حتى إذا ما انتهت من ذلك بدت فى قمصان أختها الداخلية البيضاء والزرقاء والحمراء ، وخلعت غادة ثوبها الأحمر الجديد، ثم عمدت إلى خلع قميصها وسروالها الساذج المصنوع من

قماش التيل، وهتفت بصوت مرتفع بعد أن لمت نهديها فى قبضتيها متمايلة فى ميوعة وهى تقهقه قهقهة شيطانية :

ـ لا أظنك ستبخلين علىّ بأحد سراويلك الحريرية المغرية، وأحد قمصانك الشفافة ذات الدانتيل .. من المتوجب أن تهبينى هذا السروال الأحمر الذى يبدو فوق الجميع .. إنه فى لون الجحيم ... من السهل أن تخلعيه، ولن يتطلب ذلك: خلع كل السراويل الأخرى ... لو انتخبت لىَّ مثلاً السروال الأبيض لكان من المتوجب أن تخلعيها جميعًا، وفى تلك الحالة سوف يكون هناك ثمة ما يخجل !!

واستجابت حنين لذلك الطلب الذى بدا سخيفا ... وراحت تنتزع سروالها فى وجل وحياء ، وقدمته لغادة التى عمدت إلى شمه قائلة:

ـ لا بأس ... إنك لم تتلفيه بعد ... أتعلمين لماذا ؟؟ ذلك لأنه على مبعدة من جسدك ..

وناولت الكشاف وحبل الكبش لحنين، وطفقت هى ترتدى السروال مطوحة بسروالها القديم بعيدًا ليبتلعه الظلام إلى الأبد، وفى لحظات بدت غادة فى ثوب العرس الأبيض كغادة بحق وحقيق .. لقد كانت فاتنة مكتملة الأنوثة ...

وهنا أمرت الفتاة بأن تسلط على جسدها ضوء الكشاف : فشهقت حنين وقد أحاطت ساعته غادة بمعصمها:

ـ يالك من عروس يا غادة .... يمكنك أن تتزوجى بهاء فى هذه الأيام ...

حملقت غادة إلى الفتاة وقد اندهشت لتلك الفكرة التى تبادرت إلى ذهنها ، وقالت وهى تمر بأصابعها على نهديها :

ـ ولكن العم لم يصرح لنا بذلك حتى الآن يا حنين !!

ـ اتحبين بهاء ؟؟

ـ أواه... أجل ...

ـ أيحبك ؟؟

ـ إننى أشك فى ذلك، ولكننى أعتقد أنه يحبنى رغم تبرمه من بعض تصرفاتى، وربما أيضا ينظر إلىّ كأخت تربت معه تحت ظلال النخيل والزيتون بين مهجور القبور.. ربما ذلك ...

ـ إذًا من المتوجب زواجكما.. ما العقبة إذًا !! يمكنكما أن تتزوجا فى فيلا أختى وسام الكمال حتى تعود هى وزوجها من سفرهما إلى المريخ ... يمكنكما ذلك...

ـ لا بأس الأمر يتوقف على العم وحده ... لا عليك يا حنين .. أنا مسرورة منك ..هيا بنا الآن نلهو .. هيا نلعب لعبه «الكاوالبا» .. أنت الجسد الذى تبحث عنها الروح التى تبحث عن الجسد القرين.. عليك الآن بانتخاب تابوت ..

ـ تابوت ‼

ـ أجل .... إنها كثيرة. بتلك الحجرات الجانبية شديدة الظلمة...

ـ شديدة الظلمة ‼

ـ أجل إنها غرف الموتى ...

ـ الموتى ‼

ـ أجل... إنها غرف تخص جثث قدماء المصريين المحنطه ..

ـ المحنطة ‼..

ـ أجل، ومن حيث إن هذه الجثث المحنطه قد سرقت تماما: فلقد غدت التوابيت فارغه...

ـ فارغة ‼

ـ أجل من الممكن أن تنامى بإحداها ...

ـ بإحداها ‼

ـ أجل كالمومياء تمامًا ...

ـ كالمومياء ‼

ـ أجل من المتوجب أن تبدى نفسك كما لو كنت محنطة ..

ـ محنطة ‼

ـ أجل وقد أشرف على تحنيطك أمهر الكهنة...

ـ أمهر الكهنة ‼

ـ أجل ولقد لبثت فى مكانك هكذا كمومياء طازجه لم يلحقها الفناء آلاف السنين ..

ـ آلاف السنين ‼..

ـ أجل ولقد آن الأوان كيما تحل بك الروح... إن الروح تبحث عن الجسد القرين، وبوصفى سأكون الروح: فإننى سوف أنشر أردان ثوبى الأبيض كما لو كان جناحين..

ـ جناحين‼

ـ أجل جناحين أطير بهما كروح هائمة..

ـ هائمة !!..

ـ أجل هائمة حتى تجد الجسد الذى تدب فيه... هيا ادخلى إحدى تلك الغرف واصعدى إلى أحد التوابيت وانتظرى فى الظلام سأغمض عينى حتى لا أعرف الحجرة التى ولجتيها...

تصنعت غادة أنها قد أغمضت عينيها، وفى خوف تام اتجهت حنين نحو أقرب غرفة ، وما أن تعثرت قدماها بأقرب تابوت : حتى صعدت إليه ورقدت فيه وقد جحظت عيناها فى الظلام ....

وبما أن غادة كانت تعرف الغرفة التى ولجتها حنين : فإنها تعمدت أن تذهب بكشافها وكيشها إلى أقصى غرفة يقود إليها البهو الطويل، ومر الوقت طويلاً على حنين التى كانت فى جزع خانق، وعندما استبد بها الوهم: هتفت تقول فى رعب :

ـ أيتها الروح غادة .. أين تبحثين !! إننى هنا !! هنا فى هذا التابوت ..

ـ وعندما جاء غادة هتاف حنين عبر الحجرات المريعه: ابتسمت فى خبث وهتفت من بعيد وهى تعمد إلى غرفة أبعد:

ـ أواه أيتها الكا ..أنت متعبة للغاية .. لقد اختبأت بداخل تابوت بعيد بغرفة محيرة يكتنفها الظلام المرعب الذى يعج بالأشباح المخيفه الرهيبة والتى من بينها أبو رجل مسلوخة بطبيعة الحال ...

وعندما سمعت حنين بتلك الأشباح وقد جاء صوت غادة فيما يشبه صوت العفاريت الخفية حتى هتفت وهى تكاد تصرخ:

ـ إننى هنا.. ها هنا.. !! أسرعى أيتها الروح !!

وأتاها صوت غادة من بعيد بطريقة تبعث على الكمد واللوعة :

ـ سحقا لك أيتها الكا المراوغة .. قلت لك أننى قدتعبت فى البحث عنك..هل أقص عليك أقصوصة عن الغولات المتوحشات إلى أن أهتدى إليك؟؟

فأجابت حنين وهى تنسحق غيظاً ورعبًا داخل التابوت المتسع.

ـ قلت لك تسرعى أيتها الروح. وليس من المتوجب أن تتغيبى ولا مدعاة مطلقا إلى أقاصيص الغولات المتوحشات فى ذلك الوقت العصيب ..

ـ يحكى أن غولة شرسة متوحشة شمطاء وقد كانت أجمل بنات جنسها .. يحكى فى قديم الزمان ... وغابر الأيام أن هذه الغولة مطلقاً كانت تمر فى يوم ما بالطريق..

ـ أواه أيتها .. «البا»... لا داعى لحكاية الغولة فى هذا الوقت العصيب

النجدة ثم النجدة !! إن قلبى يكاد يتوقف جراء الأشباح التى تجوس أمامى وأنا راقدة فى التابوت... من اللازم أن تعثرى على تابوتى على وجه السرعة إنه ليس بوسعى أن أنهض من مكانى لقد تجمدت تمامًا ولو كان فى وسعى النهوض لنهضت من فورى ...

ـ وفى تلك الأثناء عثرت الغولة على طفلك الحجرى جمال الذى أخبرتينى أنت أنه ضاع منك ..

ـ قلت لك ألف مرة ياغادة أنه ليس من الملائم ذلك... هلمى إلىَّ على وجه السرعة إننى جسد بلا روح ياغادة !!

ـ ماذا أصنع وقد انتبذت مكانا قصيا لا أستطيع الوصول إليه؟؟ الذنب ذنبك أنت !!

وما كادت تتفوه غادة بكلماتها الأخيرة حتى سمعت صوتًا مريبًا يحدثها من خلال الظلام

ـ لماذا تفزعين الكا أيتها البا على ذلك النحو !!

جمدت غادة فى مكانها، ولكن شريطًا من الذكريات تلاحق فى مخيلتها، مما جعلها تهتف:

ـ من !!

ـ آمون ..

ـ العبد؟؟

ـ كلا .. الإله ..

ـ ال..ال.. الإله.. الإله.. الإله آمون يحدثنى !!

ـ أجل أليس من حق العبد الذى يقتل آدميا .. إليس من حقه أن يكون إلها ؟؟

ـ لس ... لس ... لست أفهم !!

وهنا جاء صوت حنين من بعيد :

ـ أقبلى يا غادة .. لقد تجمدت تماماً فى التابوت !!

فأجابت غادة فى صوت مضطرب:

ـ انتظرى ...أنا أتحدث مع أحد الأشباح !!

وهمس الصوت :

ـ أجل يا غادة ... لقد نحت عددًا كبيرًا من التماثيل: لقد أغدقت على رجالات القلعة بها، ولقد انتهز الأوغاد ذلك: فراحوا يطالبوننى بالمزيد منها لشخصياتهم الموقرة، الأمر الذى جعلنى منهك القوى ... وفى يوم من الأيام وبعد أن تم صرف حلتى فضاء عليهما شعار المريخ لكل من مدير القلعة محفوظ محفوظ محفوظ وابنته التى فى مثل سنك .. بعد أن تم صرفهما له: عاد إلى القلعة فى أصيل ذلك اليوم؛ فوجدنى قد أتممت تنفيذ تمثال من الصلصال الملون يمثله وهو يقرأ كتابًا ويمسك بين أصابعه سيجارًا متوهجًا ... لقد كانت غبطته بالتمثال لا توصف فجعل يحدق إليه: لا إعجابا بفنى... كلا... بل إعجابًا بشخصه الموقر؛ فعلق الحلتين على المشجب وجلس بجوار تمثاله الذى أفاض فى الإعجاب به قائلاً إن هذا التمثال يمكن أن يكون خليفة له على الأرض لو كان مقدرًا لها عدم الإنفجار فيما بعد الهجرة الكبرى ..

وعندما دجى الليل وبينما كان يغفو فوق أريكة بمكتبه الذى به التمثال اتجهت إليه: وأغمدت فى صدره إزميلاً طويلاً كان مرهفًا للغاية لامع النصل من جراء ما نحت به من تماثيل، وصرخ الرجل صرخة مكبوتة فعاجلته بطعنة أخرى فاضت على أثرها روحه؛ ومن فورى: أشعلت سيجارًا من علبته ووضعتها بين أصابع التمثال، وقربته من النافذة الزجاجية الطويلة العريضة التى تشرف على فناء القلعة الذى يباع فيه العبيد الجانزيين أمثالى ثم أسرعت فارتديت حلة الفضاء واستوليت على حلة ابنة محفوظ محفوظ محفوظ ودلفت خارجًا من الباب، وتريثت قليلاً لائذًا بظلمات الجدران، وبعد لحظات سمعت حارسين يتهامسان وقد شاهدا السيجار المتوهج ومن خلفه ضياء الغرفة الخافت:

ـ إنه المدير يقرأ فى كتاب كعادته دائمًا عندما يخيم الليل ..

ـ كنت بسبيلى إليه للتوقيع على أحد صكوك البيع لرجل موسر.. لقد دفع الثرى «بقشيشًا سخيًا» ولابد من توقيع الصك الآن ...

ـ كلا... دع المدير يقرأ ... إنه يكره من يقاطعه وقت القراءة إنك لا تعرفه مثلما أعرفه ، وقد يكون فى ذلك فصلك من القلعة لو أتيت بهذه الفعلة !!

ـ لا بأس طالما أن الأمر كذلك ...

وماكدت أطمئن إلى أن كل شىء على ما يرام: خرجت من مكمنى، واتجهت قدمًا إلى بوابة القلعة خارجًا مع بعض زبائن المساء الذين جاءو لاستلام بعض الصكوك التى لم يتم توقيعها

بالنهار، لقد ركبت العربات بلا مقابل وكذلك القطارات حتى مدينة مرسى مطروح، وهناك مررت على بإسطبل للخيول خيالة البوليس، وانتقيت جوادا أسود مسرجًا طويت به الطريق من مطروح إلى سيوة.. لقدقضيت ثلاثة أيام بـ الطريق وأنا ألبس حلة الفضاء خشيه أن يداهمنى بعض الدهماء الذين يقضون على كل رجل غير مهجر ولا يلبس حلة الفضاء لقد أتيت إلى هنا متخفيًا وتركت الجواد يرعى بين الماشية والحمير والجمال عند المقابر المهجورة، وإننى أضيف فأخبرك أيضًا أن الدهماء قد استأصلوا تمامًا كل الجانزيين !!

ـ أواه... لقدشاهدت الجواد الذى أتى بك !!

ـ حسنًا.. لقد أحطت بالأمر يا غادة إننى إذًا الإله آمون الذى قتل الآدمى محفوظ محفوظ محفوظ .. لقد كان من المتوجب قتله لأنه رجل خائن رعديد طاغيه لا أمان له.. إننى افضل عمكما عليه لأنه الوحيد من الذى صادقنى من بين هؤلاء البشر المتغطرسين المستعظمين لأنفسهم... والآن .. بودى أن أهديك هدية غالية ..

ـ أواه الا تبرز لىَّ يا آمون وتحدثنى !!

وتقدم شبح مريب حقًا من خلال الظلام، وما إن سقطت عليه ضياء الكشاف حتى هتفت غادة :

ـ آمون يرتدى حلة الفضاء الزرقاء اللامعه وبين يديه حلة فضاء أخرى !!!

وتقدم منها الشبح ذو الشعر الكستنائى الجميل الطلعة، وقال فى هدوء وهو يمد لها يده بحلة الفضاء الصغيرة الحريرية المطاطة:

ـ أجل.. أجل يا غادة وها هى الهدية ... إنها حلة الفضاء التى كانت تخص ابنة مدير القلمة؛ وبما أنك تتوقين إلى ارتياد الفضاء كيما تكون لك أملاك فوق المريخ : فإننى أرى أن هذه الهدية جد مناسبة لرغباتك ..ريما تنفجر الكرة الأرضية ويفنى من فوقها من البشر المتخلفين ...

ـ أجل .. أجل يا آمون... أجل أيها الإله آمون .. لابد وأن الأرض ستنفجر حقيقته لا يمكن أن يكون العالم بأثره على خطأ والعم هو الذى على صواب لا يمكن افتراض ذلك أيها الإله آمون...!!

ـ حسنًا... لقد تبادر إلى ذهنى ذلك بالفعل ، ووجدت أن من المناسب إهداءك حلة الفضاء بوصفك الوحيدة المتحمسة لتلك الهجرة الكبرى التى سيقوم بها البشر فى نهاية عام ٢٠٠٠م ..

وتناولت غادة حلة الفضاء الحريرية المطاطة الزرقاء، وجعلت تحدق إليها على ضوء الكشاف ولم تلبث أن هتفت فى فرحة :

ـ امهلنى بعض الوقت يا آمون حتى ارتدي حلة الفضاء كيما نفاجئ بها حنين المتفاخرة بثوب العرس !!

وجاء صوت حنين فى تلك اللحظات وقد غلب على صوتها البكاء :

ـ اسرعى يا غادة؛ أم أنك لا زلت تتحدثين إلى أشباح المكان !!!

فهتفت غادة فى فرحة:

ـ أجل يا حنين؛ لقد أخفقت فى العثور على مكانك ومن أجل ذلك فلسوف يرشدنى الشبح الذى يحدثنى إليك لقد لمحك الشيخ تلجين الغرفة التى اخترتيها..

ـ لا مدعاة إلى مزيد من الرعب يا غادة أى شبح ذلك الذى شاهدنى؟؟ اقبلى فلقد تيبست قدماى وجمد الدم فى عروقى!!!

وارتدت غادة حلة الفضاء بعد أن خلعت ثوب العرس ، وسلط آمون الضوء عليها قائلاً فى همس:

ـ رائدة فضاء يا غادة أخيرًا .. لك جسد رائع وأفخاذ متوسطة الامتلاء قد أطبقت عليها بدلة الفضاء تمامًا.. انظرى إلى شارة المريخ الحمراء فوق صدرك الناهد .. لا روعة تطاول روعتك فى حلة الفضاء يا غادة ....

ـ شكرا لك يا آمون .. من المتوجب الآن أن تفاجىء حنين !!

وامسك آمون بحبل الكبش وثوب الزفاف الأبيض وتحرك من خلف غادة التى كانت تقبض على الكشاف، وبما أنها كانت تعرف عزفة حنين على وجه التحديد فإنها اتجهت إليها فورًا، ولم تمض لحظات حتى كانت بداخلها وأمام تابوت الفتاة المتحجرة وكأنها مومياء منذ آلاف السنين... فتحت حنين عينيها فى بطء فغمرتها ضياء الكشاف وهمست فى شبه غيبوبة.

ـ أواه غادة فى حلة زرقاء لامعة !! أواه.. آمون فى حلة زرقاء أيضًا. الكبش ذو القرون الملتوية ثوب العرس الأبيض !!

فقالت غادة وقد وقفت عند رأس الفتاة المرتعدة :

ـ أجل.. هيا... هيا انهضى يا حنين .. ارتدى ثوب عرسك الأبيض... اعطنى ساعتى ..

ونهضت الفتاة غير مصدقة لعينيها، وارتدت ثوبها فى بطء شديد وناولت الساعة لغادة فى أدب جم، ومن الفور هتفت غادة وهى تتقدم الجميع :

- هيا بنا نزف تلك الأخبار للعم وبهاء والأب وسيم والصديق عابد والمغنى باستت ..

واتخذ الجميع الدهليز الذى يقود إلى جبل الدكرور، وبعد مسيرة طولها كيلو متر ونصف أسفل الأرض صعدوا درجًا صخريًا قادهم حثيثًا، إلى كهف بيت السلطان ...

كان الوقت ظهيرة، وقد بدا الرجال جالسين متجاورين على المراتب الوثيرة فوق رمال باب الكهف المرتفع ..

تقدمت غادة وحنين حاملة لترد اللبن وآمون: من داخل الكهف، وقام العم من مقامه مسرعًا إلى آمون يحتضنه ويقبله ويلثم وجهه قائلاً فى فرحة غامرة :

- صديقى الحبيب آمون !! لقد افتقدناك أيها الصديق؛ لقد بكيناك طويلاً ... ما أسعدنى.. ما أسعدنى .. ما أبهج هذا اليوم... إنه يوم اللقاء!!... إن كل من فى هذا المكان ينطق بحبك ويشهد على عبقريتك ونبوغك .. والآن تعال اجلس هاهنا فوق مراتب الأب وسيم هيا وخبرنا عما تم واتفق لك من أهوال أعد لنا شايك الفخم أيها الأب وسيم... لا أسعد من هذا اليوم !!

وبينما أكواب الشاى الكريستال المعطرة تدور على الجميع وقد مزجت بالحليب الطازج ؛ كان آمون يقص كل ما حدث له؛ وبعد أن تم له ذلك : نهض العم جمال واستل خنجره من أسفل فراشه هاتفًا :

- رائع... رائع يا آمون... رائع أيها الإله آمون !! لقد أثلجت صدرى الآن بقتلك مدير القلعة ... ما أسعدنى .. لقد كان خائنًا رعديدًا ... سحقًا له ولأمثاله .. لا يسعنى الآن إلا أن أخلع عليك شعار آمون.. ألا تعرفه؟؟ لقد شاهدته معنا بالمتحف الفرعونى..

وهنا همس آمون ..

- قرنى الكبش !!

- أجل ... هو بالفعل..

وهبط إلى السفح بالكبش، وغاب عن العيون وقتًا بدا طويلاً، وأخيرًا بدا مقبلا وعلى ظهره فخذان ممتلئتان مرمريان وفى يده نصف جمجمة الكبش العليا بقرنيها الملتويين الأسودين، وعند ذلك أسرع نحوه كل من بهاء وباستت وحملا عنه اللحم وصعدا معه الدرج حثيثاً حثيثاً...

مثل العم أمام آمون الذى وقف متأدبًا فى حلة الفضاء المنطبقة على جسده بحيث يدث تفاصله الجميلة وهتف قائلاً وهو يرفع على رأسه نصف الجمجمة كما لو كانت تاجا :

- والآن... ها هو شعار آمون يستقر فوق رأسك أخيرًا أيها الصديق.. إنه نفس الشعار الذى توج به الإسكندر ذو القرنين عندما زار واحة سيوة فى غابر الأزمان ...

ولم يسع آمون إزاء تلك التحيات والمجاملات إلا أن يقول فى أدب جم :

- أيها الصديق الكريم إننى أهديك هدية عظيمة غير متسناة لأى إنسان فى الوقت الحاضر.. إننى أهديك حلة الفضاء التى أرتديها... إن الكرة الأرضية سوف تنفجر أيها الصديق ومن المتوجب أن تهاجر مع المهاجرين !!

فهتفت غادة وقد بدت فخورة بحلة الفضاء المنطبقة على جسدها تمام الانطباق :

- أجل... أى نعم .. بالطبع أيها العم الباطل من المتوجب أن تهاجر الكرة الأرضية معى.. ألم يكن بوسعك يا آمون أن تحضر لبهاء والأب وسيم وعابد وياستت ولك حللا أخرى للفضاء ؟ ..

فقال آمون بلهجة خاصة مستغربة تأسف :

- لم يكن بوسعى ذلك يا غادة... لقد سرقت هاتين الحلتين كما ذكرت لكم ...

فأجاب العم وهو يحدق إلى شارة آمون الجديدة :

- دعها وشأنها يا آمون.. وكما قلت لك فإنها " مفعوصة" ويبدو أنها تود أن "تتفعص" فى الفضاء !!

وفجأة تغيرت لهجة العم تمامًا بطريقة غير متوقعة فتكس وجهه إلى الأرض لحظات؛ فلقد تحرك بعدها نحو جحر نكير واستخرج من داخله زجاجة الخمر؛ وفتحها وراح يشرب منها ثم جعل يهتف وقد بدأت الخمر تلعب برأسه :

- هه... يالها من مفارقات حقًا!!..من يدرينى حقًا أن الأرض لن تنفجر!! هاها.. قد تنفجر حقيقة ونذهب نحن فى خبر كان .. إننى أكاد أستفيق من غيبوبتى ولكن.. هه ليس من المتوجب أن أنبت بين رأى وآخر ... أجل .. لن أبرح الكرة الأرضية مهما كان .. فلتنفجر بنا الكرة الأرضية .. لتنفجر إذًا أى شىء نود البقاء من أجله ؟؟. يجب أن ندمر تمامًا مع الأرض لا شىء يستوجب البقاء.. حسناً إننى أنتحر إذاً.. ماضير ذلك لا بأس فلتهاجر غادة إلى المريخ وبذلك نكون قد ضمنا الحياة لأحد أعضاء أمتنا الصغيرة: ... لا بأس أنا لا أعارض تلك الرغبة طالما أننا قد ضمنا لها حلة فضاء مناسبة على قدها.. لن ينال منها الدهماء طالما أنها ترتدى حلة فضاء وطالما أنها فتاة.. سوف أذهب بها بنفسى إلى قناة السويس حيث قريتى التهجير؛ سأستعير منك يا آمون حلة الفضاء

التى ترتديها طيلة الرحلة إلى قناة السويس وبعدها أترك غادة؛ ثم بعد ذلك أعود أدراجى بالإوزة البيضاء إلى هنا من جديد ... ها ها... يا لها من فكرة !! ولكن يعز علينا حقًا أن نودع هذه "المغموصة" غادة ...

وهنا هتفت غادة :

ـ سوف أمتلك لكم أرضًا فوق المريخ يا عمى الذكى .. ويمكننى أن أتزوج بهاء هناك .. ألا تترك بهاء ليأتى معى!! يمكنه أن يرتدى هذه الحلة بدلاً منك ويمكنه أن يقود الأوزة البيضاء إلى قريتى التهجير دون أن تتحمل أنت عناء الرحلة المهلكة.

وبما أن بهاء قد فطن إلى المراوغة التى تقوم بها الفتاة منتهزة فرصة سكر العم للمناورة فإنه : هتف :

ـ كلا... اذهبى وحدك أنت يا غادة ليست لى رغبه فى مرافقتك إلى هناك.. إنها رغبتك أنت وليست رغبتى أنا.. من المتوجب مواكبة انفجار الكرة الأرضية مع العم المفدى لقد أمرنا بذلك ولابد أن تستجيب لأمره !! إنه الذى ربانا وقام بتنشئتنا فى طفولتنا، فهل من المتوجب وهل من الإنسانية أن تركه يا غادة؟... إننى أنصحك، ولكننى أعلم تماما أنه لا رجاء من ذلك النصح !!...

وهنا هتف العم فى حنق وغيظ وقد هاج شعر رأسه :

ـ دعها وشأنها يا بهاء .. دعها لك ما تطلبين يا غادة.. لك كل ما تتوقين إليه ما الذى دهاكم جميعا !! ما هذا القنوط الذى أصابكم افرحوا وامرحوا وضجوا من السعادة .. هيا أوسعونا بمزيد من الشواء لأننى سوف أذهب غدًا بغادة رائدة الفضاء الحسناء الفاتنة... هيا... ألا توجب علينا تلك المناسبة حفلاً لابد وأن يكون سخيًا!!.. أين أنتما أيها الصغيران منكر ونكير !! أين تختبئان !! لماذا لا ترغبان فى مشاهدة غادة وهى فى حلة الفضاء الخلابة الحريرية الزرقاء!!. افرحوا يا قوم وهللوا !! لقد خلعنا اليوم شعار القرنين على آمون .. ولا بد أيضا من الاحتفال بمناسبة ارتياد غادة للفضاء فى الاتجاه إلى المريخ....

وترنح العم دامع العينين ، وأسرع يرتمى فوق تماثيل النساء العاريات ...

قارئى الكريم : لقد أدى العم ما عليه فى اليوم التالى حيال رغبة غادة المؤكدة لارتياد الفضاء ، ولم يتركها إلا وقد احتوتها قريه المريخ بسيناء ، وما عليك الآن. قارئى ـ إلا أن تهتف معى إما دامعًا أو مبتسمًا ... وداعًا غادة !!!

الفصل الثامن

عبر الفضاء بالسفن الشراعية

استطاعت مكوكات الفضاء والطائرات الصاروخية أن تحمل كل البشر المهجرين إلى حيث السفن الشراعية المرابطة فى الفضاء الخارجى الذى يلى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية ، تلك السفن التى كانت تحت خدمة المحطات الثابتة التى تضم عددًا كبيرًا من المهندسين وعمال الفضاء المهرة أولئك الذين تمكنوا من تركيب السفن التى حملتها لهم مفككة : الصواريخ الجبارة المسيرة بالبلازما وهى الحالة الرابعة للمادة ...

كان هناك حشد من سفن الفضاء لا يمكن للعقل تصديقه أو توهمه ...

حقيقة أن تلك السفن كانت معلقة فى ظلام دامس وقد انعدم وزنها رغم كبر أحجامها، إلا أن كشافات الأشعة تحت الحمراء المعلقة فوقها كانت تمكن كلا منها من مشاهدة الأخرى ...

لم يترك الدهماء على الأرض رجلاً واحدًا باستثناء العم وصحبه وقد تركتهم غادة ...أجل لم يتركوا غير النساء .. ولقد كان دهاء الدهماء لا يوصف حينما عمدوا إلى قتل النساء الحوامل أو المشكوك فى أمرهن ...لقد احتالوا على ذلك بكل السبل لدرجة أنهم استخدموا أبشع طرق الكشف عن الحمل فلم تنج منهم امرأة ، ولقد ساعدهم على مهمتهم الجهنمية: تجمع نسوة الأرض جميعًا حول قريتى التهجير، ولا غرو فى ذلك فلقد شاء الجميع أن يشاهدوا أغرب استعراض على مر الدهور، ورغبوا أيضا فى أن يحظوا بالهجرة الكبرى ، وحتى الذين لم يرغبوا فيها: فلقد أتوا لمشاهدة أغرب حدث يمكن أن يتخيله إنسان...

لم يكن فى مقدور الأمم المتحدة أن تتخذ أى إجراءٍ مضادٍ للدهماء: عندما دمَّروا كل بنوك ومعمل وأجهزة الإخصاب والاستنساخ.

وأعتقد أن ذلك لا يمثل أمرا غريبا أو شنيعًا بالنسبة لها أن تقف مكتوفة الأيدى حيال تلك المفاجأة غير الإنسانية التى طلع بها الدهماء على بنى البشر المزمع إبقائهم على وجه الأرض ...

ماذا كان يمكن أن تصنع إذًا !! هل كان من الممكن مثلا أن تشن حربًا ضدهم تراق فيها المزيد من الدماء ... كلاً.. لم يكن ذلك من المتسنى عمليًا..هل يمكن مثلا أن ينتصر غير الدهماء لغير المهجرين؟؟ وهل كان من الممكن أن يسفر ذلك عن مناصرة فعالة يمكن أن تؤدى إلى حرب؟؟ إننى أقطع بأن لا ...

ولقد حدث ذلك بالفعل، وأفلح الدهماء فى مخططهم الهمجى، ومن ثَم لم تجد الأمم المتحدة التى روعت بالأحداث : لم تجد مندوحة من أن تنفذ بقية إجراءات التهجير...

فبعد مُضى شهر واحد بعد الخمسين يومًا الإجازة كان كلُّ بنى البشر المهجرين قد استقلوا سفن الفضاء الشراعيٰ والتى تسير بدفع فوتونات أشعة الشمس لها...

أجل - قارئى الكريم - لقد تم ذلك بالفعل ..ولقد كان على ربابنة الفضاء الذين يسيرون السفن أن ينشروا قلاعهم الألمنيومية الرقيقة بمجرد إخبارهم بأن آخر رجل مهجر قد نقل وأن كل مهندسى وعمال محطات الخدمات الفضائية قد انتقلوا هم أيضا إلى سفن التهجير ....

انتشرت القلاع جميعًا، ووجهت سفن الزهرة ٤ إلى اتجاه كوكبها بالاستعانة بالبوصلات الجيروسكوبية المكونة من جيروسكوب مركب فى حلقة ذات محورين ...

وبالمثل نشرت قلاع سفن المريخ ٤ وبدأت تسير عبر الفضاء اللامتناهى المظلم الذى تتلاشى فيه أوزان الأجسام مهما كانت ضخامتها ..

كانت كل سفينة تتسع لعدد من البشر قدره١٣٤٠٠٠ نسمة ما بين نسوة ورجال وأطفال، وعلى ذلك فلقد كان عدد السفن المتجهة نحو الزهرة ٤ يربو على ألف سفينة، وكان مجموع من بها من السود ونذر من البيض والصفر هو ١٣٤مليون مهجر، وكان عدد السفن المتجهة نحو المريخ ٤ أربعة آلاف سفينة تقل ٥٣٣ مليون نسمة.. وبذلك يكون عدد الذين تركوا فوق الأرض من نسوة أحياء ورجال قتلى ٣٣٣ مليون نسمة ...

لم تكن هناك بداخل السفن مقصورات للطعام ومكتبات وقاعات للسينما كما كان قد تخيل العلماء فيما قبل الهجرة الكبرى... أجل.. ولم يكن ذلك إلا لأن تلك الهجرة المذهلة لم تكن لتدور بذهن أحدهم فى يوم ما ، ولذلك فإنهم وعندما فاجأهم العقل الإمبراطور بتلك الكارثة، وعندما أيدت ثورات البراكين المتتابعة كل ما ذهب إليه : فإنهم لم يسعهم إلا أن يصمموا سفن الفضاء بطريقة أكثر اقتصادًا وأكثر اتساعًا لمزيد من البشر ، ولكن يمكن القول أن أقصى ما استطاعه مهندسو الفضاء لكل فرد : هو أن يكفل له سرير عرضه ٩٠سم وطوله متران يمكنه

أن ينام أو يجلس أو يأكل أو يشاهد التلفزيون عليه ..بيد أنه لم يكن من الممكن أبدًا الخروج بأى حال عن نطاق ذلك السرير الجهنمى ..ومع ذلك فلقد كان كل من الطعام والشراب والأكسجين مكفولاً تمامًا ...

كانت لكل فرد وجبتان (غذائيتان) كل أربعة وعشرين ساعة ، وكان قوامها طحلب الكلوريلا الذى كان يقدم على مدى الأيام فى شتى الصور من لحم أو فطير أو حلوى، ولقد تمتع الجميع بجاذبية صناعية مبتكرة بداخل كل سفينة بطريقة جعلتهم جميعًا لا يحسون بإحساسات انعدام الوزن المفزعة ؛ وكما قدمنا فلقد أمدت طحالب الكلوريلا سفن الفضاء بالأكسجين اللازم للحياة ...

وبما أن الرحلة إلى الزهرة ٤ كانت مرجحًا لها أن تكون مدة ٤٠٠يومًا، وأن الرحلة إلى المريخ ٤ كان مرجحا لها ٥٥٨ يومًا ... لما كان ذلك: فلقد كان من المحظور على الأزواج الاختلاط بنسوتهم خشية أن تحدث أعراض للحمل تثقل كاهل الرحلة وتضيف المزيد إلى الصعاب التى تواجه الجميع ، ومن أجل ذلك فلقد دست مركبات البروم فى المشروبات المقدمة للرجال الأمر الذى قوبل بالكثير من الاستهجان والتذمر من جانب النساء ...

وبينما ضياء الشمس وفوتوناتها تدفع السفن إلى حيث طريقها المحتوم عبر الفضاء : كان يدور حوار ترفيهى داخل كل سفينة بين مستقليها المهجرين، وكانت كل سفينة من السفن الخمسة آلاف تحمل اسما خاصا بها.. السفينة إفرست .. السفينة أوليمبيا.. السفينة آمون ..السفينة أوزير.. السفينة أبى م حتب .. السفينة نفريت ..إلى آخره من الأسماء ..

وفى السفينة آمون : كانت تنام غادة على سرير متطرف وقد أحاطت بها امرأتان : اليمنى من أقزام الإسكيمو طولها متر ونصف ، واليسرى من إحدى قبائل هنود أمريكا الحمر ذات طول فارع لدرجة أن جزءًا من ساقيها كان عليه أن ينغص صفو امرأة تليها من جزيرة " خوريا موريا " ...

كانت السفينة آمون كغيرها من السفن مكيفة الهواء تمامًا وذات حرارة معتدلة ومضاءة بضوء لونه أخضر ، وقد بدا أن الرجال قد وزعوا على نصف الحيز، والنسوة وزعن على النصف الآخر ، وقد كان على كل فرد أن يلتهم الوجبتين الوحيدتين اللتين تأتيان أوتوماتيكيًا من خلال طاقة مفتوحة بوسط السرير، وما على الإنسان إلا أن يرفع حشوة مطاطة مربعة وسطية عندما يدق جرس الطعام للجميع ، وجدير بالذكر هنا أن الأسرة كانت موزعة على مائة طابق دون فواصل ...

لم تكن هناك أيام بالفضاء ، وكيف تكون هناك أيام؟؟ وإلى أى شيء تنسب تلك الأيام؟؟ أجل.. ولكن يمكن القول إنه كان هناك زمان ممتد... زمان مطلق؛ زمان غير مفصل أو مجزأ، وكأنما ذاك الزمان يجمر فى آذان البشر المكدسين قائلا :

ـ من هذا الذى كان يتطاول على تجـزئتى !! من هذا الذى كان يدعى أننى أنمضى وأتحرك ومن ثم أكون زمنا ضاريًا فى القدم طاعنا فى العمر !! إننى هنا على حقيقتى لا أنصرم ولا أنمضى ولا أتقهقر ولا أكون غابرا ، بل دائمًا جديدًا متماسكًا .. ومن هنا جاءت أبدية الخالق ..

وخلال ذلك الزمن غير القابل للتجزئة أو التقهقر، أو الانصرام : راح القوم الذين يجمعون بين شتى طرز البشر وقد استلقوا فوق أَسِرَّتهم .. راحوا يُسِرُّون عن أنفسهم بحوار طويل يفصح بين الفينة والفينة ـ باللغة الأرضية ـ عن مكنونات صدورهم ...

قال تبتى بأعلى صوته وهو يجلس على سرير وسطى فى طبقة وسطية ناطقًا بالصينية :

ـ لقد حقت اللعنة على أهل الأرض بعد خلع الدلاى لاما ..

إنجليزى. ماذا قاله الرجل يا روبن !! ألم تكن طبيبًا بأديرة الصين والتبت؟؟

إنجليزى. يقول إن هذه الكارثة بسبب التمرد على الدلاى لاما ..

إنجليزى . ها ها .. يبدو أن الأمر كذلك بالفعل .. لسنا نعلم ماذا سوف تقود إليه الأقدار...

فنلندى ـ ناطق بالفرنسية ـ ولكننى أتعجب متسائلاً... كيف تبدأ علوم الفضاء منذ ألف سنة أو يزيد : ثم أخيرًا لا نعلم إلا اليسير عن كوكبى المريخ والزهرة بالمجموعة الشمسية الرابعة !!

امرأة عربية تتحدث بالفرنسية بلسان يشبه " الفرقلة " :

ـ هه !! لعل المتحدث من أهل الكهف !!ألم تدمر روسيا وحلفاؤها كلَّ صاروخ أمريكى يطلق فى اتجاه الكواكب!! وأيضا ألم تجب عليها وحلفاؤها بالمثل !! والبادئ أظلم ....

امريكى .كانت أمريكا تحتضن كل الدول وكل الجنسيات بل وكل المواهب .. كانت تحاول جاهدة حل المشاكل الرهيبة ، ومع ذلك لم يحمد إنسان لها ذلك ...

إنجليزى: وماذا عنَّا إذًا !!!

فرنسى: ونحن !! ألم يكن لنا السبق فى كل مجال اقتصادى وحربى وحضارى !!

روسى: لقد كان لنا التفوق كل التفوق...

الماني: صه جميعا ... لا يدع أحد منكم أى شيء لنفسه... فإذا ما نطقت ألمانيا: فما على الجميع إلا أن يكفوا من فورهم ...

نرويجية: هاى هتلر ... طاغية ألمانيا فى الألفى سنة الأخيرة ..

إيطالى: أجل ...هذا حق ...وأيضا يجب ذلك عند التحدث عن إيطاليا ...

سويدية: هاى موسولينى..

الماني: أيها الإيطالى... لا بد من تحالف حديدى بيننا وبينكم على المريخ ! ...

إيطالى: بالطبع .. إن أفكارَ أمريكا شيءٌ جميل ، ولكن السلطة أجمل ...

اوكرانى: لعلكم إذاً فى طريقكم إلى الفاشية!! إن " فاشو" تعنى العصا ... أليس كذلك؟

إسبانية: إذا حاول أحدكم أن يكون موسولينى فإن مصيره سيكون التعليق من قدميه ميتا أمام الجموع ...

هندى: (من المغضوب عليهم) - إن الإله " فيشنو " سيرحب بكم فوق المريخ ... لا تجزعوا ..

بلجيكى: عجبًا... إننا مجموعة من الموتى يا صاحبى لا زمان ولا مكان لنا !!

الهندى: لا بأس يا أخى ...إنه إذًا ما قال أحدكم فى الغرب أن فلانا قد مات : فإننا نقول فى - نفس الوقت - فى الهند " لقد خلع جسده " ...إن كل موت هو حياة ... إن الإله " ياما " قد قذف بنا إلى المريخ ولعله الفردوس ...

إنجليزى: ولعله أيضًا هو الذى قذف بآخرين إلى الزهرة .. إنها الجحيم ...

الهندى - لا بأس ... وبعد ذلك فإن الإله " ياما " سوف يعيدنا من جديد إلى الأرض لنبدأ حياة جديدة تمامًا غير التى كنا نحياها بعد أن نكون قد تنظفنا تماما من الخطايا ...

فرنسى: كل ذلك يفعله بنا الإله " ياما " !!

مصرى: متفكهًا - " وياما ح نشوف " ...

سودانى: (من المغضوب عليهم) - ألا تعد جريمة أن نترك قوما لنا فوق الأرض !!

حبشى: (من المغضوب عليهم) - ألا تفهم !! ليس هناك غير النساء ... فحسب لقد دمروا كل المعامل .. وأنت تفهم الباقى ...

السوداني: (المغضوب عليه) - إنني أفهم تمامًا، ولكنني أتساءل عن بداية المشكلة التي استغلها الدهماء... لماذا تركنا الثلث ومضينا عنه ؟؟ هذا هو الأساس يا صاحبي ...

غادة: ربما لم يكن هناك مزيد من أحزمة النخيل الليفية ...

أمريكي: (له لحية طويلة ويبدو أنه فيلسوف) - آوه !!!... ماذا قالته تلك الفتاة ؟؟

إنجليزي: (مستشرق) - هاها .. تقول إنه لم يكن هناك ما يكفي من ... هاها .. من أحزمة صعود النخيل ...

الأمريكي: (ذو اللحية بعد أن مط لحيته وجذبها بشدة)

- لقد ترجمت كلامها من العربية إلى الإنجليزية ولكنني لم أفهم بالرغم من ذلك يبدو أنني فيلسوف غبي حقًا...لا بأس فأنا أدعى الفيلسوف تشارلي ..فيلسوف الغباء...

وهنا جاء الجميع ومن خلال كوة جانبية صوت أحد ربابنة الفضاء المائة الذين يقودون السفينة داخل مقصورتهم الخلفية التي تسيطر على القلاع الألومنيومية :

- كلا ... بل لقد صدقت الفتاة بالفعل... لقد أجادت الفكرة ... لقد توصلت إلى لباب المشكلة ، ذلك اللباب الذي لم يتوصل إليه للأسف رجالات الدهماء ...إنها تقول أنه لم يكن هناك ما يكفي من أحزمة صعود النخيل ... هذا هو الواقع تمامًا .. إنها تقصد وبطريقتها الخاصة : أنه لم يكن هناك العدد الكافي من سفن الفضاء الشراعية اللازمة لتهجير كل بني البشر ...هذه هي المشكلة التي أرادت أن تتستر عليها وكالة الفضاء بالأمم المتحدة وذلك حتى لا يتسبب كشفها عن مزيد من القلاقل والمشكلات... وقد أرادت الهيئة أن تستفيد من رغبات الذين يرهبون الرحلة ؛ للتغطية على صلب الموضوع، وذلك كتصرف حكيم ؛ كان محصلة لتفكير العقول الجبارة التي هي أعقل من البشر ...

الفيلسوف تشارلي - ألم أقل لكم إنني غبي ؟؟..ها هي العلة قد غدت جلية أخيرا ، لكنني في حاجة إلى مزيد من الغباء ، لأنه كلما ازداد الغباء : زادت متعتي بروعة تلك الفكرة..حسنا، إنني أنام بين ...ها ها ...تصوروا ...إنني أنام وعلى ميمنتي رجل من الإسكيمو " اللابيين " من أعالي فنلندا وعشاق غزلان الرنة متشعبة القرون، وعلى ميسرتي رجل من التبت من عشاق " الدلاي لاما " ... حسنا .. لقد اخترت رجل التبت كسكرتير خاص ...يجب أن نتفق على ذلك طوال الرحلة ، يمكنك أن تتخيلني أيها التبتي : أنني "الدلاي لاما " ..لن يكلفك ذلك أكثر من أن تحترم لحيتي أولاً، وثانيًا: أن تذكرني دائمًا بالأشياء التي من المتوجب على أن أفكر فيها بغباء : ليس بقصد الوصول إلى حل ، ولكن بغية الحصول على أقصى انبهار ممكن يجلب المتعة ...إنني من أساتذة الفلسفة بجامعة " متشجان "...

ولكونى أحب الأغبياء رغم أننى لست كذلك: فلقد حصلت على الدكتوراة بعد نيل الماجستير فى موضوع مارق ... أجل ... لقد تقدمت برسالة ميمونة عن "الغباء" .. ولقد استنكر العلماء النقاد رسالتى بسبب تمجيدى للغباء، ورغم كل الاستنكار والقض والقضيض فلقد نلت درجتى بامتياز ... والآن فإننى أقص قصتى عن لحيتى التى هى أعز ما لدى ... لقد نهضتُ فى يوم ما من نومى: فوجدت ابنى الصغير "ساند" قد أوسع لحيتى دهنًا بالورنيش الأسود من ماركة "كيوى" ... لقد أعجبت بفكرته حقًا، ولما كان ولدى "ساند" الذى كان عمره خمس سنوات وقتذاك ... لما كان عزيزا علىّ لدرجة غير متصورة : فإننى قد عهدت إليه كل صباح بأن يقوم بتلميعها بورنيش الأحذية بالفراشة ولكن ..ولكن ...

وهنا طفى الدمع على الفيلسوف وقال من خلال دموعه :

ـ ولكن، وفى يوم ما، ذهب لإحضار علبة ورنيش جديدة بمفرده من أحد المتاجر، وكان عليه أن يعبرَ طريق " جرين " بولاية تكساس ، لقد دهمته عربة وهو يُسرع بالعودة .. لقد كانت العلبة منكّسة بين أصابعه القضة وهو منطرح فوق الطريق يومها... ويومها لم يشأ ضابط الشرطة الذى أتى على أثر الحادث ... لم يشأ إلا أن يربت على كتفى قائلاً:

ـ لا تحزن يا تشارلى ... إليك العلبة التى أتى إليك بها الصغير من أجل حذائك ... إنها عُلبة ولا كل العلب ...عليك بتقديسها تمامًا... أنها علبة أتى لك بها الصغير الوحيد الذى رزقك الله به عند الشيخوخة كما تقول ... ولكن ... ولكن كيف يتسنّى لك يا مستر " تشارلى" أن تقدس تلك العلبة؟؟...

ولكننى أيها السادة يا ركاب السفينة آمون ... أسرعتُ أُجيب عليه من الفور:

ـ يا سيادةَ الضابطِ ... هناك وسيلة أخرى لتقديس تلك العلبة ...

ـ فسألنى متعجباً

ـ أية وسيلة تلك يا مستر تشارلى !!...

فقلت وأنا أجذب لحيتى لأمضى إلى عربة الإسعاف وبيدى العلبة :

ـ سوف ألمع بها لحيتى ... دائمًا ..

وهنا هتفت أمريكية: أوه ..اللعنة على لحيتك يا تشارلى ...

وهتف كورسيكى ـ اللعنة على الحيتك يا تشارلى ..

وهنا هتفت غادة بعد أن جاءتها الترجمة من امرأة سورية مجاورة :

ـ كلا كلا .. ليس من المتوجب الهتاف ضد لحية السيد تشارلى، وذلك لأن عمى جمال له لحية مماثلة ...

تشارلى ـ ماذا قالته الفتاة !!...

رجل بلغارى ـ تقول إن لها عمًا له مثل لحيتك ، وليس من المتوجب توبيخها ...

تشارلى ـ أوه ... مرحبًا... سجل أيها التبتى العاشق للدلاى لاما ؛ حتى تذكرنى دائمًا كيما أتلذذ بطريقة دفاع الفتاة ..

ثم استطرد سائلاً بصوت جهورى :

ـ ما اسمك أيتها الفتاة المدافعة !!!..

وترجم السؤال رجل جزائرى ، فأجابت غادة بافتخار :

ـ غادة ...

وبعد أن ترجم الجزائرى الإجابة للأمريكى ، هتف تشارلى :

ـ سجل ياعاشق الدلاى لاما ... سجل هذا الاسم ... جادًا ... جادًا ....

وأتاهم صوت أحد ربابنة الفضاء من الكوة الجانبية :

ـ ما هذا الذى تفعله يا تشارلى !! لعلك تقود حربا !! ...

وهنا هتف تشارلى ضاحكًا وهو يحملق إلى رجل الإسكيمو المجاور :

ـ أوه... حقا إننى أقود حربًا ... ضد نفسى ..

وانفجرت السفينة بالضحك المجلجل وتعالت الهتافات منددة بلحية تشالى :

ـ اللعنة على لحيتك يا تشارلى ... حقت عليك اللعنة يا تشارلى ... اللعنة عليك وعلى لحيتك يا تشارلى ... مليون لعنة تهبط على لحيتك يا تشارلى ...

وهنا استفسر تشالى من التبتى قائلاً وقد جحظت عيناه :

ـ خبرنى يا عاشق الدلاى لاما... بماذا يهتف غير الناطقين بالإنجليزية ؟؟؟

ـ إنهم يهتفون " اللعنة على لحيتك يا تشارلى" ولكن بكل لغات العالم ...

وما أن سمع الركاب ذلك من التبتى حتى: أغرقوا من جديد فى الضحك المتواصل، وهنا اعتدل تشارلى الفيلسوف الأمريكى العجوز ونهض من رقدته جالسا، فاعترض عليه رجل الإسكيمو قائلاً بالإنجليزية :

ـ أوه ... ماذا تفعله يا تشارلى؟؟ لماذا تجلس ؟؟

فأجاب تشارلى وهو يتربع :

ـ هه ... إننى أستريح من النوم ...

وهنا انفجر الركاب ضاحكين بطريقة جعلت السفينة آمون تهتز وكأنما أصابها زلزال ، وتعالت الصيحات :

ـ لعنات على لحيتك يا تشارلى ... ملايين اللعنات يا تشارلى .. أعداد لا حصر لها من اللعنة تسقط بالمظلات على لحيتك يا تشارلى...

وتساءل تشارلى وقد عاد إلى الرقاد :

ـ لقد استرحت ولذلك فلسوف أنام... بماذا يهتفون يا عاشق الدلاى لاما ؟؟

ـ إنهم يتددون بلحيتك بمختلف لغات الدول ...

ـ هه ... إذاً فلقد فازت لحيتى أخيرًا فى انتخابات هيئة الأمم المتحدة ...

ـ أواه... كلا...بل لقد سقطت تمامًا ...

ـ حسنًا ... لا باس إذا كان الأمر كذلك ...لا بد أن أعمد إلى اجتثاثها من جذورها إذًا... إلىَّ بالمقص يا رجلَ الإسكيمو من الدرج الذى يجمع لوازمنا نحن الثلاثة..

وهنا صاح معظم الركاب بعد أن تهامسوا مترجمين لبعضهم من لغة إلى أخرى :

– كلا... لا تفعلها يا تشارلى ...لا تفعلها بحق الخالق وبحق الأمم المتحدة ...

فتساءل تشارلى وقد انتفشت لحيته :

– ما الخطب يا سكرتير الدلاى لاما الذى هو أنا؟ !!

فأجاب التبتى :

– إنهم يهتفون ويرجونك ألا تقصَّ لحيتك ...

فقال الفيلسوف النحيل مغضبًا :

– لماذا ؟؟ ألم يهتفوا ضد لحيتى !!... هه... سلهم إذًا لماذا يودون الإبقاء عليها رغم ذلك الهتاف المضاد ؟؟

فرفع التبتى عقيرته بالإنجليزية سائلاً :

ـ تشارلى يتساءل: لماذا تودون الإبقاء على لحيته على الرغم من تصويتكم ضدها ولعنكم لها!! على المترجمين أن يترجموا ...

وما كادت الترجمة تصل إلى كل الأذهان حتى دارت همسات الترجمات ، ثم ارتفعت الصيحات :

ـ حتى نظل نلعنها دائمًا يا تشارلى .. حتى تحق عليها اللعنة دائمًا يا تشارلى .. حتى نجد ما نلعنه فيك دائما ياتشارلى ...

وما إن تناثرت الأصوات لتقرع أسماع الفيلسوف بزواجرها : حتى هتف بضيق لا يوصف :

ـ حسنًا.. إننى أجزم بأن الذين يُهـ ـتِفون ضد لحيتى لابد وأن يكونوا من الدهماء !!...

وسرى همس الترجمة وكأنه موج فوقه زبد، وضجَّ الجميع من جديد :

ـ كلا.. لقد خانك غباؤك يا تشارلى .. الهاتفون ضد لحيتك ليسوا من الدهماء يا تشارلى لست من الدهماء يا تشارلى.. لولا لحيتك لما مات ابنك يا تشارلى ..إننا نهتف ضدها حزنا على ابنك يا تشارلى .من يلعن لحيتك فإنه يحب ابنك يا تشارلى ...

سمع تشارلى التعليقات وجاء معناها من خلال المترجمين ، فقال وهو يزفر عائدا إلى نومه :

ـ أوه ...لا بأس...إن عقلى كان غبيًا تمامًا حينما خالت عليه ألوان الطعام التى تقدم لنا.. بيد إن معدتى لا بد وأن تكون أكثر ذكاء لأنها بدأت تكتشف بالفعل أن الذى يقدم لنا إن هو إلا طعام واحد فى صور مختلفة .. إنه طحلب الكلوريللا اللعين .. ومهما أضافوا إليه مزيدا من البلانكوتين فإن معدتى سوف ترسم خطاه داخل حيزها من فتحة الفؤاد إلى فتحة البواب ..

اندفعت السفينة آمون مع بقية السفن عبر فضاء من العدم وقد دفعت فوتونات ضوء الشمس : أشرعتها المصنوعة من رقائق الألومنيوم ...

ومرت الأيام التى كان من المحتم أن يتم تقديرها بالساعات دون اللجوء إلى علاقة الشمس بأى كوكب لمعرفة إن كان النهار قد أسفر أو لم يُسفِر ...

وبعد مُضى مائة وثلاثين يومًا اتصلت سفينة القيادة " الجنة " المتجهة إلى المريخ٤: اتصالاً لاسلكيًا عبر الفضاء اللامتناهى بسفينة القيادة " الجحيم " المتجهة إلى الزهرة ٤:

ـ هنا الجنة ...الجنة تطلب الجحيم .. نحن فى طريقنا الصحيح المرسوم إلى كوكب المريخ ٤ .. هل أنتم بخير ؟؟

ـ هنا الجحيم ...الجحيم ترد على الجنة .نحن بخير .. السفن تسير بدقة متناهية .. ربابنة أكفاء ... تحياتنا لكم .. على بركة خالق الكون الكوكب ...

ـ لقد أثلجت صدرى أيها اليابانى "أنطونيو هيتو"... لقد سررت عندما سمعت أن مهجرى الزهرة ٤ قد انتخبوك بالإجماع كيما تكون قائدًا لسفنهم .. ويبدو أنهم جميعًا قد تأثروا بك عندما شاهدوك فى العرض التلفزيونى .

ـ هنا الجحيم ... إننى ممتن لسرورك يا سيدى " روالد " ولتعلم أننى سأظل ...

وهنا انقطع الإرسال بسبب تشويش هائل أدى إلى خشخشة سريعة محت الصوت المقبل عبر الفضاء المترامى ، وهنا سأل " روالد " ربان الفضاء فى مقصورة التحكم فى الأشرعة :

ـ بماذا تعلل انقطاع الإرسال يا ماكدونالد ؟؟

فقال الربان بلغة الخبير المحنك :

ـ إنه شهاب مذنب مارق يا سيدى القائد ..لقد مرق فى منتصف المسافة اللاسلكية مخترقًا القناة الترددية ..لا تجزع ..لن يلبث أن ينتهى التشويش.. داوم على الاتصال..

فقال روالد للفتاة القائمة على تسجيل الإشارات :

ـ حسنا ... سجلى الإشارة كتابة حتى نهايتها يا مارى ..

فكتبت الفتاة الجالسة إلى مكتبها على الميمنة فى مقصورة القيادة وقد كانت تتسمع معه، ثم قالت :

ـ تم التسجيل يا سيدى القائد .. كتبت إشارة الجحيم حتى قولها " ولتعلم أنى سأظل "..

ـ حسنًا.. سأغفو فى حجرتى الخاصة الآن وما عليك إلا أن تداومى على الاتصال ..

وذهب "روالد" السكرتير العام للأمم المتحدة والذى صار قائدًا لسفينة القيادة " الجنة " ...

ولحسن حظ الفتاة استطاعت أن تفوز أخيرًا: بإعادة الاتصال بالجحيم .وما كادت تتوصل إلى ذلك حتى هتفت فى المرسل الذى يعمل بالبلازما:

ـ هنا الجنة ...إشارة إلى الجحيم... هنا الجنة ...إشارة إلى الجحيم ...

ـ هنا الجحيم ..نحن مع الجنة ...

ـ مرحبًا وأهلاً بالجحيم ...أنا عاملة الإشارات " مارى ".. القائد روالد نائم .. بودى لو استكملت إشارتك إليه ..لقد كتبت حتى كلمة "سأظل" ...

ـ الجحيم يرد على الجنة .. هنا الجحيم ... لعل السيد روالد ...

ـ الجنة تقاطع الجحيم ..هنا الجنة .. أرجوك يا سيادة القائد .. إن أنا إلا عاملة إشارات.. بودى أن تكمل إشارتك إلى سيادة القائد ...

ـ الجحيم يرد على الجنة ..هنا الجحيم ..لا بأس .. هأنذا أستكمل الإشارة نزولاً على طلبكم الذى يبدو روتينيا.. هنا الجحيم .." سأظل صديقًا لك يا روالد رغم الأضرار التى لحقت بى من جراء تصرفاتك الفاشمة الغادرة ... إن صداقتى لا تمحوها العداوات والمصالح .. الصداقة هى عَلاقة إنسانية لا يجب أن تدمرها المصالح ... إننى ذاهب إلى الزهرة ٤، وقد أصبحت بكفاءتى قائدا للجحيم ، وعندما أوفق فى الهبوط مع معشر السود الذين انتخبونى رغم أننى يابانى : فإننى لا ريب سوف أقوم بتأليف ونشر كتاب " أغرب استعراض على مر الدهور " وسأقوم بتوزيعه على بلاد كوكب الزهرة . انتهت الإشارة .. هنا الجحيم ...

ـ الجنة ترد على الجحيم ... هنا الجنة ... تسلمنا الإشارة .. نشكركم .. نرجو لكم ريحًا شمسية معتدلة ...

وفى يوم ، اتصلت السفينة الجنة بالجحيم للاطمئنان عليها للمرة الرابعة منذ بدء الرحلة :

ـ هنا الجنة ... الجنة تنادى قائد الطبق الطائر "السعير" .. الجنة تنادى السعير ..

ـ هنا السعير ... السعير ترد على الجنة .. السعير تجيب ... لقد هبطنا على كوكب نجمة الصباح الزهرة ٤ .. نحن نعانى ...

ـ الجنة تستأنف الإشارة ... مرحبًا بالسعير.. الجنة ترحب بالسعير ..هل يمكنكم وصف الأمر ؟؟ الجنة تسأل السعير ...

ـ السعير يجيب على الجنة... وقودها الناس والحجارة أيتها الجنة ...

ـ الجنة تطلب مزيدا من التفسيرات ...إننا وسط الرحلة ولا زالت أمامنا مدة طويلة حتى نصل إلى كوكبنا المريخ .. نريد مزيدًا من التفاصيل ...

ـ هنا السعير ...السعير ترد على الجنة... ولو انه من الخطأ البيِّن أن نفصح لكم عما نعانيه، وأن نفصح لكم عن ماهية كوكبنا: إلا أننا سنجيب لأننا نصارع الموت.. يوجد أكسجين كاف للتنفس .. لقد فوجئنا بأننا قد انتقلنا فجاة إلى عصر الزواحف الذى مرَّ على الأرض خلال آخر حقب الحياة القديمة منذ ١٣٥ مليون سنة .هنا السعير ... نحن فى العصر البرمى .. الحرارة لافحة لا تطيقها النفس ... لقد حطت أطباق الفضاء

على السطح ونزلنا فروعنا بحرارة الكوكب اللافحة ..لبسنا أسمك النعال والأحذية ... رجالنا يصارعون الديناصورات الهائلة الأحجام ...إننى أراقب ما يجرى من فوق جبل عال قد حط عليه الطبق الطائر السمير الذى يقلنى .هنا السمير ... حيوانات السفينة نوح انطلقت فى الغابات هنا من أشجار الصنوبر والسرخيات. والخرازيات الهائلة الأحجام والأطوال .. الغوريلا والفيلة والأسود والنمور تصارع معنا الوحوش هنا السمير .. لقد ظهر لنا حتى الآن الديناصور "برونتوسورس" أو السحلية المرعبة. وزنه يعادل وزن عشرة أفيال .. ذنبه أطول من رقبته الطويلة وأطرافه تشبه جذوع الأشجار وطوله الكلى سبعون قدمًا ... الرأس صغيرة ... إنها غبية وتأكل العشب وتشرب الماء بنباتاته الدقيقة ... إنها تخوض الماء ..هذا الحيوان البشع أطاح بعدد من الأطباق الطائرة ومهك مزيدا من الرجال تحت أقدامه خيالية الثقل والضخامة..هنا السمير. مزيد من الديناصورات المروعة.. الديناصور "استيجوسورس" أو السحلية المدرعة.. على ظهره صفائح عظمية تكون درعًا مخيفًا، وقرب الذنب توجد أشواك حادة .هذا الديناصور شاهدته يلتهم أسدا ونمرا فى وقت واحد.. وسجلت ذلك بكاميرات السمير ..هنا السمير. برز لرجالنا الذين يكافحون ببنادقهم الهزيلة ديناصورًا أشد شراسة ...إنه يلتهم الرجال كما لو كانوا نوعا من القراقيش والغريبة المصرية .. إنه أقبح ديناصور شكلا.. أسنانه حادة بشمة بارزة من الفم .. الطرفان الخلفيان وذيله مدرعة تماما... أماميتاه متقزمتان ولا تصلحان للسير، ولكنهما مزودتان بمخالب مروعة... السمير تستأنف الإشارة : لقد هاجمنى الزاحف الطائر "ترودكتيل" أو ذو الأصابع المجنحة: أكثر من مرة وأنا بالطبق الطائر السمير.. إنه بشع المنظر جلدى الجناحين وله أسنان حادة ماضية فاتكة ، ولولا أننى كهربت سطح السمير لما تركنى ومضى إلى غيرى.. حقًا... يا لها من تجربة قاسية أن يدفع بالإنسان فجأة كحيوان ثديى من العصر الحديث إلى حقب موغل فى القدم وإلى أشنع عصر يمكن أن يتخيله المرء ...إنه عصر الزواحف الرهيبة ... لقد قدر لنا أن نواكب آخر حقب الحياة القديمة .. العصر البرمى ..هنا السمير ...

ـ الجنة ترجو السمير ... الجنة تناشد السمير: أرسلوا لنا ما يجرى تليفزيونيًا ... رجاء من الجنة .. قلوبنا معكم وأنتم تخوضون عصر الزواحف... نناشدكم الإرسال تليفزيونيًا ...

ـ السمير تجيب ... سنجيبكم طلبكم فى التو ... هنا السمير ...

جحظت العيون بداخل السفينة آمون .. أمام شاشات التليفزيون بالمائة طابق المكونة لها .. جحظت العيون وراحت تحملق فى غيبوبة إلى الإرسال التليفزيونى الآتى من الزهرة ٤..لقد

روعوا وفغرت أفواههم وكادت ألسنتهم تتدلى وهم يشاهدون الديناصورات العملاقة وهى تخرج على الزنوج من غابات الصنوبر والسراخس والحزازيات العملاقة .. كانت الزواحف الطائرة تهاجم من أعلى فتخطف السود فى أفواهها لتطير بهم وتختفى فى ظلمات الغابات ، وكانت الديناصورات الأخرى تدهس الزنوج بأرجلها ثم تحملهم إلى فكوكها الضخمة فتمضغهم فى بشاعة وشراسة وهى تجعر وتزأر، ولم يكن يملك لها الرجال غير طلقات الرصاص وقنابل المدافع التى كانت أشبه بالحصى الرفيع بالنسبة لتلك الكتل الحية هائلة الضخامة بشعة الشراسة ، تلك التى تمثل عصر الزواحف الأرضى فى أوج شبابه وعنفوانه وجبروته .. حقًا .. لقد كان الخالق رحيمًا بالثدييات عمومًا وبالإنسان خصوصا عندما أعفاه من معاصرة مثل ذلك العصر المروع الذى لا يمكن للثدييات أن تقوم فيه لها قائمة ....

ومن خلال مقصورة القيادة صرخ روالد بالسعير :

- الجنة تحدث السعير..ستهلكون بتلك الطريقة ..الديناصورات كثيفة العدد ولا يؤثر فيها الرصاص أو المدافع ... الجنة تنصحكم باستخدام قنبلة ذرية لحسم المعركة ...

- السعير تجيب على الجنة .. هل يمكن للجنة أن توصى بقنبلة ذرية !!

- الجنة تجيب على السعير .. هنا الجنة ... هذا أفضل تصرف لحسم الأمر أيها السعير..

- السعير ترد على الجنة ..هنا السعير ... تقصد الجنة أن تحسم المعركة كما حسمتها من قبل أمريكا بإلقاء قنبلتها الذرية الأولى على هيروشيما !!

- الجنة تجيب على السعير ..هنا الجنة .على السعير أن تنسى كل آلام الأرض كما قلت لك من قبل .لو كنت تحت قيادتى لأمرتك من الفور، ولكنك الآن تقود جنسًا بشريًا بأثره .. إنه الجنس الزنجى.. إنك بذلك تبيدهم أيها اليابانى أنطونيو هيتو.. عليك بقنبلة ذرية وليتقهقر الجميع إلى أبعد مدى ...

- السعير ترد على الجنة.. هنا السعير .. لا يمكنك أن تأمرنى بشىء يا روالد .. لن أفجر أية قنبلة ذرية حتى لو تَطلبَّ ذلك النكوص على أعقابنا نحو الأرض للدمار هناك هنا: السعير.. انتهت الإشارة ... هنا السعير ... ستتوقف عن الإرسال التليفزيونى حتى لا يتأثر مهجوروكم من جراء ما يحدث لنا ...

وصرخ روالد فى المرسل ، ولكن هيهات أن يفيده الصراخ ..

كان لما شاهده المهجرون إلى المريخ من أحداث: أبلغ الأثر وأفظعه ..لقد بكت النسوة وصرخ الأطفال وتكهرب الرجال ... ولكن هيهات أن يجديهم كل ذلك .. لقد كان مصيرا محتوما ...

وانصرمت الأيام ....

وأخيرا وفى نهاية اليوم ٥٠٠ أى بنقص قدره ٥٨ يوما عن العدد المرجحة نظريا صدرت إلى كل السفن السابحة فى الفضاء نحو كوكب المريخ ٤ من سفينة القيادة "الجنة" تلك الإشارات :

ـ الجنة تحدثكم .دخلنا مجال المريخ ٤ ... سندور حوله قليلاً ..

ـ هنا الجنة ... السلام والمحبة تاج فوق رءوس الجميع ... لن تكون هناك ثمة شعوب فوق المريخ ٤ كلنا شعب واحد ... شعب الأرض .. نحن فى حاجة إلى قوى الجميع ومواهبهم .دعاء لكم بالخير والسؤدد على المريخ ٤ .ظروفنا مغايرة لظروف الزهرة ٤ ...

وانقضت فترة زمنية ، وإذا بإشارات أخرى :

ـ على كل سفينة أن تستعد ... المائة طابق بكل سفينة ستنفتح رأسيًا، وسينزلق كل فرد من فوق سريره عبر تلك الطوابق إلى أسفل ، وسيستقر بذلك كل مائة راكب بداخل كل طبق طائر من الأطباق المثبتة من الخارج على سطح كل سفينة ...الأسرة سوف تنفتح وستتحول بالتبعية إلى جدار لإسطوانة طويلة تؤدى كل واحدة منها إلى طبق طائر أسفلها مباشرة ..

والآن ... فليستعد الجميع .. الأطباق ستطير من فورها إلى سطح المريخ ٤ ... لدينا مائة ريان بكل سفينة .. وحاليًا سوف يستقر كل ريان منهم بطبق طائر ليقوده إلى سطح الكوكب للهبوط فوقه فى هدوء ...ستترك سفن الفضاء لتدور خارج غلاف المريخ ٤ الجوى ؛ وستتخذ لها مدارًا جيدًا وملائمًا لأحجامها الكبيرة ... ستهبط حيوانات ونباتات وبذور سفينة نوح بالمظلات .. وسيتم ذلك أيضا بالنسبة للتراث البشرى ...دعاء لكم. عليكم بالمحبة ..الإخلاص ...التآخى .. التعاون ...التكاتف ..لا بغضاء ..لا أحقاد ...لا أنانية ...أحبكم ..أحبكم جميعًا ... دعاء لكم ...على بركة خالق الكون والأكوان ... ليدع كل منكم لإخوانه المرتحلين إلى الزهرة ٤ .. سنتصل بهم ..هنا الجنة .. روالد ...

انطفأت فجأة جميع الأنوار الخضراء المضيئة بالسفينة آمون كسائر السفن الأخرى، وفى نفس اللحظة تمامًا: أضاءت الأضواء الحمراء فصفرت صفارات متقطعة عشر مرات، وانفتح كل سرير بكل طابق من المائة بطريقة تلقائية وتحول ضلفتاه بالتبعية إلى جزء من جدار اسطوانة طويلة، وانزلق خلال كل ماسورة: مائة فرد ليهبطوا بطريقة آلية محسوبة بكل دقة داخل طبق طائر مستدير ...

كانت غادة فى تلك اللحظات قد صارت بداخل طبق طائر وسطى ملتصق بسطح السفينة الجبارة آمون ، وقد خط عليه اسمه من الخارج باللغة الإنجليزية " الإسكندر ذو القرنين" ، وكانت تجلس فوق أريكة مستديرة تماما مبطنة بالإسفنج تتسع لخمسين فردًا ، وفوقها أريكة أخرى مماثلة تمامًا .. حدقت حولها فى دهشة وخوف، ولقد كانت غبطتها لا توصف حينما رأت فيلسوف الغباء تشارلى يجلس على مبعدة منها بنفس الطبق الطائر ، ولم تكد الدهشة تبدأ فى التشقع عن الجميع حتى هتف تشارلى وهو مرتعد اللحية :

ـ لم أكن أفهم ذلك مطلقًا !! .. أوه !! ...إذاً فإن التبتى الذى كان على ميسرتى قد ذهب خلال ماسورة مجاورة إلى طبق آخر .ورجل الإسكيمو الذى كان على ميمنتى قد ذهب خلال ماسورة ثالثة إلى طبق مختلف .. غبائى يكاد يصعق جراء تلك الألاعيب التى تطلع بها علينا وكالة الفضاء... يا للقدر، بل ويا للتنظيم غير المقنع والذى يقرب إلى حد الخزعبلات ... ثلاثة كانوا متجاورين وعلى أسرة متجاورة ..أنا والتبتى ورجل الإسكيمو ... فإذا بنا نجد أنفسنا وقد تفرقنا فى أطباق ثلاثة ... لو كنت أعلم ذلك مسبقًا لما اتخذت من التبتى عاشق الدلاى لاما : سكرتيرًا خاصًا ... تبا لى ولغبائى ...

وهنا همس الجميع وبلغات متباينة :

ـ اللعنة على لحيتك يا تشارلى ... سحقًا للحيتك يا تشارلى ...

ولم تكد الهمسات تتلاشى حتى شعر الجميع بما يشبه الانفصال ، ومضى وقت انحبست فيه الأنفاس ودارت الرءوس ، وإذا بالأغطية المعدنية تنحسر عن جسم الطبق الطائر وتظهر جدرانه ذات السمك الغليظ ، فراح الجميع يحملقون دون أن يشاهدوا الربان الذى يقود الطبق ...

ياله من منظر يأخذ بالألباب ويعصف بالأرواح على شواطئ الحيرة وألدهشة.. ياله من منظر رآه ركاب الطبق الطائر " الإسكندر ذو القرنين " والذى تستقله غادة ...

لقد شاهدوا الأطباق الطائرة التى لا يكاد يدركها حصر ...

شاهدوها وهى تمرق بجوارهم عبر الغلاف الجوى للمريخ ٤ منزلقة انزلاقة فقاقيع الهواء فى ليونة ونعومة خيالية وهمية ..

راحت الأطباق الطائرة تقترب وتقترب ، وكلما زاد اقترابها من سطح الكوكب : بدت للعيون المبهورة مروج من الخضرة الكثيفة فى شكل غابات مسطحة نامية هنا وهناك وهنالك فوق

هضاب شاسعة وجبال شاهقة يعجز الخيال عن إدراك مدى ارتفاعاتها وقد تسنمها الجليد وبدت أجنابها وقد اكتست بمرايل الثلوج ... كانت الأطباق فى تلك اللحظات الرهيبة قد اقتربت من هامات وأعالى الغابات المجهولة ، وجازف بعضها واستقر فوق قمم تلك الغابات مفضلا الا يهبط على السطح مباشرة ، ولكن البعض الآخر فضل أن يهبط فوق السطح رغم ما تغطيه من ثلوج ...

هبط فى تلك الأثناء الطبق الطائر " الإسكندر ذو القرنين " الذى تستقله غادة ـ وذلك باختيار الريان القائد ـ فوق تاج غابة كثيفة تبدو بعيدة فوق هضبة شاسعة مرتفعة، وكانت تلك الغابة تتكون من أشجار ضخمة من السرخسيات العملاقة ذات الأوراق العريضة الملونة بلون أخضر قاتم .. وعندما هبط هذا الطبق الطائر الإسكندر ذو القرنين فوق ذلك السطح الأخضر : انتظر الريان فترة وقد كانت الشمس ساطعة ولكنها ترسل ضوءًا أبيض لامعًا يشبه أضواء النيون الكهربائية الصناعية ، ولم يلبث الريان أن فتح كوة واسعة فى قاع الطبق يقود إليها درج ، ثم حدث الركاب المائة الذين يستقلون الطبق، وذلك من خلال ميكروفون يأتى صوته من فوق الرءوس من المقصورة العليا الخاصة بالقيادة :

ـ سنزيح الستار المعدنى من خلف ظهوركم والذى يمثل ظهر الأريكتين المستديرتين.. ستظهر لكم بنادق سريعة الطلقات ...إنها سلاحكم ضد المخاطر ... على كل رجل وامرأة حمل السلاح .. لقد دربتم جميعًا فى قرية التهجير ... الرصاص معبأ فى جعبات صغيرة من القماش .. على كل أن يحمل منها عشر جعبات ...دعاء لكم ..تكاتفوا تعاونوا .أنتم شعب واحد .نحن فى اختبار عسير .. لنا إخوان يكافحون على كوكب الزهرة ٤ نحن شعب لفظه كوكبه الغادر .. على كلٍ التقنع بالقناع الواقى من البرد القارس .. اجذبه من خلف السترة .. لا تدخل وجهك بعنف فى الطبقة المطاطية الشفافة... القناع مطاط للغاية .. البس القفازات.. استبعدنا كل الأسلحة غير التقليدية من بيولوجية وإشعاعية حتى لا نستخدمها ضد بعضنا البعض ...

هبط الركب المائة الدرج السفلى واحدا اثر الآخر ما بين نسوة ورجال وبعض الصبية والبنات لا تتجاوز أعمارهم العشر سنوات ...

كان يتقدم الجميع تشارلى فيلسوف الغباء ، وكانت غادة قد تحايلت بطريقتها الخاصة فصارت من خلفه مباشرة أثناء الهبوط ...

ألفى تشارلى نفسه فجأة يهبط أغصان الشجر : فصار فى غمضة عين وكأنه قرد طويل نحيل له لحية كثيفة أفرجت عنها وكالة الفضاء بصعوبة ، ولم يكد يحدق أسفله : حتى هاله

الارتفاع الذى هو عليه، وهالته تلك الأغصان المتشابكة والأوراق المتعانقة المتفيهبة فى بعضها البعض وهنا لم يتمالك : فقبض بشدة على جذعين متقابلين، ثم همس وقد وقفت غادة من خلفه فى حيرة :

ـ هه .. قرد غبى كثُّ اللحية "يتشعبط" ويتسلق الأشجار ، ومن شدة غبائى كقرد غير مدرب : أن أجازف وأصعد إلى قمة الغابة بأثرها ..هه .. يالى من غبى .. ما الذى جعلنى أصعد كل هذاالارتفاع ؟؟ كان من المتوجب أن أتسلق إلى نصف هذا الارتفاع...

انتقى الفيلسوف الأمريكى البالغ من العمر ستين عامًا.. انتقى فرعًا مورقًا سميكًا وجلس عليه ممسكًا بفرع آخر قريب ، واضعا نعليه الأزرقين المصنوعين من اللباد الزجاجى المضغوط: على شفة أحد تجاويف الشجرة، وما كاد يفعل : حتى شاهد باقى الرواد المائة نسوة ورجالا قد احتذوا حذوه وجلسوا بالقرب منه فوق الجذوع والفروع وقد قبضوا على الأوراق الطويلة العريضة خوفًا من التردى والسقوط ، وهنا جاء الجميع هتاف شاب وسيم يقف فوق غصن طويل على مبعدة :

ـ أيها الرجال.. أيتها النسوة .. هلموا من خلفى إلى أسفل .. يجب أن نهبط .. أنا قائدكم" سيمون " الدنماركى .. أنا ريان وقائد طلبقكم الطائر " الإسكندر ذوالقرنين "

وهنا هتف الجميع وبلغات مختلفة :

ـ مطلقا !! ..قائدنا هو تشارلى ....

فقال الرجل :

ـ يا للكارثة ..كيف تختارون رجلاً مسنًا كهذا الأمريكى !!!

وهنا استشاط تشارلى غضبا وجذب لحيته جانبًا ثم قال للرجل :

ـ أوه .. لعلك تقلل من شأن الغباء يا سيدى !! .. كيف يتأتى لك ذلك علما بأننى حاصل على الدكتوراه من جامعة " متشجان " وكانت رسالتى فى تمجيد الغباء فى مواجهة الذكاء!!

فقال سيمون وقد جلس فى تبرم على فرع كبير :

ـ يا للداهية !! ماذا أصنع بك يا تشارلى !! إن ..

ولم يكمل الرجل جملته، فلقد علق الجميع أبصارهم فى اتجاه السماء ...

لقد شاهدوا مئات المظلات تهبط فى بطء شديد وقد حملت كل مظلة حيوانًا من حيوانات سفينة نوح إلى جوار مظلات أخرى تحمل صناديق ضخمة ..

حلقت الفيلة والغوريلا والنمور والأسود والقرود باختلاف أنواعها والدببة القطبية البيضاء والسوداء والبنية، والحمير والجياد، وكل حيوانات أغرب استعراض على مر الدهور ...

وفوق الغابة التى هبط فوقها ركاب الطبق " الإسكندر ذو القرنين " هبط عدد من الغوريلا والأسود والنمور والدببة القطبية ومزيد من الغزلان...

وهنا هتف سيمون الدنماركى بالإنجليزية :

ـ لا بد أنهم قد أخصبوها بسوائل الذكور قبل أن يسمحوا لها بالهبوط ..

فعلق تشالى فى استياء :

ـ ما لنا ولإخصاب تلك الحيوانات !! لابد أن نفكر فى الأمر بغباء ..

وفى تلك الأثناء كان قد هبط ذكر من ذكور الغوريلا فوق الأغصان القريبة، ومن فوره مزق حبال المظلة بأسنانه متخلصًا منها، وما أن شاهد أفراد الطبق الإسكندر: حتى دق على صدره فى عنف وجعل يزمجر ويزار محتدًا مهددًا متوعدًا، وراح يتسلق الأغصان فى اتجاههم : مشيعًا الرعب ، وهنا هتف الشيخ الأمريكى :

ـ تبا لوكالة الفضاء ... كيف لها أن تطلق علينا الغوريلا !! أعداؤنا الأرضيون وراءنا وراءنا.. لا مندوحة من الهبوط ...

وهنا هتف الدنماركى :

ـ علينا بقتل الغوريلا طالما أنها تهاجمنا...

فهتف الجميع وقد أزعجتهم الغوريلا بتهجمها :

- يجب أن نستفتى تشارلى ...

فهتف الأمريكى مرددًا :

ـ قلت كلا .. حقيقة أنه من الغباء تركها تهشم يافوخ أحدنا ، ولكن لابد من إدراك أن هنالك غباء أعظم من غبائنا ...إنه غباء وكالة الفضاء ..لا بد من تبجيل غبائها بترك الغوريلا...

وبدأ الجميع فى التسلق إلى أسفل تحت قيادة تشارلى ، والغوريلا فى أعقابهم تهدد ...وما كادوا يصلون إلى ارتفاع تسعة أقدام عن الأرض حتى فوجئوا بمجموعة من الحيوانات

الضخمة تقف أسفل الأشجار متفرقة وقد اشرأبت برءوسها إلى أعلى فى اندهاش ، وهنا هتف سيمون الذى صار تحت قيادة الفيلسوف الأمريكى عن طريق الانتخاب الجماعى :

ـ إنها دببة الكهوف ...إنها أجداد الدب القطبى الأبيض .يا إلهى !! .دببة الكهوف الضخمة !!...إنها أجداد الدب القطبى " نانوك " ...الماموث الضخم ذو الفراء !! ..إنه جد الفيل الإفريقى ..المستودن الهائل !! : الذى له نابان فى الفك العلوى والفك السفلى ، إنه أحد أجداد الفيل ...ما هذا الطائر الذى ألمحه يحط فوق السرخس " الختشار " البعيد!!..إن ذنبه كذنب السحلية ... يتسلق الفروع بمخالب جناحيه الضخمين ... إنه له أسنان على منقاره الطويل .. يا إلهى !! .. إنه هو طائر "الأركيوبتركس" .. إنه جد الطيور قاطبة ... إنه يتغذى على الأسماك إذاً ففى البحار هنا أسماك.. إننا فى مستهل حقب الحياة الحديثة... إننا فى أواخر عصر البليوسين وبداية عصر الجليد الأعظم ... دب الكهوف هو خير دليل على ذلك، لقد ارتددنا إلى الوراء ستين ألف سنة ...

وبينما ينظر الجميع إلى أعلى : إذ بهم يشاهدون ثلاثة من الدببة البيضاء وفيلاً ضخمًا إفريقيًا تهبط فى بطء نحوهم وقد انضمت إلى الغوريلا .بيد أنهم سرعان ما شاهدوا الفيل يهوى بحكم ثقله منزلقًا بين الأغصان ليستقر أخيرًا وجها لوجه أمام دببة الكهوف المخيفة والحيوانات الكوكبية المستغربة ، كما شاهدوا سربًا من طائر " الكركر" القطبى مرددًا نغمته المعهودة " إرور .. إرور ... إرور.."

وأصدر تشارلى أمره بغتة :

ـ علينا بالانسحاب جانبًا .. دعوا حيواناتنا الأرضية تهبط إلى ميدان المعركة ...

وانسحب الجميع فوق الأغصان والجذوع المتشابكة والتى كونت فيما بينها قنطرة رائعة عبرها الرجال والنساء ، مما جعل الرعب يستبد ببعض الصغار، فجعلوا يصرخون ويبكون مولولين بلغات متباينة، ولسوء الحظ: انزلقت فتاة بين الأوراق الناعمة، وإذا بها فى غمضة عين تصير وجها لوجه أمام الخطر الداهم ... لقد صارت أمام دب كبير ملتوى المخالب مكشر عن أنيابه ...

انطلقت مالا يقل عن ألف طلقة نحو الدب الكبير: فتثقب جسده من كل اتجاه ، وانطلقت صيحة :

ـ اصعدى إلى أعلى .تشبثى واصعدى أيتها الصغيرة الإنجليزية .ستكونين جدة فى يوم ما على كوكب المريخ ٤ ..إنك جدة مكلفة أيتها الصغيرة ...

وفى سرعة المستغيث : قبضت الفتاة على الأغصان القريبة ، وجعلت ترتقى الجذوع فى استماتة : فى الوقت الذى كانت فيه الحيوانات الأرضية قد اتخذت سبيلها إلى أرض الغابة المغطاة بالأعشاب الخضراء والزرقاء والحمراء وفطريات عيش الغراب السامة والتى كان من بينها قلنسوة الموت وعيش الأحمق وعيش الشيطان ...

راح الجميع ينتظرون ما سينشب من معارك ضارية متوقعة بين الحيوانات بوصفها أحفاد وبين حيوانات عصر الجليد الأعظم بوصفها أجدادًا ..راحوا يرقبون من سيغلب ؟؟

عندما هبطت الحيوانات الأرضية إلى أرض الغابة: حتى توزعت فيما بينها توزيعا تلقائيا حقا لا يمكن أن يوصف إلا بالتعقل الفطرى ..

وقفت الدببة البيضاء الثلاثة فى مواجهة دببة الكهوف العشرة المريخية، وجابه الفيل الإفريقى حيوانى الماموث والمستودن الوحيد الواقف على مبعدة وكأنه المشرف على المعركة التى ستدور ، أما الغوريلا الوحيدة فلم يسعها حيال ذلك إلا أن تقف من بعيد لتدق على صدرها وفخذيها وساقيها بكفيها المفتوحتين وكأنما تقول :

ـ الويل لكل من يتقدم ناحيتى!!

وفى تلك اللحظات الرهيبة : شاهد الجميع من بين الأوراق والجذوع المتشعبة طائرا من طيور الكركر يحط على مبعدة من طائر الأركيوبتركس وينظر إليه فى استغراب شديد مرددا :

ـ ارور ...ارور ..ارور ...

وفى دهشة وحيرة من الجميع : تقدم دب أبيض أرضى من أحد دببة الكهوف الذى كان ينظر إليه من أعلى إلى أسفل مستفسرًا وقد انحبست الأنفاس ترقبا للمعركة الحرجة المحتمة ...

بيد أن ما حدث كان على خلاف ما يظنون .. أجل .. فلقد رفع الدب القطبى الأبيض إحدى أماميتيه نحو رقبة دب الكهوف الجد وراح يداعب فراءه فى دلال ومرح وقد تلاقت عيونهما ، وعندما أحس الدب الأبيض نانوك بهذا المزيد من الحنو من جده العظيم : طفق يداعبه بمزيد من المداعبات، فراح يدخل فمه فى داخل فم جده، ماسحًا بلسانه على فرائه الكث المتلبد : متحسسًا ذاك الفراء بأماميتيه معجبا بعضلات الجد الضارية الضخمة ، وما لبث أن جعل يتقلب على ظهره فوق صدر دب الكهف حالم النظرات :

ـ أى جدى العظيم ... لقد فهمت من أول نظرة أنك جدى ..لاشك فى ذلك أيها الجد الأعظم !!.. لا تحزن يا جدى ، هأنت ترى حفيدك الآن بعد انمضاء ستين ألف عام..

يمكنك أن تفخر بى ، لقد ورثت عنك منطقة القطب الشمالى الأرضى بأكملها، ولقد كنت عند حسن ظنك تماما ، إن الكل هناك يهابنى ويخشانى ويعمل لى ألف حساب ...

ولقد كان من الطريف حقًا أن تحذو بقية الدببة حذو الدب الأول ، فراح الجميع فى عناق ومداعبات طويلة يعجز المرء عن تصديقها أو توهمها ..

لقد كان الفيل الإفريقى ضئيلاً للغاية أمام جده .. امتد خرطوم الحفيد الإفريقى نحو خرطوم جده الكثيف الشعر وتعانق الخرطومان ، ومسك الجد نابيه المتوحشين على نابى حفيده فصدر عنها صوت رنان ، وكأنما يختبر الجد نوع العاج الذى أورثه الحفيد، ويبدو أن عاج الحفيد قد حاز إعجاب الجد تمامًا، فلقد جعل يصفق بأذنيه الضخمتين على جانبى رأسه ، ثم أطبقهما فى وُدٍّ فاحتوى بهما رأس حفيده الذى راح يشب برجليه الأماميتين على صدر الجد الحبيب ...هذا ، ولقد كان من العجيب حقًا أن يشاهد المهجرون الأرضيون : طائر الكركر القطبى وهو يتقافز فى مرح أمام جده الأكبر الذى كان يمثل مرحلة انتقال بين الزواحف والطيور ، ولقد بلغت به الجرأة أى مبلغ : أن جعل يشاكس ذيل الجد الطويل والذى تعرت بعض أجزائه من الريش :

ـ ليس هكذا يكون الذيل يا جدى ؟؟إن هذا الذيل يكاد يشبه ذيل سحلية ..

ولم يسع الجد حيال تلك السخرية التى يتصف بها عادة طائر الكركر حتى وهو على الكرة الأرضية ..لم يسعه إلا أن يحرك ذيله المستهجن فى وجه حفيده يمنة ويسرة مرددا بصوت غليظ صادر عن منقاره ذى الأسنان :

ـ ققرو ...ققرو ...ققرو ...

وإزاء ذلك لم يسع الكركر إلا أن يتهقه مرددًا :

ـ إرور ...إرور ...إرور .... ويعنى :

ـ أى جدى الظريف الطريف .. ليس من المتوجب أن تغنى ... إن صوتك يشبه صوت الضفدعة ....كما أنه من الشنيع أن توجد أسنان فوق منقارك ياجدى الظريف ...إما أسنان وإما منقار يا جدى اللطيف ...

وهنا هتف تشارلى من أعلى جذع السرخس المارد :

ـ إذاً وطالما أنه حفل تعارف بين الأجداد والأحفاد بعد أن مر عليها ستون ألف سنة دون تلاق ، فإنه لا يسعنا إلا أن نهبط جميعا دونما خوف ، ولكن لا أظن أن بمستطاع أحدنا

أن يرتمى فى أحضان الغوريلا .. لقد خدعنا إذًا دارون عندما قال إن الغوريلا أحد أجدادنا فى سالف الزمان ..

وما إن سمع الجميع كلام تشارلى : حتى كادوا يهبطون إلى الأرض على مبعدة من حفل التعارف ، وما كادوا يفعلون حتى التفتت الدببة أجدادًا وأحفادًا نحوهم، وسرعان ما كشرت الأنياب واحتد الزئير ، وهنا أسرع الكل لارتقاء شجيرات وأشجار السرخس وهم يضجون :

ـ اللعنة على لحيتك يا تشارلى ... اللعنات تتساقط على لحيتك يا تشالى... إنك عاطفى تمامًا يا تشارلى ...لن نأتمر بأمرك بعد اليوم يا تشارلى ...بل لن نأتمر بأمر أحد يا تشالى ...

هدأت الغوريلا، وجعلت تنسحب بعيدًا بعيدًا وهى تتلفت حولها بين لحظة وأخرى، ولم تلبث الدببة أن تحركت وقد بدت الأحفاد تجد من خلف الأجداد مخترقة دروب الغابة المترامية فوق الهضبة ،ولم تلبث الفيلة أن انسحبت هى الأخرى، ويبدو أن الحفيد الأرضى قد عاهد أحد أجداده على أن يتناوب معه الحراسة ...

وما أن خلى المكان من كل تلك الوحوش: حتى هبط ركاب الطبق الطائر " الإسكندر ذو القرنين " إلى أرض الغابة ، وراحوا يتجولون فى نفس البقعة ، فألفوها أكثر دفءً من الخارج ، ولما كانوا غير وثيقى التعارف : فإنهم راحوا يتجاذبون أطراف الحديث وقد تجمع أفراد كل دولة واحدة مع بعضهم البعض ..

مضى الوقت والجميع يتبادلون أطراف أحاديث شتى طويله مبهمة الطابع...

وبينما ذلك: تحدث أحد رجال الإسكيمو القصار بصوت مرتفع محدثًا زملاءه وكان عددهم عشرين فردًا مابين نسوة ورجال وصغار :

ـ يا معشر الإسكيمو ..إنها أرضكم ..إننى أشم رائحة الجليد فى كل مكان .. إنه هناك فوق الروابى والهضاب والجبال على امتداد السطح كله ..طالما أن هناك جد "تانوك " فنحن بخير ...

وحالما أتم حديثه : كان صحبه يسيرون فى معيته مبتعدين ، وأثناء ذلك طفق رجل الإسكيمو الأول يردد من بعيد :

ـ يسموننا شعب الإسكيمو ، أى الذين يأكلون الطعام نيئًا، ولكننا نسمى أنفسنا "نويت" .يازوجتى سنبنى بيتنا من جديد، وستخلعين حلة الفضاء لتلبسى " التونيك"، سألبس الباركا وسأصنع قارب " الكاياك " ... يا زوجتى لن أبخل عليك بأحد

...أتفهمين؟؟؟ .... يا أمي لا تجزعي وقت الموت ، سأغلق عليك باب من الجليد لتموتي في هدوء ...

وبعدما اختفى قوم الإسكيمو: هتف رجل إنجليزي محدثًا صحبه الإنجليزي :

ـ في بلادنا يعيش العندليب في الغابات .. أنه شجي الصوت حلو التغريد، ولكن بيضه ليس أبيض... إنه أسود.. أتعلمون لماذا !!..لأنه يبني عشه على الأرض ، ولكن بيضته السوداء تعطيك في النهاية عندليبًا أعذب صوتًا من تلك الطيور التي تبيض بيضًا أبيض ...

وانسحب القوم رجالاً ونسوةً وأطفالاً أولئك الذين كانوا من مختلف الأعمار، وبرعب قاتل حقًا هتف بهم الأمريكي تشارلي وهم يبتعدون :

ـ إلى أين أنتم ذاهبون يا أولاد العمومة !!

فأجابه أحدهم على بعد :

ـ سوف نبحث عن " لندن " فوق المريخ, ٤..

فصاح الأمريكي الفيلسوف :

ـ خذوني معكم إذاً ..لا يوجد أمريكي واحد هنا !! ...

فأجابه أحدهم وقد صار على بعد داخل الغابة :

ـ كلا يا تشارلي ..إنك لست إنجليزيًا .. إنك أمريكي ...

وانسحب سيمون الوسيم مع صحبه الدنماركيين وقد كان عددهم اثنى عشر فردا، وتبعتهم جماعة الألمان وكان عددهم خمسة وعشرين فردا ، ثم ثلة الفرنسيين وكان عددهم عشرين فردا ، ثم انسحب الإيطاليون وكان عددهم سبعة أفراد فحسب ...

لقد طالب العجوز الأمريكي كل جماعة منهم بالانضمام ، ولكنهم رفضوا ذلك تماما ..

وهنا جعل يجمر بأعلى صوته عل أحدهم يسمعه :

ـ كانت أمريكا تتبنى الجميع ...ألم تساند روسيا ضد هتلر !! ألم تكن البادئة بإلغاء الرق قبل إنجلترا ؟؟ ألم تغدق على كل الشعوب بالمعونات الغذائية والمالية ؟؟ ألم تكن سببًا في حضارة اليابان والصين الحديثة ؟؟ ألم تكن القوة المضادة للحركة الشيوعية ؟؟

ولكن هيهات أن تستجيب له أية دولة من الدول المبتعدة عنه وقد ازورت بأعناقها... بيد أنه وبينما يتلفت حوله لم يجد غير مخلوق واحد يقف من خلفه على مبعدة... أجل .. إنها غادة المقابر ...

ابتدر الأمريكى الفتاة بلغته الإنجليزية:

ـ مرحبًا بعزيزتنا ... من أية جنسية أنت ؟؟ أراك جميلة أيتها البنية...

ولما لم تفهم غادة حرفًا واحدًا ، قالت :

ـ سأظل معك يا سيدى لأن لك لحية مثل لحية العم جمال ..

ولما لم يفهم الرجل حرفًا واحدًا مما قالته، وعند ذلك لم يسعه إلا أن يتحرك فى اتجاه مضاد لما سلكه الآخرون ، قائلاً :

ـ لابد من اتجاه مضاد .. يحسن أن تأكلنا الوحوش ، وإذا قدر لنا أن نعيش وألا نجد الأمريكيين : فإننى سأعمد إلى نهج منهاج الغجر .. سأزور كل دولة صغيرة.. سأعمد إلى الرقص والطرب ومايحذقه الغجر للترفيه عن الأقوام طلبا للرزق ...

سار الفيلسوف ومن خلفه سارت غادة وقد قبضا على قناصتيهما استعدادًا لأى طارئ أو حيوان متوحش غاشم يريد حياتهما، وإذ هما يجدان فى السير : شاهدا ضوءًا باهرًا يبصبص من بين ثنايا الشجر والشجيرات ، فأيقن الأمريكى أنها نهاية الغابة ، فأسرع الخطوات ساحقًا بنعليه الطويلين مزيدًا من قلنسوات الموت وعيش الشيطان ...

وإذ صارا عند مدخل الغابة الكثيفة: طفقا ينظران إلى ما بخارجها على امتداد البصر، فشاهدا الجبال العالية وعلى قممها أكام الجليد وعلى صدورها مرايل الثلوج.. شاهدًا عديدًا من صنوف الجبال وأشكالها ما بين حلبات ومسلات وسنون مدببه وجروف ووديان ونجاد وأحواض ثلجية وركام وهضاب ممتدة قد اكتسى أغلبها بالجليد السميك، وبين هذه وتلك شاهدا ألوانا من النبت المتفرق هنا وهناك وهنالك، فتمتم الأمريكى :

ـ هناك فى حضن الروابى ينبت الخشخاش الأصفر، هذا هو القرنفل يتسلق فوق المسلات العمودية، وها هى شقائق النعمان تنمو حول أبواب المغارات .. إننى ألمح زهر الكاكو وزهر الجرسيه ...

وهنا هتفت غادة بالرجل وهى تشير إلى البعيد :

ـ هناك.. هناك أيها العم تشارلى: إننى ألمح كهفًا رائعًا مرتفعًا مثل كهف عمى .. وألمح أسفل سفح الجبل كرنبات كبيرة للغاية لم أشاهد لها مثيلا من قبل ...

ولم يفهم الشيخ حرفًا واحدًا، ولكنه فهم من إشاراتها أنها تشير إلى الكهف البعيد وتقصده ، فتحرك من مكانه على مهل ، وجعل يهبط الصخور متجنبا قدر الإمكان كتل الجليد الرابضة هنا وهناك ،ولكنه كان مضطرا هو وغادة فى أغلب الأحيان إلى الخوض بنعليهما فى

الثلوج المندوفة ، وما لبثا أن هبطا الهضبة ، التى تتربع فوقها الغابة التى يحق لنا حتى الآن أن نصفها بأنها قد أحسنت استقبال المغتربين..

أسرعت غادة تجرى فى فرحة في اتجاه الكهف الذى انتخبته ، وعندما وقفت أسفله وانحنت على إحدى الكرنبات الكبيرة التى تزيد الواحدة منها على أربعين رطلا: جذبت ورقة وراحت تقضمها؛ وفراقها طعمها للغاية، جذبت ورقة أخرى بيضاء وهرولت بها إلى الأمريكى وقدمتها له ؛ فجلس على كتلة من الصخور المتوهجة الاحمرار وطفق يأكلها متمتما :

ـ حقا .. إنها أشهى مذاقا من طحلب الكلوريلا اللعين ...

وانحنت غادة على سيقان خضر تبدو زاحفة بأوراقها على الأرض ، وجذبت ساقا منها فانخلعت من تربتها البنية ، فظهرت عليها عديد من الدرنات على جذورها الليفية المتشعبة ، فاقتطفتها متمتمة :

ـ إنها بطاطا فى حجم بيض الدجاج .. لابد أنها لذيذة شهية طازجة ...

ونظفت واحدة بين راحتيها ثم قضمتها وهتفت فى سرور وهى تقدم واحدة منها للعجوز النحيل الطويل الذى اختفت لحيته أسفل القناع الواقى الشفاف :

ـ ذقها يا عم تشارلى ... إننى ألمح عديدا من شجيرات القطن الأبيض تنمو أيضا على مبعدة ...

وتناول الرجل الثمرة وطفق يلوكها بين شدقيه اللذين أطبق عليهما القناع المطاطى، وما كاد يلتهمها حتى ظهرت لهما على عتبة الكهف : دبة ضخمة بنية الفراء آتية من الأعماق ، ولقد كان من المدهش حقا أن يشاهدا وقد استبد بهما الفزع : شبلين صغيرين غاية فى الجمال والوداعة عند قدمى الأم ... وبما أن غادة كانت قد تتدرب فى قرية التهجير على حمل السلاح، وبما أنها قد خاضت أكثر من معركة ضد الذئاب مع العم جمال: فإنها لم تعان الكثير وهى ترفع البندقية نحو عينها لتصوبها نحو جمجمة الدبة الكبيرة المتطلعة إليها فى فضول واستغراب ...

ترنحت الدبة الضخمة وصرخت صرخة مقطوعة وتمددت بجوار وليديها : اللذين طفقا يلمسان فراء أمهما، ونظر أحدهما إلى غادة فى تهيب ، ثم أخرج لسانه الأحمر ولحس به شدقيه ثم أسرع إلى ما بين فخذى أمه كيما يرضع مزيداً من اللبن،وقد حسبها تغفو قليلاً بالرغم من الدماء المنبجسة من غرة يافوخها .. وهنا غمغم الفيلسوف وقد جحظت عيناه وهو يعود إلى الجلوس :

ـ يالها من فتاة مستغربة الجنسية ... بودى لو عرفت جنسية هذه الفتاة .. إنها عربية بالقطع لأنها تنطق " الضاد " ... ولكن من أية دولة عربية؟؟ إنها فتاة يمكن الاعتماد عليها تماما فى المخاطر التى بيتها لنا المريخ ٤ ...

وفى إعجاب بالنفس ، تقدمت غادة من الكهف وهى تتحسس قراب خنجرها وقراب مسدسها اللذين تتمنطق بهما على جانبى خصرها النحيل كما لو كانت ضابطا من ضباط الياتكى القدامى الذين كانوا يحاربون الهنود الحمر ، وما إن صعدت ركام الصخور والجليد الذى يكون درجًا قليل الارتفاع نحو الكهف : حتى انحنت على الدبة الكبيرة واستلت خنجرها، وجعلت تذبحها فى وحشية وجبروت مريع ، وقد تملكتها همجية أيام كانت على الكرة الأرضية تفتقر ..

وبينما هى تفعل وتقوم بعملية السلخ التى تعلمتها من عمها : جعلت تتمتم لتسرى عن نفسها فى الوقت الذى لم يبرح فيه الأمريكى مكانه:

ـ إلى الداخل يا منكر ونكير.. إلى الداخل حتى أذبح أمكما لناكلها أنا والعم تشارلى . هيا إلى الداخل ...ألا تعرفانا ؟؟ إننا غولان جئنا من الأرض التى من المرجح أنها قد انفجرت ... سنشويكما على النار .. قلت لكما أن تدخلا الكهف ..لابد أن كبد أمكما لذيذ ... إننى أحب كبد الحيوانات وأفضلها على اللحم ...

ما كاد الدبان الصغيران الجميلان يشاهدان الدم يسربل جبين المكان : حتى لاذا فرارا إلى الداخل ، واكتفيا بالبحلقة من خلال الظلام ...

سلخت غادة الدبة، وطرحت الفراء السميك الطويل العريض على الصخور ثم قطعت الأفخاذ؛ وألقت بالأحشاء الداخلية بعيدًا ومادتها أسفل الثلج المندوف، ثم أمسكت بالكبد الضخم وحملته بين يديها، وما كادت تهبط إلى الأمريكى الفيلسوف حتى وجدته قد أضرم نارًا بمشعله فى هشيم حطب القطن الذى جمعه من خلف تل صخرى قريب، ولكنه ما كاد يراها وبين يديها الكبد الضخم : حتى صرخ فيها قائلا:

ـ أيتها الذئبة المفترسة... كبد الدب سم زعاف ... يقضى عليك فى الحال ... سم " بويزون " ...

ولكن غادة لم تفهم منه كلمة واحدة فتعجبت من أمر ذلك الرجل الذى بدا لها ساعتها مخبولاً غبيًا، وعندما يئس من فهمها انتزع منها الكبد ودفنه فى الثلج، ثم عاد إلى الفتاة المتذمرة ...

شوى الشيخ والفتاة قطع اللحم الشهى على النار دون استخدام سفافيد، وأقبلا على

طعامهما الذى تاقت إليه معيهما بعد الرحلة الطويلة التى أوسعتهم فيها وكالة الفضاء بمزيد من طحلب الكلوريلا والبلانكوتين ... وما كادا ينتهيان من طعامهما: حتى لمحا جماعة ضخمة من طيور البطريق العملاقة التى لا يقل طولها عن متر .. لمحا تلك الجماعة تقبل من بعيد متهادية فوق الثلوج ، وهنا رفعت غادة قناصتها إلى صدرها، ولكن الفيلسوف الأمريكى أشار عليها بالهدوء وترك السلاح قائلا :

ـ هدئى من روعك .. إنها صديقة صدوقة لا تُكنُّ لك غير كل فضول يا" جادة".. سوف تحبينها كثيرا يا جادة ... رباه!!.. لم أكن أتوقع أن أرى البطاريق فوق هذا الكوكب الجليدى.

ونكَّستْ الفتاة سلاحها وطفقت تُحدِّق إلى البطاريق الآتية تدب من بعيد وقد بدت وكأنها مجموعة من البطاركة الدمثى الأخلاق ...

وما إن دنا رهط البطاريق من المفترِبين: حيث فرضت حولهما حلقة تشبه حلقة ذكر الدراويش، وراحت جميعها تبحلق فى فضول وذهول إليهما وقد بدت : ما بين منحن وقائم وما بين مقر ومعترض... وعندما ذهب تهيب غادة من تلك الطيور المستغربة والتى على جانب من الخلق والفلسفة والورع والفضول.. وما أن ذهب تهيبها: حتى اقتربت منها وجعلت تربت على ظهورها وأجنحتها السوداء وصدورها البيضاء ، ولم يسع البطاريق هى الأخرى إلا أن تدغدغ لها بمناقيرها على صدرها الناهد، الأمر الذى جعل الفتاة تضحك وقد استبدت بها القشعريرة جراء تلك الدغدغات الإباحية ...

أسرعت غادة تقطف زهور شقائق النعمان والقرنفل والخشخاش الأصفر والجرسيه، وعندها كونت منها باقة وقد تقافزت حولها البطاريق : أسرعت بها إلى العم تشارلى الذى تناولها باسم الثغر مثنيًا عليها بالإنجليزية ...

وتركته الفتاة وقد وضعت بندقيتها بجواره مسنودة إلى صخرة وردية اللون، واختفت خلف التل الصخرى القريب ، وراحت تجمع لوزات القطن الملون والمتأقلم؛ فتجمع لها حضن بأكمله : حملته واتجهت به إلى الفيلسوف والبطاريق تتقافز وترمح من خلفها وقد وجدت فى تلك الفتاة ما يشحذ فضولها ... وما كاد الرجل يراها: حتى أوسع لها فى الابتسام ، وربت عليها بيده، فاتجهت إلى الكهف ودخلته وافترشت جانبا من أرضه الصخرية بحضن القطن الزهر، وخرجت فوجدت أن الفيلسوف قد احتذى حذوها وجعل يجمع القطن هو الآخر فسر الفتاة أمره ، وعندما كانت تتلفت حولها : إذ بها تشاهد إحدى إناث البطريق تضع بيضة بين ساقيها وقد بدا جزء من تلك البيضة من ثنيتها الجلدية الدافئة، وهنا أسرعت نحوها وكأنما اكتشفت

كنزًا والتقطت البيضة وولت مدبرة فى اتجاه الشيخ الأمريكى الفيلسوف والأنثى من خلفها تجرى وتقفز وتنعق وتنهق فى صوت أنكر من صوت الحمير، وعندما لمحها الفيلسوف من على بعد: هتف بأعلى صوته مشيرًا بأصابعه :

ـ اتركى البيضة ... اتركى البيضة وإلا فالويل لنا ..ستعادينا البطاريق إن لم تتركيها!!

وكأنما فهمت الفتاة كلام الأمريكى بداهة : فلقد أسرعت تضع البيضة على الأرض، فأقبلت عليها الأنثى ووضعتها من جديد فى ثنيتها الجلدية بين الساقين، وجعلت تثب بها حتى صارت فوق الجليد ثم وقفت توسعها بدفء الأمومة ...

وعندما دجا الظلام: كان كل من المغتربين قد أعد لنفسه فراشًا وثيرًا من زهر القطن الأبيض والملون: فناما فى الظلام وقد استشعرا دفء المكان بعد أن استوقدوا نارا بالقرب من باب الكهف ... واستلقت الأنثى منكر فى حضن الفيلسوف واستلقى نكير الذكر فى حضن غادة حتى أسفر الصباح ..

مرت الأيام واكتسى الفيلسوف والفتاة بفراء الدببة السميك وانتعلا نعالا من جلودها السميكة ذات سيور مضفورة على غرار ما كان يصنع العم جمال ..ولقد ثبت لهما بالفعل أن الكوكب كان مضيافًا، بيد أنهما لم يشاءا التطواف بعيدا عن الكهف تخوفًا وتحرزًا من المهالك ...

وذات يوم : وبينما كان الفيلسوف نائمًا عند باب الكهف ، وبينما كانت غادة تمشط شعرها على صورتها المنعكسة فوق لوح جليدى شفاف قد صنعته بنفسها من كتلة من الجليد السميك : أقبل على المكان عدد من البشر يحملون عددًا من النعوش المغطاة بأعلام دول مختلفة .. فأسرعت غادة توقظ الأمريكى، وقفز منكر ونكير يعدوان من خلف غادة وهى تتجه إلى البشر المقبلين ما بين نسوة ورجال وأطفال وقد اغرورقت عيونهم ...

خاطب الفيلسوف الذى كان فى زى الإنسان الأول مجموعة منهم ، ففهم أن رواد المنطقة الكوكبية قد اختاروا تلك المنطقة التى يقطن فى أحد كهوفها: كمكان خاص لقبور من يموتون من كل الدول التى هبطت على الكوكب ، وذلك بوصف المنطقة أصلح مكان للحفر وبوصفها تقع أسفل هضبة تتوجها غابة لم يشأ الناس أن يسكنوا بجوارها ...

وترك القوم الرجل والفتاة المندهشين ، وطفقوا ينتخبون أماكن المقابر ، وسرعان ما تناثرت الرمال : وأعملت الجواريف فى تربة السطح ، ودفن الموتى ؛ واستقرت فوق كل لحد قطعة من الحجر الأحمر قد كسيت بعلم من القماش خاص بدولة المتوفى ، وقد كانت هذه الأعلام تغطى النعوش المحمولة .وبذلك فلقد تبدى فى المكان: وعلى حين فجأة عشر مقابر

تكسوها أعلام عشر دول وهى : بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا والنرويج والسويد واليونان وسويسرا وبلجيكا والدنمارك ...

وقبل أن يذهب القوم جميعًا تحدث تشارلى مع رجل إنجليزى كان يلبس حلة عمل رمادية لها ياقة فرائية.. قال الإنجليزى :

- لا فائدة من كلامك يا سيد تشارلى ... الموتى فحسب هم الذين بوسعهم أن يتحدوا فى دولة واحدة ، وها نحن نوحد بينهم فى مكان مختار ... إنها أرض المقابر الدولية .لقد انضم أفراد كل دولة إلى بعضهم، وهم الآن بسبيلهم إلى إنشاء إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ... وسائر الدول الأخرى ...

وهنا قال الأمريكى وقد لاحت له تباشير الأمل :

- مرحى .هل الأمريكيون فى سبيلهم إلى إنشاء أمريكا !!

فقال الإنجليزى :

- ليس هناك ما يسمى بأمريكا يا سيدى ...

فخيم الوجوم على وجه الفيلسوف وقال فى جزع :

- إذاً فالروس فى طريقهم إلى إنشاء روسيا ؟؟

فرد الإنجليزى بابتسامة لها مغزاها :

- ليس هناك ما يسمى روسيا يا صاحبى ...

ولما كانت غادة لا تعى ما يقولون : فإنها شاءت أن تسأل عن دولتها : فهتفت وقد تواثب عند قدميها الدبان الصغيران الجميلان :

- الا تعرفون أين ذهب المصريون ؟؟ المصريون أحفاد الفراعنة؟؟ أين أرضهم ؟؟

وعندما سمع الإنجليزى أن الفتاة تنطق الضاد قال مبتسمًا :

- الفتاة لابد وأن تكون عربية..لا نعرف حتى الآن الأرض التى اتخذها العرب والمصريون وطنًا لهم ، ولعلهم يبحثون عن شبه جزيرة هناك.. وراء الأفق البعيد..

واقترب الألمانى من تشالى وقال له :

- بما أنك تسكن الكهف الذى أشرت إليه فإنه بوسعك أن تكون حارسًا على تلك المقابر الدولية ، وفى نهاية كل أسبوع يمكنك أن تحضر إلى كل دولة لتعطيك شيئا من الهبات والكساء والغذاء لتعيش عليها أنت وهذه الفتاة ...

تتابعت الأيام وتأقلمت الفتاة تمامًا على حياتها الجديدة متوهمة تمامًا بأن الأرض قد انفجرت ...

وفى يوم ما كان قد استعد كل من الرجل والفتاة لزيارة بعض الدول القريبة فعمدت الفتاة إلى ارتداء حلة الفضاء التى كانت لا تزال معلقة بداخل الكهف، وعمد الفيلسوف إلى خط كلمة Peace أى " السلام فوق صدر غادة ، وكلمة Lave أى المحبة على ظهرها؛ وذلك بعد توليف بعض القصاصات الرفيعة من أعلام الدول التى ترف على شواهد القبور المتزايدة يومًا بعد يوم، ولقد تعبت غادة كثيرا فى إحاكتها على حلتها باستخدام شوكة نباتية رفيعة مدببة وخيط قطنى غزلته بمغزلها الريفى الدوار الذى كان قد انبهر له الفيلسوف ...

وبينما كان تشارلى يهبط الدرج الصخرى الذى يقود من الكهف إلى الأرض المنبسطة : زلت قدمه فتدحرج فوق الصخور وسقط على الأرض ليسفر الأمر فى النهاية عن جزع قدمه بشدة ، ولم يشأ حين ذلك إلا أن ينهض معتمدا على ساعدى الفتاة متمتمًا :

ـ أجل .. معك حق أيتها الساق ...إنها حقوق الشيخوخة، لا بد لكل شىء أن يحصل على حقه منى ... هيا إذاً أيتها الشيخوخة : خذى حقك منى غير منقوص ....

وصنعت غادة عكازًا من سيقان السراخس الخضر الغليظة : ليتوكأ عليه فى سيره مرتديًا قميص " الباركا" المشابه للإسكيمو وسروالاً من الفراء السميك وغطاءً فرائيًا للرأس ...

حملت غادة كرنبة كبيرة فوق رأسها بعد أن أحدثت بداخلها فجوة متسعة أودعت مزيدًا من ثمار البطاطا الصغيرة التى فى حجم بيض الدجاج والأوز، ثم أمسكت بالسير الجلدى الذى يطوق عنق كل من الدبين الصغيرين اللطيفين ، وراحت تسير إلى جوار الفيلسوف المتوكئ على عكاز من السرخس ...

واقترب الشيخ من حدود دولة: بعد طول مسير وهناك شاهدا هو والفتاة عددًا ضخمًا من الأعمدة الخشبية المشذبة المستقيمة الأطراف وقد دقت بالأرض على أبعاد متساوية، وسمع هتاف من أعلى برج خشبى :

ـ ها... نحن هنا ... من هناك .. من القادم .. هنا بريطانيا العظمى ..

فهتف الأمريكى بأعلى صوته :

ـ إننى حارس المقابر الدولية يا سيدى الإنجليزى ... هل تسمح لنا بدخول دولتكم العظمى ؟؟

ووجه الإنجليزى الحارس منظاره المقرب من فوق البرج الخشبى : فلاحت له الفتاة التى خطت على صدرها كلمة " السلام " فاغرورقت عيناه ، وقال مغالبًا دمعه وقد شعر بغصة فى حلقومه :

ـ فل... فل .. فل .. فليدخل السلام .. مرحبًا بكما فى بريطانيا العظمى...

دخلت الفتاة والأمريكى ، وسارا داخل الحدود، فشاهدا منازل خشبية كثيرة قد أقيمت هنا وهناك، ووجدا كثيرًا من النسوة يتنزهن بأطفالهن ويقطفن الأزهار، وشاهدًا كثيرًا من الرجال ينشرون الأخشاب ويدحرجون البراميل ويشحذون الصخور ويفرزون ثمارًا مختلفة ما بين كبيرة وصغيرة، ويذبحون ويسلخون حيوانات الماموث الضخمة والمستودن، فخلبتهما تلك الهمة، وسرتهما تحيات القوم وإيماءاتهم لهما وقد انهمكوا جميعًا فى العمل ...

ولما لم تكن قد صكت أو طبعت نقود بعد، فلقد تصدق عليهما القوم بثمار كبيرة مستغرية حلوة المذاق وبقطع من اللحم المقدد وأرغفة من الخبز قد صنعت من قمح المريخ ٤ النامى بريًا ؛ ولقد جمعت غادة كل ذلك فى صندوق خشبى كبير ...

ومن فور ذلك: اتجهت غادة إلى بوابة بريطانيا العظمى ، الواقعة على أقصى الحدود وما تزال معها الكرنبة والبطاطا التى لم تشاهد لها مثيلاً فى إنجلترا بأثرها ، فأرادت أن تبيعها للحارس القابع بمفرده فى برج الحراسة الخشبى، فيممت شطره وهتفت بأعلى صوتها وقد اقتربت من السلم الصاعد إلى البرج :

- أيها الحارس العظيم ، إن معى كرنبة كبيرة يزيد وزنها على أربعين رطلاً وبداخلها مزيد من البطاطا اللذيذة الطازجة ... اشترها فى مقابل حفنة من رصاص بنادقكم ؟؟

ولما لم يفهم الحارس المطل من نافذته العالية من كلامها شيئًا : فقد تحدث إلى الشيخ الأمريكى - ماذا تقول الفتاه ياسيدى؛

فأخبره ؛ وهنا لم يسع الحارس إلا أن يهمس بقوله :

- أنا مرابط حاصل على شهادة مرابطى الحدود المتوسطة الرصاص هنا غالى الثمن: فضلاً على أنه عهدة معهودة إلىّ بالواحدة، ربما يمكنكما بيعها فى فرنسا وألمانيا أو إيطاليا أو الدنمارك ... لا يمكننا شراء هذه الثمار إن هذه البطاطا وتلك الكرنبه ... تشرب من دماء الموتى الدوليين ...

ومرت الفتاة والشيخ من البوابة الخشبية الحديثة الانشاء ، وعندما أعطيا ظهريهما للحارس وقبلما يختفيان خلف الأفق : صوب منظاره إليهما فشاهد على ظهر غادة كلمة " المحبة " ؛ فلم يتمالك وانسابت دموعه، وهتف بأعلى صوته وهو يقذف عشر رصاصات من عهدته على مدى ذراعيه :

- إليكما من عهدتى عشر رصاصات بأثرها دون مقابل ..

ورنت الرصاصات العشر تباعًا فوق الأرض الصخرية أسفل البرج الخشبى العالى، ولكن هيهات هيهات للشيخ أو لغادة أن يسمعا ذاك الرنين أو ذاك الهتاف ....

الفصل التاسع

الأم تبحث

تغير بهاء وصار أميل إلى الشراسة بعدما رحلت غادة ...

ـ معذرة عمى ... لن أبقى هنا بالكهف معكم .. ألم يكن مكانى دائمًا هو كوخ المقابر المهجورة ؟؟ سأذهب هناك لأعيش وحدى ..سأنفرد بنفسى هناك.. إننى فى حاجة إلى ذلك ... لقد تعودت على الخلاء والعزلة ، ومع ذلك فلسوف أحضر إليكم كل أسبوع كما كانت هى عادتى دائمًا أنا وغادة التى تعتقد الآن أن الأرض قد انفجرت بنا وهلكنا ، سأعد لك يا عمى مزيدًا من اللبجى ...

كانت هذه هى العبارات التى ودَّع بها بهاء عمه بعد مُضى عشرة أيام على رحيل غادة؛ واتخذ بهاء طريقه فى يوم العودة إلى مهجور القبور خلال النفق الأثرى وقد ارتدى زيه المدرسى الرمادى حاملا بندقيته وكيسًا صغيرًا للذخيرة ومذياعه الصغير الذى استعاره من الأب وسيم ...

وعندما صار أمام هيكل آمون اتخذ سبيله إلى المقابر المهجورة ، واستقبله الملك صافى متواثبًا ومرحبًا وقد كان الوقت ظهيرة ، فقبله فى جبينه ، ثم اتجه إلى الكلاب الرابضة، فطاف بها متفحصًا فراءها وآثار جروحها القديمة، وقدم اليربوع اليومى للكلبة المربوطة، وملأ لها وعاء الماء ، ثم اتجه إلى الجواد الأسود المسرج الذى كان قد شاهده منذ أيام بعد أن حدثه عنه آمون ، واعتلى سرجه الجوخى وانطلق به إلى عين جوية واضعًا مذياعه فى قراب الجواد، ولقد كان الملك صافى يرمح فى أعقابه ... وعندما صار أمام العين: خلع ملابسه، وهبط إلى الماء ليستحم بمائه الدافئ المنعش ، وخرج فأقبل عليه الكلب صافى فقربه من الماء وجعل يغسل فراءه الأسود البديع ، ومن فور ذلك لم يشأ أن يرتدى ملابسه ، بل وضعها خلف السرج ، وامتطى جواده الذى كان يرتوى من ماء العين ، ومضى عبر الطريق محدثًا صافى :

ـ أيها الملك صافى .. إنك عار تمامًا .. لماذا لا أكون مثلك !! حقيقة إن هناك ثمة ما يخجل لأننى لست جانزيًا، ومع ذلك فلا أهمية لذلك ..من الآن فصاعدا سأعمد إلى

التريض ليصير جسدى مثل جسد عمى جمال ، كما أننى سوف أقوم اليوم بتفصيل جلد الغزال الذى كان قد أوله لنا.سأقصه بمقص غادة الصدئ ليصير ككساء العم الفرائى، بل سأعمد إلى أن يكون أروع منه، وسأحزم خصرى بحزامى الجلدى الأسود... سيكون خصرى ضيقًا للغاية؛ وسوف يكون صدرى عريضًا ... ما أبدع منظرى ساعتها إذًا..

دنا بهاء من المقابر المهجورة ، واقترب من باب كوخه ، وقفز من فوق الجواد الأسود القوى ، وولج الكوخ ، وجعل يحدّق إلى سريره وسرير غادة ، ثم أخرج صندوقها من أسفل سريرها ، وطفق يستعرض ملابسها الخارجية وسراويلها الساذجة الحمراء والزرقاء التيلية التى كانت تحيكها لنفسها بطريقة تبعث على الرثاء والضحك معًا، خاصة وأنها كانت تعد تلك السراويل من قماش ثيابها بعد أن ترث وتبلى، ولقد كان أعجب ما فى أمر تلك السراويل المضحكة: حبات الكهرمان التى كانت ترصع به أطرافه المهترئة، بيد أن ما يدعو للتأمل كذلك أن غادة كانت قد تركت سراويلها المضحكة نظيفة تماما، ولعل ذلك بسبب حساسيتها المفرطة، ولعلها أيضًا كانت تتوقع أنه ربما يقع بصر بهاء عليها بعد الرحيل ... ولكنه وبينما يقلب الأقمصة والسراويل : شاهد قميصًا قديمًا أبيض وعليه بقعة دم، فأمسك به ونشره أمام عينيه وجلس فوق سريره ثم جعل يتمتم والكلب صافى يربض أمامه :

ـ إنها بقعة من طمث غادة .. لقد كانت الفتاة أنثى ناضجة منذ سنوات ...

واغرورقت عيناه ، وقرب القميص من وجهه وقبله ثم ضمه إلى صدره فغمرته الدموع ، وجعل يتمتم :

ـ هل تراك تحبيننى يا غادة !! لقد شاهدت يوم أغرب استعراض على مر الدهور: الإنجليز والفرنسيين والسويد وغيرهم، إنهم أجمل منى ولا ريب ... سوف تتزوجين أحدهم هناك فوق المريخ ٤ ..أما أنا فسوف أواكب الانفجار المروع مع عمى وصحبه.. العم هو الذى اختار لنا تلك النهاية ولا بد من الالتزام بأوامره... إننى أحبه ولا بد أن أموت معه ، لأنه لم يعتبرنى متسولاً ..

وأودع القميص الصندوق ، ومد يده أسفل سريره : وأخرج مرجونًا مسطحا، والتقط جلد الغزال الكبير وخرج من الكوخ ومعه سكين ومِقص غادة وقلم رصاص وخيط طويل من القطن، وأخرج المذياع من قراب الجواد ثم يمم شطر مقبرة مهجورة مسطحة ملساء، وطرح فوقها الجلد، وطفق يقيس خصره وجانبيه وصدره وظهره وكتفيه: ليوقع كل تلك المقاسات بالقلم على قطعة الجلد وقد أدار المذياع ليقف على آخر أخباره واضعًا بندقيته المذخرة فوق أقرب قبر مهجور ....

وجاءته نشرة الأخبار من الإذاعة العالمية بالقاهرة والتى تديرها نسوة الأرض بعد أن تجمعن من جميع أنحاء العالم للمعيشة والاستقرار بالقاهرة والإسكندرية فور تلاشى رجال الأرض جميعًا ...

- هنا الإذاعة العالمية بالقاهرة ..إليكم سيداتى ملخص نشرتنا الإخبارية الثانية تذيعها على حضراتكن " جملات عيد " باللغة العربية ...
- اجتماع رئيسة أكاديمية العلوم العالمية " نانسى جونسون " الأمريكية الجنسية بالسيدة هدى صبحى وزيرة الزراعة المصرية ...
- حظر تسيب النسوة خارج نطاق القاهرة وضاحيتها الفيوم وكذلك الإسكندرية ...
- الإسكندرية ستكون مصيفنا العالمى لستة أعوام مقبلة ...
- عاهرة محترفة تكتشف شابًا فى العشرين من عمره وتقضى منه وطرها لمدة أسبوع متواصل ، وعندما اكتشف أمرها؛ قتلته ، وعندما قدمت للمحاكمة وسؤلت عن سبب قتله : قالت : لماذا تسلبنه منى ...لقد كان زوجى..
- تزايد الانفجارات البركانية فى حلقة المحيط الهادى ...

وإليكن سيداتى أخبارنا بالتفصيل ..

- اجتمعت رئيسة أكاديمية العلوم العالمية "نانسى جونسون " بالسيدة " هدى صبحى " وزيرة الزراعة وذلك للتشاور فى مسألة السماح للفلاحات بممارسة الفلاحة فى أراضيهن بالأقاليم ، وذلك لإمداد القاهرة والإسكندرية والفيوم بصنوف الخضر والفاكهة والألبان واللحوم ، وأكدت الوزيرة أنها ستقوم بحملات تفتيشية مستمرة بطائرات الهليوكويتر لاكتشاف أى رجل ، وللعلم فلقد دمر الدهماء كل بنوك ومعامل وأجهزة الإخصاب والاستنساخ ...
- حذرت السيدة " نانسى جونسون" من تسيب النسوة خارج نطاق القاهرة والفيوم والإسكندرية منعًا من حدوث أية قلاقل، وصرحت بأن طائراتها الأمريكية التى تفوق سرعة الصوت وصواريخها العابرة التى ترابط عند قناة السويس وسيناء بخلاف ما هو موجود خارج الحدود : قادرة على ردع أى تمرد نسائى يمكن أن تقوم له قائمة فى أى مكان ، وصرحت بأن قوتها النسائية المرابطة فى قريتى التهجير الضخمتين بسيناء : قادرة على نسف أية قوة نسائية متمردة على وجه الأرض فى دقائق معدودات ، كما وأن قوات

الكوماندوز النسائية الرهيبة : تمارس تدريباتها فى نشاط وجدية لإحباط أية مؤامرة أو " كيد عظيم " ..

● صرحت السيدة فيروز الإسكندرانى فى محافظة الإسكندرية وذلك بعد لقاءات مستمرة بقصر السيدة " مورين تيجر" وزيرة السياحة والاصطياف .. صرحت بأن الإسكندرية ستكون مصيفا عالميًا، وسيتم تطهيرالسواحل لإزالة الأعشاب وقناديل البحر ...

● كما صرحت بأن الطبقة العمالية النسائية ستحتل المنازل الشعبية فى المنطقة الممتدة من سيدى جابر إلى أبوقير، علاوة على الأنفوشى وكرموز، وستحتل الطبقة المتوسطة فنادق الدرجة الثانية، بينما ستحتل طبقة المهندسات والطبيبات والصيدليات والعاملات فنادق الدرجة الأولى، هذا ولسوف يكون المصيف بالنسبة للقوات الضاربة الخاصة بالاتحاد الأمريكى الفرنسى الإيطالى الإنجليزى الألمانى : سيكون مصيف لبنان ، وسوف ترابط غواصاتهن وبوارجهن فى محازاة الشاطئ ...

● أعدمت اليوم صباحا عاهرة لا داعى للتصريح بجنسيتها، وذلك لأنها أقدمت على الخيانة النسائية العظمى" علمًا بأن القيادات قد قررت إنجاب الإناث دون الذكور المستبدة .. اكتشفت عاهرة محترفة كانت تمارس البغاء منذ عشرين سنة .. اكتشفت شابًا فى سن العشرين كان مختفيًا عن البوليس وذلك لأنه كان قد اعتدى بالضرب وهتك العرض على طالبة بكلية العلوم ضخمة الجسد كانت تلاحقه بالسخرية والاستهزاء والاستفزاز المستهجن أمام أربعة عشر طالبا، وعندما ظهر بأحد الحوارى بعد أحداث هياج الدهماء وبعد الهجرة الكبرى : اكتشفت أمره عاهرة ذات جسد ضخم يزن ثلاثمائة كيلوجرامًا ولها ثديان ضخمان فى حجم القرع العسلى "الإسكندرانى" ، ولها إليتان فى غاية الضخامة ، كما تتمتع "بمنخار" كبير جهنمى يمكنها أن تنفث منه دخان المكيفات إلى بعد متر وقد اندلع من طاقتيه فى شكل عمودين آتيين توًا من جهنم .كانت كل أسنان المرأة مكسوة بالذهب، وكان لها شعر مجعد يظهرها بمظهر الشراسة الجنسية ... وأخيرًا وبعد أسبوع نالت فيه ما نالته من الفتى مستحوزة عليه دون النساء جميعًا: اكتشفت أمرها بعض النسوة فى الحارة المجاورة فأبلغن السلطات الرسمية المعنية بالأمر والمسماة " خلايا اصطياد الذكور " ، وعلى الأثر أُعد للمرأة كمين من النسوة، وصعدت رئيسة الكمين لإنذارها كيما تسلم الفتى الثمين وما كان من المرأة حين ذلك إلا أن استجابت، وقبل أن يغادر منزلها: ودعته بكوب من الحليب ... ومضى الفتى المستجير الذى كان يبكى قائلا للنسوة المدججات بالسلاح :

– لقد تبت على أيديكن .. لن أفعلها مرة أخرى .. مطلقا ... إن اسمى كمال على ... إننى

طالب بكلية العلوم... تبا لأمى : هى التى ولدتنى ذكرًا ..لمن افعلها مرة أخرى يا سيداتى...لقد أحبتنى المرأة الضخمة. وهى التى أرادت ذلك.. لا ذنب لى. اعتقننى ولا تذهبن بىَّ إلى الشرطة.. أرجوكن يا سيداتى الضابطات ...

واختلست ضابطة الشرطة من جبين الفتى قبلة لتهدئ من روعه وقالت له :

ـ إنك شقى يا كمال ...

ـ فقال الفتى:

ـ يا لله ... أيمكن للضابطة أن تقبل مسجونًا مجرمًا قد اقترف إثمًا !!

فضحكت الضابطة وأوسعت له فى الابتسام وهمست وهو إلى جوارها بعربة الجيب البوليسية بعد أن قبلته قبلة على خدة مهدئة :

ـ يا كمال.. ستفصل من الجامعة بسبب فعلتك .. سنبلغ العميد بذلك .. ستشردك وستجند بالجيش برتبة نفر ، وكل ذلك بسبب طيشك يا كمال ..

وذهبت النسوة إلى مقر الشرطة " بعابدين " وهناك قابل المأمورة ، فانحنى لها بعد أن اشتكى ببطنه، وقال لها :

ـ سيدتى ..أعلم أنك ضابطة برتبة كبيرة وفى يدك كل شىء ولا بد أنك لا تحبذين الاعتداء على إحدى بنات جنسك ، حقيقة إن المرأة أحبتنى وحقيقة أننى قد اعتديت على طالبة ...

وقاطعته المأمورة ذات الأربعين عامًا وهى تجلس واضعة ساقًا ممتلئة على ساق مكتظة فى الوقت الذى وقفت فيه على مقربة منها صحفية من صحيفة "مصيدة الذكور" مصوبة عدستها :

ـ هب يا كمال أننى أمر بالطريق فى رفقة بعض الضابطات: وفتنتك .فهل تتوق إلىَّ !!

ـ مطلقا ..

ـ لماذا !!

ـ لأنى سوف أسجن بالطبع ويضيع مستقبلى وأشرد وأعذب ...

ـ هب أننى إذاً وقفت وأمام الضابطات وقلت لك : إما أن تعتدى علىّ وإما تسجن... فماذا أنت فاعل !!

ـ لا بد أن فى ذلك إعدامى !!!

ـ هل أروق لك !!

ـ معذرة سيدتى ...

ـ حسنا ..هل تروق لك تلك الصحفية الفاتنة !!!

ـ رياء !!!

ـ ما رأيك فى نصفى السفلى ، والأوسط !!!

ـ إنه يبعث على الذعر !!

ـ لماذا !!

ـ ذلك لأنه تابع للشرطة .تابع للسجون ...

وما إن سجلت الصحفية هذا الحوار الغريب : حتى كان الفتى يتهاوى على الأرض، وعلى الأثر حمل إلى أفخم مستشفى بالقاهرة وهى مستشفى "إخناتون" وهناك قام بالتحليل لفيف من الطبيبات العالمات الألمانيات والإنجليزيات، فتبين لهن أن العاهرة دست له سم حمض " الأكساليك " فى كوب الحليب ...

وقبض على المرأة وحوكمت ، وقبل إعدامها رميًا بالرصاص: طلبت أن تخلع عنها ملابسها لتبدو عارية بكرشها المنتفخة ذات الثنيات والطيات الثمينة المفزعة، وقالت والرصاص يندلع نحوها :

ـ ما أمتعه أسبوع!! .. إنه يساوى العمر كله ...

● وإليكن سيداتى الخبر الأخير بالنشرة الثقافية :

ـ ازدادت أمس ثورات حلقة البراكين حول المحيط الهادى وجزيرة " أيسلاند " كما وأن مليارات الأمتار المكعبة من الجليد قد انصهرت فى القطب الشمالى على إثر بركان رهيب يفوق " فيزوف الجديد" مما أدى إلى حركة مد عريضة غطت ربع الجزر البريطانية ، وطغت المياه على ثلث الأراضى الهولاندية المهجورة تمامًا، هذا وتفيد الأنباء بأن مصر لن تتعرض لموجات الزلازل أو ثورات البراكين ربما لأمد قد يمتد طويلاً، كما وأن هناك آمال متفائلة مفادها أن الكرة الأرضية لن تنفجر بسبب إعادة التوازن الداخلى عن طريق التنفيث الغازى الذى أحدثته مياه المحيطات المتخللة للقشرة الأرضية، وذلك بالرغم من بعض النظريات التسائية ... وللعلم : انقطع الاتصال بيننا وبين كوكبى التهجير لأسباب لا نجهلها ...

* * * *

وفى تلك الأثناء: كان قد أقبل على المقابر المهجورة جمل غريب تركبه امرأة متشحة بالسواد وإذ صار الجمل براكبته بين القبور: ترجلت المرأة وتركت مطيتها، وطفقت تسير فى الطرقات الرملية: حتى صارت بين الماشية والجمال، ومن ثم راحت تسير فيها محاذرة، وما لبثت كذلك حتى لمحت الفتى وقد اتشح بقطعة الجلد الجديدة، وهنا تمتمت المرأة الجميلة التى برقت عيناها فى فرحة:

ـ ولدى بهاء !! وا فرحتاه يا ولدى ...لقد صرت شابًا جميلاً فتيًا يافعًا ...

جعلت الأم غزالة ترقب ابنها الذى أتاه صوت صافى وهو ينبح بشدة ، فحدق حوله ثم اتجه بسرعة إلى حيث ينبح كلبه فإذا به وجهًا لوجه أمام امرأة ...

لم يتملك بهاء الخجل والوجل كعهدنا به دائما... كلا ... بل لقد وقف فى ثبات معجبًا بنفسه بطريقة سافرة، وقال وهو يجلس على قبر مجاور واضعا ساقا فوق ساق :

ـ ما الذى أتى بك أيتها المرأة ها هنا !! كيف تنتهكين قوانين نانسى جونسون!! ولكننى أقسم إنك إحدى جاسوساتها... إنك إحدى عيونها المنبثة!! ولذلك فلسوف أضربك حتى يظهر لك أصحاب، ثم أعهد بك إلى العم جمال فهو خير من يتعامل معك ويعرف لنا كنهك أيتها الجاسوسة!! ....

وهنا اقتربت المرأة المتشحة بالسواد وقالت فى همس :

ـ لست جاسوسة يا ولدى بحق الله ولا أعرف نانسى جونسون، عشت مع بعض النساء فى الخيام عند مفرق مسرب الخالدة الذى يفرق الطريقين المؤديين إلى واحة الجارة وواحة سيوة، بيد أن النساء الأخريات رحلن عنى أخيرا إلى القاهرة هناك مع بقية نسوة العالم بأثره...أما أنا ..

وهنا سكتت المرأة مطرقة إلى الأرض فاستحثها بهاء بلهجة صارمة :

ـ أما أنت ماذا ؟؟ قولى أيتها الجاسوسة..ولكن لا بأس.. إنك امرأة جميلة حقًا رغم أنك لست شابة، إنك تصلحين حقًا للعم جمال ... لابد من ذلك ... لابد منك له حتى يكف عن التطلع إلى تماثيل النساء المتوسلات المتزلفات أمام باب كهف بيت السلطان ..

وهنا همست المرأة فى فرحة ولهفة :

ـ عمك جمال !! إذاً فهو عمك ؟؟

فقال بهاء وهو يستلقى فوق قبر ووجهه لأعلى :

ـ أجل .. إنه عمى .. إنه عمى البطل ... لقد ربانى أيتها الجاسوسة الملعونة: مع ابنة عمى ... لقد هاجرت إلى المريخ لأنها تود امتلاك ممتلكات هناك، ولأنها لا ترغب فى أن تواكب انفجار الكرة الأرضية المروع ، خائنة بذلك العم الفدائى الذى ربانا واشترى ذهب وملابس زواج غادة ....

وتابع بهاء بنظره السحب المسافرة ثم مضى يقول :

ـ سوف أقوم بتأديبك أولا ...لابد من ربطك ...

ـ أوه... تأديبى ؟؟

ـ هه ..أجل ... وذلك حتى ترضخى بسرعة للعم يا جاسوسة !!

ـ أوه !! أرضخ بسرعة !!

ـ أجل ... لقد فعل هو ذلك مع زوجة الملك صافى الذى يحمى هذه الأرض مع جيشه الصنديد من الكلاب... لقد ربطها.. انظرى .. إنها هناك ... إنها مربوطة للملك صافى.. لابد أن تنجب له العديد من الجراء لحماية هذه المنطقة من الذئاب الشرسة... يا لله..ذئاب وجاسوسات !!...

ـ هل ستربطنى إذاً !!

فقال بهاء وهو يضحك ويقهقه عاليًا ضاربا فخذيه العاريتين بكفه :

ـ أوه... أجل ... أجل أيتها الجاسوسة الجميلة الملعونة... سأربطك بعد قليل ...

ـ بعد قليل !!

ـ أجل .. سأربطك ثم أنزل بحزامى الجلدى على جسمك وكفيك وقدميك ..

ـ ستجلدنى !!

ـ أجل.. سأجلدك حتى يسيل الدم من ظهرك وتزرق كفاك وقدماك ...

ـ النجدة ثم النجدة !!!

ـ هه ... لن يخف إلى نجدتك أحد هنا...

ـ ولكن .. ولكن يمكننى أن أرضخ لعمك دون أن يكون للعلقة مبرر!!

ـ هه .. كلا.. إذا كان كلامك حقيقى: فلماذا إذاً ربط عمى هذه الكلبة ، ولماذا أغدق عليها بالعلقة الساخنة !!!

ـ افعل ذلك أمامك !!

ـ أجل وأمام غادة أيضًا .. ولقد دافعت غادة عن الكلبة بوصفها أنثى مثلها ، ولكن هيهات للعم أن يستجيب للدفاع ، كما أنه لابد من تأديبك كجاسوسة خطيرة لها ما لها من ذكاء، وحتى تستجيبى له فى لمح البصر...

ـ وأسرع بهاء إلى المرأة وجذبها من ردائها الأسود، ومضى يجذبها : حتى صارت بجوار الكلبة وطفق يفك زوجة صافى، وبسرعة غاشمة وبطش رهيب انقض على رقبة المرأة وطوقها بخية الحبل الذى كان لا يزال مربوطًا بالوتد ثم أمرها بالرقاد فرقدت، وأمرها أن ترفع قدميها إلى أعلى وجذب الحزام من بنطاله الملقى فوق سرج الجواد الأسود وانهال يضرب ويضرب فى وحشية وجبروت يتسم بالعنف والعناد والإصرار والحمق والغطرسه...

ـ وكف الفتى عن الضرب لينهال من جديد على كفيها والمرأة تولول حتى ازرقت كفاها وانتفختا ثم ترك كفيها لينهال على ظهرها إلى أن انبجست الدماء ملوثة رداءها الأسود، ومن الفور ألقى بالحزام فوق المقبرة المجاورة هاتفا بالكلبة التى لاذت بالفرار :

ـ هه... فلتقرى أيتها الزوجة الخائنة... لقد ضمنا ذرية للملك صافى الشجاع والذى كان قد كان.. هاهى هياكل أعدائه فوق جذوع النخيل شاهدة على شجاعته وبسالة جنده ...

جلست المرأة تبكى وتتوجع على الرمال وقد اثخنتها الكدمات وآلمتها الضربات.

وهنا لم يسع بهاء إلا أن يبتسم قائلا وهو يفك وثاق رقبتها :

ـ لا تغضبى أيتها المرأة الملعونة ... علقة تفوت بهذه الطريقة أضمن أنك سترضخين من الفور للعم العظيم .. سأحملك إليه على هذا الجواد الأسود القوى الصاروخى السرعة...إنه جواد الإله آمون صانع التماثيل البديعة ... انظرى أيتها المرأة الرعديدة إلى تمثال غادة وهى تبيع البلح من أجلى .. أنظرى وأنا واقف خلفها فى قنوط ظاهر... إنها تبيع البلح كيما اتزوجها، ومع ذلك فإن الصبى لا يرغب فى الشراء ويزور عنها...أتعلمين لماذا !!..لأن البلح يشرب من دماء الموتى ...

والتقط الفتى بندقيته وأقبل على المرأة الباكية قائلاً :

ـ لقد صنعت لنفسى كساء يشبه كساء العم .. انظرى أيتها المرأة الكيادة كم أنا قوى !! إن جسدى خلاب فتى كعمى البطل ...

وانقض بهاء على كبش من الكباش ، وأمسك به من قرنية ووضعه فوق الجواد المسرج وقفز راكبًا وفعلت المرأة ما أمرها... وعندما صارت من خلف الفتى قال لها آمرًا :-

ـ امسكينى من خاصرتى أيتها المرأة لأننى سوف أسرع بالجواد ..

ورضخت المرأة للأمر، وطوقت بكفيها الملتهبتين المزرقتين المتألقتين: طوقت بكفيها هذين خصر ولدها الحبيب الذى حرمت من رؤيته أمدا طويلا ...حرمت من رؤية ذلك الأسد الفتى الذى كان يومًا ما مضغة ضعيفة واهنة فى بطنها ...وعبر الطريق همست المرأة :

ـ لا تسرع هكذا يا بهاء حتى لا أنزلق !!

وهنا أحس بهاء بدموع المرأة تنساب فوق ظهره فقال متعجبا :

ـ بهاء!! من أين لك اسمى!! أم لعلك كنت تسمعين غادة تهتف بى من يوم ما؟؟

ـ هكذا كان الأمر حقًا يا بهاء.. لقد سمعتها يومًا تناديك وأنا أمر فى الطريق لبيع الأغنام.

أسرع الفتى يطوى الطريق بجواد آمون الفتى وعندما اقترب من جبل الدكرور ذى القصتين «نادرة وناصرة» أبطأ الجواد، فجعل يسير الهوينى حتى غدا أسفل الدرج الرملى، والشمس قد بدأت تتلمس طرقها نحو الغروب، وهنا أسرع إليه الصغيران منكر ونكير، بينما تطلع العم إليه من خلال منظاره المقرب أمام باب الكهف ، وإلى جواره الآخرون المتعجبون ، ولم يسمه إلا أن يهمس :

ـ يا إلهى ...غزالة وابنها أخيرًا!!

وهنا ارتفعت عقيرة بهاء من أسفل الدرج :

ـ أيها العم الكريم ..لقد اقتنصت لك امرأة جميلة ...

فأشار العم على الجميع بالتزام أماكنهم ، وأسرع هو يهبط الدرج ، وعندما مثل عند الجواد دفع بهاء بالمرأة إلى الأرض فسقطت عند قدمى العم ، قائلاً فى لهجة مبهمة :

ـ لقد عثرت على جاسوسة ... إنها جميلة... ربطتها لك بالحبل والوتد وانهلتُ عليها ضربًا حتى أهذبها لك... إنها أنثاك اليوم .. كل جاسوسة أقبض عليها: سأرسلها إليك ليس من حقى التصرف فيهم وإلا أتيت بالمصائب.

ولم ينتظر بهاء إجابة من العم المشدوه الزائغ البصر، بل انسحب على الأثر وعندما صار على مرمى حجر من العم الواقف إلى جوار زوجته القديمة، هتف مقهقها :

ـ عليك بها أيها العم المفدى .. إنها أفضل من تلك التماثيل التى تتطلع إليها دائمًا .. لقد أشفقت عليك من التماثيل... عليك بها... لقد ضربتها وربطتها من أجلك حتى أهذبها لترضخ لك من الفور.. هاها... وأنت أيتها الجاسوسة الرعديدة.. عليك به أنت الأخرى .. هاها .. لا تدعى منه إلا بقايا... لا عليك أن هناك المزيد من الكباش .. سأوافيكم بها دائمًا للغذاء..ها ها .. لكن بالمرصاد يا جاسوسات نانسى ...

وانطلق الجواد يشق الريح فى الوقت الذى كان فيه الزوج يقبل زوجته قائلاً وهو يلثم جراحها :

ـ أليس ذلك عكس عقدة أوديب تمامًا ... هاها.يا له من فتى رعديد كان من المتوجب صلبه فوق النخلة رشيدة الرشيدة ...

الفصـل العاشر

العم مذهل فى ورطته

ـ هق .. يا ل.. هـق .. يالهـذا الفواق اللعين الذى ينتابنى دائمًا .كلما هق .. كلما أكلت هق.. لحمًا هق .. مـرمـريًا ..ثم شربت خمرًا .. ولكن وبالرغم من ذلك فإننى أحلق فى الجوزاء بجناحين من الريش .هق .. الرخ .. إنه خمر مقترض من الجنة .. هـاها .هق.. ياله ... من خمر معتق حقًا جادت علّى به طائرة الدهماء ... إنها ذخيرة تفوق الأسلحة النووية بأثرها ..هق هـق .. يا للسماء ... مـاذا أرى ؟؟.يا للسماء هاها. تماثيل النسوة الفاتنات الراكمـات المتزلفات الراجيـات قد تزايدن بدرجة كبيـرة.. ها ها.. أقبلى يا غـزالة يا زوجتى .. أقبل يا عابد..أقبل يا باستت ...أقبلوا جميعًا لتروا نسوتى وقد تزايدن إلى عدد لا يحصى .. ولكن .. هاها .. إنكم جميعًا لن تروهن كما أراهن...أتعلمون لماذا ؟؟ ذلك لأنكم لستم سكارى .. لو أنكم تعشقـون الخمـر مثلى : لرأيتمـوهـن كمـثل ما أراهــن .. هـاهـا .. أقبلى يا زوجتى غزالة .. أقبلى لتشاهدى تعدادهن.. إن عددهن لا يقل عن.. هق.. هق .. عن خمسمائة امرأة.. هاها .. إنهن جميعًا جميلات فاتنات إنهن يجلسن من خلف بعضهن البعض فوق الرمـال .. يا لك أيها الإله آمون .كيف تتزايد تماثيلك الحجرية والطفلية حتى تصل إلى ذلك العدد المذهل من الفـاتنات .. هاها..ألم أقل لكم ؟؟ إن الخـمـر تتحـالف مع عبقرية الإله آمون لتدبير تلك المؤامرة ضدى .. حسنًا ... ما أجملكن أيتها الحوريات.. ومن حيث إتكن من وحى الخمر الذى أسكرنى : فلا بأس من أن .. هق .. أوه .تبًا لذلك الفواق .. هق ..اللعين .هق..لابأس من أن أفصح لكنّ عن نظرية جديدة .. هق .. وهـذه النظرية من شـأنهـا أن تزلزل أركـان نظرية دارون الخـاصـة بالتطور التى ازداد مـؤيدوهـا وقل رافضوها ...

وهبط العم جمال الدرج الرملى، ومع ذلك فلقد كان رهط النساء لا يزال يتمعج فى ناظريه ويتـرى ويتـرى.. وعندمـا صـار عند السفح، بدأيسيـر فوق الرمـال مـستـعـرضًا تلك النسـوة المتـزايدات ثم جـعل يتحـدث فى طلاقة ، فى الوقت الذى جـعل كل من عـابد ووسـيم وباستت

يحدقون من خلال ظلام الكهف وقد راعهم العم الذى صار فى ورطة محققة، هذا فى الوقت الذى ذهبت فيه الزوجة غزالة والفتاة حنين التى بدأت تكبر فى سرعة مدهشة بعد أن نالت التصريح بذلك من العم عنتر المتعنتر بالعنتر المعنتر : إلى الابن بهاء الشرس الطباع .. وتابع العم حديثه:

ـ هاها ... هق ..لا بد أن آمون قد صنع هذا الطراز الجديد من الهندام دون علمى السابق.. هاها ..لقد صنع فى هذه المرة امرأة .. تلبس هاها .. حقق تلبس حلة الشرطة تبًا لك يا آمون ..لقد صنعها وعلى كتفها رتبة "مطارد" .. هاها .. هق .. جازاك الله يا آمون .. أتريد أن تبث الذعر فى قلبى بتلك المطاردة !!! هاها .. هق سحقًا لك يا آمون .سحقًا لك ولعبقريتك.. حسنًا .يا لك من عبقرى حقًا انظرى أيتها المطاردة : هأنذا أبدو عاريًا تمامًا .. إنها جريمة يعاقب عليها القانون .. العرى السافر ..وأمام من ؟؟؟ هق .. أمام النسوة المبجلات .. هق .. أمام خمسمائة امرأة تجمعن بين شتى الطرز وشتى الملابس المتبرجة وغير المتبرجة ... هاها .. هق .يا لك يا آمون .. لقد صنع امرأة تلبس شورتًا ساخنًا كشف عن فخذين جبارتين وساقين فديتهما برقبتى .. هاها .. تبًا لك يا آمون .. من أين لك كل ذلك الفجور يا آمون ؟؟ كيف يتأتى لك أن تصنع هذه المرأة الواقفة ذات الفتنة والسحر والصدر الناهد الذى أفتديه بكل أعضاء جسدى ... هاها ... هق .. اللعنة ثم اللعنة عليك يا آمون .. كيف تسنى لك أن تبدع هذه المرأة ذات الخصر النحيل وقد بدت لها إليتان لا يشق لهما الغبار فى الهندسة المعمارية الأنثوية !! ..إنه جزء سفلى عامر الفتنة والإغراء .. النجدة ثم النجدة .. لعلك يا آمون تريد أن تجلب على عقلى الجنون حتى تصنع هاتين العينين السوداوين الواسعتين .. إلى أين أفر منك يا آمون ومن نسوتك اللاتى أغدقت على بهن اليوم !! لعلك تريد أن تودع الحياة ومن ثم فإنك أردت أن تحول أحجار الأرض من حولى إلى تماثيل لنسوة صارخات الفتنة .. إنك تضرمها نارًا من حولى يا آمون !!! هاها . هق .هق ...

وجعل العم يستعرض النسوة جيئة وذهابًا متحسسًا لهذه وقابضًا على تلك فى إعجاب بآمون النابغة .وبعد أن تحقق من إبداع آمون : طفق يقول وقد تمدد بجسده العملاق فوق مجموعة من النسوة الجالسات :

ـ أما عن نظريتى التى ستقلب نظرية التطور الأزلية رأسًا على عقب ، فإنها تتلخص فى الآتى : لكل شىء فى الوجود دورة خاصة به ، وكل دورة تتصل اتصالا موثقًا بالدورة الأخرى ..الماء له دورة معروفة ..الحياة .. الغازات .. المناخ.. إنها دورات جد متباينة... الشمس قد خلقت بقدر ، وهى سحابة من غاز الأيدروجين تكثفت إلى فرن ذرى يشع

الطاقة مخلفًا رمادًا من الهليوم ..هذه الشمس ينتابها التغير ، وهذا التغير مقدر بقدر .. إنه يتبع دورة خاصة .. هذه الشمس التى تتبع دورة خاصة بداخلها وتتغير من حال إلى حال ... هذه الشمس تخضع لها الدورات على كل الكواكب .النظام الشمسى هو : كواكب حول نجم يغذيها بالطاقة.. إنه نظام ثابت متغير فى داخله...

الكروموسومات هى لوحات عليها العديد من الكرات الشفرية ، ليس عليك إلا أن تضع كرة فتتبدى لك .. هق .. أذن حمار ..ويمكنك أن تغير نفس الكرة بغيرها : فتتبدى لك أذن إنسان ...

ونهض العم متحمسًا صدره مضفور العضلات وقهقه عاليًا وهو يقول :

ـ هاها .. هق ...إن الخمر تصور لىَّ إحداهن تكتب ما أقول فى مذكرة خاصة...هاها .تبًا لتلك الخمر المعتقة...

ثم عاد يتابع نظريته :

ـ ما هذا الذى يحرك تلك الكرات على تلك اللوحة المشفرة المسماة بالكروموسوم؟؟ إنها دورة أيتها الفاتنات.. دورة مرسومة ومحددة من قبل ... عصر الزواحف لا يقبل بالثدييات لأنها دورة شاملة .عصر الجليد لا يقبل بالزواحف لأنها دورة شاملة ..إنها لا تتقهقر لأنها تتبع دورة كبرى لا يمكن لها أن تتقهقر: ألا وهى دورة الشمس .. وعندما تجنح الشمس إلى الشيخوخة: لا بد فى النهاية من كائن يعقل ذلك تعقلاً كاملاً، ومن شأن ذلك الكائن الذى يعى تلك الحقيقة ، وهى حقيقة الشيخوخة والاحتضار.. .. من شأن ذلك الكائن أن يكون بمستطاعه الانتقال إلى نظام شمسى آخر، أى إلى مجموعة أخرى، أى إلى دورة كبرى أخرى ليتداخل فى تركيبها الحياتى ، بشرط أن يفتش فى ثناياها عن عصر يلائمه ككائن يتبع دورة خاصة...عندما تلد أم: جنينًا مشوهًا ، كأن يكون خلقة مختلفة.عندما تلده: فإنها لاتسمح لنفسها أو لغيرها بقتله .. ما معنى هذا ؟؟ وما الفلسفة التى يمكن الخروج بها؟؟ إن ذلك يعنى أنه لو حدثت فى عهد ما : دورة مفاجئة قد جاء حينها .. ونسميها نحن طفرة أو نسميها تطورًا : ثم حدث فى ذلك العهد أن ولدت أم ما طفلا مختلفًا كأن يكون آدميًا مغايرًا : فإنها لن تعمد إلى قتله .. ستربيه على أنه طفل مشوه ،وما هو بذلك ...إنه فحسب آدمى آخر من طراز جديد ليس لها به عهد من قبل...ولو فرضنا أن الأم ولأسوأ الظروف قد اعتبرته جنينًا متخلفًا مشوهًا قد حاد عن المألوف : فإن ذلك لن يكون مبررًا لقتله ...سينمو ويترعرع فى رحابها ، ولن يسعها بين الحين والحين إلا أن تتنهد فى عطف ورثاء قائلة :

ـ مسكين ... مسكين هكذا جاءت خلقته ....

وهى هنا لا تدرى مطلقًا أنها هى المسكينة ، ذلك لأنها بصدد كائن جديد من طراز آخر سيدب على وجه الأرض وسيقلب مجريات الأمور بعبقريته ، بل وستبدو له تلك الأم وشعبها : شيئًا ضئيلا متقزم الذهن ساذجًا ..

وهنا سمع العم امرأة تقول فى صلف :

ـ هراء تلك النظرية .كما أنها لم تخرج عن كونها تفسيرًا آخر للتطور ...

وهنا رفع العم عقيرته صارخًا :

ـ تبًا لك يا آمون .كيف تصنع لى نسوة تجرؤن على اعتراضى ؟؟ كان من المتوجب أن تخرس ألسنتهن...

وهتفت امرأة تباعد بين ساقيها وهى جالسة على الرمال وقد ارتدت بنطالاً أبيض وقميصًا ورديًا :

ـ ولكن لا يخلو الأمر من فهم دقيق لموضوع مهم ...

ـ أوه .بل ما أبدعك يا آمون .لقد استطعت أن تخلق موقفًا متوازنًا خيال نظريتى التى طلعت بها على تماثيلك الفذة ...

وسمعت تكات سريعة لعدسات عديدة تبتلع للعم العارى مزيدًا من الصور فى شتى الأوضاع والحركات ، بيد أن العم لم يلحظ ذلك مطلقًا، حيث إنه فى تلك الآونة كان يحدق إلى ما خلف القمة نادرة ، ولقد تضاعفت دهشته حينما شاهد العديد من طائرات الهليوكويتر والدبابات الخفيفة والعربات المصفحة وسيارات الجيب تستتر من خلفها، ومن الفور هتف متعجبًا وهو يترنح :

ـ عجبًا..!! لا أحسب أن بوسع آمون صنع مثل هذه الدبابات أو العربات .. ماذا ينطوى عليه الأمر إذاً !! لا بد أن أراجع نفسى فى أمر هؤلاء النسوة ...

وطفق العم المترنح يتحسس النسوة من حوله وقد بدين فى هذه المرة وقد تحركن تحركات تدعو للريبة حقًا ، ولم يشعر إلا وقد رفع من فوق الأرض محمولاً على أعناق وأكتاف النسوة، هنا هتف العم بأعلى صوته :

ـ النجدة ثم النجدة يا آمون !! تعال وخلصنى من نسوتك اللاتى صنعتهن يا آمون..ألا تنقذنى مما صنعه إزميلك يا آمون !!! ليتنى إذاً لم آمرك بصنعهن منذ زمن طويل

يا آمون ..أنا الجانى ... ولكن .. ما لى قد استبد بى الرعب هكذا !! مرحى مرحى .. هيا .. هيا يا نسوة آمون .. هه .. هيا احملننى على أعناقكن .. هيا وطفن بى فى كل مكان ..هيا أيتها الجميلات الفاتنات ..أفتديكن جميعًا بجسدى .. أفتديكن بفؤادى ...أفتديكن بكل ما أملك .. هيا يا حوريات الجنة .. لعلكن اللائى جلبتن لىَّ الخمر الذى أسكرنى وحلق بىَّ إلى الفردوس ...

وما لبث يهتف ويصيح بهن حتى ألفى نفسه داخل مقصورة طائرة هليوكوبتر تقف على الأرض بين عديد من الطائرات الأخرى على مبعدة ، وقد أحاطت به النسوة من كل صوب مدججات بالسلاح الذى كان يتألف من طبنجات وقناصات وخناجر فى قراباتها، ولم تمض برهات حتى شاهد أمامه عجبًا.. لقد شاهد كلاً من عابد والأب وسيم وباستت : تقودهم مجموعة ضخمة من النسوة إلى حيث طائرة مجاورة ، وفى تلك اللحظات سمع عابد يهتف وهو يغطى وجهه براحتيه وقد حمل على أعناق النسوة:

ـ كلا .. كلا ... إنكن بذلك أضعتن كل مدخراتى من الحسنات التى أنفقت عمرى فى تكديسها ..حسنات ..حسنات ..إن ذلك اعتداء .. اعتداء ..كيف لىَّ أن أعتدى على حرمتكن أيتها النسوة !!.... إننى لا أحب الاعتداء.. كيف لى أن أجترئ عليكن؟.. هل تزمعن بذلك وضعى فى قفص الاتهام !! هل تدبرن بذلك المزيد من الاتهامات ؟؟ لماذا تضعن حول رقبتى حبل المشنقة !! .. إن النظر إلى المرأة يعد جريمة .. فما بالكن باعتلاء أعناقهن على ذلك النحو الفاضح العلنى؟؟ إننى ذكر ، والذكر بطبيعة الحال منبوذ من الجميع .. منبوذ الذكر الذى مثله ، كما إنه محتقر ومهان من قبل المرأة...إذا ما اختلس الرجل نظرة إلى المرأة: أخرجت له من فى جعبتها من رجال لدهمه بالأقدام وضربه والاعتداء عليه بل وتشويهه إذا ما استلزم الأمر .. يمكن للفتاة منكن وضعى فى تخشيبة البوليس بمجرد اتهامى بأننى قد شاكستها فى الطريق .. ويمكن لجنود الشرطة وضباطها أن يركلونى بالأقدام والأحذية وينهالوا على صدغى بالصفعات وذلك بمجرد ايماءة من إحداكن .. إننى ذكر حقير حقير.. إننى ذكر ولا بد من سحقى تحت النعال إذا ما سولت لىَّ نفسى أن أقترب من إحداكن. لابد من ضربى على قفاى إذا ما عن لىَّ اقتراف ذلك فى حق حضراتكن، إن كيدكن عظيم .. إنى حقير .. وحقير لأنى ذكر .. لا بد من إلقائى فى التخشيبة لأنام فوق بلاطها لأنى ذكر ...إننى دنس نجس دنس نجس دنس نجس..لأنى ذكر ..ولا بد من إلقائى فى التخشيبة حتى يزحف على جسدى القمل وحتى يتعطف علىّ العساكر برغيف واحد كل صباح ...إننى لا أعتدى..إننى لا أحب الاعتداء .. حسنات .. حسنات .. حسنات ...

وهتف الأب وسيم الذى كان يلبس جلبابًا أبيض نظيفًا جديدًا ، وقد جاءت به بعض النسوة حاملات له فوق رءوسهن وكأنهن ينتظرن أوامر أخرى :

ـ سيداتى الفاتنات ... آنساتى الأسرات.. إنه لما يسعدنى أن تكتشفننى وتحملننى على الأعناق...إننى خير مورث للصفات الوراثية الحميدة... لقد ورثت صفاتى لابنتى وسام الكمال ... أواه لو رأيتن هذه الحسناء الفريدة الجمال !! ومع ذلك لم تساعدنى على الإنفاق على أختها نوال: رائعة الحسن .. ولكن ليس بوسعى ويكل أسف أيتها الفاتنات.. ليس بوسعى الآن أن أورث أيًا من تلك الصفات الحميدة .. أتعلمن لماذا ؟؟ ذلك لأن جهاز التوريث المحترم والذى أورث به صفاتى قد تدمر من بعد حادثة الورش الميكانيكية بشركة أحمس للصناعات الثقيلة.. تلاشت أيضًا كل من كفى وأذنى وإحدى عيناى وأنفى وأسنانى .. لقد استعضت عنها بأجزاء صناعية بديلة أيتها النسوة المغريات الجذابات .. معذرة أيتها النسوة التواقات إلى كرجل مُوَرِّث للصفات الوراثية الحميدة ...

وهنا هبطت من إحدى عربات الجيب التى أتت فى تلك الأثناء .هبطت امرأة ضخمة الجسد تلبس حلة رسمية صفراء من الحرير : عليها شارة فوق الصدر تمثل الكرة الأرضية... كانت المرأة ذات وجه كروى ضخم وعينين عسليتين وشعر أسود، وكان لها صدر ناهد مكتنز ...

اتجهت المرأة رأسًا وفى صحبتها ممرضة دميمة بيضاء الملابس : إلى حيث يجلس العم جمال ، ودون أن تبتسم له حدثته بالإنجليزية :

ـ افتح فمك ...

واستجاب العم وفغر فاه بعد أن تبين له أن التى أمامه طبيبة عالمية ، وهنا تمتمت المرأة صارخة الإغراء :

ـ أسنان همجية لا تتسنى إلا للوحوش...لا تسوس ...

واستخرجت لها الممرضة الدميمة سماعة من حقيبتها ، وطفقت تتسمع دقات قلب العم وهى تسدد نظراتها إلى أعضائه السفلية فى سفور ، ثم تمتمت :

ـ قلب قوى ونبض ممتاز ...

ثم انحنت إلى الأمام وإلى الخلف بشدة ، ثم وضعت إحدى ساقيها على سلم الطائرة جاعلة ساقها الأخرى على الأرض مما جعل فخذها يندفع إلى الأمام بطريقة خاصة ، وبما أن العم كان يرقب ويحدق إليها وقد برزت عيناه : فإنه سرعان ما تبدى تأثير الإغراء عليه ،

ولكن الطبيبة لم تبتسم أو تضحك أوتتخذ مما تشاهد أى موقف هزلى ، ولعلها هنا كانت تتخذ من جسدها المثير سماعة تتسمع بها لتختبر أجهزة العم المهمة فى ذلك الوقت العصيب ... وهمست الطبيبة فى أذن الممرضة :

ـ كفاءة عالية .. حساسية ممتازة ..استجابة تلقائية .. يمكن نشر ذلك فى الصفحة الأولى من الجريدة الرسمية" مصيدة الذكور " اكتبى إذاً يا " ليندا " الروشتة ..

- لا داعى للهرمونات لأنها قد تسبب بعض الالتهابات...
- إزالة اللحية والشارب وشعر الجسم الزائد فى قسم التجميل بمستشفى إخناتون ..
- أوصى بوضعه فى حمام ساخن لمدة أربعة أيام لتتفتح مسامه ، وذلك تحت رعاية دقيقة مراعاة للتدرج الحرارى حتى لا يصاب بنزلات برد حادة قد لا يتحملها ...
- يسقى خمرًا ويسجل على شريط كل ما يصرح به من رواسب نفسية ، ثم يعرض الشريط على العقل الطبى الإلكترونى " أطلانطس" ليحدد خريطة العقد النفسية وسحب الإحباط وموجات الكف وترددات الكلمات المحبطة الوقع المتأصلة فى أبراج عموميات الفكر ، ويمكن عرض نتيجة أطلانطس على العقل النفسى " تلر " حتى يحدد لنا بؤر الهسيس الذى ينتاب مناطق التنبيه الغدى والذى يسبب لها أنواعًا من الكف الإحباطى النوعى كلما عن لها أن تعمل، مما قد يبديها فى بعض الأحيان عاجزة عن العمل رغم كفاءتها التامة ..

ومن فور انتهاء الممرضة ذات العينين الجاحظتين من الكتابة : انحنت للطبيبة العالمية : "جين" فبدت قصبة أنفها شديدة الارتفاع كما لو كانت إحدى قمتى جبل الدكرور " نادرة وناصرة " .. ثم أعطت الطبيبة للعم ظهرها وسارت تتهادى ...

ومضت الطبيبة ومن خلفها الممرضة : المنظمة جدًا والنظيفة جدًا والمؤدبة جدًا فى ردائها الأبيض الذى أبان عن نحافة مخلصة محابية للعظام ...

وقفت الطبيبة العالمية "جين" الأمريكية الجنسية أمام عابد المرتعد الفرائص فى حلته الجديدة ومن حوله جمع من النساء، ونظرت إليه وإلى لحيته المتطايرة وإلى عظامه المشرئبة بأعناقها مطلة على الدنيا من خلال جلده المتغضن، واستدارت إلى الخلف ثم عمدت إلى الانحناء جانبيًا ثم عادت كما كانت من جديد، ونظرت إلى الرجل نظرة طبية ثم تمتمت للوصيفة :

- مصاب بإحباط معنوى وجنسى شديد ...جانبه الدنيوى مضمحل تمامًا .. يحتمل أن سحابة الإحباط الإرادى قد قضت تمامًا على جبلاته الطبيعية .. العقد الراسخة مختلطة بعدد ضخم من البؤر المرمنة الطابع .ونجم عن ذلك الاختلاط تكثيف من اللامبالاة الإرادية يخفف منها نوع من الآمال ذات المنهاج الدينى البحت ... اكتبى الروشتة يا" ليندا" : ولو أن الأمل فى الشفاء يبدو ضحلا للغاية .. لنبتعد قليلاً حتى لا يسمع شيئًا ، فيبدو أنه مثقف كزميله :

- عشر حقن ماكسمار ..
- إزالة اللحية والشعر الزائد بمستشفى " إخناتون " بقسم التجميل ..
- عشرة أيام فى حمام ساخن مع مراعاة التدرج الحرارى ..
- لا داعى للتسجيل النفسى فالرجل يبدو واضحًا تمامًا ..
- راحة طويلة لمدة شهر فى غرفة ذات ضياء زرقاء تطل على البحر بالإسكندرية، وتدرج العلاقة الأنثوية من علاقة بعيدة : تبدأ أولا برؤيته نسوة ترتدين ملابسهن على شاطئ البحر ، ثم تطوير ذلك إلى رؤيته لهن تلبسن ألبسة البحر من بعيد أيضًا ، ثم ينتهى الأمر إلى خروجه إلى الشاطئ ؛ ومن ثم تنسحب النسوة وتقلعن عنه وتتبرمن من انتهاكه لحرمتهن ، فيما عدا واحدة تعطف عليه عطفًا مصطنعًا ، ومن ثم ينجذب إليها ويحبها حبًا جمًا بسبب ذلك العطف وذلك الحنو الذى أغدقت عليه به دون بقية رفيقاتها اللاتى سيحقد عليهن بدوره ، وسينشأ عن حقده على بقية النسوة : رغبة لا تقاوم فى الاعتداء عليهن وسينشأ من حبه للمرأة نوع من الإعجاب المتأزم الذى ينتابه شيء من القنوط الذى سرعان ما يضمحل بسبب التودد الذى ستعمد إليه المرأة ، وإن ذلك ليكفل لنا بنسبة مرتفعة : عودة غدده إلى العمل ...

وانسحبت من أمام عابد متجهة فى صحبة الممرضة إلى وسيم الذى كان الرجل الوحيد إلى مشرق الابتسامة فى ود ومحبة وتجاوب ، وعلى الأثر طفقت الطبيبة تتحدث إلى الممرضة المقددة :

- لا فائدة ترجى منه مطلقًا.. إنه كالأنثى ؛ بل أقل شأنًا .. ليس من المتوجب والأمر كذلك : الاعتناء بأمره على أى شكل ، رغم أنه يبدو وسيمًا للغاية .. المقصود فى الرجل ليس الوسامة كما يعتقد البعض : بل المقصود منه الفتوة التى هى بيت القصيد.. الجمال قوام الأنثى ... يمكن إطلاق سراحه للعيش فى حرية تامة دون قيد أو حظر تجول طالما أنه لن ينفعنا فى شيء ...

وعلى الأثر ركبت الطبيبة عربة الجيب : وانطلقت بها مع بقية السيارات والدبابات ، بينما حلقت طائرات الهليكوبتر بما صادته من رجال من بينهم وسيم موروث الصفات الوراثية الحميدة المغبون ...

وكأن شيئًا لم يكن .. فلقد تلاشى كل شيء ...خبت الأصوات المريبة ، وتبددت الضوضاء ، وانحسرت أعداد النساء ؛ فلم يبق غير عدد ضئيل منهن فى هيئة تماثيل طفلية عارية جاثية أمام كهف بيت السلطان وقد أظهرن تزلفًا واستجداءً وتشوقًا صارخًا..

الفى " باستت " أنه الوحيد الذى تركته النسوة فى المكان ، فتلفت حواليه فى ضيق وقنوط، وعلى الأثر طفق يصعد الدرج الرملى، فاستقبله الصفيران منكر ونكير بالوثب عاليًا والزحلقة، وقد شعرا بخلو المكان من ساكنيه ... ولم يتمهل الجانزى المفتى : بل هبط الدرج الصخرى الذى يقوده إلى النفق السفلى بعد أن التقط كشافًا وبدأ يسير عبر ظلماته المطبقة ميممًا شطر جبل الموتى ...

ارتقى باستت الدرجات الصاعدة إلى الجبل وعندما صار داخله واحتواه أحد أبهاء الموتى جعل يصيح :

آمون.. آمون.. أين أنت يا آمون؟؟.. ألا تجيب على باستت؟ لقد رحل العم جمال .. استولت عليه النسوة مع الصديق عابد ووسيم.. وخرج من البهو ليدخل آخر صائحاً فى رعب..

ـ آمون .. أين أنت ؟؟.. آمون ...

وفجأة جاءه الجواب فى صورة همس كالهسيس :

ـ انتحر الإله آمون ..

واستدار إلى الخلف وصوَّب كشافه فألفى بهاء يقف بكسائه الجلدى حافى القدمين ؛ وعندما وجده دامع العينين همس متسائلاً :

ـ ما الخطب يا بهاء !!

فسكت بهاء مجاهدًا دمعه ، ثم همس وهو مطرق الرأس :

ـ لقد انتحر آمون بعد أن صنع لنفسه من أحجار الجبل تمثالاً صغيرًا ..لقد استلقى فى أحد توابيت الفراعنة ثم وضع فوق بطنه التمثال الصغير ، وتوج رأسه بشعار الإله آمون الذى كان قد خلعه عليه العم تكريمًا له يوم قتله الغدر فى شخص مدير القلعة ، وأخيرًا اغمد فى صدره إزميلا حادًا ...

وتداعت دموعٌ ودموعٌ ، وهمس باستت فى جزع :

ـ لقد أتت إليك امرأة عمك مع حنين كيما تتذراك ...

ثم أردف وهو يتحرك فى اتجاه إحدى الحجرات :

ـ أجل ..إنها هنا .. هنا عند رأس آمون ... تعال لتشاهده معهما ...

وببطء شديد تحرك بهاء ومن خلفه " باستت "وكل من السيدة غزالة وحنين ذات رداء العرس الأبيض الجرار وقد وقفتا فى صمتٍ مهيب عند رأس التابوت ، وما كاد يحلق باستت داخل هذا التابوت حتى شاهد آمون المسجى بداخله.. وقد بدت عيناه هادئتان جميلتان كان جميلاً وديعًا فى رقدته وقد تألق التمثال الصغير فوق صدره كنسخة مطابقة له ، وبدا الأزميل الطويل مغمدًا فى صدره وقد تشحط بالدماء الزرقاء ...

* * *

بعد عشرة أيام من تلك الأحداث، كان العم جمال يجلس فى شرفة تطل على حديقة غناء صدحت على أفنانها عصافير الدح والحسون بالإسكندرية وعلى وجه التحديد بمدينة أبوقير ...

كان البيت الذى أُختير له قصرًا من القصور العتيقة شامخ البناء له طابع بيزنطى جميل.كان العم فى صباح ذلك اليوم يجلس على كرسى وثير عليه حشية من الدمقس المحشو بالريش ، والمكان من حوله يصدح ويشدو بالجمال المتبدى فى الرياش والجدران الزرقاء الموشاة بماء الذهب ... وهنا وهناك جلست حوريات جميلات فى ملابس شفافة بين الشجر وفوق سندس من الخضرة ... كان حليق الذقن مصفف الشعر مفروقه وقد لمعت بشرته على ضياء الصباح الحنون المياسة فوق هواء تراقصه الخضرة..كان يلبس تنورة حريرية بيضاء مقصبة ذات حزام عريض له حلية ذهبية تتربع فوق سرته، فبدا وهو جالس واضعًا ساقًا فوق ساق كما لو كان رمسيس الثانى وهو يجلس فى شرفة قصره ...

ورن التليفون الأخضر الموضوع فوق نضد رخامى جانبى، فنهض إليه على مهل مبتسمًا:

ـ هالو ...

ـ هالو .. مرحبًا بملك الملوك..إننى غاية فى الامتنان أن تعطفت علىّ بالأمس .. وكانت ليلة لا أنساها .. ليتك لم تتعطف على لأننى متعلقة بك وأحببتك إلى درجة الهيام .. إننى أشكر أمة النساء اللاتى قد تركن لك حرية الاختيار .. إن عابدًا لم يزل تحت العلاج . ألم تقرأ اليوم صحيفة مصيدة الذكور المختفية !!

ـ كلا .. يبدو أنها محرمة علىّ !!

ـ لا بأس .. لقد جاء فى خبرها الأول أن علاج عابد سيستمر طويلاً، وقد يمتد خمس سنوات قبل أن نحصل على أية نتيجة .. إنهن يغدقن عليه بالهرمونات وخلاصات الأغذية والفيتامينات المركزة ، بالإضافة إلى تخطيط ماهر للإيقاع به فى شباك الحب المصطنع. إنهن فى سبيلهن إلى شحذ ميوله الدنيوية التى انطمرت تحت مآربه الأخروية ، إنه يعالج لترضية القيادات وليس للإنسال ..

ـ حسنًا يا سيدة كوثر ..لا تحدثينى عن عابد .هل هناك أخبار أخرى عن ظهور ذكور جديدة ؟؟

ـ أوه .. كلا ..ولا مجال لأى إخصاب صناعى ...

ـ بوصفك رئيسة أقسام الشرطة : هل قمت بما طلبته منك ؟؟

ـ أوه ..أجل .بالطبع ..لقد تم القبض على النسوة الست اللاتى استولين منك على شبكاتك الذهبية فيما قبل ..أودعتهن تخشيبة قسم القلعة ... إنهن فى أسوأ حال ...

ـ رائع .. هل هن جميعًا فتيات أم زوجات ؟؟

ـ إنهن سيدات ...ليست منهن آنسة واحدة ....

ـ هل من بينهن امرأة تدعى فادية كانت تسكن فى حى أمام ساعة الزهور بالإسكندرية ؟؟

ـ أجل ... أليست تلك السيدة القصيرة ذات الجدائل السوداء الطويلة ؟؟

ـ أجل ...هى بعينها ...

ـ لقد أغدقت عليها بمزيد من الجلدات ...

ـ تصورى.. لقد كانت تدعونى من طنطا وأنا خطبها إلى بيتها بالإسكندرية، ولا تلبث بعد ذلك أ ن تدعو أبناء عمومتها وأبناء خالتها وأبناء إخوتها الكبار والذين فى مثل سنى تمامًا؛ كانت تدعوهم جميعا بالتليفون قائلة لهم إننى قد وصلت من طنطا، ومن الفور يسرعون إليها، حتى يكادون يصلون تشرع فى ملاعبتهم النرد والدمينو وورق اللعب، وقد تجمعن حولها محتكين متكالبين وقد جلست هى منفرجة الساقين وقد ارتدت بنطلونا ضيقًا يكشف عن جسدها فى سفور عامدة بين الفينة والفينة إلىَّ اختلاس النظر إلى وأنا أجلس وحيدًا منفردًا : كيما تشاهد ما جلبته على أفعلها من غيظ وكمد واستشاطة ..

ـ لا تبتئس ...إنها لعبة قذرة عادة ما تلجأ إليها الفتاة لإضفاء مزيد من الأبهة والأهمية على شخصها خاصة إذا ما أحست بنوع من الفشل الذى يقض مضجعها ...

ـ حسنًا ... هل أنتنت فروجهن!!

ـ نتانة المقابر .. إننى أحبك وأهيم بك ...

ـ لماذا !!

ـ لأنك تعطفت علىّ...

ـ ولكننى كنت أقبع فى الجبال مقتاتًا على الصيد كإنسان بدائى فى عصر يتسم بالعلم !!

ـ انس الماضى ..

ـ ولكننى لا أحبك ...

ـ يحسن ذلك ..يكفى أننى أحبك وأعشقك ...

ـ هل تودين أن أكون لك زوجًا حتى تستحوزى علىّ دون الأخريات؟؟..

ـ كلا ...

ـ لماذا ؟؟

ـ حتى أظل أنتظر اليوم الذى تأتى فيه إلىّ..

ـ حسنًا يا سيدة كوثر ..ولكنك لم تخبرينى عن أحوال وسيم !!

ـ فى شر حال يا حبيبى.. تصور : إن النسوة عندما علمن أنه رجل لا يصلح للنساء جعلن منه " مسخة " إلى درجة أن المتهورات منهن بالقاهرة عمدن إلى إلباسه ثيابًا نسائية حمراء ، وأغدقن على شفتيه بأحمر الشفاة وأصباغ البشرة ، كما خلعن على رأسه شعرًا مستعارًا طويلاً فبدا كسيدة شقراء خضراء العينين صبوحة الوجه .لقد قمن بذلك فى الطرقات وعلى الملأ ..ولم يسعه حيال تلك السخرية إلا أن يهتف فيهن وهو يبكى :

ـ الآن.. الآن تسخرن منى بعد محنتى وكارثتى !!! لقد كنت خير مورث للصفات الوراثية الحميدة .. سلن إذاً ابنتى نوال !! إننى أعلم أنها قد انتهت من دراستها فى الحقوق هذا العام .. لقد كانت بكلية الحقوق .. لقدأنفقت عليها كيما أربيها وأعلمها ... لقد بعت بيتى ببلدة الأغورمى بواحة سيوة من أجل تعليمها ... سلنها إذاً ... لقد أورثتها عينين خضراوين وشعرًا حريريًا وشفتين خلابتين وبشرة بيضاء ...أين أنت يا نوال !!! أليست

منكن من تغيثنى بها لترحمنى من ذاك البلاء !! .. رباه !!!..لم أكن أعلم أنكن على ذلك الجانب من الوحشية !! أين أنت يا نوال !!!

ـ واأرباه !! يا لهول ما أسمع !! ولكن ماذا كان موقفك أنت من ذاك البلاء بوصفك مسئولة عن الأمن ؟؟

ـ أخذتنى الشفقة بالرجل الذى تخلت عنه رجولته بعد الحدث الذى تعرض له خلال كارثة الورش..أعلنت فى الإذاعة عن الفتاة المذكورة " نوال وسيم " .. ولقد كان من المفرح حقًا أن اتصلت بىَّ فى مكتبى بالقاهرة الفتاة الجميلة التى تحمل هذا الاسم ، واتضح لىَّ بالفعل أنها قد نالت ليسانس الحقوق بدرجة امتياز .. لقد أتت لىَّ المحامية وقد تساقطت عبراتها حزنًا على والدها ... ولم أتمالك ؛ فمن فورى عمدت إلى تجهيز حملة من نسوة الشرطة ودعمتها بمزيدٍ من طائرات الهليوكوبتر والعربات المصفحة وعربات الجيب المدعمة بأجهزة الإرسال والرشاشات والقناصات ؛ وانقضت الحملة انقضاض الصقر وانتزعته من براثنهن حيث كان يلبس فساتين النساء ؛ وعانق الأب ابنته الذى لم يرها منذ سنوات وهو يشهق ويبكى وينتهد وقد ارتعدت أوصاله وانتفض جسده ؛ ولم يسع ابنته المحامية إلا أن تقف فوق عربة جيب هاتفة فى النسوة وهى ترتدى وشاح المحاماة كما لو كانت فى محكمة :

ـ ها هو أمامكم أبى وسيم .وهأنذا ابنته.. هل منكن من تبزنى فى الجمال!! إننى أجملكن جميعًا ..أورثنى أبى صفاته الجميلة كرجل ...إنه رجل أيتها المفترسات ..!! ولولا حادثة الورش التى أصابته لكان لا يزال رجلاً يستطيع لكن ما تبغينه منه .. إنه أبى الذى أنجبنى من صلبه ...آه لو رأيتن أختى وسام الكمال .. آه لو رأيتن أختى حنين...

كانت هذه هى المرافعة الأولى للمحامية نوال وسيم ...أخذتنى تلك المرافعة الضافية ؛ فتركتها تهتف فيهن وهى تتشح بوشاح المحاماة وقد وجهت إليها آلات التصوير التلفزيونى ..إن الفيلم سوف يعرض يوم الخميس القادم الساعة الثامنة مساءً ..

ـ يا لروعة ذلك ..لا بد من رؤية هذا المشهد ...

ـ لا تجزع يا حبيبى .لقد أغدقنا عليه بمنزل فى الإسكندرية وجعلناه يعيش مع ابنته نوال المحامية ... حقاً لقد أصبحت ذائعة الصيت فى المجتمع النسائى سواء المصريات منهن أم الأجنبيات ...

ـ حسنًا فعلت يا سيدة كوثر .سأزوره إذاً يوم الخميس القادم بعد الثامنة مساءً بعد مشاهدة وسماع مرافعة نوال وسيم الخالدة ... سأحضر إليك بعدها فى عربتى

الخاصة؛ ولو أن ذلك سيجلب الضيق على أخريات يتعقبنني بعيون الصقور ..سأحضر إليك بوصفي ...

ـ بوصفك ماذا ؟؟

ـ بوصفي.بوصفي وسيم الذى لم تخنه قوة الذكورة ...إلى اللقاء ..فديتك ... نحن هنا ... من هناك !! هنا القوة ..هل من معتد !! نحن هنا.. سرقن مني شبكات الذهب واستولين على المال اللازم للزواج ... من هناك ومع ذلك لازالت احتفظ بقوتي.. نحن هنا.. لعبت الرياضة وسخروا مني بسببها... من هناك؟.. !! أنظر أيها المعتدى !! انظر إلى عضلاتي وامتشاق جسدى !! نحن هنا ..ها .. هل تستطعن السخرية مني وإلباسي ثياب النساء !! نحن هنا.. من هناك !! نحن هنا .. من هناك !!!

* * *

الفصل الحادى عشر

« العــودة »

اندلعت حرب النساء ...

منعت إذاعة الأغانى العاطفية والبرامج المألوفة ، وعزفت المارشات العسكرية والأناشيد الوطنية المعدة خصيصًا ، وبدأت استعراضات الجيش النسائى والذى يمثل التكتلات الشرقية ، فطافت بشوارع القاهرة وكورنيش الإسكندرية : فرق الخيالة المدججة بالسلاح ، وفرق المشاة والمدرعات والمجنزرات وقاذفات الصواريخ ، وقد حلقت فوقها أسراب الطائرات الهليوكوبتر وطائرات السراب التشيكية ، هذا ولقد بدت البوارج الضخمة على امتداد ساحل الإسكندرية ، وقد خفقت فوقها بنود الدول الشرقية جمعاء ...

أغار سرب غاشم يتألف من عشرين طائرة " تيجر " فى الفجر على ارتفاع منخفض تمامًا فوق القاهرة ، فدمرت عدة عمائر على أطراف المدينة ، ولكن مدفعية جبل المقطم استطاعت أن تسقط عشرًا منها بينما لاذت الباقية بالفرار فى اتجاه خليج السويس .. وفى غفلة من النساء الشرقيات: تسللت مائة دبابة من طراز " السلحفاة " المتوحشة " وتوغلت فى كبد الليل حتى صارت على مشارف الفرود الرملية المجاورة لحدود القاهرة ، بيد أن مدفعية الهاون والمدفعية المضادة للدبابات : استطاعت أن توقف تقدمها ، ولولا أسراب الطائرات المغطية لها : لكانت قد دمرت عن آخرها ... بيد أنه وبينما الحرب تدور : إذا بكبسولة فضاء تحط فجأة وسط أرض سيناء وعلى وجه التحديد عند سفح جبل " موسى الكليم "، وما إن أسرعت إليها النسوة الغربيات بالعربات والطائرات : حتى شاهدن عجبًا !!! لقد كانت الكبسولة الصغيرة تقل تمثالا بديعًا أسود من معدن مستغرب لا نظير له على سطح الأرض ، بل لا ينتمى مطلقًا لجدول العناصر لمتدليف، وكان التمثال الزنجى جالسًا وقد حطم قيودًا من حديد بحيث بدت مطوقة يده اليسرى واليمنى وقد انفصم اتصالهما من الوسط ، وعلى صدر التمثال الأسود حفرت رسالة بخط دقيق باللغة الإنجليزية وكان هذا نصها :

● نحن شعب الزهرة... شعب الزنوج ..لقد نجحنا وبنينا.. نشكركم .. لقد ودعنا العبودية على كوكبكم الأرض ..مات " أنطونيو هيتو " مع الأقلية البيضاء والصفراء المغضوب عليها ..علمنا أن الأرض لم تتفجر ، ومع ذلك فلن نعود إلى الأبد ...

* * *

وفى تلك الأيام كان يعيش كل من بهاء وزوجة العم - التى اعتبرها هو كذلك - وحنين وباستت فى كبد جبل الموتى ، وكانت كل من حنين والسيدة غزالة تخرجان فى الليل خلسة مخترقات للأنفاق السفلية لجلب حاجات الجماعة : من ماء وحليب وغنم وبلح وزيتون .. لقد اختاروا لهم غرفة بداخل الجبل قريبة من باب البهو المطل على السفح ، وفرشوا أربعة توابيت بمراتب الأب وسيم ، وعاشوا عيشة يكتنفها الظلام والخوف المستبد على بهاء من النسوة ...

كانت الست سنوات المنصرمة كفيلة بأن تجعل من حنين عروسًا رائعة الحسن والصبا والجمال بدرجة غير مألوفة ، متفوقة على أختها وسام الكمال وأختها نوال المحامية ...

لم تتخل الفتاة عن ارتداء ثوب العرس الأبيض الجميل ، بل كانت عادة ما ترتديه لتجلس على باب البهو الأثرى الفرعونى متفكرة فى كل شىء ، حزينة على أبيها الغائب دون أن تدرى له مصيرًا ...

ارتفع نهدا حنين فى داخل صدر الثوب ، وانحبك خصره عليها ، وبما أن حنين كانت تتمتع بشهية تحسد عليها خاصة بالنسبة للحم والشحم والبلح والجبن : فلقد عاد عليها ذلك: بجسد ممتلئ بمرمر قشدى تعلوه بشرة محمرة ...

وفى أصيل ذات يوم : حدثت السيدة غزالة الفتى بهاء وقد كان مضجعًا فى فراشه وعند رأسه جلس باستت يغنى له فيما يشبه الهمس :

- لا بد لك من الزواج يا بهاء ...

فالتفت بهاء نحوها ، وحدقها بنظرة : فهمتها السيدة على التو لخبرتها بالرجال ، ولم يسعها حين ذلك إلا أن توسع له فى الابتسام ، وطبعت على خده قبلة حنون ثم همست فى أذنه :

- ستتزوجك حنين بالوهبة ..ستهب نفسها لك طالما أنه ليس هناك مأذون يأذن لك بها..إننى شاهدة الزواج .. هل تقبلنى كشاهدة يا بهاء ؟؟

فرد بهاء وقد جاش صدره بأخابيل شتى :

- أجل .. إنه لما يشرفنى أن تشهد زوجة عمى الكريم على زواجى ...

اغرورقت عينا المرأة بالدموع وطبعت على خده قبلة ، وعندما رفعت وجهها : شاهدت على ضوء الشمس المبصبص لهم من خلال باب الغرفة .. شاهدت دموعه تنساب فى غزارة ، فرقت له واحتضنته مطوقة له بساعديها وقد نهض من فراشه ، ثم همست له :

ـ عندما تأتى حنين إلينا بالحليب من المقابر المهجورة : سوف أزف لها الخبر .. إنها عروس غير مألوفة الحسن والجمال ...إنها حورية هبطت إلى الأرض من أجلك با بهاء..

وفى جوف الليل : كان العريس مع عروسه فى كوخ الزوجية .. كوخ غادة المقابر ..

وفى الفجر تسلل العريس عائدًا إلى جبل الموتى هو وزوجته الجميلة ، بعد أن طبع مزيدًا من القبلات على واجهة قبر أمه ، وبعد أن وقف أمامها فى خشوع محتضنًا عروسه سيدة الحسن والجمال التى أوعدته بطفل يسمى جمال ... ولكنه ماكاد يلج الغرفة التى تجلس بها غزالة : حتى وافته بخبر مزعج مؤلم كئيب ، وعلى الأثر قادته إلى أحد التوابيت بحجرة مجاورة ، فهاله أن يشاهد على ضوء الكشاف : المغنى باستت ممددًا فى أحد التوابيت وقد انغرس إزميل آمون فى صدره ، كما فوجئ بعبارة حفرها الجانزى فوق جدار التابوت وكان نصها : " انتحرت كما انتحر آمون : شفقة على أولادى من العبودية والرق ...

* * *

تعاقبت الأيام، ومرت كيما تضيف إلى عمر الدهر عاماً كاملاً.. وبدأت أعراض الحمل على بعض النسوة الغربيات ، فتشككن جراء ذلك فى وجود ثمة رجال فى الخفاء ..واتهمت بعضهن البعض ، وسرت شائعات شتى ، وتناولت الصحف كل تلك الأحداث ، بيد أنه وبفحص تلك النسوة الحوامل : أكتشف أخيرًا أنهن قد أصبن بالحمل الكاذب الذى بسببه ينتفخ رحم المرأة اشتياقًا لحمل جنين ، وعلى أثر ذلك خمد وطيس الإشاعات ، فعادت النسوة للتفكير فى الرجال ، مما حدا بالمعسكر الغربى إلى شن الحرب ...

* * *

وفى صباح ذات يوم : فوجئت نسوة الأرض بما هو أعجب من المحال ... لقد فوجئن بما لم يكن متوقعًا وقد امتلأت السماء بالأطباق الطائرة ، فعلقن البصر عليها ، وقد جحظت عيون الملايين منهن ، غير مصدقات لما ترين وتشهدن من خلق هابطين ...

وحطت الأطباق الطائرة على الأرض ولقد كان من يمن الطالع أن تهبط كل تلك الأطباق الطائرة على ضفتى قناة السويس كمنطقة مختارة ...

وخرج ركاب الأطباق الطائرة من أطباقهم : فإذا بهم ستون مليونًا من البشر عائدين من كوكب المريخ ، فهرعت النسوة إليهن بالطائرات والعربات والجياد مقدمات لهم ألوانًا من الأزاهير الفيح بعد الاتصال بهم لاسلكيًا ...

بدأت الاحتفالات الرائعة بعودة بعض المهجرين من المريخ٤ ، فتناست النسوة الخصومات ، وأوى العائدون إلى قريتى التهجير : معلنين أنهم لا يعلمون شيئًا عن المهجرين إلى الزهرة ٤ ، وأفادوا بأن المهجرين قد نجحوا فى الاستيطان بالمريخ ٤ وفى إنشاء دولهم المختلفة هناك ، وأن الهابطين إن هم إلا قومًا نيط بهم تعمير الأرض من جديد ...

انطلقت صواريخ الأفراح ، وهلل العائدون ، وارتفعت الرايات وخفقت البنود ، وأقيمت المأدبات وبدأت طائرات الهليوكوبتر تقذف الخلق بوجبات الطعام الشهية المألفة من : الدجاج المشوى واللحم المقلى وشرائح البطاطس والجبن والخبز الطازج والكعك وفطائر جوزة الطيب ولحم القمة والجراد الصحراوى والضفادع المتبلة ، وناهيك عن قطع الشيكولاتة والأيس كريم المشكل بالفواكه المجففة والياميش وثمار البرتقال والموز والكريز ...

ارتفعت أعلام كل الدول الشرقية والغربية، وخفقت فوق البوارج الضخمة التى استجلبتها بعض البعثات من مياهها الإقليمية والتى كانت ترابط فيها منذ الهجرة الكبرى: فاختلط كل شعوب الأرض فوق أسطحها ، مطلقين لأنفسهم العنان فى كل شيء.. فهذا يقبل ذاك وهذه تحتضن تلك وتبادلت الشعوب التهنئات

وصدحت الموسيقا والأغانى فى الإذاعات المختلفة ، وتمايلت الرءوس نشوى باللقاء ، وهنأ كل أخ أخاه : بعدم انفجار الكرة الأرضية ، وأسكر الناس ما لمسوه من حب وإخاء ومجاملة : متجنبين ما كانوا يتصفون به من أنانية وحقد مستطير جلب عليهم الهم والغم والتعاسة والحروب المريرة طيلة عهود بأكملها منذ فجر التاريخ ...

تأبط كل فرد ذراع أخيه الإنسان: قاصًا عليه ماصادفه من أهوال أو جمال على كوكب التهجير.. فهذا روسى يجلس فى معية مصرى وإيطالى ونرويجى تحت ضياء القمر، وهذه ثلة من السيدات الإنجليزيات والسويديات والتبتيات والمصريات : قد جلسن مترجمات لبعضهن البعض من لغة إلى لغة ، وقد عقدن صداقة وارفة لا يفصمها حقد أو كراهية أو خداع ..

مرح الناس متعانقين متآلفين تحت ظلال أهرامات الجيزة وأبو الهول ، وراحوا يتغنون بمصر كبلد فرعونى عريق علم الناس جميعًا كيف يكونون ، مغدقًا عليهم بالمعارف والعلوم : تلك التى لم تكد تتطور حتى صعدت بهم أخيرًا إلى الكواكب التى تسبح فى آل الفضاء والصمت شعارها ...

وعلى شاطئ خليج السويس فى صباح ذات يوم وقف رجل عجوز يتوكأ على عكاز مرتديًا حلة زرقاء أنيقة : وقد بدت لحيته فى مظهر مستغرب حقًا وقد شككت بزهور متناهية فى الصغر مختلف ألوانها بحيث غطتها تمامًا .وقف ذلك الرجل العجوز العبقرى مودعًا فتاة مصرية وهى فى طريقها فى معية العديدين لارتقاء مصعد أحد مناطيد زيلن ذى محرك نووى ، وتحدث الرجل العجوز بالإنجليزية إلى الفتاة التى تلبس حلة فضاء زرقاء قد خطت عليها كلمة PEACE أو السلام على صدرها الناهد :

ـ وداعًا " جادا" .. وداعًا " جادا " لن أنساك أبدًا ..؟ أدعو لك بهناءة الحياة.. عشت أيتها البنية الجميلة الذكية .. لن أنساك أبدًا ، كما لن أنسى ابنى " ساند " ...

ودمعت عينا الفتاة وهى تقبل يد الرجل الأمريكى المتوكئ على عكازه، ولكنها تمتمت تحييه من خلال دموعها بالإنجليزية وقد صارت تتقن النطق بها :

ـ اللعنة على لحيتك يا عم تشارلى ...

ولم يسع الرجل إلا أن يبتسم لتلك التحية المجاملة لابنه "ساند" وراح يلوح لها بعكازه وهى تبتعد عنه متجهة نحو منطاد زيلن، وفى يدها جعبة متاعها الزرقاء، وعندما قرأ فوق ظهر الفتاة كلمة LOVE أو المحبة التى كان قد خطها بقصاصات أعلام الدول : فإنه طفق يتوكأ على عكاز من السرخس .. والدموع ...

***

كان روالد قد هبط مع الجموع الهابطة من المريخ ٤ لإعادة التوازن الحيوى إلى الأرض من جديد وقد تركت فيها النساء ...

عمد النرويجى إلى مهام منصبه فى نيويورك : ولقد وصلته فى حينها : أخبار الرجل الأوحد الناجى ،فأراد أن يشاهده ليحيط بأمره : وكيف تسنى له أن ينجو من هلاك محقق على أيدى الدهماء ، فأرسل فى طلبه ، وسرعان ما أفرجت عنه النسوة الشرقيات وقد صار ضعيفًا خائر القوة بارز العظام مضعضعًا شارد الفكر مبهمه ...

وقبل أن تقلع بالعم جمال الطائرة النفاثة والتى كان سيقودها طيار إنجليزى ليحلق بها إلى نيويورك : صمم على أن يصحبه فى تلك الرحلة صديقه عابد الذى لم يتخل عن آماله الأخروية حتى وقتذاك ،فأجيب إلى طلبه ، وانطلقت النفاثة كالوهم الطائر ...

وتمت المقابلة فى مبنى الأمم المتحدة الضخم الفخم : بيد أن الذى أدهش العم وعابد بحق : هو أن يجدا الأب وسيم قد سبقهما إلى هناك : كيف لا وهو الذى كان بين أيدى النسوة الغربيات ...

أغدق روالد على الثلاثة رجال من كرمه ونبله وعطفه وإنسانيته، ومنح كلا منهم ميدالية ذهبية تحمل شعار الأمم المتحدة ، وسأل روالد العم جمال :

ـ والآن .لقد سمعنا قصتك الشيقة، وآن لك أيها الأخ الكريم أن تأمرنا فتجيبك ..إننا لن نرفض لك طلبًا أنت وصاحبيك المصريين ...

فقال العم بفكر مضطرب :

ـ سيدى ...إننى شخص أحب العزلة ... إننى أريد أن انعزل تمامًا عن هذا الوجود .. أريد أن أنهى حياتى فى هدوء تام ...

ولما كان ذلك ما يوده عابد بلا شك : فإنه قد أسرع يقول :

– أود أن أكون مع صديقى أيها الرئيس المفدى ...

ولم يتريث الأب وسيم الذى كان يلبس حلة أنيقة بيضاء :

– وأنا أيضًا يا سيدى .بودى أن أكون من هذين الصديقين .. إننى أحبهما: فيبدو أننا من طراز واحد ...

جعل روالد يحدق إلى سكرتيراته وإلى الأعضاء الجالسين إلى المائدة المستديرة وكأنما يود نصحًا .. ومرت الدقائق ، وتبادل الأعضاء الهمس ... وأخيرًا انبرى أحدهم قائلاً وقد كان فرنسيًا:

ـ سيدى الرئيس .. لدى فكرة .. نحن الفرنسيين من عادتنا أن نستثمر كل شىء حتى لو كان شيئًا لا يصلح للاستثمار ..يمكننا أن نستثمر هذه الرغبة لصالح البشرية ...إن الرغبة فى العزلة الدائمة : من الممكن استغلالها استغلالاً علميًا مفيدًا لنا جميعًا ، وأظنهم لا يبخلون علينا بتلك الفائدة بحكم آدميتهم .. أجل .. لقد كان السيد جمال باحثًا زراعيًا ، إذاً فهو متعلم مثقف .. يمكنه إذًا وبشىء يسير من التدريب أن يعيش داخل إحدى محطات الفضاء المستديمة ، وإننى أختار له منذ الآن محطة الفضاء الثابتة " القنامة ".. إن هذه المحطة الثابتة يمكن أن تستغل زراعيًا كما كانت فيما قبل هجرها وتركها معلقة فى الفضاء .. يمكن لهذه المحطة أن تصورَ لنا مناطق الأوبئة الزراعية والمساحات التى تتفشى فيها دودة ورق القطن ، كمايمكنها اكتشاف أسراب السمك الضخمة التى تسعى داخل تيارات المحيطات: فتحدد لنا مناطق صيدها، بوسعها أيضاً أن تسهم فى الكشف عن آبار البترول ويمكن لها أن تدلنا على الآثار الفرعونية المدفونة تحت الثرى... إنها خدمات تهم البشرية خاصة ونحن نعيد عمران الأرض ، وإننى أترك

لسيادة الرئيس القول بعد عرض فكرتى ...

وتلفت روالد حواليه ، ثم خاطب العم بقوله :

ـ والآن .. لقد سمعت الفكرة المعروضة ..ما قولك فيها أيها السيد المصرى النبيل؟؟

ـ حسنًا .. يا لها من فكرة !! أترانى ساعيش فى محطة دائمة تسبح فى العدم!! يا له من مستقر !!...إننى أتلهف على ذلك ... إننى أصبو إلى العدم منذ زمن طويل .. مرحبًا مرحبًا بالعدم ...

* * *

كان الهدوء والصمت والظلام والسكون يخيم على محطة الفضاء الثابتة " الفنامة " وهى تسبح فى آل الفضاء ، وكان يتمدد بداخلها فوق أسرة ثلاثة : العم جمال وعابد والأب وسيم ، مرتدين مناماتهم البيضاء : فى راحة تامة لا يكدرها ضوضاء أو جلبة ، وذلك بعد أن مرت عليهم أيام عشرة قاموا فيها بالإرشاد عن سرب هائل من ثعابين السمك بالمحيط الأطلنطى ، بالإضافة إلى تمكنهم من تصوير الجزيرة الجديدة التى تقع إلى جنوب استراليا والتى كانت قد برزت حديثًا خلال حركات قشرة الأرض البناءة ...

كانت الجاذبية مكفولة بداخل المحطة متوسطة الحجم ، بالإضافة إلى الضوء الأزرق المهدئ والأكسجين اللازم للحياة والذى كان ينطلق من قوارير طحلب الكلوريللا ..

وفجأة نهض العم جمال واقفًا وقفة فوجئ بها صديقاه ؛ فابتدره الأب وسيم؛ وقد جلس على سريره الفولاذى الذى يقبع فوقه بارومتر الضغط الجوى وصفارة التحذير من الشهب المارقة ...

ـ إلى أين يا صديقى !!!

فقال العم وهو يجذب حلة الفضاء التى تخصه من دولاب بجدار المحطة :

ـ إلى العدم ...

واستفسره عابد بوساله وسيم المزيد من الأسئلة ، ولكنهما لم يتلقيا أية إجابة، فلقد تركهما العم يوغلان فى الأسئلة ، بينما عمد هو إلى ارتداء حلة الفضاء الزرقاء ، وما إن تم له ذلك : حتى كدس كمية من الأطعمة السائلة المعلبة فى جعبة صغيرة من القماش الأبيض ، فصرخ فيه الأب وسيم :

ـ إلى أين أيها الحبيب !!

فرد العم وهو يفتح كوة زجاجية بجدار المحطة بعد أن ضغط زرًا أحمر عليه حرف D .

ـ إلى العدم ...

ولم يتمهل العم : بل سرعان ما تسلل خارجًا من كوة المحطة ، وفى لمح البصر كان يسبح فى الفضاء بلا حبل يربطه بمحطة القمامة ...

وصرخ وسيم فى البوق المقوى للترددات الصوتية من حول المحطة :

ـ أهكذا تتركنا أيها الصديق ؟؟ لقد صعدنا هنا من أجلك .. لقد شئنا أن نزاملك فى العزلة .. أهكذا تتخلى عنا أيهاالصديق بعد أن عشقناك وأحببناك !! إنك حبيبنا وكل من لنا ... لقد تركت بناتى من أجلك ... إننى أحبك أيها الصديق الحميم .. إننى أهيم بفكرك العبقرى ...

وسلط عابد ضوءا شديدًا من مصباح قوى يعمل بالبلازما : ليكشف عن موقع العم من محطة الفضاء : فألفاه يبتعد سابحًا فى الفضاء وقد أعطى لهم وجهه وكأنه يودعهما وهو يتقهقر مغطيًا وجهه بالقناع المطاطى الشفاف الذى يعلوه مصباح الكترونى صغير فى محاذاة قمة الرأس ... ولم يتمالك الأب وسيم وهو يشاهد صديقه يبتعد ؛ فلم يسعه حين ذلك وقد جاش وجدانه باللوعة ..لم يسعه إلا أن يختلع كل أعضائه الصناعية من جسده ليلقى بها عضوا عضوًا من خلال الكوة الصغيرة ، هاتفًا وقد انهمر دمعه سيلا ليسبح فى الفضاء :

ـ ما دام الأمر كذلك ، وما دمت تود فراقنا على ذلك النحو القاتل ، فإننى أتخلى عن كل صفاتى الوراثية الحميدة التى كنت أورثها .هذه هى كفى : تودعك .. هذه هى عينى ترنو إليك ..هذه هى أسنانى تهتف باسمك فى كبد العدم... ها هى أذنى تسمع صوتك الحبيب ...

كان العم فى ذلك الوقت قد ابتعد عن محطة الفضاء بعدًا كافيًا ، ولكنه وبينما يسبح على بطنه فى العدم : سلط ضوء المصباح فجأة إلى الأمام بعد أن ضغط زرًا علويًا ، فراعه أن يشاهد الكف والأذن والعين والأسنان : تسبح فى الفضاء وقد انعدم وزنها تمامًا مثله ، مقتربة منه فى بطء شديد ، وعند ذلك لم يتمالك أن يصرخ لتتلاشى وتموت صرخاته بمجرد اندلاعها من فمه : فليس للصوت أن ينتقل فى وسط لا يعرف الصوت أو التموجات :

ـ الكف ذات الأصابع ورائى ورائى !! ابتعدى ..ابتعدى عنى أيتها الكف الآدمية الخسيسة ..طالما سرقت منى مالى وذهبى .طالما ضربتينى وقرعتينى وسحقتينى بين أصابعك .كم أنذرتينى وهددتينى وتوعدتينى وأمسكتينى من تلابيبى وانهلت على قفاى! ابتعدى

عنى فتحن فى العدم ...

وانحرف بوجهه قليلاً: فشاهد الأذن سابحة تسعى إليه : فجعل يهتف دون أن يسمع له صوت :

ـ والأذن أيضًا تحوم حولى !!.. ألا فلتقرنقعى أيتها الرعديدة المتنصتة ... إليك عنى أيتها المسترقة للسمع .. لكم تلصصت وتسمعت على ، ولكم أحاقت بىّ من كوارث ولعنات ومصائب جراء ذاك التنصت والتسمع المسترق... ابتعدى عنى فليس للآذان أن تتسمع هنا ...

وحدق إلى جانب آخر فألفى العين الخضراء تتجه صوبه ، فعاد يجمر فى فضاء قوامه العدم الذى لا يفنى :

ـ تبًا لك أيتها العين ..العين ورائى ورائى !!... يا أم الحسد والنقمة : كفانى منك ما كفانى ، لماذا تسبحين من خلفى الآن !!.. ليست معى خمسة وخميسة هنا حتى أدفع بها عنى شرك المستطير ...لا بخور ولا زعتر ولا فاسوخ يمكن لى أن أشعلها هنا لتتصاعد رائحتها لتبعدك عنى .لم أصعد إلى الفضاء ومعى مزيد من الأحجبة يمكنها أن تذود عنى .من شر حاسد إذا حسد .. من شر حاسد إذا حسد .. من شر حاسد إذا حسد .. أيتها العين الحاسدة : ألم تتمنى زوال نعمتى كلما كتبت قصة !! ألم تتمنى زوال نعمتى كلما زاولت رياضة كمال الأجسام !! ألم تتمنى زوال نعمتى كلما نبغت فى علم أو بحث !! ألم تتمنى زوال نعمتى كلما أتقنت عملاً !! ..ألم تتمنى زوال نعمتى كلما خطبت فتاة جميلة !!...ألم تتمنى زوال نعمتى كلما أكلت أكلة طيبة !! ألم تتمنى زوال نعمتى كلما لبست هندامًا لائقًا !! ..إذاً : فلتذهبى عنى يا أم الحسد ويا ربة الخبث ... ابتعدى ولا تقبلى فكفانى من شرك ما كفانى ...

وما كاد العم ينتهى من نقمته على العين : حتى شاهد الأسنان تسعى إليه وقد كشرت عن أنيابها ؛ فشهق وزفر داخل جهاز التنفس ، وهتف وقد جحظت عيناه خلف قناعه :

ـ هه .. ماذا وراءك أنت الأخرى أيتها الأسنان الشرهة !! قلت لك ابتعدى عنى أنت الأخرى .قلت لك ذلك!!... أكلت مالى وشربت حياتى والتهمت شبابى ... لم تبقى لىّ على شىء أيتها الأسنان الملعونة ...اشتركت مع اللسان فى القول ، ولكم صحت ضدى فى الطريق قائلة وبكل رعونة وصفاقة : اسمع يا ..يا بغل الحمل .يا ثور .يا.. يا.. ألم تشهدى ضدى لدى الرؤساء بأقوال كاذبة قاتلة !! ألم تخدعينى بكلامك المعسول الذى لا ينطوى إلا على الخداع والحقد والكراهية !!... لماذا تقبلين علىّ الآن !!..اللعنة عليك..

راح العم يسبح ويسبح ويسبح فى الفضاء المترامى فى ظلام دامس ما أحلكه؛ وعندما اطمأن إلى ذهاب الأعضاء الآدمية : جعل يحلق حوله فى الظلام دون أن يعمد إلى إضاءة المصباح ، وخلال ذلك جعل يهتف ويقهقه فلا يكاد يسمعه حتى الشياطين :

ـ ها ها ..ها ها ... هنا ..هنا .. طليق حر أبى.. طليق حر أبى غير مستعبد أو مغبون أو مضطهد أو مذل أو مهان ...أطير وأغوص وأحلق كيفما أريد ... إننى شىء مادى ملفوظ إلى العدم! هاها...إننى لا أحس بعمق المكان ... وافرحتاه .. فضاء لا نهائى ..هاها ..يا لغبطتى وسرورى .لقد تركت الوجود بما فيه ... هنا العدم الذى تحدث عنه الإمبراطور ...إننى أركب فوق ناصية العدم .إن العدم شىء لا يفنى ولكنه يتبلور إلى مادة ...

وصمت العم قليلاً متفكرًا ثم عاد يسأل وقد سبح فى مهامه الفكر وسراديبه الخفية :

العم جمال ـ صديقى العدم ...إنك صديقى الجديد ....إننى أحبك ...لا بد من صداقة وارفة الظلال بينى وبينك .شعارها السلام والمحبة ..ولكننى أسألك أيها العدم .هل أنت مضياف ؟؟

العدم ـ ....

العم جمال ـ أوه .. أوه .. يا لىَّ من غبى أحمق !! .ويالك من نابغة .. إن صمتك يعنى أنك بالطبع مضياف ؛ وإلا لما أبقيت على حياتى حتى تلك اللحظات ... معذرة أيها الصديق ...لا تؤاخذنى ..مم تتكون أيها العدم !!

العدم ـ ....

العم جمال ـ أوه !!... يالغبائى المطبق على يافوخى الرعديد ..صمتك الساخر يعنى أنك تتكون من لا شىء ، ومع ذلك فإنك تحتل مكانًا راسخًا رسوخ الأبد .معذرة .هل يمكن للعدم أن يتكثف إلى مادة !!!

العدم ـ ....

العم جمال ـ تبًا لى ولأسئلتى الحمقاء الرعديدة ... هكذا تغلب صمتك الفاهم على كلامى المغفل ...إن صمتك يعنى أيضا أنك عدم وتحتل مكانًا راسخًا فوق صدر الأبدية؛ ومعنى ذلك أنه لو تكثفت أجزاء من ذلك المكان الذى تحتله ثم انحسرت أنت من هذه الأجزاء لتكونت المادة ...ولكن لماذا هذا الصمت المطبق والظلام المخيم أيها العدم !!

العدم ـ ....

العم جمال ـ سحقًا سحقًا سحقًا لغبائى .. تبا لى من أحمق يطرح أسئلة لا تحتاج إلى شرح .. بصمتك ترد علىّ قائلا : إن الصوت والضوء وما شابه : إن هى إلا حماقات وسذاجات لا قيمة لها بل لا بقاء لها مطلقًا ... إنها نفايات على شاطئ العدم ... معذرة أيها الفيلسوف ... سوف لا أنغصك بأسئلتى المتطفلة المتجسسة .. هأنذا أحلق وأسبح فيك أيها العدم الصديق ...لسوف أموت بعد وقت طال أو قصر ، ومن بعد موتى سوف لا يبلى جسدى ، كيف يبلى وقد انعدمت الميكروبات هنا ..لا توجد هنا حياة تتطفل على حياة شأن ما يحدث فوق الكواكب ... لوأن القدماء المصريين قد اكتشفوا طريقتى فى التحنيط : لسعوا إلى نقل جثثهم كما هى إلى هذا العدم .سأسبح وأسبح إلى أن أموت ولسوف يظل جسدى هنا جميلاً رشيقًا ... إننى أغوص ... أحلق .هاها ...لاعمق للمكان ... لا عمق للمكان ..لا عمق للمكان .

* * *

نقول ...

استطاعت مناطيد زيلن النووية التشغيل أن تنقل الرجال والنساء إلى بلادهم وقراهم فى سهولة ويسر وراحة.. وهبطت غادة مع الهابطين إلى واحة سيوة؛ ولم تتكبد أكثر من كيلومترين من موضع الهبوط حتى تصل إلى بلدة الأغورمى ...

جلست غادة تستريح بجوار البيت الطينى المتهدم البعيد عن المقابر والذى تظله شجرة الأقاقيا المكشرة عن أشواكها ، وقد كان الوقت أصيلاً ...

ونهضت من جلستها ونفضت بنطلونها وحملت جعبة حاجياتها الفضائية، وطفقت تسير متطلعة إلى كل شىء ...

واقتربت غادة من المقابر المهجورة ؛ فشم رائحتها الملك صافى من بعيد فأسرع إليها ؛ وما إن دنا منها : حتى جعل يتقافز على فخذيها وساقيها لاثمًا مقبلاً لها فى فرحة وحبور .واكتفت غادة بالجلوس فوق قبر من المقابر لتداعب فراءه ؛ ولكنها تمتمت وهى تنهض لتستأنف السير بين القبور :

ـ لقد صرت عجوزًا تمامًا يا صافى..لقد صرت شيخًا .. إن ساقيك ترتعدان ..لقد برزت عظام وجنتيك وأطلت ضلوعك من أسفل فرائك ...

وتقافز الملك صافى العجوز من خلفها وقد شعر بتخلفه عن الصبا والشباب ...

دنت غادة من باب الكوخ ، فألفته موصدًا ؛ فلم تشأ أن تطرقه ؛ بل اتجهت نحو ثقب تعرفه جيدًا ؛ وراحت تبحلق ؛ فشاهدت عجبًا !!! شاهدت بهاء ممددًا وبجواره حنين وقد

ارتدت ثوبًا من ثيابها الحمراء ؛ وفى حضنها شاهدت طفلاً جميلا ذكرًا راقدًا فى رحاب من دفء الأمومة ...

وطرقت غادة على الباب : فانبعث بهاء ناهضًا من الفور ؛ وأسرع ليفتح : وما كاد يرى غادة حتى أسرع إليها كيما يعانقها هاتفًا هتافًا مدويًا يصم الآذان وهو ينشج بالبكاء :

ـ غادة ..غادة ...غادة ...غادة ...غادة ...!!!!

ونهضت حنين فى تثاقل وبين ذراعيها ابنها جمال لتستقبل غادة : ولكن هيهات لأحد ذلك ...هيهات هيهات هيهات ....

أجل ـ قارئ الكريم ـ فلم تسلم غادة على أيهما أو تحدثه ، بل اكتفت بنظراتها المبهمة التى سددتها إلى كل من حنين وبهاء ذلك الذى كان يحدق بشدة إلى كلمة PEACE أو السلام المخطوطة فوق صدر الفتاة العائدة ....

جعلت غادة تسدد نظراتها المبهمة دون أن تطرف لها عين أو تتحدر لها دمعة ؛ ولم تلبث على تلك الحال طويلاً ؛ بل لقد تركت جعبتها على الأرض أمام الكوخ ، وأقبلت نحو الجرة الموضوعة أمام الباب فى وضع مائل وفوقها " حواية " ورشفت من مائها ، ويممت شطر قبر أمها ، وطفقت تحدق إلى وجهها فى المرآة متمتمة وهى تقبل القبر:

– ذهب كل شىء يا أماه ..ذهب كل شىء ...لا تحزنى .لقد أتيت إليك من المريخ؛ يا أماه... أتيت إلى بهاء .لقد أفلحت أخيرًا فى جمع المهر من أجل حبيبى ...لماذا أراك حزينة!! لقد تزوجت بهاء يا أماه ..لقد تزوجت حبيبى ... كنت أخاف من أن يكون حبه لى هو حب الأخوة .هذا كل ما كان فى الأمر ..كنت أخاف أن يشعر نحوى بشعور الأخوة وليس بشعور الذكر للأنثى..كما خشيت فى الماضى أن تتفجر الأرض بنا يا أماه.... ألا تصدقين أننى قد تزوجته !! ..لا بأس ..سوف أثبت لك ما أقول حتى تتبينى تمامًا أننى قد تزوجته لأنى أحبه وأعشقه وأهيم به وأعبده ولا أطيق الحياة بدونه يا أماه ..سوف أثبت لك ذلك حتى تقرى عينا ... انتظرى .. انتظرى قليلاً...

وأسرعت غادة تهيم بين المقابر ، وما إن دنت من قبر متطرف : حتى جعلت تحفر رماله الوسطية ، ولم تلبث أن استخرجت الطفل الحجرى جمال الذى كان قد سرقته فى يوم ما من حنين والذى كان قد صنعه آمون ...

حملت غادة الطفل الحجرى جمال فى رفق وحنو وضمته إلى صدرها ، ثم راحت تسير به بين الممرات الرملية الضيقة ...

دنت غادة من قبر أمها فجلست أمامه ووضعت طفلها فوق حجرها، وجعلت تتمتم:

– ما رأيك يا أماه !! هذا هو الإثبات والدليل يا أمى .. إنه طفل جميل يا أمى أنجبته من حبيبى بهاء الذى تربى معى ..لابد أن يصير مثل جده جمال ..لابد من ذلك. لسوف يعولنى بعد أن أصير امرأة عجوزا أتوكأ على عكاز ، ولسوف يدفننى بيديه الجميلتين عندما أموت، وسيعلق فوق قبرى مرآة لتصير عينًا لىَّ أتطلع بها على الوجود كما فعلت معك تمامًا يا أماه .. أوه ... ولكن جمال كثير البكاء ..لا بأس ... سوف أرضعه الآن حتى يكف عن الصراخ والبكاء ...

وأخرجت غادة ثديها وقربته من فم الطفل الذى خيل إليها بالفعل أنه يرضع: فطفقت تقبله ...

***

جنت غادة ...

شاهدها الناس يومًا بعد يوم وهى ترتاد الأسواق والطرق والحدائق والمتنزهات والمستشفيات ، وكانت كثيرًا ما تجلس بالقرب من الأسوار وجدران المنازل ومحطات الأوتوبيس ومركز البوليس ومطحن الغلال بجوار الحمير المربوطة ، مرضعة ولدها جمال حتى يشبع وهى تترنم وتنشد :

شوف الندى لما يلألأ ... فوق الأغصان

شوف الصباح لما يشقشق ... يصحا النعسان

من بدرى بيقوم من نومه

يلاقى وردة بتتمايل ... فوق الشجرة

يلاقى غادة ومين طايل ... أجمل شقرة

ودغرى يغرق فى غرامه

وما تكاد تنتهى من إرضاعه حتى تذهب به إلى مستشفى المبرة للكشف على صدره : محدثة الطبيبة فى أمره ...

كانت تعود قبل أن يجن الليل إلى كوخها الذى أقامه لها بهاء بالقرب من كوخ السيدة غزالة ...

لم تخلع غادة عن جسدها حلة الفضاء الحريرية الزرقاء المحبوكة على جسدها - إلا قليلاً - ولقد كانت شديدة الإعجاب أيضا بحذائها الطويل الأزرق الذى لا يمكن له أن يبلى أو يتهتك

، وفوق هذا وذاك فلقد كانت شديدة الإعجاب باللغة الإنجليزية التى حذقت التحدث بها لدرجة استخدام الاصطلاحات الصعبة الفلسفية .. وذلك رغم أنها لم تكن تستطيع أن تكتب حرفًا واحدًا منها ...

كانت تحدث ابنها جمال الحجرى بالإنجليزية مداعبة وجنتيه وهى ترضعه أسفل نخلتها رشيدة الرشيدة :

ـ إنك وسيم جدًا YOU ARE HANDSOME .. لابد أن تتغلب على ابن حنين BESTRONG فلتكن قويا ... سوف أرضعك كثيرا إلى أن تكبر وتترعرع وتهزم ابن حنين...

كل قطرة من ثديى سوف أرضعها لك.. سوف لا ادع قطرة إلا وأرضعتها لك.. سأصنع مع على وأنت حر بعد ذلك يجب أن تقهر ابن حنين.

اغلقت غادة الدنيا على نفسها وعلى ولدها الحبيب ، فما عادت تتحدث إلى أحد، أو تسمح لأحد بذلك ....

حاول بهاء أن يدخل إلى ملكوتها فلم يستطع رغم كل المحاولات التى بذلها ...

حاولت حنين أن تتقرب إليها ولكنها أخفقت وفشلت تمامًا، وقد أمضها ضعف غادة وتدهور صحتها واعتلالها يومًا بعد يوم ...

حزنت عليها السيدة غزالة التى لم تشأ أن تصرح لابنها أنها أمه طالما أن الأب لم يشأ ذلك، وكثيرًا ما أغدقت على غادة بكل أنواع العطف والحنو: حتى أنها غالبًا ما كانت تجود بدموعها وهى ترقبها بين القبور ، ولكنها فازت بلا شىء ...

ولجأ بهاء فى يوم ما إلى التقرب إليها : فتفرت منه ، وعندما حاول اغتصاب ابنها الحجرى منها : جعلت تصرخ وتولول وتجذب شعرها فى عنف بطريقة جنونية تبعث على القشعريرة ...

ولما يئس الجميع منها تركوها تفعل ما تشاء ، تنام وقت أن تنام وتأكل وقت أن تأكل وتذهب وقت أن تذهب ....

كان يطيب لغادة كثيرًا أن ترتقى نخلتها رشيدة الرشيدة لتتطلع إلى البعيد وقد وضعت طفلها فوق طبق البلح الخوصى ، وكثيرا ما كانت تهتف من عليائها:

– إن بهاء مقبل يا صافى .. إنه مقبل ... وافرحتاه .. وافرحتا ه ..

وكثيرا ما كانت تغرق فى الضحك حتى تستلقى على قفاها وهى تردد :

– اللعنة على لحيتك يا تشارلى .. آلاف اللعنات تتساقط بالمظلات على لحيتك يا تشارلى .. مليون ألف لعنة على لحيتك يا تشارلى ...

***

ومرت أيام وأيام متجمعة فى شهور ...

وفى مساء ذات يوم من أيام الشتاء قارس البرد: خرجت غادة من كوخها بطفلها ، وجعلت تحدق إلى النخيل متماوج السعف عله يجود بنصيحة ، ثم راحت تحدق إلى باب الكوخ الذى تنام فيه حنين مع زوجها بهاء ...

وفى غفلة من نفسها : تقدمت ناحية الباب فى خفة وهدوء ، وراحت تحدق من الثقب الذى كانت تعرف طريقه جيدًا : فشاهدت بهاء وهو يحتضن حنين التى طوقته بذراعيها البضتين وقد رقد طفلها من خلفها ...وهنا تمتمت فى حزن وألم :

ـ حسنا ... أهكذا يكون الأمر إذاً !!! لا بأس ... كل له بهاؤه ...

وسارت غادة وقد لفها الظلام ...

وفى هدوء وسكينة : اقتربت من تمثالها وتمثال بهاء ، وراحت تحدق إلى تمثال الفتى الواقف فى قنوط فى زيه المدرسى ...

ولما كان صفير وصرير صراصير الحقل السوداء صاخبًا: فإنه لم يتسن لأحد أن يسمع طرقات لها رنين: سرعان ما طواها سكون الليل، وكأن شيئًا لم يكن ...

وفى الصباح : استيقظت السيدة غزالة وبهاء وحنين ، وبينما هم يتجولون بين المقابر المهجورة فى اتجاه حظيرة الماشية والأغنام : شاهدوا مشهدًا أطار لبهم لدرجة أنهم جميعًا قد تساقطوا مغشيًا عليهم ...

اجل ...

لقد شاهدوا غادة عارية تمامًا مفارقة الحياة وقد احتضنت تمثال بهاء الذى أزالته من مكانه لترقد بجواره على الرمال محتضنة له وطفلها من خلفها ...

لقد كان فم الفتاة فوق فم حبيبها ، وذراعها فوق ذراعه ، وبطنها فوق بطنه ، وفخذها فوق فخذه ، وساقها فوق ساقه ، حتى أن شعرها المسترسل الذهبى كان يحيط برأسه تماما وكأنما تدفئه من الزمهرير كما لو كان متسولاً لائذاً بشعرها الدافئ الحبيب....

***

وطار الخبر إلى كل أهالى بلدة الأغورمى ، فتوافدوا إلى المقابر المهجورة زرافات زرافات ، فبكت النسوة وانتحب الرجال وصرخ الأطفال حزنًا على غادة ....

* * *

دفنت غادة فى نفس أرض المقابر من خلف تمثال الفتاة التى صارت تبيع البلح بمفردها وعلى رأسها مرجون ومن خلفها تمثال الكلب صافى الشجاع ...

بكى الناس جميعًا، ولكن دموعهم لم تفرغ ، فعادوا يزرفونها مدرارًا من جديد بعد أن ألموا بقصة الفتاة وعلموا أنها كانت تبيع البلح من أجل جمع مهر الزواج ببهاء وقد أصر على ذلك العم المتشدد ....

آه ...ثم ماذا حدث !!!

لقد توافد الناس فرادى وجماعات إلى حيث يقف تمثال غادة بين النخيل الشارد الطول ، وراحوا يغدقون بنقودهم الذهبية والفضية والبرونزية على غادة: ناثرين تلك العملات فى مرجونها الحجرى الذى تحمله فوق رأسها ....

وامتلأ المرجون عن آخره ، ومع ذلك ثابر الناس على نثر النقود عند قدمى غادة..

ومرت الأيام و الشهور لتضيف مزيدا ومزيدا من تلك النقود التى كان يجود بها أهالى الأغورمى ... وتهامس الناس بالقصة فيما بينهم ؛ فانتشرت إلى بعض الجهات المجاورة مثل واحة سيوة وواحة الجارة .فتوافد الناس من كل فج وكل درب يغدقون بالنقود على غادة ....

وطار الخبر إلى أهالى مرسى مطروح ، فتوافد الميسورون منهم وغير الميسورين إلى واحة الأغورمى ليشاهدوا تلك النقود التى غمرت التمثال بأكمله ، فلم يكد يبدو منه غير كتفيه ، فصدق الناس القصة ، وشهدوا على المعجزة ، مما حداهم إلى نثر المزيد من النقود فوق تمثال غادة المقابر ...وكان أعجب ما فى الأمر أنه ما من أحد كان يجرؤ ليلاً أو نهارًا على أن يستولى ولو على قرش واحد ...وفى نهاية كل ليلة كان يقبع صافى العجوز الأغمش بداخل حفرة مقبرة أم غادة ، وذلك بعد أن رحل أولاده عنه إلى بقاع أخرى ، وكان يرسل نباحه الواهن من خلال وكره :

– نحن ...نحن ...هنا ...من ...من ...من هناك !! أيها المعتدى الكريم ..لقد صرت عجوزًا ...لكم خضت من معارك ضد الذئاب أيها المعتدى الكريم ... وإن خير شاهد على ذلك هى هياكل الذئاب المعلقة فوق النخيل ...من ... من ...من هناك !! بربك لا تعتدى أيها المعتدى الكريم .. النقود غزيرة وتغمر تمثال غادة ، وإننى أحرسها ...عليك

أن تتصنع من أجلى أنك قد خفت منى أيها المعتدى الكريم ..سأنبح وما عليك إلا أن تذهب عن المقابر وكأنك قد خفت منى ..إنها لقمة عيشى أيها المعتدى الكريم ..نحن هنا.. ن..ن..ن..نحن هنا ..م ..م ..م...من هناك !! هنا صافى الشجاع سابقًا ... هنا ..هنا .... صافى ...من ... من .... من ... من هناك !!!

***

ومرت الأيام ، وطار الخبر إلى رئيس حكومة مصر بعد أن نشرته كبرى الصحف وهى صحيفة (الأمة) تحت عنوان عريض :

" معجزة مبهمة ...آلاف مؤلفة من الجنيهات تغطى تمثالاً بالصحراء ولا يجرؤ أحد على الاستيلاء عليها "

فتعجب الرئيس من تلك البلدة الوفية القابعة خلف الجبال وبين الصحارى ، وأدهشه ألا يقدم أحد من بلدة الأغورمى على سرقة تلك الأموال الطائلة التى تجمعت فوق تمثال غادة ...

وفى أحد الأيام استقل طائرة هليوكوبتر مع الوزراء والنواب ، وحلقوا إلى بلدة الأغورمى وقد سبقتهم إلى هناك أعداد هائلة من العربات تقل من الصحفيين والصحفيات ورجالات الشرطة والمشرفين الاجتماعيين والعديد من المواطنين من مختلف بلدان مصر والذين كان من بينهم العديد من الأجانب ، وكانت بين هؤلاء وهؤلاء : ابنة الأغورمى المحامية " نوال وسيم " ....

وما إن حط ركب رئيس الحكومة المصرية "فائز المصرى" عند المقابر المهجورة: حتى تقدم مع صحبه تحت حراسة مشددة من التمثال الذائع الصيت : فهالته أكداس النقود التى تغطيه حتى العنق ، وتبادل الهمسات مع وزرائه ونوابه، والنواب، وكانت نتيجة هذا التشاور : أن قرر رئيس الحكومة الاستيلاء على النقود وذلك لصالح تنمية تلك البلدة القابعة فى الصحراء ، ولإنشاء بعض مصانع البلح والعجوة ومعاصر الزيتون...

وعندما سرى الخبر بين الناس المتجمهرين : هاجوا وماجوا وضجوا وأعلنوا عن سخطهم ، فصرخ الأطفال وهتف الرجال وناحت النسوة الريفيات ، فتحرج موقف الرئيس ، ولكنه بوغت بطوفان الناس من حول المكان ينفرج : فإذا بمنصة مرتفعة عليها غطاء أخضر فوق قاعدة خشبية عريضة ، وفوق هذه القاعدة وأمام تلك المنصة الخضراء الكساء : وقفت المحامية نوال وسيم ابنة الأغورمى وقد ارتدت وشاح المحاماة الذى يحمل علم مصر ....

انبهر رئيس الحكومة لهذا الموقف ، ولكنه لم يسعه هو وصحبه الواقفين على الرمال : إلا أن يستمعوا إلى المحامية الشابة حديثة التخرج وهى تلقى كلمة بلدها مدافعة عنهم فى حماس أسطورى :

ـ سيدى الرئيس ...لا يسعنى إلا أن أقدم نفسى لفخامتكم ...

أنا نوال وسيم على : فتاة الأغورمى وابنة وسيم على الذى فقد أهم أعضاء جسده فى حادثة الورش الميكانيكية بشركة أحمس للصناعات الثقيلة ...لقد تخرجت فى الجامعة بعد أن كافح أبى كيما يكفل لىَّ المال اللازم لتعليمى ، إنه لما يشرفنى أن أدافع عن رغبتهم الأكيدة فى ترك النقود كما هى ...

سيدى الرئيس ... إن تلك النقود هى ثمرة من ثمار دموع البلدة حزنًا على فتاة يعرف الجميع قصتها ... لقد ماتت عاشقه .. إنها قضية لىَّ الفخر أن أترافع فيها ...

اتركوا النقود فهى دمعة الباكى ...لقد عاهد كل فرد فى البلدة نفسه على ألا يمس تلك النقود مهمًا كان فقيرًا معوزًا معدمًا ... إن الجميع هنا يؤكدون لىَّ أن الفقراء كانوا أول المتبرعين والواهبين للمال.. اتركوا تلك النقود تدثر التمثال فهى بمثابة البلسم الشافى الذى سيشفى الناس من جملة أمراض ...داء حب المال ...داء الجشع ... داء السرقة. داء الغش..دع كل تلك الأموال يا سيدى الرئيس فهى خير معلم ..إن منظرها هكذا سوف يعلم الناس كيف ينظرون إلى المال دائمًا نظرة ترفع ...سيعلمهم أن المال إن هو إلا وسيلة للعيش وليس هدفًا للاكتناز او ماريًا يسطى عليه... دع المال يا سيدى الرئيس فإن وجوده هنا لأفضل من بناء المصانع ..أن تغرس فى نفوس الناس قيمًا جليلة لخير من استثمار أموالهم فى المجالات الاقتصادية المربحة ..دع المال يدثر التمثال فى برد الشتاء ، ويدثر النفوس ببلدتنا برداء من الطمأنينة والقناعة : وعلى ذلك فلسوف يحب الأخ أخاه ، وسيسعى كل فرد إلى نبذ ما بنفسه من شرور .دعها يا سيدى فإنها رمز الوفاء والإخاء والمحبة والسلام ....

وصفقت الجموع والجموع للمحامية الحسناء ذات العينين الخضراوين ، وزغردت النسوة وهلل الرجال وغردت الحناجر ودقت الطبول والدفوف ، والأمر كذلك فلم يسع الرئيس إلا أن يتقدم من المنصة ليسلم على المحاميه أمام الجموع، وأخرج من جيبه وسامًا يخصه فعلقه على صدرها ... لقد كان وساما مناسبا حقا ... إنه وسام الكمال....

وانفضت الجموع وانطلقت العربات وارتفعت الطائرات وحلقت بعيدًا بعيدًا، وعلى ذلك : فإنه لم يكن بوسع أحد حتى رئيس الحكومة نفسه أن يستولى على الأموال الطائلة التى تغطى التمثال :

كيف لا ، كيف لا ، كيف لا ، كيف لا : وهى نقود غادة ،،،،،

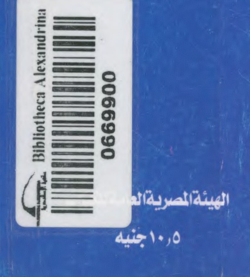
«تمـت »

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg



فى عام ٣٠٠٠م تتنبأ العقول الإلكترونية بقيادة العقل الإمبراطور : بانفجار الكرة الأرضية بسبب اضطرابات داخلية ؛ والرواية تعايش الاثنى عشر شهراً المتبقية للبشر على وجه الأرض حيث يكون من المحتم لملمة عتاد الشعوب وتراثهم كيما يتم التهجير إلى كوكبين آخرين خارج نطاق مجموعتنا الشمسية ؛ كل ذلك من خلال قصة حب جد غريبة ،،،



الهيئة المصرية العامة ...
١٠,٥ جنيه

